التفسير الكبير

للإمام العلامة تقي الدين
ابن تيمية
ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨هـ
رحمه الله تعالى

الجزء الخامس

تحقيق وتعليق
الدكتور
عبد الرحمن عميرة
عضو اللجنة العلمية الدائمة
بجامعة الأزهر

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت . لبنان

الجزء الخامس

سورة هود
فصل

وقال :

وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [١] وهذا يعم جميع من هو على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، فالبينة العلم النافع ، والشاهد الذي يتلوه العمل الصالح ، وذلك يتناول الرسول ومن اتبعه إلى يوم القيامة ، فإن الرسول على بينة من ربه ومتبعيه على بينة من ربه . وقال في حق الرسول : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ [٢] وقال في حق المؤمنين : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [٣] فذكر هذا بعد أن ذكر الصنفين في أول السورة فقال : ﴿ الَّذِينَ

---

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة محمد آية رقم ١٤ .

في معنى هذه الآيات أنشد مصعب بن عبد الله بن الزبير لنفسه وكان شاعراً محسناً رضي الله عنه :

أأقعد بعدما رجفت عظامي … وكان الموت أقرب ما يليني
أجادل كل معترض خصيم … وأجعل دينه غرضاً لديني
فأترك ما علمت لرأي غيري … وليس الرأي كالعلم اليقين
وما أنا والخصومة وهي شيء … يصرف في الشمال وفي اليمين
وقد سنت لنا سنن قوام … يلحن بكل فج أو وجين =

كَفرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ الله أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ـ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ـ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا البَاطِلَ وَأَنَّ الذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ الآيات إلى قوله :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (١)

وقال أبو الدرداء (٢) : لا تهلك أمة حتى يتبعوا أهواءهم ويتركوا ما جاءت به أنبياؤ هم من البينات والهدى ، وقال تعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (٣) فمن اتبعه يدعو إلى الله على بصيرة ، والبصيرة هي البينة ،وقال : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ (٤) الآية . فالنور الذي يمشي به في الناس هو البينة والبصيرة وقال ﴿ الله نُورُ السَّمَوَاتِ

= وكان الحق ليس به خفاء أغرَّ كغرة الفلق المبين
وما عوض لنا منهاج جهم بمنهاج ابن آمنة الأمين
فأما ما علمت فقد كفاني وأما ما جهلت فجنبوني

(١) سورة محمد آية رقم ١٤ .

(٢) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي أبو الدرداء صحابي من الحكماء الفرسان القضاة ، كان قبل البعثة تاجراً في المدينة ثم انقطع للعبادة ، ولما ظهر الاسلام اشتهر بالشجاعة والنسك وفي الحديث « عويمر حكيم أمتي » ، « ونعم الفارس عويمر » « وولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب ـ وهو أول قاض بها قال ابن الجزري كان من العلماء الحكماء ـ وهو أحد الذين جمعوا القرآن ، حفظاً على عهد النبي ـ ﷺ ـ بلا خلاف ـ مات بالشام عام ٣٢ هـ وروى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثاً .

راجع الاصابة ت ٦١١٩ والاستيعاب بهامشها ٣ : ١٥ وحلية الأولياء ١ : ٣٠٨ والتاج ٢ : ٣٤٦ وغاية النهاية ١ : ٦٠٦ وفيه هو عويمر بن زيد أو ابن عبد الله أو ابن ثعلبة أو ابن عامر ابن غنم » وصفة الصفوة ١ : ٢٥٧

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢ .

والأَرْضِ ﴾ [1] الآية .

قال أبي بن كعب[2] وغيره : هـو مثل نـور المؤمن وهو نـوره الذي في قلب عبده المؤمن الناشىء عن العلم النافع والعمل الصالـح ، وذلك بينـة من ربه . وقال : **﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾** [3] ، وهو الهدى المذكور في قوله : **﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ ﴾** [4] واستعمـل في هذا حرف الاستعلاء لأن القلب لا يستقر ولا يثبت إلا إذا كان عالمـاً موقنـاً بـالحق . فيكون العلم والإيمـان صبغة لـه ينصبغ بهـا كما قـال : **﴿ صِبْغَةَ الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله صِبْغَةً ؟! ﴾** [5] ويصير مكانة لـه ، كما قـال : **﴿ قُلْ : يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾** [6] والمكان والمكـانة قد يراد به ما يستقـر الشيء عليه وإن لم يكن محيـطاً به كـالسقف مثلاً ، وقـد يراد به ما يحيط به .

فالمهتدون لما كانوا على هدى من ربهم ونور وبينة وبصيرة صار مكـانة لهم استقـروا عليهـا ، وقـد تحيط بهم ، بخـلاف الـذين قـال فيهم : **﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَـابَهُ خَيْـرٌ اطْمَأَنَّ بِـهِ وَإِنْ أَصَابَتْـهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ﴾** [7] فإن هذا ليس ثابتاً مستقراً مـطمئناً ، بـل هو كـالواقف على حرف الوادي وهـو جانبـه ، فقد يـطمئن إذا أصابـه خير وقـد ينقلب على

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٢) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد من بني النجار توفي عام ٢١ هـ
راجع ترجمة له في طبقات ابن سعد ٣ القسم الثاني ٥٩ وغاية النهايـة ١ : ٣١ وصفة الصفـوة ١ : ١٨٨ وحلية ١ : ٢٥٠ والجمع ٣٩ وفيه وفاته سنة ٢٢ هـ والكواكب الدرية ١ : ٤٥

(٣) سورة الزمر آية رقم ٢٢ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٣٨ .

(٦) سورة الأنعام آية رقم ١٣٥ .

(٧) سورة الحج آية رقم ١١ .

وجهه ساقطاً في الوادي .

وكذلك فرق بين من أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان وبين ﴿ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ (١) وكذلك الذين كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم منها ، وشواهد هذا كثير .

فقد تبين أن الرسول ومن اتبعه على بينة من ربهم وبصيرة وهدى ونور ، وهو الإيمان الذي في قلوبهم ، والعلم والعمل الصالح ، ثم قال : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (٢) وَالضمير في ﴿ منه ﴾ عائد إلى الله تعالى ، أي : ويتلو هذا الذي هو على بينة من ربه شاهد من الله ، والشاهد من الله كما أن البينة التي هو عليها المذكورة من الله أيضاً .

وأما قول من قال : « الشاهد » من نفس المذكور وفسره بلسانه ، أو بعلي بن أبي طالب (٣) ، فهذا ضعيف ، لأن كون شاهد الإنسان منه لا يقتضي أن يكون الشاهد صادقاً ، فإنه مثل شهادة الإنسان لنفسه ؛ بخلاف ما إذا كان الشاهد من الله ، فإن الله يكون هو الشاهد ، وهذا كما قيل في قوله : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (٤) إنه علي فهذا ضعيف لأن شهادة قريب له قد اتبعه على دينه ولم يهتد إلا به لا تكون برهاناً للصدق ولا حجة على الكفر ، بخلاف شهادة من عنده علم الكتاب الأول فإن هؤلاء شهادتهم برهان ورحمة ، كما قال في هذه السورة : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي اسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ (٦)

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٩ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٣) قال محمد بن علي بن الحنفية : قلت لأبي أنت الشاهد . .؟ فقال وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله ـ ﷺ ـ

(٤) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٥) سورة الأحقاف آية رقم ١٢ .

(٦) سورة الأحقاف آية رقم ١٠ .

وقال : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (١) الآية ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (٢) وهذا الشاهد من الله هو القرآن . ومن قال : إنه جبريل لم يقل شيئاً من تلقاء نفسه ، بل هو الذي بلغ القرآن عن الله ، وجبريل يشهد أن القرآن منزل من الله ، وأنه حق ، كما قال : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ (٣) والذي قال هو جبريل . قال : يتلوه ، أي يقرأه كما قال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٤) أي إذا قرأه جبريل فاتبع ما قرأه . وقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (٥) .

ومن قال : الشاهد لسانه وجعل الضمير المذكور عائدا على القرآن ولم يذكر ، لأنه جعل البينة هي القرآن ، ولو كانت البينة هي القرآن لما احتاج إلى ذلك وقد قال : على بينة من ربه فقد ذكر أن القرآن من الله ، وقد علم أنه نزل به جبريل على محمد ، وكلا [هما] بلغه وقرأه ، فقوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ جبريل أو محمد تكرير لا فائدة فيه ولهذا لم يذكر مثل ذلك في القرآن . وأيضاً : فكونه على القرآن لم نجد لذلك نظيراً في القرآن ، فإن القرآن كلام الله واحد لا يكون عليه ، وإذا [كان] المراد على الإيمان بالقرآن والعمل به ، فهذا الذي ذكرناه : إن البينة هي الإيمان بما جاء به الرسول ، وهو إخباره أنه رسول الله ، وأن الله أنزل القرآن عليه .

ولما أنزلت هذه السورة وهي مكية ، لم يكن قد نزل من القرآن قبلها إلا بعضه ، وكأن المأمور به حينئذ هو الإيمان بما نزل منه ، فمن آمن حينئذ بذلك ومات على ذلك كان من أهل الجنة . وأيضاً فتسمية جبريل شاهداً لا

---

(١) سورة يونس آية رقم ٩٤ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

(٤) سورة القيامة آية رقم ١٨ .

(٥) سورة النجم آية رقم ٥ .

نظير له في القرآن ، وكذلك تسمية لسان الرسول شاهداً ، وتسمية علي شاهداً لا يوجد مثل ذلك في الكتاب والسنة ، بخلاف شهادة الله ، فإن الله أخبر بشهادته لرسوله في غير موضع ، وسمى ما أنزله شهادة منه في قوله : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ الله ﴾ (١) فدل على أن كلام الله الذي أنزله وأخبر فيه بما أخبر شهادة منه .

وهو سبحانه يحكم ويشهد ، ويفتي ويقص ، ويبشر ، ويهدي بكلامه ، ويصف كلامه بأنه يحكم ويفتي ويقص ويهدي ويبشر وينذر ، كما قال : ﴿ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴾ (٢) ﴿ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ (٣) وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي اسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤) وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ (٥) وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (٦) وقال : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ (٧) .

وكذلك سمى الرسول هادياً فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٨) كما سماه بشيراً ونذيراً ، وسمى القرآن بشيراً ونذيراً فكذلك لما كان هو يشهد للرسول والمؤمنين بكلامه الذي أنزله ، وكان كلامه شهادة منه : كان كلامه شهادة منه كما كان يحكي ويفتي ، ويقص ويبشر وينذر .

ولما قيل لعلي بن أبي طالب حكمت مخلوقاً قال : ما حكمت مخلوقاً

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٤٠ .
(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٧ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٧٦ .
(٤) سورة النمل آية رقم ٧٦ .
(٥) سورة يوسف آية رقم ٣ .
(٦) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .
(٧) سورة الاسراء آية رقم ٩.
(٨) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

وإنما حكمت القرآن ، فإن الذي يحكم به القرآن هو حكم الله والذي يشهد به القرآن هو شهادة الله عز وجل . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقد كان إماماً ، وأخذ التفسير عن أبيه زيد ، وكان زيد إماماً فيه ، ومالك وغيره أخذوا عنه التفسير ، وأخذه عنه عبد الله بن وهب[1] صاحب مالك ، وأصبغ بن الفرج الفقيه . قال ـ في قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [2] : قال رسول الله : « كان على بينة من ربه » والقرآن يتلوه شاهد أيضاً ؛ لأنه من الله .

وقد ذكر الزجاج فيما ذكره من الأقوال : ويتلو رسول الله القرآن ، وهو شاهد من الله ، وقال أبو العالية : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ هو محمد ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ القرآن ، قال ابن أبي حاتم وروي عن ابن عباس ، ومحمد بن الحنفية [3] ، ومجاهد ، وأبي صالح ، وابراهيم ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي ، وخصيف ، وابن عيينة نحو ذلك. وهذا الذي قالوه صحيح ؛ ولكن لا يقتضي ذلك أن المتبعين له ليسوا على بينة من

(١) هو عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء ، المصري ، أبو محمد فقيه من الأئمة من أصحاب الإمام مالك ـ جمع بين الفقه والحديث والعبادة له كتب منها « الجامع في الحديث مجلدان « والموطأ » في الحديث عرض عليه القضاء فخبأ نفسه ولزم منزله مولده ووفاته بمصر ١٢٥ هـ ـ ١٩٧ هـ.

راجع تذكرة الحفاظ ١ : ٢٧٩ وتهذيب ٦ : ٧١ والوفيات ١ : ٢٤٩ والانتقاء ٤٨ والمكتبة الأزهرية ١ : ٤٠٢

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٣) هو محمد بن علي بن أبي طالب ، الهاشمي القرشي ، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام ، وهو أخو الحسن والحسين غير أن أمهما فاطمة الزهراء ، وأمه خولة بنت جعفر الحنفية ينسب لها تمييزاً له عنهما وكان يقول : الحسن والحسين أفضل مني وأنا أعلم منهما ، كان واسع العلم ورعاً أسود اللون ولد عام ٢١ بالمدينة وتوفي بها عام ٨١ هـ .

راجع طبقات ابن سعد ٥ : ٦٦ ووفيات الأعيان ١ : ٤٤٩ وصفة الصفوة ٢ : ٤٢ وحلية الأولياء ٣ : ١٧٤

ربهم ؛ بل هم على بينة من ربهم وقد قال الحسن البصري : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال : المؤمن على بينة من ربه ، ورواه ابن أبي حاتم وروي عن الحسين بن علي ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ يعني محمداً شاهد من الله ؛ وهي تقتضي أن يكون الذي على البينة من شهد له .

وقول القائل : من قال هو محمد كقول من قال هو جبريل ، فإن كلامهما بلغ القرآن، والله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس فاصطفى جبريل من الملائكة ، واصطفى محمداً من الناس ، وقال في جبريل : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [1] وقال في محمد : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [2] وكلاهما رسول من الله ؛ كما قال ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهرة [3] ، فيها كُتُبٌ قيمة ﴾ فكلاهما رسول من الله بلغ ما أرسل به ، وهو يشهد أن ما جاء به هو كلام الله ، وأما شهادتهم بما شهد به القرآن فهذا قدر مشترك بين كل من آمن بالقرآن فإنه يشهد بكل ما شهد به القرآن ؛ لكونه آمن به ، سواء كان قد بلغه أو لم يبلغه .

ولهذا كان إيمان الرسول بما جاء به تبليغه له ، وهو مأمور بهذا وبهذا وله أجر على هذا وهذا ، كما قال : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [4] ولهذا كان يقول أشهد أني عبد الله ورسوله فشهادة جبريل ومحمد بما شهد به القرآن من جهة إيمانهما به ، لا من جهة كونهما مرسلين به ، فإن الإرسال يتضمن شهادتهما أن الله قاله ، وقد يرسل غير رسول بشيء فيشهد الرسول أن هذا كلام المرسل وإن لم يكن المرسل صادقاً ولا حكيماً ، ولكن علم أن جبريل ومحمد يعلمان [أن] الله صادق حكيم ، فهما

---

(١) سورة التكوير آية رقم ١٩ .
(٢) سورة الحاقة آية رقم ٤٠ .
(٣) سورة البينة آية رقم ١ ـ ٢ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .

يشهدان بما شهد الله به وكذلك الملائكة والمؤمنون يشهدون بأن ما قاله الله فهو حق ، وأن الله صادق حكيم ، لا يخبر إلا بصدق ، ولا يأمر إلا بعدل ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ (١)

فقد تبين أن شهادة جبريل ومحمد هي شهادة القرآن ، وشهادة القرآن هي شهادة الله تعالى ، والقرآن شاهد من الله ، وهذا الشاهد يوافق ويتبع ذلك الذي على بينة من ربه ؛ فإن البينة والبصيرة والنور والهدى الذي عليه النبي ﷺ والمؤمنون قد شهد القرآن المنزل من الله بأن ذلك حق ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ معناه يتبعه ، كما قال ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ (٢) أي يتبعونه حق اتباعه ، وقال : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ (٣) أي تبعها ، وهذا قضاه إذا تبعه . وقد قال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (٤) فهذا الشاهد يتبع الذي على بينة من ربه فيصدقه ، ويزكيه ، ويؤيده ويثبته ، كما قال ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٦) وقال : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (٧)

وقد سمى الله القرآن ـ سلطاناً في غير موضع ، فإذا كان السلطان المنزل من الله يتبع هذا المؤمن كان ذلك مما يوجب قوته وتسلطه علماً

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١١٥ .
حكى الرماني عن قتادة : لا مبدل لها فيما حكم به ، أي أنه وإن أمكنه التغيير والتبديل في الألفاظ كما غير أهل الكتاب التوراة والإنجيل فإنه لا يعتد بذلك ، ودلت الآية على وجوب اتباع دلالات القرآن لأنه حق لا يمكن تبديله بما يناقضه .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٢١ .

(٣) سورة الشمس آية رقم ٢ .

(٤) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(٥) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٦) سورة هود آية رقم ١٢٠ .

(٧) سورة المجادلة آية رقم ٢٢ .

وعملاً ، وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] .

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً ﴾ [2] الآية .

وقال جندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر : تعلمنا الإيمان ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ، فهم كانوا يتعلمون الإيمان ، ثم يتعلمون القرآن ، وقال بعضهم في قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [3] قال : نور القرآن على نور الإيمان ، كما قال : ﴿ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [4] وقال السدي في قوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه.

فتبين أن قوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يعني هدى الإيمان ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ أي من الله يعني القرآن شاهد من الله يوافق الإيمان ويتبعه ، وقال : ﴿ يَتْلُوهُ ﴾ لأن الإيمان هو المقصود ؛ لأنه إنما يُراد بإنزال القرآن الإيمان وزيادته . ولهذا كان الإيمان بدون قراءة القرآن ينفع صاحبه ويدخل به الجنة والقرآن بلا إيمان لا ينفع في الآخرة ، بل صاحبه منافق كما في الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجه ، طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ

(١) سورة الاسراء آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ١٢٤ .

(٣) سورة النور آيـة رقم ٣٥ .

(٤) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها [1] .

ولهذا جعل الإيمان ﴿ بينة ﴾ وجعل القرآن شاهداً ؛ لأن البينة من البيان ، و« البينة » هي السبيل البينة ، وهي الطريق البينة الواضحة، وهي أيضاً ما يبين بها الحق ، فهي بينة في نفسها ، مبينة لغيرها وقد تفسر بالبيان وهي الدلالة والإرشاد ؛ فتكون كالهدى كما يقال : فلان على هدى وعلى علم ؛ فيفسر بمعنى المصدر والصفة والفاعل ، ومنه قوله : ﴿ أَوَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴾ [2] أي بيان ما فيها أو يبين ما فيها ، أو الأمر البين فيها ، وقد سمي الرسول بينة كما قال : ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ، رَسُولٌ مِنَ اللهِ ﴾ [3] فإنه يبين الحق ، والمؤمن على سبيل بينة ونور من ربه ، والشاهد المقصود به شهادته للمشهود له ، فهو يشهد للمؤمن بما هو عليه ، وجعل الإيمان من الله كما جعل الشاهد من الله ، لأن الله أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال ، كما في الصحيحين عن حذيفة ، عن النبي ﷺ قال : « إن الله أنزل الإيمان في جذر قلوب الرجال ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » .

وأيضاً : فالإيمان ما قد أمر الله به .

وأيضاً فالإيمان إنما هو ما أخبر به الرسول ، وهذا أخبر به الرسول لكن

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ١٧ باب فضل القرآن على سائر الكلام ٥٠٢٠ ـ حدثنا همام حدثنا قتادة ، حدثنا أنس بن مالك عن أبي موسى الأشعري عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه في التوحيد ٥٧ ، ورواه الامام مسلم في المسافرين ٢٤٣ وأبو داود في الأدب ١٦ ، والترمذي في الأدب ٧٩ ، وابن ماجه في المقدمة ١٦، والدارمي في فضائل القرآن ٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٩٧ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، (حلبي) .

(٢) سورة طه آية رقم ١٣٣ .

(٣) سورة البينة آية رقم ١ ـ ٢ .

الرسول له وحيان ، وحي تكلم الله به يتلى ، ووحي لا يتلى فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ (١) الآية ، وهو يتناول القرآن والإيمان . وقيل الضمير في قوله : ﴿ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَن نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (٢) يعود إلى الإيمان ، ذكر ذلك عن ابن عباس ، وقيل : إلى القرآن . وهو قول السدي ، وهو يتناولهما ، وهو في اللفظ يعود إلى الروح الذي أوحاه ، وهو الوحي الذي جاء بالإيمان والقرآن . فقد تبين أن كلاهما من الله نور وهدى منه ، هذا يعقل بالقلب ، لما قد يشاهد من دلائل الإيمان ، مثل دلائل الربوبية والنبوة ، وهذا يسمع بالآذان ، والإيمان الذي جعل للمؤمن هو مثل ما وعد الله به في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٣) أي أن القرآن حق ، فهذه الآيات متأخرة عن نزول القرآن ، وهو مثل ما فعل من نصر رسوله والمؤمنين يوم بدر ، وغير يوم بدر ، فإنه آيات مشاهدة ، صدقت ما أخبر به القرآن ، ولكن المؤمنون كانوا قد آمنوا قبل هذا .

وقيل : نزول أكثر القرآن الذي ثبت الله به لنبيه وللمؤمنين ولهذا قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤) فهو يشهد لرسوله بأنه صادق بالآيات الدالة على نبوته ، وتلك آمن بها المؤمنون ثم أنزل من القرآن شاهداً له ، ثم أظهر آيات معاينة تبين لهم أن القرآن حق .

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٥٢ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

والآفاق : النواحي ، واحدها أفق وأفق مثل عُسْر وعُسُر ورجل أفقي بفتح الهمزة والفاء إذا كان من آفاق الأرض . حكاه أبو نصر وبعضهم يقول : أفقي بضمها وهو القياس وأنشد غير الجوهري :

أخذنا بآفاق السماء عليكم ... لنا قمراها والنجوم الطوالع

(٤) سورة فصلت آية رقم ٥٣ .

فالقرآن وافق الإيمان ، والآيات المستقبلة وافقت القرآن والإيمان ولهذا قال : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ (١) فقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ يعود الضمير إلى الشاهد الذي هو القرآن ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي اسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ (٢) الآية ، ثم قال : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً ﴾ (٣) الآية ، فقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ الضمير يعود إلى القرآن ، أي : من قبل القرآن ، كما قاله ابن زيد . وقيل : يعود إلى الرسول ، كما قاله مجاهد ، وهما متلازمان .

وقوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ ﴾ فيه وجهان : قيل : هو عطف مفرد ، وقيل : عطف جملة . قيل المعنى ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ ، ويتلوه أيضاً من قبله كتاب موسى ، فإنه شاهد بمثل ما شهد به القرآن وهو شاهد من الله ، وقيل : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسى ﴾ جملة ولكن مضمون الجملة فيها تصديق القرآن ، كما قال في الأحقاف . وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يدل على أن قوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بينَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ تتناول المؤمنين ، فإنهم آمنوا بالكتاب الأول والآخر ، كما تتناول النبي ﷺ ، وأولئك يعود إليهم الضمير ، فإنهم مؤمنون به بالشاهد من الله ، فالإيمان به إيمان بالرسول والكتاب الذي قبله .

---

(١) سورة الأحقاف رقم ١٢ .

(٢) سورة الأحقاف آية رقم ١٠ .

قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد : هو عبد الله بن سلام شهد على اليهود أن رسول الله ـ ﷺ ـ مذكور في التوراة وأنه نبي من عند الله ـ وفي الترمذي عنه ـ ونزلت فيَّ آيات من كتاب الله . نزلت فيَّ: وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم « إن الله لا يهدي القوم الظالمين » . وقال مسروق : هو موسى والتوراة لا ابن سلام لأنه أسلم بالمدينة والسورة مكية وقال ، وقوله ﴿ وكفرتم ﴾ به مخاطباً لقريش . وقال الشعبي : هو من آمن من بني إسرائيل بموسى والتوراة لأن ابن سلام إنما أسلم قبل وفاة النبي ـ ﷺ ـ بعامين (والسورة مكية)

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ١٢ .

ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ [1] وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وغيرهما عن أيوب عن سعيد بن جبير قال : ما بلغني حديث عن رسول الله ﷺ على وجه إلا وجدت تصديقه في كتاب الله ؛ حتى بلغني أنه قال : « لا يسمع بي أحد من هذه الأمة لا يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بما أرسلت به « إلا دخل النار » . قال سعيد : فقلت أين هذا في كتاب الله حتى أتيت على هذه الآية : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُه ﴾ [2] والأحزاب هم أصناف الأمم ، الذين تحزّبوا وصاروا أحزاباً ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾ [3]

وقد ذكر الله طوائف الأحزاب في مثل هذه السورة وغيرها ، وقد قال تعالى عن مكذبي محمد ﷺ : ﴿ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ [4] وهم الذين قال فيهم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [5] .

---

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٣) سورة غافر آية رقم ٥ .

(٤) سورة ص آية رقم ١١ .

(٥) سورة الروم الآيات من ٣٠ ـ ٣٢ .

في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ في رواية ـ على هذه الملة أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾ في رواية : حتى تكونوا أنتم تجدعونها . قالوا : يا رسول الله أفرأيت من يموت صغيراً قال : الله أعلم بما كانوا عاملين » لفظ الإمام مسلم .

وقال عن أحزاب النصارى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1] الآيات وأما من قال : الضمير في قوله ﴿ أولئك يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ يعود على أهل الحق قال : إنه موسى وعيسى ومحمد ، فإنه أراد بهم من كان مؤمناً بالكتابين قبل نزول القرآن فلم يتقدم لهم ذكر ، والضمير في قوله ﴿ به ﴾ مفرد ، ولو آمن مؤمن بكتاب موسى دون الإنجيل بعد نزوله وقيام الحجة عليه به لم يكن مؤمناً .

وهذان القولان حكاهما أبو الفرج ولم يسم قائلهما ، والبغوي وغيره لم يذكروا نزاعاً في أنهم من آمن بمحمد ، ولكن ذكروا قولاً أنهم من آمن به من أهل الكتاب ، وهذا قريب ، ولعل الذي حكى قولهم أبو الفرج أرادوا هذا ، وإلا فلا وجه لقولهم . ومن العجب أن أبا الفرج ذكر بعد هذا في الأحزاب أربعة أقوال : « أحدها » انهم جميع الملل ، قاله سعيد بن جبير . و« الثاني » اليهود والنصارى ، قاله قتادة . و« الثالث » قريش ، قاله السدي .
و« الرابع » بنو أمية وبنو المغيرة ، قال [أي] أبي طلحة بن عبد العزى قاله مقاتل .

وهذه الآية تقتضي أن الضمير يعود إلى القرآن في قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ وكذلك : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إنه القرآن ودليله قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾[2] وهذا هو القرآن بلا ريب ، وقد قيل : هو الخبر المذكور ، وهو أنه من يكفر به من الأحزاب ، وهذا أيضاً هو القرآن ، فعلم أن المراد هو الإيمان بالقرآن ، والكفر به باتفاقهم ، وأنه من قال في أولئك أنهم غير من آمن بمحمد لم يتصور ما قال .

وقد تقدم في قوله : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾[3] وجهان ، هل هو

---

(١) سورة مريم آية رقم ٣٧ .
(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .
(٣) سورة هود آية رقم ١٧ .

عطف جملة أو مفرد ؛ لكن الأكثرون على أنه مفرد ، وقال الزجاج المعنى : وكان من قبل هذا كتاب موسى دليل على أمر محمد فيتلون كتاب موسى عطفاً على قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (١) أي ويتلو كتاب موسى ؛ لأن موسى وعيسى بشّرا بمحمد في التوراة والإنجيل ونصب إماماً على الحال .

قلت : قد تقدم أن الشاهد يتلو على من كان على بينة من ربه ، أي يتبعه شاهداً له بما هو عليه من البينة ، وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾؟ كمن لم يكن، قال الزجاج؛ وترك المعادلة لأن فيما بعده دليلاً عليه، وهو قوله : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾(٢) قال ابن قتيبة : لما ذكر قبل هذه الآية قوماً ركنوا إلى الدنيا وأرادوها جاء بهذه الآية وتقدير الكلام : أفمن كانت [هذه] حاله كمن يريد الدنيا ؟ فاكتفى من الجواب بما تقدم إذ كان دليلاً عليه ، وقال ابن الأنباري (٣) : إنما حذف لانكشاف المعنى ، وهذا كثير في القرآن .

قلت : نظير هذه الآية من المحذوف : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ (٤) كمن ليس كذلك ، وقد قال بعد هذا : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ ﴾ (٥) وهذا هو القسم الآخر المعادل لهذا الذي هو على بينة من ربه ، وعلى هذا يكون معناها ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٦) ويكون أيضاً معناها : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أي بصيرة في دينه ، كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها ، وهذا

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .
(٢) سورة هود آية رقم ٢٤ .
(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٤) سورة فاطر آية رقم ٨ .
(٥) سورة هود آية رقم ١٧ .
(٦) سورة محمد آية رقم ١٤ .

كقوله : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [1] الآية . وكقوله ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [2] وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي ؟ ﴾ [3] الآية .

والمحذوف في مثل هذا النظم قد يكون غير ذلك ، كقوله : ﴿ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ ؟ ﴾ [4] أي تجعلون له من ينشأ في الحلية ، ولا بد من دليل على المحذوف ، وقد يكون المحذوف ، مثل أن يقال : أَفَمَن هذه حاله يُذَمُّ أو يطعن عليه أو يعرض عن متابعته ، أو يفتن أو يعذب كما قال : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [5] .

وقد قيل في هذه الآية أن المحذوف : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ فرأى الباطل حقاً ؟ والقبيح حسناً كمن هداه الله فرأى الحق حقاً والباطل باطلاً والقبيح قبيحاً والحسن حسناً ؟ وقيل : جوابه تحت قوله : ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [6] لكن يرد عليه أن يقال : الاستفهام ما معناه إلا أن تقدر ، أي هذا تقدر أن تهديه ، أوربك ؟ أو تقدر أن تجزيه كما قال : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ [7] ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [8] الآية . وعلى هذا يكون معناها كمعنى قوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ [9] .

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢ .
(٢) سورة محمد آية رقم ١٤ .
(٣) سورة يونس آية رقم ٣٥ .
(٤) سورة الزخرف آية رقم ١٨ .
(٥) سورة فاطر آية رقم ٨ .
(٦) سورة فاطر آية رقم ٨ .
(٧) سورة الفرقان آية رقم ٤٣ .
(٨) سورة الجاثية اية رقم ٢٣ .
(٩) سورة محمد آية رقم ١٤ .

وعلى هذا فالمعنى هنـا : ﴿ أَفَمَنْ كانَ عَلَى بَيِّنَـةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى ﴾ [1] يذم ويخالف ويكذب ونحـو ذلك ، كقـوله ، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ؟ ﴾ [2] وحذف جواب الشرط ، وكقوله : ﴿ أرأيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الهُدَى ، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ؟ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ [3] .

فقد يبين أن معنى الآية من أشرف المعاني وهذا هو الـذي ينتفع بـه كل أحد ، وإن الآية ذكرت من كان على بينة من ربه ، من الإيمان الذي شهـد له القرآن ، فصار على نـور من ربه وبـرهان من ربـه على ما دلت عليـه البراهين العقلية والسمعية، كمـا قال : ﴿ وَأَنْـزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُـوراً مُبِيناً ﴾ [4] فـالنور المبين المنزل يتناول القرآن . قال قتـادة : بينة من ربكم ، وقـال الثوري : هـو النبي ﷺ ، وقال البغوي : هذا قول المفسرين ولم أجده منقولاً من غير الثاني ، ولا ذكره ابن الجوزي عن غيره .

وذكـر في البرهـان ثلاثـة أقوال : أحـدها : أنـه الحجـة ، والثـاني أنـه الـرسول ، وذكـر أنه القـرآن عن قتادة ، والـذي رواه ابن أبي حـاتم عن قتـادة بالإسناد الثابت أنه بينة من الله ، والبينة والحجة تتناول آيات الأنبياء التي بعثوا بها ، فكل مـا دل على نبوة محمـد ﷺ فهو بـرهان ، قـال تعالى : ﴿ فَـذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [5] وقال لمن قال : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّـةَ إلا مَنْ كَانَ هُـوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾[6] .

ومحمد هو الصادق المصدوق ، قـد أقام الله على صـدقه بـراهين كثيرة

---

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .
(٢) سورة هود آية رقم ٢٨ والأنعام ٥٧ .
(٣) سورة العلق آية رقم ١١ - ١٣ .
(٤) سورة النساء آية رقم ١٧٤ .
(٥) سورة القصص آية رقم ٣٢ .
(٦) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

وصار محمد نفسه برهـاناً ، فـأقام من البـراهين على صدقـه ؛ فدليـل الدليـل دليل ، وبرهان البرهان برهـان ، وكل آيـة له بـرهان ، والبـرهان اسم جنس لا يراد به واحد ، كما في قوله : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [1] ولو جاؤوا بعده ببراهين كانوا ممتثلين . « والمقصود » أن ذلك البرهان يعلم بالعقل أنه دال على صدقه وهو بينة من الله كما قال قتادة ، وحجة من الله ، كما قـال مجـاهد والسـدي : المؤمن على تلك البينة ويتلوه شـاهـد من الله وهـو النـور الذي أنزله مع البرهان ، والله أعلم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١١١ .

فصل

وأما من قال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إنه محمد ﷺ ، كما قاله طائفة من السلف ، فقد يريدون بذلك التمثيل لا التخصيص ، فإن المفسرين كثيراً ما يريدون ذلك ، ومحمد هو أول من كان بيِّنة من ربه ، وتلاه شاهد منه ، وكذلك الأنبياء ، وهو أفضلهم وإمامهم ، والمؤمنون تبع له ، وبه صاروا على بنية من ربهم . والخطاب قد يكون لفظ له ومعناه عام ، كقوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ (١) ﴿ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (٢) ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ (٣) ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴾ (٤) ونحو ذلك ، وذلك أن الأصل فيما خوطب به النبي ﷺ في كل ما أمر به ونهي عنه وأبيح له سار في حق أمته كمشاركة أمته له في الأحكام

---

(١) سورة يونس اية رقم ٩٤ .

(٢) سورة الزمر آية رقم ٦٥ .

(٣) سورة الشرح آية رقم ٧ .

(٤) سورة سبأ آية رقم ٥٠ وتكملة الآية ﴿ وان اهتديت فبما يوحي إلي ربي إنه سميع قريب ﴾ . أي الخير كله من عند الله وفيما أنزله الله عز وجل من الوحي والحق المبين ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لما سئل عن تلك المسألة في المفوضة أقول فيها برأيي فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه » .

وغيرها ، حتى يقوم دليل التخصيص ، فما ثبت في حقه من الأحكام ثبت في حق الأمة إذا لم يخصص ، هذا مذهب السلف والفقهاء ، ودلائل ذلك كثيرة كقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾(١) الآية ، ولما أباح له الموهوبة قال : ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) الآية .

فإذا كان هذا مع كون الصيغة خاصة فكيف تجعل الصيغة العامة له وللمؤمنين مختصة به ؟ ولفظ ﴿ من ﴾ أبلغ صيغة العموم ؛ لا سيما إذا كانت شرطاً أو استفهاماً ، كقوله : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَره ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَره ﴾ (٣) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ (٤) وقوله : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ (٥) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بينَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ؟ ﴾ (٦)

« وأيضاً » فقد ذكر بعد ذلك قوله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ (٧) وذكر بعد هذا : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ ﴾ وقد تقدم قبل هذا ذكر الفريقين ، وقوله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى جماعة ، ولم يقدم قبل هذا ما يصلح أن يكون مشاراً إليه إلا ﴿ من ﴾ والضمير يعود تارة إلى لفظ ﴿ من ﴾ وتارة إلى معناها كقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ (٨) ،

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٧ .
(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥٠ .
(٣) سورة الزلزلة آية رقم ٧ ، ٨ .
(٤) سورة فاطر آية رقم ٨ .
(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٢٢ .
(٦) سورة محمد آية رقم ١٤ .
(٧) سورة هود آية رقم ١٧ .
(٨) سورة الأنعام آية رقم ٢٥ وتكملة الآية ﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ﴾ (٢) ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ (٣) الآية .

وأما الإشارة إلى معناها فهو أظهر من الضمير . فقوله : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ دليل على أن الذي على بينة من ربه كثيرون لا واحد قال ابن أبي حاتم : ثنا عامر بن صالح عن أبيه عن الحسن البصري : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قال : المؤمن على بينة من ربه ، وهذا الذي قاله الحسن البصري هو الصواب ، والرسول هو أول المؤمنين، كما قال : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة يونس آية رقم ٤٢ وتكملة الآية ﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٢٤ وتكملة الآية ﴿ وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٩٧ وتكملة الآية ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ . وقد اختلف العلماء في الحياة الطيبة . روي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ، ووهب بن منبه وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنها السعادة ، والصحيح أنها الحياة الطيبة لأنها تشمل كل ذلك كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد ، حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني شرحبيل بن أبي شريك عن عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ـ ﷺ قال : قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقرى به ، وروى الترمذي والنسائي من حديث أبي هانىء عن أبي علي الجهني عن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : قد أفلح من هدى للإسلام وكان عيشه كفافاً وقنع به » .
وقال الترمذي : هذا حديث صحيح . وقال الإمام أحمد ، حدثنا يزيد حدثنا همام عن يحيى عن قتادة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى الى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً » انفرد باخراجه مسلم .

(٤) سورة يونس آية رقم ١٠٤ .

ومن قال : إن الشاهد من الله هو محمد كما رواه ابن أبي حاتم ، ثنا الأشج ، ثنا أبو أسامة عن عوف عن سليمان الغلاني ، عن الحسين بن علي : ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ [1] يعني محمداً شاهداً من الله فهنا معنى كونه شاهداً من الله هو معنى كونه رسول الله وهو يشهد للمؤمنين بأنهم على حق ، وإن كان يشهد لنفسه بأنه رسول الله فشهادته لنفسه معلومة قد علم أنه صادق فيها بالبراهين الدالة على نبوته ، وأما شهادته للمؤمنين فهو إنها إنما تعلم من جهته بما بلغه من القرآن ، ويخبر به عن ربه ، فهو إذا شهد كان شاهداً من الله .

وأما شهادته عليهم بالإيمان والتصديق وغير ذلك فكما في قوله : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [2] ﴿ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ [3] لكن من قال هذا فقد يريد بالبينة القرآن ، فإن المؤمن متبع للقرآن ومحمد شاهد من الله يتلوه كما تلاه جبريل .

ومن قال إن الشاهد لسان محمد فهو إنما أراد بهذا القول التلاوة أي : إن لسان محمد يقرأ القرآن وهو شاهد منه أي من نفسه فإن لسانه جزء منه ، وهذا القول ونحوه ضعيف . والله أعلم هذا إن ثبت ذلك عمن نقل عنه ، فإن هذا وضده ينقلان عن علي بن أبي طالب .

وذلك أن طائفة من جهال الشيعة ظنوا أن علياً هو الشاهد منه أي من النبي ﷺ ، كما قال له : « أنت مني وأنا منك » وهذا قاله لغيرهفقد ثبت في الصحيحين أنه قال « الأشعريون » هم مني وأنا منهم » . وقال عن جليبيب : « هذا مني وأنا منه » . وكل مؤمن هو من النبي ﷺ ، كما قال الخليل :

---

(1) سورة هود آية رقم ١٧ .

(2) سورة النساء آية رقم ٤١ .

(3) سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ (١) وقال : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ (٢) ورووا هذا القول عن علي نفسه، وروي عنه بإسناد أجود منه أنه قال: كذب من قال هذا ، قال ابن أبي حاتم : ذكر عن حسين بن زيد الطحان ، ثنا إسحاق بن منصور ، ثنا سفيان ، عن الأعمش عن المنهال ، عن عباد بن عبد الله قال : قال علي : ما من قريش أحد إلا نزلت فيه آية ، قيل فما أنزل فيك ؟ قال ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ وهذا كذب على علي قطعاً ، وإن ثبت النقل عن عباد هذا فإن له منكرات عنه ، كقوله : أنا الصديق الأكبر أسلمت قبل الناس بسبع سنين .

وقد رووا عن علي ما يعارض ذلك ، قال ابن أبي حاتم « ثنا أبي ثنا عمرو بن علي الباهلي ، ثنا محمد بن شواص ، ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة ، عن عروة ، عن محمد بن علي - يعني ابن الحنفية - قال : قلت لأبي : يا أبة ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (٣) : إن الناس يقولون : إنك أنت هو ، قال : وددت لو أني أنا هو » ولكنه لسانه ؟ قال ابن أبي حاتم : وروي عن الحسن وقتادة ونحو ذلك .

قلت : وقد تقدم عن الحسين ابنه إن ﴿ الشاهد منه ﴾ هو محمد ﷺ ،

---

(١) سورة ابراهيم آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٤٩ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٧ وتكملة الآية : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ . وعند تفسير هذه الآية قال الإمام ابن كثير وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء . . ؟ الحديث وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله - ﷺ - قال : يقول الله تعالى : ﴿ **إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً** ﴾ .

وإنما تكلم علماء أهل البيت في أنه محمد رداً على من قال من الجهلة : إنه علي ؛ فإن هذه السورة نزلت بمكة ، وعلي كان إذ ذاك صغيراً لم يبلغ ، وكان ممن اتبع الرسول ولو كان ابن رسول الله ليس ابن عمه لم تكن شهادته تنفع ، لا عند المسلمين ولا عند الكفار ، بل مثل هذه الشهادة فيها تهمة القرابة .

ولهذا كان أكثر العلماء على أن شهادة الوالد وشهادة الولد لوالده لا تقبل ، فكيف يجعل مثل هذا حجة لنبوة محمد ﷺ مؤكداً لها ؟ ولذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [1] إنه علي ، وهم مع كذبهم هم أجهل الناس، فإنهم نسبوا الله والرسول إلى الاحتجاج بما لا يحتج به إلا جاهل ، فأرادوا تعظيم علي فنسبوا الله والرسول إلى الجهل ، وعلي إنما فضيلته باتباعه للرسول ، فإذا قدح في الأصل بطل الفرع .

وأما قول من قال من المفسرين : إن « الشاهد » جبريل عليه السلام فقد روى ذلك عكرمة عن ابن عباس ، ذكره ابن أبي حاتم عنه ، وعن أبي العالية ، وأبي صالح ، ومجاهد في إحدى الروايات عنه وإبراهيم وعكرمة والضحاك وعطاء الخراساني نحو ذلك ، وهؤلاء جعلوا ﴿ يَتْلُوهُ ﴾ بمعنى يقرأه ، أي : ويتلو القرآن الذي هو البينة : شاهد من الله هو ، وقيل : بل معنى قولهم : إن القرآن يتلوه جبريل هو شاهد محمد ﷺ ، أي الذي يتلوه جاء من عند الله .

وقد تقدم بيان ضعف هذا القول ، فإن كل من فسر يتلوه بمعنى يقرأه جعل الضمير فيه عائداً إلى القراءة ، وجعل الشاهد غير القرآن .

والقرآن لم يتقدم له ذكر إنما قال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾.[2]

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٤٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٧

والبينة لا يجوز أن يكون تفسيرها بحفظ القرآن ، فإن المؤمنين كلهم على بينة من ربهم وإن لم يحفظوا القرآن ؛ بخلاف البصيرة في الدين فإنه من لم يكن على بصيرة من ربه لم يكن مؤمناً حقاً ، بل من القائلين ـ لمنكر ونكير ـ آه آه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته [1] . والقرآن إنما مدح من كان على بينة من ربه ، فهو على هدى ونور وبصيرة سواء حفظ القرآن أو لم يحفظه ، وإن أريد اتباع القرآن فهو الإيمان وأكثر القرآن لم يكن نزل حين نزول هذه الآية ، وقد تقدم إنما يختص به جبريل ومحمد فهو تبليغ الرسالة عن الله وصدقهما في ذلك وأما كون رسالة الله حقاً فهذا هو المشهود به [من] كل رسول ، وهما لا يختصان بذلك بل يؤمنان به كما يؤمن كل ملك وكل مؤمن ، وشهادتهما بأن النبي والمؤمنين على حق من هذا الوجه الثاني المشترك ولو قال : ويبلغه وينزل به رسول من الله لكان ما قالوه متوجهاً ، كما قال : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ ﴾[2] ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾[3] ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾[4] أما كونه شاهداً يقرأه فهذا لا نظير له في القرآن .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام البخاري في كتاب الجنائز ٦٧ باب الميت يسمع خفق النعال ١٣٣٨ ـ حدثنا ابن زريع ، حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال : العبد إذا وضع في قبره وتولي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل ـ محمد ـ ﷺ ـ فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ـ فيقال : أنظر الى مقعدك من النار ، أبدلك الله به مقعداًمن الجنة قال النبي ـ ﷺ ـ فيراهما جميعاً ، وأما الكافر ـ أو المنافق فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين » ورواه أبو داود في السنة ٢٤ والنسائي في الجنائز ١١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٤ ، ١٢٦ ، ٤ : ٢٩٦ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٣) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٩٧ .

و« أيضاً » فالشاهد الذي هو من الله هو الكلام، فإن الكلام نزل منه كما يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، ويقال في الرسول أنه منه ، كما قال رسول من الله ، ويقال في الشخص الشاهد فيقال فيه هو من شهداء الله ، وأما كونه يقال فيه شاهد من الله إنها برهان من الله ، وآيات من الله في الآيات التي يخلقها الله تصديقاً لرسوله فهذا يحتاج استعماله إلى شاهد .

والقرآن نزل بلغة قريش الموجودة في القرآن ، فإنها تفسر بلغته المعروفة فيه إذا وجدت لا يعدل عن لغته المعروفة مع وجودها وإنما يحتاج إلى غير لغته في لفظ لم يوجد له نظير في القرآن ، كقوله : ﴿ وَيْ كَأَنَّ اللهَ ﴾ (١) ﴿ وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ (٢) ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ (٣) ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (٤) و﴿ قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ (٥) ونحو ذلك من الألفاظ الغريبة في القرآن والذين قالوا هذه الأقوال : إنما أتوا من جهة قوله : ﴿ وَيَتْلُوهُ ﴾ فظنوا أن تلاوته هي قراءته ، ولم يتقدم للقرآن ذكر ، ثم جعل هذا يقول جبريل تلاه ، وهذا يقول محمد وهذا يقول لسانه . والتلاوة قد وجدت في القرآن واللغة المشهورة بمعنى الاتباع وكثير من المفسرين لا يذكر في هذه الآية القول الصحيح ، فيبقى الناظر الفطن حائراً ، ولم يذكر في الذي على بينة من ربه إلا أنه الرسول ، ويذكر في الشاهد عدة أقوال . ثم من العجب أن يقول : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ ﴾ أولئك أصحاب محمد وقيل : المراد الذين أسلموا من أهل الكتاب ، وهو على ما فسره لم يتقدم لهم ذكر ، فكيف يشار إليهم بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ وأبو الفرج ذكر قولاً أنهم المسلمون ، ولم يذكر أن الآية تعم النبي والمؤمنين ، ولما ذكر قول من قال : إنهم المسلمون قال :

---

(١) سورة القصص آية رقم ٨٢ .

(٢) سورة ص آية رقم ٣ .

(٣) سورة النبأ آية رقم ٣٤ .

(٤) سورة عبس آية رقم ٣١.

(٥) سورة النجم آية رقم ٢٢ .

وهذا يخرج على قول الضحاك في البينة أنها رسول الله .

وقد ذكر في « البينة » أربعة أقوال : إنها الدين ذكره أبو صالح عن ابن عباس ، وإنها رسول الله قاله الضحاك ، وأنها القرآن ، قاله ابن زيد ، وأنها البيان ، قاله مقاتل .

ثم قال : فإن قلنا المراد من كان على بينة من ربه المسلمون فالمعنى أنهم يتبعون الرسول وهو البينة ويتبع هذا النبي شاهد منه يصدقه ، والمسلمون إذا كانوا على بينة فهي الإيمان بالرسول ، ليست البينة ذات الرسول ، والرسول ليس هو مذكوراً في كلامه ، فقوله : ﴿ يَتْلُوهُ ﴾ لا بد أن يعود إلى منه لكن إعادته إلى البينة أولى وفسر البينة بالرسول ، وجعل الشاهد يشهد له بصدقه ، ثم الشاهد جبريل أو غيره ، فلو قال : الشاهد هو القرآن يشهد للمؤمنين ، فإنه يتبعهم كما يتبعونه كان قد ذكر الصواب . وهو قد ذكر أقوالاً كثيرة لم يذكرها غيره ، وذكر في يتلوه قولين : « أحدهما » يتبعه . و« الثاني » يقرأه . وهما قولان مشهوران . وذكر في ﴿ ه ﴾ يتلوه قولين : إنها ترجع إلى النبي . و« الثاني » أنها ترجع إلى القرآن .

والتحقيق : إنها ترجع إلى ﴿ من ﴾ أو ترجع الى البينة ، والبينة يراد بها القرآن فيكون المعنى أن الشاهد من القرآن ، وإذا رجع الضمير إلى ﴿ مِنْ ﴾ فإن جعل مختصاً بالنبي ﷺ ـ وهو القول الذي تقدم بيان فساده ـ عاد الضمير إلى البينة ـ وإن كان ﴿ من ﴾ تتناول كل من كان على بينة من ربه من المؤمنين ، ورسول الله أولى المؤمنين تناول الجميع .

ومما يوضح ذلك أن رسول الله جاء بالرسالة من الله ، وهذا يختص به ، وتصديق هذه الرسالة والإيمان بها واجب على الثقلين ، والرسول هو أول من يجب عليه الإيمان بهذه الرسالة التي أرسله الله بها ، ولهذا قال في سورة يونس : ﴿ قُلْ يا أيها النَّاسُ إنْ كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُون

مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الآيات .

فهو ﷺ يتعلق به أمران عظيمان .

« أحدهما » إثبات نبوته وصدقه فيما بلغه عن الله ، وهذا مختص به . و« الثاني » تصديقه فيما جاء به ، وأن ما جاء به من عند الله حق يجب اتباعه ، وهذا يجب عليه وعلى كل أحد ، فإنه قد يوجد فيمن يرسله المخلوق من يصدق في رسالته ؛ لكنه لا يتبعها ، إما لطعنه في المرسل ، وإما لكونه يعصيه ، وإن كان قد أرسل بحق ، فالملوك كثيراً ما يرسلون رسولاً بكتب وغيرها يبلغ الرسل رسالتهم فيصدقون بها . ثم قد يكون الرسول أكثر مخالفة لمرسله من غيره من المرسل إليهم ، ولهذا ظن طائفة منهم القاضي أبو بكر(٣) أن مجرد كونه رسولاً لله لا يستلزم المدح ، ثم قال : إن هذا قد يقال فيمن قبل الرسالة وبلغها ، وفيمن لم يقبل ، لكن هذا غلط ، فإن الله لا يرسل رسولاً إلا وقد اصطفاه ، فيبلغ رسالات ربه . ورسل الله هم أطوع الخلق لله وأعظم إيماناً بما بعثوا به ، بخلاف المخلوق فإنه يرسل من يكذب عليه ، ومن يعصيه ، ومن لا يعتقد وجوب طاعته والخالق منزه عن ذلك .

لكن هؤلاء الذين قالوا هذا يجوزون على الرب أن يرسل كل أحد بكل شيء ، ليس في العقل عندهم ما يمنع ذلك ، وإنما ينزهون الرسل عما أجمع

---

(١) سورة يونس آية رقم ١٠٤ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٤ وتكملة الآية ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾

(٣) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر أبو بكر : قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة ، ولد في البصرة عام ٣٣٨ وسكن بغداد وتوفي بها عام ٤٠٣ هـ كان جيد الاستنباط سريع الجواب من كتبه « اعجاز القرآن » و« الأنصاف والفرق بين المعجزة والكرامة ، وكشف أسرار الباطنية »

راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨١ وتاريخ بغداد ٥ : ٣٧٩ ودائرة المعارف الاسلامية ٣ : ٢٩٤ .

المسلمون على تنزيههم عنه عندهم ، [مما] ثبت بالسمع لا من جهة كونه رسولاً ، كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع وبين أن هذا الأصل خطأ .

ولما كان هو ﷺ يتعلق به الأمران . في « الأول » يقال : آمنت له كما قال تعالى : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ ﴾ (١) وقوله ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ (٣) .

وفي «الثاني» يقال: آمنت بالله فعلينا أن نؤمن له ونؤمن بما جاء له ، والله تعالى ذكر هذين . فذكر « أولاً » ما يثبت نبوته وصدقه بقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ، وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾(٤) كما تقدم التنبيه على ذلك . ولما كان الذي يمنع الإنسان من اتباع الرسول شيئان : إما الجهل وإما فساد القصد ، ذكر ما يزيد الجهل ، وهو الآيات الدالة على صدقه ثم ذكر أهل فساد القصر بقوله : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(٥) فهؤلاء أهل فساد القصد .

---

(١) سورة يونس آية رقم ٨٣ تكملة الآية ﴿ على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦١ تكملة الآية ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٣ ـ ١٤ .

(٥) سورة هود آية رقم ١٥ ـ ١٦ قال أنس بن مالك ، والحسن : نزلت في اليهود وقال مجاهد وغيره : نزلت في أهل الرياء ، وقال قتادة من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يفضي إلى الآخرة ، وليس له حسنة يعطى بها جزاء وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وقد ورد في الحديث المرفوع نحو من هذا وقال

فهذان الأمران هما المانعان للخلق من اتباع هذا [الرسول] كما أنه في البقرة ذكر ما يوجب العلم وحسن القصد ، فقال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (١) .

فلما أثبت هذين الأصلين : أخذ بعد هذا في بيان الإيمان به وحال من آمن ومن كفر ، فقال : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ ؟ الآية . ثم قال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ، وَيَقُولُ الأَشْهَادُ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ (٢) وهذا يتناول كل كافر ممن كذب على الله بادعاء الرسالة كاذباً ويتناول كل من كذب رسولاً صادقاً فقال : إن الله لم يرسل هذا ، ولم يأمر بهذا ، فكذب على الله ، وهذا إنما يقع ممن فسد قصده بحب الدنيا وإرادتها ، وممن أحب الرئاسة وأراد العلو في الأرض من أهل الجهل .

= تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ، انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ .

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٨ وتكملة الآية ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ قال الامام أحمد حدثنا بهز وعفان قالا أخبرنا همام حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز قال كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل قال كيف سمعت رسول الله ﷺ - يقول في النجوى يوم القيامة . . ؟ قال سمعته يقول : إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا . . ؟ أتعرف ذنب كذا . . ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى نفسه أنه هالك قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول « الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » الآية .

أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث قتادة .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله يُدني المؤمن منه يوم القيامة حتى يلقي عليه كنفه ، ويقول فعلت يوم كذا كذا وكذا ، ويوم كذا كذا وكذا ، فيقول : نعم ، فيقول : إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه » .

وأما الكفار والمنافقون : فـ ﴿ **يَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ (١) ثم ذكر تعالى الذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات ، ثم ذكر مثل الفريقين ، فمن تدبر القرآن وتدبر ما قبل الآية وما بعدها ، وعرف مقصود القرآن : تبين له المراد ، وعرف الهدى والرسالة ، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج .

وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه فهذا منشأ الغلط من الغالطين ، لا سيما كثير ممن يتكلم فيه بالاحتمالات اللغوية ، فإن هؤلاء أكثر غلطاً من المفسرين المشهورين ؛ فإنهم لا يقصدون معرفة معناه ، كما يقصد ذلك المفسرون .

وأعظم غلطاً من هؤلاء وهؤلاء من لا يكون قصده معرفة مراد الله بل قصده تأويل الآية بما يدفع خصمه عن الاحتجاج بها وهؤلاء يقعون في أنواع من التحريف ولهذا جوز من جوز منهم أن تتأول الآية بخلاف تأويل السلف وقالوا : إذا اختلف الناس في تأويل الآية على قولين جاز لمن بعدهم إحداث قول ثالث ؛ بخلاف ما إذا اختلفوا في الأحكام على قولين ، وهذا خطأ ، فإنهم إذا أجمعوا على أن المراد بالآية إما هذا وإما هذا كان القول بأن المراد غير هذين القولين خلافاً لإجماعهم ؛ ولكن هذه طريق من يقصد الدفع لا يقصد معرفة المراد وإلا فكيف يجوز أن تضل الأمة عن فهم القرآن ويفهمون

---

(١) سورة هود آية رقم ١٨ الحديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث قتادة ورواه الامام أحمد في المسند حدثنا بهز بن عفان قالا أخبرنا همام ، حدثنا قتادة عن صفوان بن محرز وذكره ٣ : ١٠٥ (حلبي)

منه كلهم غير المراد (ويأتي) [1] متـأخرون يفهمـون المراد ، فهـذا هذا والله أعلم .

(١) سقط من (أ) لفظ (ويأتي)

فصل

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (١) كما تقدم هو كقوله : ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ (٢) وقوله : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (٣) ؟ وقوله : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ (٥) :

فإن هذا النوع يبين أن المؤمن على أمر من الله فاجتمع في هذا اللفظ

---

(٢) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة محمد آية رقم ١٤ .

(٤) سورة الزمر آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ٥ قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثني عبيد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم واسمه سليمان بن عبد الله عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ وقيل له يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد نيأس أو كما قال . قال : أفلا أخبركم عن أهل الجنة ، وأهل النار قالوا : بلا يا رسول الله قال : ﴿ **ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ الى قوله ـ ﴿ **المفلحون** ﴾ هؤلاء أهل الجنة . قالوا : إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **عظيم** ﴾ هؤلاء أهل النار . قالوا : لسنا هم يا رسول الله . قال : أجل .

حرف الاستعلاء وحرف ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية ، وما يستعمل فيه حرف ابتداء الغاية فيقال : هو من الله على نوعين ، فإنه إما أن يكون من الصفات التي لا تقوم بنفسها ولا بمخلوق ، فهذا يكون صفة له ، وما كان عيناً قائمة بنفسها أو بمخلوق فهي مخلوقة . فالأول كقوله : ﴿ ولكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي ﴾ [١] وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [٢] كما قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود .

« والنوع الثاني » كقوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [٣] وقوله : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [٤] و﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [٥] وكما يقال : إلهام الخير وإيحاؤه من الله ، وإلهام الشر وإيحاؤه من الشيطان ، والوسوسة من الشيطان فهذا نوعان .

تارة يضاف باعتبار المسبب ، وتارة باعتبار العاقبة والغاية ، فالحسنات هي النعم ، والسيئات هي المصائب كلها من عند الله ، لكن تلك الحسنات أنعم الله بها على العبد ، فهي منه إحساناً وتفضلاً ، وهذه عقوبة ذنب من نفس العبد ، فهي من نفسه باعتبار أن عمله السيء كان سببها ، وهي عقوبة له ؛ لأن النفس أرادت تلك الذنوب ووسوست بها وتارة يقال باعتبار حسنات

---

(١) سورة السجدة آية رقم ١٣ وتكملة الآية ﴿ لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ وتكملة الآية ﴿ بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾

(٣) سورة الجاثية آية رقم ١٣ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٥٣ تكملة الآية ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٧٩ تكملة الآية ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴾ .

قال السدي ، والحسن البصري وابن جريج وابن زيد ﴿ فمن نفسك ﴾ أي بذنبك . وذكر لنا أن النبي ـ ﷺ ـ قال : لا يصيب رجلاً خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله أكثر ، وهذا الذي أرسله قتادة قد روي متصلاً في الصحيح : « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه »

العمل وسيئاته ، وما يلقى في القلب من التصورات والإرادات ، فيقال للحق : هو من الله ألهمه العبد ، ويقال للباطل : إنه من الشيطان وسوس به ، ومن النفس أيضاً لأنها إرادته كما قال عمر وابن عمر وابن مسعود فيما قالوه باجتهادهم : إن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنا ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه وهذا لفظ ابن مسعود في حديث بروع بنت واشق ، قال : إن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، لأنه حكم بحكم فإن كان موافقاً لحكم الله فهو من الله لأنه موافق لعلمه وحكمه فهو منه باعتبار أنه سبحانه ألهمه عبده لم يحصل بتوسط الشيطان والنفس ، وإن كان خطأ فالشيطان وسوس به ، والنفس أرادته ووسوست به وإن كان ذلك مخلوقاً فيه ، والله خلقه فيه ؛ لكن الله لم يحكم به ، وإن لم يكن ما وقع لي من إلهام الملك كما قال ابن مسعود : إن للملك بقلب ابن آدم لمة ، وللشيطان لمة فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالحق ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق » فالتصديق من باب الخير والإيعاد بالخير والشر من باب الطلب والإرادة . قال تعالى : ﴿ **الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (١)

فهذه حسنات العمل من الله عز وجل بهذين الاعتبارين ، « أحدهما » أنه يأمر بها ويحبها ، وإذا كانت خيراً فهو يصدقها ويخبر بها ، فهي من علمه وحكمه ، وهي أيضاً من إلهامه لعبده وإنعامه عليه لم تكن بواسطة النفس والشيطان ؛ فاختصت بإضافتها إلى الله من جهة أنها من علمه وحكمه ، وأن النازل بها إلى العبد ملك كما اختص القرآن بأنه منه كلام ، وقرآن مسيلمة بأنه من الشيطان ، فإن ما يلقيه الله في قلوب المؤمنين من الإلهامات الصادقة العادلة هي من وحي الله وكذلك ما يريهم إياه في المنام ، قال عبادة بن الصامت : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في منامه ، وقال عمر :

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٦٨ .

اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنهم يتجلى لهم أمور صادقة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي ﴾ (١) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى ﴾ (٢) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ (٣) وقال : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (٤) على قول الأكثرين ، وهو أن المراد أنه ألهم الفاجرة فجورها ، والتقية تقواها ، فالإلهام عنده هو البيان بالأدلة السمعية والعقلية .

وأهل السنة يقولون : كلا النوعين من الله ، هذا الهدى المشترك وذاك الهدى المختص ، وإن كان قد سماه إلهاماً كما سماه هدى ، كما في قوله : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى على الْهُدَى ﴾ (٥) وكذلك قد قيل في قوله : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٦) أي بينا له طريق الخير والشر وهو هدى البيان العام المشترك. وقيل : هدينا المؤمن لطريق الخير ، والكافر لطريق الشر : فعلى هذا يكون قد جعل الفجور هدى ، كما جعل أولئك البيان إلهاماً.

وكذلك قوله ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ (٧) قيل هو

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٧ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٥ .

(٤) سورة الشمس آية رقم ٨ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ١٧ .

(٦) سورة البلد آية رقم ١٠ « كما قال ابن تيمية : الخير والشر وكذا روي عن علي وابن عباس ومجاهد ، وعكرمة وأبي وائل وأبي صالح ، ومحمد بن كعب والضحاك وعطاء الخرساني في آخرين .

قال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية عن أبي رجاء ، قال سمعت الحسن يقول ﴿ وهديناه النجدين ﴾ قال : ذكر لنا أن نبي الله - ﷺ كان يقول : « يا أيها الناس إنهما النجدان نجد الخير ونجد الشر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير » .

(٧) سورة الإنسان آية رقم ٣ قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن خيثم عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر بن عبد الله أن النبي - ﷺ - قال لكعب بن عجرة : أعاذك الله من إمارة السفهاء . قال وما إمارة السفهاء . . ؟ قال : امراء يكونون من بعدي لا يهتدون =

الهدى المشترك ، وهو أنه يبين له الطريق التي يجب سلوكها والطريق التي لا يجب سلوكها ، وقيل بل هدى كلا من الطائفتين إلى ما سلكه من السبيل ﴿ إما شاكراً وإمّا كفُوراً ﴾ .

لكن تسمية هذا هدى قد يعتذر عنه بأنه هدى مقيد لا مطلق كما قال : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [١] وكما قال : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ وَالْطَاغُوتِ ﴾ [٢] وأنه ﴿ يَقُولُ الْحَقَّ ﴾ و﴿ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ فهو موافق لقوله وأمره لعلمه وحكمه ، كما أن القرآن وسائر كلامه كذلك وباعتبار أنه أنعم على العبد بواسطة جنده بالملائكة .

ويقال لضد هذا ـ وهو الخطأ ـ هذا من الشيطان والنفس ؛ لأن الله لا يقوله ولا يأمر به ؛ ولأنه إنما ينكته في قلب الإنسان الشيطان ونفسه تقبله من الشيطان ؛ فإنه يزين لها الشيء فتطيعه فيه ، وليس كل ما كان من الشيطان يعاقب عليه العبد ؛ ولكن يفوته به نوع من الحسنات كالنسيان ، فإنه من الشيطان ، والاحتلام من الشيطان ، والنعاس عند الذكر والصلاة من الشيطان ، والصعق عند الذكر من الشيطان ، ولا إثم على العبد فيما غلب عليه إذا لم يكن ذلك بقصد منه أو بذنب . فقوله : ﴿ إنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ [٣] وشبهها مما تقدم ذكره : من هذا الباب ، وكذلك قوله: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبعوا الباطِلَ وَأَنَّ الَّذِين آمَنُوا اتَّبَعُوا الحَقَّ مِنْ ربِّهم﴾[٤]فإن المؤمنين على تصديق ما أخبر الله به ، وفعل ما أمر الله ابتداء وتبليغاً

= بهداي ، ولا يستنون بسنتي فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم ولا يردون على حوضي ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك مني وأنا منهم وسيردون على حوضي يا كعب بن عجرة : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت النار أولى به ، يا كعب الناس غاديان فمبتاع لنفسه فمعتقها وبائع نفسه فموبقها » .

(١) سورة آل عمران آية رقم ٢١ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٥١ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٥٧ .

(٤) سورة محمد آية رقم ٣ .

كالقرآن ، وقد قال : « إن الله أنزل الأمانة في جذر قلوب الرجال » فهي تنزل في قلوب المؤمنين من نوره وهداه ، وهذه حسنات دينية وعلوم دينية حق نافعة في الدنيا والآخرة ، وهو الإيمان الذي هو إفضال المنعم ، وهو أفضل النعم .

وأما قوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (1) فقد دخل في ذلك نعم الدنيا كلها ، كالعافية والرزق ، والنصر ، وتلك حسنات يبتلي الله العبد بها . كما يبتليه بالمصائب ، هل شكر أم لا ؟ وهل يصبر أم لا ؟ كما قال تعالى : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ (2) وقال : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (3) ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ ﴾ (4) الآيات .

وقد يقال في الشيء إنه من الله وإن كان مخلوقاً إذا كان مختصاً بالله كآيات الأنبياء ، كما قال لموسى : ﴿ فَذَانِكَ بُرهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ (5) وقلب العصا حية ، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء مخلوق لله ، لكنه منه لأنه دل به وأرشد إلى صدق نبيه موسى ، وهو تصديق منه وشهادة منه له بالرسالة والصدق ، فصار ذلك من الله بمنزلة البينة من الله ، والشهادة من الله ، وليست هذه الآيات مما تفعله الشياطين والكهان ، كما يقال : هذه علامة من فلان ، وهذا دليل من فلان ، وإن [لم] يكن ذلك كلاماً منه .

وقد سمى موسى ذلك بينة من الله فقال : ﴿ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ

---

(1) سورة النساء آية رقم ٧٩ .

(2) سورة الأعراف آية رقم ١٦٨ وتكملة الآية ﴿ لعلهم يرجعون ﴾

(3) سورة الأنبياء آية رقم ٣٥ وتكملة الآية ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ وصدر الآية ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ .

وقد روي عن الشافعي ـ رحمه الله أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

(4) سورة الفجر آية رقم ١٥ وتكملة الآية ﴿ فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ﴾

(5) سورة القصص آية رقم ٣٢ وتكملة الآية ﴿ إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

رَبِّكُمْ ﴾ [1] ، فقوله : ﴿ ببينة من ربكم ﴾ ، كقولـه : ﴿ فَذَانِـكَ بُرْهَـانَان مِنْ رَبِّكَ ﴾ .

وهذه البينة هي هنا حجة وآيـة ودلالة مخلوقـة تجري مجـرى شهادة الله وإخباره بكلامه ، كالعلامة التي يرسل بها الرجـل إلى أهله وكيله ، قال سعيـد ابن جبير في الآية : هي كالخاتم تبعث به فيكون هذا بمنزلة قولـه صدقـوه فيما قال ، أو أعطوه ما طلب .

فالقرآن والهدى منه ، وهو من كلامـه وعلمه وحكمـه الذي هـو قائم بـه غيـر مخلوق ، وهـذه الآيـات دليـل على ذلـك ، كمـا يكتب كـلامـه في المصاحف ؛ فيكون المراد المكتوب به الكلام يعرف به الكلام ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَـاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَـدَداً ﴾ [2] ولهذا يكون لهذه الآيات المعجزات حرمة : كالناقـة وكالماء النابع بين أصابع النبي ﷺ ونحو ذلك . والله سبحانه أعلم .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٠٥ وتكملة الآية ﴿ فأرسل معي بني اسرائيل ﴾ .

(٢) سـورة الكهف آية رقم ١٠٩ نعم مـا نفدت كلمـات الله تعالى وكمـا قـال : ﴿ ولـو أن مـا في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفـدت كلمات الله ، إن الله عـزيز حكيم ﴾ .

فصل

في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ (١) الآية ، وما بعدها إلى قوله : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ذكر سبحانه الفرق بين أهل الحق والباطل ، وما بينهما من التباين والاختلاف مرة بعد مرة ، ترغيباً في السعادة وترهيباً من الشقاوة .

وقد افتتح السورة بذلك فقال : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ، أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ (٢)

نذير ينذر بالعذاب لأهل النار وبشير يبشر بالسعادة لأهل الحق . ثم ذكر حال الفريقين في السراء والضراء ، فقال : ﴿ وَلَئِنْ (٣) أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ

---

(١) سورة هود آية رقم ١٧ .

(٢) سورة هود آية رقم ١ ـ ٢ .

(٣) سورة هود آية رقم ٩ ـ ١١ ﴿ أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ كما جاء في الحديث : والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ، ولا وصب ، ولا حزن ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه . وفي الصحيحين : والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سراء فشكر كان خيراً ، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن ولهذا قال الله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ . ثم ذكر بعد هذا قصص الأنبياء وحال من اتبعهم ومن كذبهم كيف سعد هؤلاء في الدنيا والآخرة ، وشقي هؤلاء في الدنيا والآخرة فذكر ما جرى لهم إلى قوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ (١) ثم ذكر حال الذين سعدوا والذين شقوا . ثم قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ (٢) فإنه قد يقال : غاية ما أصاب هؤلاء أنهم ماتوا والناس كلهم يموتون ، وأما كونهم أهلكوا كلهم وصارت بيوتهم خاوية وصاروا عبرة يذكرون بالشر ويلعنون ، إنما يخاف ذلك من آمن بالآخرة ، فإن لعنة المؤمنين [لهم] بالآخرة وبغضهم لهم كما جرى لآل فرعون هو مما يزيدهم عذاباً ، كما أن لسان الصدق وثناء الناس ودعاءهم للأنبياء ، واتباعهم لهم هو مما يزيدهم ثواباً .

فمن استدل بما أصاب هؤلاء على صدق الأنبياء فآمن بالآخرة خاف عذاب الآخرة ، وكان ذلك له آية ، وأما من لم يؤمن بالآخرة ويظن أن من مات لم يبعث فقد لا يبالي بمثل هذا ، وإن كان يخاف هذا من لا يخاف الآخرة ؛ لكن كل من خاف الآخرة كان هذا حاله وذلك له آية .

وقد ختم السورة بقوله : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴾ (٣) إلى آخرها ، كما افتتحها بقوله : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ﴾ (٤) فذكر التوحيد والإيمان بالرسل ، فهذا دين الله في الأولين والآخرين ، قال أبو

---

(١) سورة هود آية رقم ١٠٠ - ١٠٣ .

(٢) سورة هود آية رقم ١٠٣ وتكملة الآية : ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢١ .

(٤) سورة هود آية رقم ٢ .

العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون ، ماذا كنتم تعبدون ، وماذا أجبتم المرسلين ولهذا قال : ﴿ **وَيَوْمَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ؟** ﴾ (١) و﴿ **أَيْنَ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ؟** ﴾ (٢) هو الشرك في العبادة ، وهذان هما الإيمان والإسلام ، وكان النبي ﷺ يقرأ تارة في ركعتي الفجر سورتي الإخلاص ، وتارة بآيتي الإيمان والإسلام ، فيقرأ قوله : ﴿ **آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا** ﴾ (٣) الآية فأولها الإيمان وآخرها الإسلام ويقرأ في الثانية : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ** ﴾ (٤) فأولها إخلاص العبادة لله وآخرها الإسلام له . وقال :﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (٥) ففيها الإيمان والإسلام في آخرها وقال : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ . ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ** ﴾ (٦) .

---

(١) سورة القصص آية رقم ٦٥ النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ، وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسأل العبد في قبره . من ربك ، ومن نبيك ، وما دينك . . ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأما الكافر فيقول هاء ، هاء لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ، ولهذا قال تعالى ﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون** ﴾ . سورة القصص آية ٦٦ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٦٢ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٣٦ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ٦٤ وتكملة الآية ﴿ **ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ .

(٥) سورة العنكبوت آية رقم ٤٦ .

(٦) سورة الزخرف آية رقم ٦٩ ـ ٧٠ قال المعتمر بن سليمان عن أبيه إذا كان يوم القيامة ، فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادي مناد ﴿ **يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾ فيرجوها الناس كلهم قال فيتبعها ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمون** ﴾ .

فصل

وقوله تعالى : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[1] فقد فصله بعد إحكامه ، بخلاف من تكلم بكلام لم يحكمه، وقد يكون في الكلام المحكم ما لم يبينه لغيره ، فهو سبحانه أحكم كتابه ثم فصله وبينه لعباده كما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المُجْرِمِينَ﴾[2] وقال : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً ورحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤمِنُونَ﴾[3] فهو سبحانه بينه وأنزله على عباده بعلم ليس كمن يتكلم بلا علم .

وقد ذكر براهين التوحيد والنبوة قبل ذكر الفرق بين أهل الحق والباطل ، فقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتراهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرياتٍ ﴾ إلى قوله ﴿ فَهَلْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾[4] فلما تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله مفتريات هم وجميع من يستطيعون من دونه : كان في مضمون تحديه أن هذا لا يقدر أحد على الإتيان بمثله من دون الله ، كما قال . ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾[5] .

---

(١) سورة هود آية رقم ١ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٥٥ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٣ ـ ١٤ .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ٨٨ قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يطرق الناس ريح حمراء يعني في

وحينئذ : فعلم أن [ذلك] من خصائص من أرسله الله ، وما كان مختصاً بنوع فهو دليل عليه؛ فإنه مستلزم له، وكل ملزوم دليل على لازمه كآيات الأنبياء كلها فإنها مختصة بجنسهم وهذا القرآن مختص بجنسهم ومن بين الجنس خاتمهم لا يمكن أن يأتي به غيره ، وكان ذلك برهاناً بيناً على أن الله أنزله ، وأنه نزل بعلم الله هو الذي أخبر بخبره ، وأمر بما أمر به كما قال : ﴿ **لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ (1) الآية . وثبوت الرسالة ملزوم لثبوت التوحيد وأنه لا إله إلا الله من جهة أن الرسول أخبر بذلك ، ومن جهة أنه لا يقدر أحد على الإتيان بهذا القرآن إلا الله ، فإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله ، إلى غير ذلك من وجوه البيان فيه ، كما قد بسط ونبه عليه في غير هذا الموضع ؛ ولا سيما هذه السورة ، فإن فيها من البيان والتعجيز ما لا يعلمه إلا الله ، وفيها من المواعظ والحكم والترغيب والترهيب ما لا يقدر قدره إلا الله .

و« المقصود هنا » هو الكلام على قوله : ﴿ **أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ** ﴾ حيث سأل السائل عن تفسيرها ؛ وذكر ما في التفاسير من كثرة الاختلاف فيها ، وأن ذلك الاختلاف يزيد الطالب عمى عن معرفة المراد الذي يحصل به الهدى والرشاد ، فإن الله تعالى إنما نزل القرآن ليهتدى به لا ليختلف فيه ، والهدى إنما يكون إذا عرفت معانيه ، فإذا حصل الاختلاف المضاد لتلك المعاني التي لا يمكن الجمع بينه وبينها لم يعرف الحق . ولم تفهم الآية ومعناها ، ولم يحصل به الهدى والعلم الذي هو المراد بإنزال الكتاب .

= آخر الزمان من قبل الشام فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك** ﴾ ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن بهذه الآية ـ وقد روى ابن اسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في نفر من اليهود جاؤوا رسول الله ـ ﷺ فقالوا له إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به فأنزل الله ـ هذه الآية ـ قال ابن كثير ـ وفي هذا نظر لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة فالله أعلم » .

(1) سورة النساء آية رقم ١٦٦ .

قال أبو عبد الرحمن السلمي [١] : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . وقال الحسن البصري [٢] : ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيماذا نزلت ، وماذا عنى بها ، وقد قال تعالى ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ [٣] وتدبر الكلام إنما ينتفع به إذا فهم . وقال : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قرآناً عَرَبِيّاً لَعلكم تَعْقِلُونَ** ﴾[٤] .

فالرسل تبين للناس ما أنزل إليهم من ربهم ، وعليهم أن يبلغوا الناس البلاغ المبين ؛ والمطلوب من الناس أن يعقلوا ما بلغه الرسل ، والعقل يتضمن العلم والعمل فمن عرف الخير والشر فلم يتبع الخير ويحذر الشر لم يكن عاقلاً : ولهذا لا يعد عاقلاًإلا من فعل ما ينفعه ، واجتنب ما يضره ، فالمجنون الذي لا يفرق بين هذا وهذا قد يلقي نفسه في المهالك ، وقد يفر مما ينفعه .

وسئل رحمه الله :

عن قوله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ** ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ** ﴾ [٦] .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الثاني .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية في الجزء الثاني .

(٣) سورة النساء آية رقم ٨٢ .

(٤) سورة الزخرف آية رقم ٣ .

(٥) سورة هود آية رقم ١٠٨ .

(٦) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٤ وتكملة الآية ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إن كنا فاعلين** ﴾ . قال البخاري : حدثنا مقدم بن محمد ، حدثني عمي القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ ـ قال : إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماوات بيمينه » انفرد به من هذا الوجه البخاري ، وقال ابن أبي حاتم ـ حدثنا أبي ، حدثنا =

فأجاب : الحمد لله . قال طوائف من العلماء إن قوله : ﴿ **ما دامت السموات والأرض** ﴾ أراد بها سماء الجنة وأرض الجنة ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة وسقفه عرش الرحمن » [1] وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [2] هي أرض الجنة .

وعلى هذا فلا منافاة بين انطواء هذه السماء وبقاء السماء التي هي سقف الجنة ؛ إذ كلما علا فإنه يسمى في اللغة سماء . كما يسمى السحاب سماء ، والسقف سماء .

و« أيضاً » فإن السموات إن طويت وكانت كالمهل ، واستحالت عن صورتها فإن ذلك لا يوجب عدمها وفسادها ، بل أصلها باق ، بتحويلها من حال إلى حال ، كما قال تعالى : ﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ** ﴾ [3] وإذا بدلت فإنه لا يزال سماء دائمة ، وأرض دائمة . والله أعلم .

= محمد بن أحمد بن الحجاج الرقي ، حدثنا محمد بن سلمة عن أبي الواصل ، عن أبي المليح الأزدي عن أبي الجوزاء الأزدي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ قال : يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة ، يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة » .

(١) الحديث رواه الإمام الترمذي في أبواب « الجنة » وابن ماجه في كتاب الزهد .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٥ .

(٣) سورة ابراهيم آية رقم ٤٨ .

سورة يوسف

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

قول يوسف ﷺ لما قالت له امرأة العزيز : ﴿ هَيْتَ (١) لَكَ ؟ قَالَ : مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) « هيت لك » قرأه كثير بفتح الهاء وإسكان التاء ، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهم معناه أنها تدعوه الى نفسها ، وقال علي بن أبي طلحة ، والعوفي عن ابن عباس هيت لك تقول : هلم لك ، وكذا قال زر بن حبيش وعكرمة والحسن وقتادة قال عمرو بن عتبة عن الحسن ، وهي كلمة بالسريانية أي عليك ، وقال السدي هيت لك أي هلك لك وهي بالقبطية ، وقال مجاهد ، هي لغة غريبة تدعوه بها . وقال البخاري ، وقال عكرمة : هيت لك أي هلم لك بالحورانية هكذا ذكره معلقاً وقد أسنده الإمام أبو جعفر بن جرير ، حدثني أحمد بن سهل الواسطي ، حدثنا قرة بن عيسى ، حدثنا النضر بن عزبي الخدري ، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله (هيت لك) قال: هلم لك قال: هي بالحورانية . وقال أبو القاسم بن سلام ، وكان الكسائي يحب هذه القراءة يعني هيت لك ، ويقول : هي لغة لأهل حوران وقعتْ الى أهل الحجاز ومعناها تعالى .

وقال أبو عبيد سألت شيخاً عالماً من أهل حوران فذكر أنها لغتهم يعرفها واستشهد الإمام ابن جرير على هذه القراءة بقول الشاعر : لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه :

أبلغ أمير المؤمنين أذى العراق إذا أتينا
إن العراق وأهله عنق إليك فهيت هيتا

يقول : فتعال واقترب .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

المراد بربه في أصح القولين هنا سيده ، وهو زوجها الذي اشتراه من مصر الذي قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ، عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [1] قال الله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2] . فلما وصى به امرأته فقال لها ﴿ أكرمي مثواه ﴾ قال يوسف : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ ولهذا قال : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ والضمير في ﴿ إ نه ﴾ معلوم بينهما ، وهو سيدها .

وأما قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [3] فهذا خبر من الله تعالى أنه رأى برهان ربه ، وربه هو الله كما قال لصاحبي السجن : ﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ [4] وقوله : ﴿ ربي ﴾

---

(1) سورة يوسف آية رقم ٢١ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢١ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ وأما البرهان الذي رآه ففيه أقوال : معنى ابن عباس وسعيد، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والحسن وقتادة ، وأبي صالح والضحاك ، ومحمد بن اسحاق وغيرهم رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على اصبعه بفمه ، وقيل عنه في رواية فضرب في صدر يوسف ، وقال العوفي عن ابن عباس رأى خيال الملك يعني سيده ، وكذا قال محمد بن إسحاق فيما حكاه عن بعضهم إنما هو خيال قطفير سيده حين دنا من الباب .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع عن أبي مودود ، سمعت محمد بن كعب القرظي قال : رفع يوسف رأسه الى السقف فإذا كتاب في حائط البيت ﴿ **لا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً** ﴾ وكذا رواه أبو معشر المدني عن محمد بن كعب ، وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن أبي صخر قال : سمعت القرظي يقول في البرهان الذي رآه يوسف ثلاث آيات من كتاب الله ﴿ **إن عليكم لحافظين** ﴾ ﴿ **وما تكون في شأن** ﴾ الآية وقوله ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت** ﴾ وقال الأوزاعي رأى آية من كتاب الله في الجدار تنهاه عن ذلك .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

مثل قوله لصاحب الرؤيا : ﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ [1] قال تعالى : ﴿ **فأنْسَاه الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** ﴾ [2] قيل أنسى يوسف ذكر ربه لما قال ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ .

وقيل : بل الشيطان أنسى الذي نجا منهما ذكر ربه ، وهذا هو الصواب ، فإنه مطابق لقوله : ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ قال تعالى : فأنساه الشيطان ذكر ربه » والضمير يعود إلى القريب ، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ، ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه ؛ بل كان ذاكر لربه . وقد دعاهما قبل تعبير الرؤيا إلى الإيمان بربه وقال لهما : ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ : أَأَرْبَابٌ مُتفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ ؟ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إن الحُكْمُ إلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [3] .

وقال لهما قبل ذلك : ﴿ **لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ** ﴾ [4] أي في الرؤيا ﴿ **إلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيكُمَا** ﴾ [5] يعني التأويل ﴿ **ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالله ، وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إبْرَاهِيمَ وَإسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِالله مِنْ شَيْءٍ . ذَلِكَ مِن فَضْلِ الله عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ . وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ [6]

فبذا يذكر ربه عز وجل ، فإن هذا مما علمه ربه ، لأنه ترك ملة قوم مشركين لا يؤمنون بالله ، وإن كانوا مقرين بالصانع ولا يؤمنون بالآخرة ،

---

(١) (٢) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣٩ ـ ٤٠ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ٣٧ .

(٦) سورة يوسف آية رقم ٣٧ ـ ٣٨ .

واتبع ملة آبائه أئمة المؤمنين ـ الذين جعلهم الله أئمة يدعون بأمرة ـ إبراهيم واسحق ويعقوب ، فذكر ربه ثم دعاهما إلى الإيمان بربه . ثم بعد هذا عبر الرؤ يا فقال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ . أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ﴾ (١) الآية ، ثم لما قضى تأويل الرؤ يا : ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (٢) فكيف يكون قد أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه ؟ وإنما أنسى الشيطان الناجي ذكر ربه . أي الذكر المضاف إلى ربه والمنسوب إليه ، وهو أن يذكر عنده يوسف ، والذين قالوا ذلك القول ، قالوا : كان الأولى أن يتوكل على الله ، ولا يقول أذكرني عند ربك . فلما نسي أن يتوكل على ربه جوزي بلبثه في السجن بضع سنين . فيقال : ليس في قوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ما يناقض التوكل ، بل قد قال يوسف : ﴿ إن الحُكْمُ إلاَّ لله ﴾ (٣) كما أن قول أبيه ﴿ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ (٤) بل يناقض توكله ، بل قال : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنْكُم مِنَ الله مِنْ شَيْءٍ، إن الحُكْمُ إلاَّ لله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٥) .

و« أيضاً » فيوسف قد شهد الله له أنه من عباده المخلصين ، والمخلص لا يكون مخلصاً مع توكله على غير الله ، فإن ذلك شرك ، ويوسف لم يكن مشركاً لا في عبادته ولا توكله ، بل قد توكل على ربه في فعل نفسه بقوله :

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٤١ قال الثوري عن عمارة بن القعقاع عن ابراهيم بن عبد الله قال : لما قالا ما قالا وأخبرهما ، قالا : ما رأينا شيئاً فقال : قضى الأمر الذي فيه تستفتيان » ورواه محمد ابن فضل عن عمارة عن ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود به ، وكذا فسره مجاهد ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم وحاصله من تحلم بباطل وفسره فإنه يلزم تأويله والله تعالى أعلم . وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه أحمد عن معاوية بن حيدة عن النبي - ﷺ - قال : الرؤ يا على رجل طائر ما لم تعبر فإذا عبرت وقعدت » .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٦٧ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ٦٧ .

(٥) سورة يوسف آية رقم ٦٧ .

﴿ **وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ فكيف لا يتوكل عليه في أفعال عباده . وقوله : ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ مثل قوله لربه : ﴿ **اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ [1] فلما سأل الولاية للمصلحة الدينية لم يكن هذا مناقضاً للتوكل ، ولا هو من سؤال الإمارة المنهى عنه ، فكيف يكون قوله للفتى : ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ مناقضاً للتوكل وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك به ؛ ليعلم حاله ليتبين الحق ؛ ويوسف كان من أثبت الناس .

ولهذا بعد أن طلب ﴿ **وَقَالَ المَلِكُ ائْتُونِي بِهِ** ﴾ قال : ﴿ **ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إِنَّ ربِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾ [2] فيوسف يذكر ربه في هذه الحال ، كما ذكره في تلك . ويقول : ﴿ **ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة** ﴾ فلم يكن في قوله له : ﴿ **اذكرني عند ربك** ﴾ ترك الواجب ، ولا فعل لمحرم ، حتى يعاقبه الله على ذلك بلبثه في السجن بضع سنين، وكان القوم قد عزموا على حبسه إلى حين قيل هذا ظلماً له ، مع علمهم ببراءته من الذنب .

قال الله تعالى : ﴿ **ثُمَّ بَدَا لَهُم مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴾ [3] ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه ، ليتم بذلك صبره

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٥٥ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٠ في هذه الآية نرى صلابة يوسف عليه السلام ورفضه الخروج من السجن ، ولهذا وردت السنة بمدحه . ففي المسند والصحيحين ، من حديث الزهري ، عن سعيد ، وأبي سلمة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « نحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال : رب أرني كيف تحيي الموتى » الآية . ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوي الى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » وفي لفظ لأحمد : حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ في قوله : فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم » فقال رسول الله ـ ﷺ « لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر » .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٣٥ .

وتقواه ، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال . ولهذا قال : ﴿ **أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (١) ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعاً من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى ، وفاته الأفضل باتفاق الناس .

لكن تنازع العلماء هل يمكن الإكراه على الفاحشة على قولين : قيل : لا يمكن ، كقول أحمد بن حنبل وأبي حنيفة وغيرهما ، قالوا لأن الإكراه يمنع الانتشار .

والثاني : يمكن وهو قول مالك والشافعي ، وابن عقيل وغيره من أصحاب أحمد ، لأن الإكراه لا ينافي الانتشار ، فإن الإكراه لا ينافي كون الفعل اختياراً ، بل المكره يختار دفع أعظم الشرين بالتزام أدناهما ، وأيضاً : فالانتشار بلا فعل منه ؛ بل قد يفيد ويضجع فتباشره المرأة فتنتشر [شهوته] فتستدخل ذكره . فعلى قول الأولين لم يكن يحل له ما طلبت منه بحال ، وعلى القول الثاني فقد يقال الحبس ليس بإكراه يبيح الزنا ، بخلاف ما لو غلب على ظنه أنهم يقتلونه أو يتلفون بعض أعضائه ، فالنزاع إنما هو في هذا ، وهم لم يبلغوا به إلى هذا الحد ، وإن قيل كان يجوز له ذلك لأجل الإكراه لكن يفوته الأفضل .

وأيضاً : فالإكراه إنما يحصل أول مرة ثم يباشر ، وتبقى له شهوة وإرادة في الفاحشة .

ومن قال : الزنا لا يتصور فيه الإكراه يقول : فرق بين ما لا فعل له - كالمقيد - وبين من له فعل ، كما أن المرأة إذا أضجعت وقيدت حتى فعل بها الفاحشة لم تأثم بالاتفاق ، وإن أكرهت حتى زنت ففيه قولان هما روايتان عن أحمد ، لكن الجمهور يقولون لا تأثم وقد دل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ**

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

﴿ يُكْـرِههُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْـدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) وهؤلاء يقـولـون : فعـل المرأة لا يحتاج إلى انتشار ، فإنما هو كـالإكراه على شـرب الخمر ، بخـلاف فعل الرجل وبسط هذا له موضع آخر .

و« المقصود » أن يوسف لم يفعـل ذنباً ذكـره الله عنه ، وهـو سبحانـه لا يذكر عن أحـد من الأنبياء ذنبـاً إلا ذكر استغفـاره منه ، ولم يـذكر عن يـوسف استغفاراً من هذه الكلمة ، كما لم يذكر عنه استغفاراً من مقدمات الفـاحشة ، فعلم أنه لم يفعل ذنباً في هذا ولا هـذا ، بل هم همـاً تركـه لله ، فأثيب عليـه حسنة ، كما قد بسط هذا في موضعه .

وأما ما يكفره الابتلاء من السيئات فذلك جوزي بـه صاحبـه بالمصـائب المكفرة ، كما في قوله ﷺ : « مـا يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ، ولا هم ولا حـزن ، ولا غم ولا أذى إلا كفر الله بـه خـطايـاه » (٢) ولمـا أنـزل الله تعالى هذه الآيـة : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُـوءاً يُجْزَ بِـهِ ﴾ (٣) قال أبـو بكر : يـا رسول الله : جاءت قاصمة الظهـر ، وأينا لم يعمـل سوءاً ؟ فقـال : « ألست تحزن ؟

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٣ صدر الآية ﴿ ولا تكرهـوا فتياتكم على البغـاء إن أردن تحصناً لتبتغـوا عرض الحياة الدنيا ﴾

قال السدي : نـزلت هذه الآيـة الكريمـة في عبد الله بن أبي سلول رأس المنـافقين وكانت لـه جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ارادة الثواب منـه والكرامـة له فـأقبلت الجاريـة الى أبي بكر ـ رضي الله عنـه فشكت إليه ذلـك فذكـره أبو بكـر للنبي ـ ﷺ ـ فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبي من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فـأنزل الله فيهم هذا .

(٢) الحديث رواه الامام البخـاري في كتاب المـرض ١ باب مـا جاء في كفـارة المَرض ٥٦٤١ ، ٥٦٤٢ حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حـدثنا زهيـر بن محمد عن محمـد بن عمرو بـن حلحلة عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري ، وعن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره ، وروواه الإمام مسلم في كتاب البر ٥٢ ، والترمذي في الجنائز ١ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٠٣ ، ٣٣٥ ، ٣ : ٤ ، ١٨ ، ٢٤ (حلبي) .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٢٣ .

ألست تنصب ، ألست تصيبك اللأوى ؟ فذلك مما تجزون به » [(١)] .

فتبين أن قوله : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [(٢)] أي نسي الفتى ذكر ربه أن يذكر هذا لربه ، ونسي ذكر يوسف ربه ، والمصدر يضاف الى الفاعل والمفعول ، ويوسف قد ذكر ربه ونسي الفتى ذكر يوسف ربه ، وأنساه الشيطان أن يذكر ربه ، هذا الذكر الخاص ، فإنه وإن كان يسقي ربه خمراً فقد لا يخطر هذا الذكر بقلبه ، وأنساه الشيطان تذكير ربه ،وإذكار ربه كما قال : ﴿ اذكرني ﴾ أمره بإذكار ربه ، فأنساه الشيطان إذكار ربه ، فإذكار ربه أن يجعله ذاكراً ، فأنساه الشيطان أن يجعل ربه ذاكراً ليوسف ، والذكر هو مصدر وهو اسم ، فقد يضاف من جهة كونه اسماً ، فيعم هذا كله ، أي أنساه الذكر المتعلق بربه ، والمضاف إليه . ومما يبين أن الذي نسي ربه هو الفتى لا يوسف قوله بعد ذلك : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ـ وادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ـ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [(٣)] وقوله : ﴿ وادّكر بعد أمّة ﴾ دليل على أنه كان قد نسي فادكر .

فإن قيل : لا ريب أن يوسف سمى السيد ربا في قوله : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ و﴿ ارجع إلى ربك ﴾ ونحو ذلك . وهذا كان جائزاً في شرعه ، كما جاز في شرعه أن يسجد له أبواه وإخوته ، وكما جاز في شرعه أن يؤخذ السارق عبداً وإن كان هذا منسوخاً في شرع محمد ﷺ وقوله : ﴿ إنَّهُ رَبِّي

---

(١) قال الامام أحمد : حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا إسماعيل عن أبي بكر بن أبي زهير . قال : أخبرت أن أبا بكر ـ رضي الله عنه قال يا رسول الله كيف الفلاح بعد هذه الآية . . ؟
ورواه سعيد بن منصور عن خلف بن خليفة عن إسماعيل بن أبي خالد به ، ورواه الحاكم من طريق سفيان الثوري عن إسماعيل به ، وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن زياد الجصاص عن علي بن زيد عن مجاهد عن ابن عمر قال سمعت أبا بكر يقول : وذكره ، ورواه أبو بكر البزار في مسنده عن الفضل بن سهل عن عبد الوهاب بن عطاء به مختصراً .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٤٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٤٥ .

أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [1] إن أراد به السيد فلا جناح عليه ، لكن معلوم أن ترك الفاحشة خوفاً لله واجب ولو رضي سيدها ، ويوسف عليه السلام تركها خوفاً من الله . ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ [2] قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾ [3] وقال يوسف أيضاً : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ ، فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [4]

فدل على أنه كان معه من خوف الله ما يزعه عن الفاحشة ، ولو رضي بها الناس ، وقد دعا ربه عز وجل أن يصرف عنه كيدهن . وقوله : ﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [5] بصيغة جمع التذكير وقوله : ﴿ كيدهن ﴾ بصيغة جمع التأنيث ، ولم يقل مما يدعينني إليه ، دليل على الفرق بين هذا وهذا ، وأنه كان من الذكور من يدعوه مع النساء إلى الفحشاء بالمرأة ، وليس هناك إلا زوجها ، وذلك أن زوجها كان قليل الغيرة ، أو عديمها ، وكان يحب امرأته ويطيعها ، ولهذا لما اطلع على مراودتها قال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِينَ ﴾ [6] فلم يعاقبها ، ولم يفرق بينها وبين يوسف حتى لا تتمكن من مراودته ، وأمر يوسف أن لا يذكر ما جرى لأحد محبة منه لامرأته ، ولو كان فيه غيرة لعاقب المرأة .

ومع هذا فشاعت القصة واطلع عليها الناس من غير جهة يوسف حتى تحدثت بها النسوة في المدينة ، وذكروا أنها تراود فتاها عن نفسه ، ومع

---

(١) سرة يوسف آية رقم ٢٣ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .
(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .
(٤) سورة يوسف آية رقم ٣٣ - ٣٤ .
(٥) سورة يوسف آية رقم ٣٣ .
(٦) سورة يوسف آية رقم ٢٩ .

هذا : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً ، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ وأمرت يوسف أن يخرج عليهن ؛ ليقمن عذرها على مراودته ، وهي تقول لهن : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ، وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [1]

وهذا يدل على أنها لم تزل متمكنة من مراودته ، والخلوة به مع علم الزوج بما جرى ، وهذا من أعظم الدياثة ، ثم إنه لما حبس فإنما حبس بأمرها ، والمرأة لا تتمكن من حبسه إلا بأمر الزوج ، فالزوج هو الذي حبسه ، وقد روى أنها قالت : هذا القبطي هتك عرضي فحبسه ، وحبسه لأجل المرأة معاونة لها على مطلبها لدياثته ، وقلة غيرته ، فدخل هو في من دعاء يوسف إلى الفاحشة . فعلم أن يوسف لم يترك الفاحشة لأجله ، ولا لخوفه منه بل قد علم يقيناً أنه لم يكن يخاف منه ، وأن يوسف لو أعطاها ما طلبت لم يكن الزوج يدري، ولو درى فلعله لم يكن ينكر ، فإنه قد درى بالمراودة والخلوة التي هي مقتضية لذلك في الغالب فلم ينكر ، ولو قدر أنه هم بعقوبة يوسف فكانت هي الحاكمة على الزوج القاهرة له . وقد قال النبي ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » [2] ولما راجعنه في إمامة الصديق قال: «إنكن لأنتن صواحب

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٢ إستعصم : امتنع قال بعضهم لما رأين جماله الظاهر أخبرتهن بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن وهي العفة مع هذا الجمال ثم قالت تتوعده ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

(٢) الحديث عند البخاري في كتاب الحيض ٦ باب ترك الحائض الصوم ٣٠٤ حدثنا سعيد بن أبي مريم ، قال أخبرنا محمد بن جعفر ، قال أخبرني زيد هو ابن أسلم عن عياض بن عبد الله عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله ـ ﷺ ـ في أضحى ـ أو في فطر ـ الى المصلى فمر على النساء فقال يا معشر النساء تصدقن فإني أريتكن أكثر أهل النار ، فقلن وبم يا رسول الله . . ؟ قال : تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الزكاة =

يوسف »[1] ولما أنشده الأعشى :[2]

وهن شر غالب لمن غلب

استعاد ذلك منه وقال : وهن شر غالب لمن غلب . فكيف لا تغلب مثل هذا الزوج وتمنعه من عقوبة يوسف ؟ وقد عهد الناس خلقاً من الناس تغلبهم نساؤهم ؛ من نساء التتر وغيرهم ، يكون لامرأته غرض فاسد في فتاه أو فتاها ، وتفعل معه ما تريد وإن أراد الزوج أن يكشف أو يعاقب منعته ودفعته ، بل وأهانته وفتحت عليه أبواباً من الشر بنفسها ، وأهلها وحشمها ، والمطالبة بصداقها وغير ذلك ، حتى يتمنى الرجل الخلاص منها رأساً برأس ، مع كون الرجل فيه غيرة فكيف مع ضعف الغيرة ؟ .

فهذا كله يبين أن الداعي ليوسف إلى ترك الفاحشة كان خوف الله لا خوفاً من السيد . فلهذا قال : ﴿ **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾[3] قيل هذا مما يبين محاسن يوسف ، ورعايته لحق الله وحق المخلوقين ، ودفعه الشر بالتي هي أحسن ، فإن الزنا بامرأة الغير فيه حقان مانعان ، كل منهما مستقل بالتحريم . فالفاحشة حرام لحق الله ولو رضي الزوج ، وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه ، بحيث لو سقط حق الله بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط ، كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق الله لم يسقط حق المظلوم بذلك ، ولو جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها

= ٤٤ - وعند الإمام مسلم في إيمان١٣٢ ورواه أبو داود في كتاب السنة ١٥ ، والترمذي في إيمان ٦ وابن ماجه في الفتن ١٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٦٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤

(١) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ١٦٤ .

(٢) هو عبد الله بن خارجة بن حبيب (أو خبيب) من بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان ، شاعر اشتهر في أيام بني مروان بالشام له مدح في بشر بن مروان ، وعبد الملك بن مروان ، وسليمان بن عبد الملك ، توفي عام ١٠٠هـ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

ويلاعنها، ويسعى في عقوبتها بالرجم ، بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن ، بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء ، فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها ، وهو عنده أعظم من أخذ ماله . ولهذا يجوز له قتله دفعاً عنها باتفاق العلماء إذا لم يندفع إلا بالقتل بالاتفاق ، ويجوز في أظهر القولين قتله وإن اندفع بدونه كما في قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . لما أتاه رجل بيده سيف فيه دم ، وذكر أنه وجد رجلاً تفخذ امرأته فضربه بالسيف ، فأقره عمر على ذلك وشكره ، وقبل قوله أنه قتله لذلك إذ ظهرت دلائل ذلك .

وهذا كما لو اطلع رجل في بيته فإنه يجوز له أن يفقأ عينه ابتداء وليس عليه أن ينذره ، هذا أصح القولين ، كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « لو اطلع رجل في بيتك ففقأت عينه ما كان عليك شيء »(١) وكذلك قال في الذي عض يد غيره فنزع يده فانقلعت أسنان العاض .

وهذا مذهب فقهاء الحديث ، وأكثر السلف ، وفي المسألتين نزاع ليس هذا موضعه ، إذ المقصود أن الزاني بامرأة غيره ظالم للزوج وللزوج حق عنده ، ولهذا ذكر النبي ﷺ أن من زنى بامرأة المجاهد فإنه يمكن يوم القيامة من حسناته يأخذ منها ما شاء(٢) . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني بحليلة جارك »(٣) فذكر الزنا بحليلة الجار ، فعلم أن للزوج

---

(١) الحديث عند الإمام أحمد في المسند ٢ : ٥٢٧ (حلبي) وعند أبي داود في الأدب ١٢٧ ، وعند النسائي في القسامة ٤٧ .

(٣) الحديث عند البخاري في كتاب التوحيد ٤٠ باب قول الله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ .
٧٥٢٠ ـ حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير بن منصور عن أبي وائل عن عمرو بن شرحيل عن عبد الله قال : سألت النبي ـ ﷺ ـ وذكره ، ورواه أيضاً في التفسير سورة ٢ ، ٣ ، ٣٥ ، ورواه أبو داود في الأدب ٢٠ ، والديات ١ ، وفي الحدود ١٩ ، ورواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ١٤١ ، ١٤٢ ، وأبو داود في الطلاق ٥٠ ، والترمذي في التفسير سورة ٢٥ ـ ١ ، ٢ ،

حقاً في ذلك ، وكان ظلم الجار أعظم ، للحاجة إلى المجاورة .

وإن قيل: هذا قد لا يمكن زوج المرأة أن يحترز منه ، والجار عليه حق زائد على حق الأجنبي ، فكيف إذا ظلم في أهله والجيران يأمن بعضهم بعضاً ، ففي هذا من الظلم أكثر مما في غيره ، وجاره يجب عليه أن يحفظ امرأته من غيره ، فكيف يفسدها هو . فلما كان الزنا بالمرأة المزوجة له علتان كل منهما تستقل بالتحريم ، مثل لحم الخنزير الميت : علل يوسف ذلك بحق الزوج ، وإن كان كل من الأمرين مانعاً له ، وكان في تعليله بحق الزوج فوائد . « منها » أن هذا مانع تعرفه المرأة وتعذره به ، بخلاف حق الله تعالى فإنها لا تعرف عقوبة الله في ذلك . و« منها » أن المرأة قد ترتدع بذلك ، فترعى حق زوجها ، إما خوفاً وإما رعاية لحقه ، فإنه إذا كان المملوك يمتنع عن هذا رعاية لحق سيده فالمرأة أولى بذلك ، لأنها خائنة في نفس المقصود منها ، بخلاف المملوك فإن المطلوب منه الخدمة ، وفاحشته بمنزلة سرقة المرأة من ماله .

و« منها » إن هذا مانع مؤيس لها فلا تطمع فيه لا بنكاح ولا بسفاح ، بخلاف الخلية من الزوج ، فإنها تطمع فيه بنكاح حلال . و« منها » أنه لو علل بالزنا فقد تسعى هي في فراق الزوج . والتزوج به ، فإن هذا إنما يحرم لحق الزوج خاصة ، ولهذا إذا طلقت امرأته باختياره جاز لغيره أن يتزوجها ، ولو طلقها ليتزوج بها ـ كما قال سعد بن الربيع (١) لعبد الرحمن بن عوف (٢) إن

= والنسائي في التحريم ١٤ ، وعند الإمام أحمد في المسند ١ : ٣٨٠ ـ ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ (حلبي) .

(١) هو سعد بن الربيع بن عمرو ، من بني الحارث بن الخزرج : صحابي من كبارهم ، كان أحد النقباء يوم العقبة وشهد موقعة بدر واستشهد يوم أحد عام ٣ هـ .

راجع جمهرة الأنساب ٢٤٠ ونهاية الأرب ١١٦ و ٢٣٨ وصفة الصفوة ١ : ١٩١ والاصابة الترجمة ٣١٤٧ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث أبو محمد الزهري القرشي : صحابي =

لي امـرأتين فاختـر أيتهما شئت حتى أطلقهـا وتتزوجهـا ـ لكنه بـدون رضـاه لا يحل ، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس منا من خبب امرأة على زوجها ، ولا عبداً على مواليه » (١) وقد حرم النبي ﷺ أن يخطب الرجـل على خطبة أخيه ، ويستام على سوم أخيه (٢) ، فإذا كان بعد الخطبة وقبل العقـد لا يحل له أن يطلب التزوج بامرأته فكيف بعد العقد ، والدخول والصحبة ؟ .

فلو علل بأن هذا زنا محرم ربما طمعت في أن تفارق الزوج وتتزوجـه ، فإن كيدهن عظيم وقد جـرى مثل هـذا ، فلما علل بحق سيـده وقال : ﴿ إنـه ربي أحسن مثـواي ﴾ يئست من ذلك ، وعلمت أنـه يراعي حق الـزوج ، فـلا يزاحمه في امرأته البتة ، ثم لو قـدر مع هـذا أن الزوج رضي بـالفاحشـة وأباح

= من أكابرهم ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحـاب الشورى الـذين جعل عمر الخلافـة فيهم ، وأحد السـابقين إلى الاسلام قيـل : هو الثـامن اسمه في الجـاهلية عبـد الكعبة وسماه رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الرحمن جرح يوم أحد ٢١ جـراحة لـه ٦٥ حديثـاً ووفاتـه بالمدينة عام ٣٢ هـ .

راجع صفة الصفوة ١ : ١٣٥ وحلية الأولياء ١ : ٩٨ وتاريـخ الخميس ٢ : ٢٥٧ والاصابـة ت ٥١٧١ .

(١) الحـديث عند الامـام أحمـد في المسنـد ٢ : ٣٩٧ ، ٥ : ٣٥٢ ، ٣٥٥ وأبـو داود في الأدب ١٢٦ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتـاب البيوع ٥٨ بـاب لا يبيع على بيـع أخيه ولا يسـوم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يترك ، ٢١٤٠ حدثنا علي بن عبد الله حدثنـا سفيان ، حـدثنا الـزهري ، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه قال : وذكره وفيه زيادة « ولا تسأل المرأة طـلاق أختها لتكفأ ما في أنـائها » . ورواه أيضـاً في كتاب النكـاح ٤٥ باب لا يخـطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع . بسنده عن ابن عمر . ورواه الإمام مسلم في البيوع ٨ ، والنكاح ٣٨ ، ٣٩ ـ ٥٢ ـ ٥٤ ـ ٥٦ ، وأبو داود في النكاح ١٧ والترمذي في النكاح ٣٨ ـ والنسائي في البيوع ١٩ ، وابن ماجه في النكاح ١٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٥٣ ، ٢٣٨ ، ٢٧٤ (حلبي) ورواه صاحب الموطأ في النكاح ١ ، ٢ ، ١٢ .

امرأته لم يكن هذا مما يبيحها لحق الله ولحقه أيضاً ، فإنه ليس كل حق للإنسان له أن يسقطه ، ولا يسقط بإسقاطه ، وإنما ذاك فيما يباح له بذله ، وهو ما لا ضرر عليه في بذله ، مثل ما يعطيه من فضل مال ونفع .

وأما ما ليس له بذله فلا يباح بإباحته ، كما لو قال له : علمني السحر والكفر والكهانة ! وأنت في حل من إضلالي ، أو قال له : بعني رقيقاً وخذ ثمني ، وأنت في حل من ذلك .

وكذلك إذا قال : إفعل بي أو بابني أو بامرأتي أو بإمائي الفاحشة لم يكن هذا مما يسقط حقه فيه بإباحته ، فإنه ليس له بذل ذلك ، ومعلوم أن الله يعاقبها على الفاحشة وإن تراضيا بها ، لكن المقصود أن في ذلك أيضاً ظلماً لهذا الشخص لا يرتفع بإباحته ، كظلمه إذا جعله كافراً أو رقيقاً ، فإن كونه يفعل به الفاحشة أو بأهله فيه ضرر عليه لا يملك إباحته كالضرر عليه في كونه كافراً ، وهو كما لو قال له : أزل عقلي وأنت في حل من ذلك ، فإن الإنسان لا يملك بذل ذلك ، بل هو ممنوع من ذلك ، كما يمنع السفيه من التصرف في ماله أو اسقاطه حقوقه ، وكذلك المجنون والصغير ، فإن هؤلاء محجور عليهم لحقهم . ولهذا لو أذن له الصبي أو السفيه في أخذ ماله لم يكن له ذلك . ومن أذن لغيره في تكفيره أو تجنينه أو تخنيثه والإفحاش به وبأهله فهو من أسفه السفهاء ، وهذا مثل الربا ، فإنه وإن رضي به المرابي وهو بالغ رشيد لم يبح ذلك ، لما فيه من ظلمه ، ولهذا له أن يطالبه بما قبض منه من الزيادة ، ولا يعطيه إلا رأس ماله ، وإن كان قد بذله باختياره ، ولو كان التحريم لمجرد حق الله تعالى لسقط برضاه ، ولو كان حقه إذا أسقطه سقط لما كان له الرجوع في الزيادة ، والإنسان يحرم عليه قتل نفسه أعظم مما يحرم عليه قتل غيره ، فلو قال لغيره : اقتلني لم يملك منه أعظم مما يملك هو من نفسه . ولهذا يوم القيامة يتظلم من الأكابر ، وهم لم يكرهوهم على الكفر ، بل باختيارهم كفروا . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ

يقولُونَ: يَا لَيْتَنَا أطَعْنَا اللهَ وَأطَعْنَا الرَّسُولاَ ، وَقَالُوا : رَبَّنَا إنَّا أطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَراءَنَافأضَلُّونَا السَّبِيلا ، رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ والْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾[١] وقال : ﴿ حَتَّى إذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ : رَبَّنَا هَؤْلاءِ أضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ ، قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ وَالإنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسْفَلِينَ ﴾[٣] وكذلك الناس يلعنون الشيطان ، وإن كان لم يكرههم على الذنوب ، بل هم باختيارهم أذنبوا .

فإن قيل : هؤلاء يقولون لشياطين الإنس والجن : نحن لم نكن نعلم أن في هذا علينا ضرراً ، ولكن أنتم زينتم لنا هذا وحسنتموه حتى فعلناه ، ونحن كنا جاهلين بالأمر ، قيل : كما نعلم أن الجاهل بما عليه في الفعل من الضرر لا عبرة برضاه وإذنه ، وإنما يصح الرضاء والإذن ممن يعلم ما يأذن فيه ويرضى به ، وما كان على الإنسان فيه ضرر راجح لا يرضى به إلاّ لعدم علمه وإلا فالنفس تمتنع بذاتها من الضرر الراجح .

ولهذا كان من اشترى المعيب والمدلس والمجهول السعر ولم يعلم بحاله غير راض به ، بل له الفسخ بعد ذلك ، كذلك الكفر والجنون والفاحشة بالأهل لا يرضى بها إلا من لم يعلم بما فيها من الضرر عليه ، فإذا أذن فيها لم يسقط حقه ، بل يكون مظلوماً ، ولو قال : أنا أعلم ما فيها من العقاب وأرضى به كان كذباً ، بل هو من أجهل الناس بما يقوله .

ولهذا لو تكلم بكلام لا يفهم معناه ، وقال نويت موجبه عند الله لم يصح ذلك في أظهر القولين ، مثل أن يقول : « بهشم » ولا يعرف معناها ، أو

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٦٦ ـ ٦٨ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣٨ .

(٣) سورة فصلت آية رقم ٢٩ .

يقول : أنت طالق إن دخلت الدار وينوي موجبها من العربية ، وهو لا يعرف ذلك ، فإن النية والقصد والرضا مشروط بالعلم ، فما لم يعلمه لا يرضى به ، إلا إذا كان راضياً به مع العلم ، ومن كان يرضى بأن يكفر ويجن وتفعل الفاحشة به وبأهله ، فهو لا يعلم ما عليه في ذلك من الضرر ، بل هو سفيه ، فلا عبرة برضاه وإذنه ، بل له حق عند من ظلمه وفعل به ذلك غير ما لله من الحق ، وإن كان حق هذا دون حق المنكر المانع .

ولهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿ **إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾ (١) يقول : متى أفسدت امرأته كنت ظالماً بكل حال ، وليس هذا جزاء إحسانه إليّ .

والناس إذا تعاونوا على الإثم والعدوان أبغض بعضهم بعضاً ، وإن كانوا فعلوه بتراضيهم ، قال طاوس (٢) : ما اجتمع رجلان على غير ذات الله إلا تفرقا عن تقال ، وقال الخليل عليه السلام : ﴿ **إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ، وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُم مِنْ نَاصِرِينَ** ﴾ (٣) . وهؤلاء لا يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً لمجرد كونه عصى الله ، بل لما حصل له بمشاركته ومعاونته من الضرر وقال تعالى عن أهل الجنة التي أصبحت

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

(٢) هو طاوس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء ، أبو عبد الرحمن من أكابر التابعين تفقهاً في الدين ورواية للحديث ، وتقشفاً في العيش وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك ، أصله من الفرس ومولده عام ٣٣ هـ في اليمن ، توفي حاجاً بالمزدلفة عام ١٠٦ هـ وكان هشام بن عبد الملك حاجاً تلك السنة ، فصلى عليه وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء . قال ابن عيينة : فتجنبوا السلطان ثلاثة . أبو ذر ، وطاوس ، والثوري .

راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٨ وصفة الصفوة ٢ : ١٦٠ وحلية الأولياء ٤ : ٣ وابن خلكان ١ : ٢٣٣

(٣) سورة العنكبوت آية رقم ٢٥ .

كـالصـريم ، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ﴾ [1] أي يلوم بعضهم بعضاً . وقال : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [2] .

فالمخالة إذا كانت على غير مصلحة الاثنين كـانت عاقبتهـا عداوة ، وإنمـا تكون على مصلحتهما إذا كانت في ذات الله ، فكل منهما وإن بذل للآخـر إعانـة على ما يطلبه واستعان به بإذنه فيما يطلبه ، فهذا التراضي لا اعتبار به ، بل يعود تباغضاً وتعادياً وتلاعناً ، وكل منهما يقول للآخر : لولا أنت ما فعلت أنا وحدي هذا، فهلاكي كان مني ومنك .

والرب لا يمنعهما من التباغض والتعادي والتلاعن ، فلو كان أحدهما ظـالماً لـلآخر فيـه لنهي عن ذلك . ويقـول كل منهـما للآخـر : أنت لأجـل غـرضـك أوقعتني في هذا ؛ كالزانيين كل منهما يقول للآخـر ، لأجل غـرضك فعلت معي هذا ، ولو امتنعت لم أفعل أنا هذا ، لكن كل منهما له على الآخر مثل ما للآخر عليه ؛ فتعادلا .

ولهذا إذا كان الطلب والمراودة من أحدهما أكثر كان الآخـر يتظلمـه ويلعنه أكثر ، وإن تساويا في الطلب تقاوما ، فإذا رضي الزوج بالدياثة فإنما هو لإرضاء الرجل أو المرأة لغرض له آخر ؛ مثل أن يكـون محباً لهـا ، ولا تقيم معه إلا على هذا الوجه ، فهو يقول للزاني بها : أنت لغرضك أفسدت عـلي امرأتي ، وأنـا إنما رضيت لأجـل غرضهـا ، فأنت لمـا أفسدت عـلي امرأتي وظلمتني فعلت

(١) سورة القلم آية رقم ٣٠ ذكر بعض السلف أن هؤلاء كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير كان من قرية يقال لها خروان على ستة أميال من صنعاء ، وقيل : كانوا من أهل الحبشـة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب، وقـد كان أبـوهم يسير فيهـا سيرة حسنـة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ، ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفـاضل ، فلما مات ، وورثه بنوه قالوا لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ولو أنا منعنـاهم لتوفر ذلك علينا فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم فأذهب الله مـا بأيـديهم كليـة رأس المال والربح والصدقة فلم يبق لهم شيء .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٦٧ .

معي ما فعلت . ومن ذلك أنـه لو قـال : إني أخاف الله أن يعـاقبني ونحو ذلـك لقـالت : أنت إنما تتـرك غرضي لغـرضك في النجـاة ، وأنا سيـدتك فينبغي أن تقـدم غرضي عـلى غرضـك ، فلما قال : ﴿ إِنَّـهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْـوَايَ ﴾ [1] علل بحق سيده الذي يجب عليه وعليها رعاية حقه .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

فصل

وفي قـول يوسف : ﴿ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ [(١)] عبرتان :

« إحداهما » : إختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي .

و« الثانية » طلب سؤال الله ودعـائه أن يثبت القلب عـلى دينه ، ويصـرفه إلى طاعته ، وإلا فإذا لم يثبت القلب وإلا صبا إلى الآمرين بالذنوب ، وصار من الجاهلين .

ففي هـذا تـوكـل عـلى الله واستعـانـة بـه أن يثبت القلب عـلى الإيمـان والطاعة ، وفيه صبر على المحنة والبـلاء ، والأذى الحاصـل إذا ثبت على الإيمـان والطاعة .

وهذا كقـول مـوسى عليه السـلام لقومـه : ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣ وتمشياً مع عفة يوسف عليه السـلام وصبره عـلى هذا البـلاء . ورد في الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ قال : سبعة يظلهم في ظله يوم القيـامة يـوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجـد إذا خرج منـه حتى يعود إليـه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقـا عليه ، ورجـل تصدق بصـدقة فـأخفاهـا حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجـل دعته امـرأة ذات منصب وجمال فقـال : إني أخاف الله ، ورجـل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

﴿ الأَرْضَ لله يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [1] لما قال فرعون : ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ، وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ ﴾ [2] ، ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : اسْتَعِينُوا باللهِ وَاصْبِرُوا، إِنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا في الله مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً ، وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [3] ومنه قول يوسف عليه السلام : ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [4] وهو نظير قوله : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [5] : وقوله : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ المَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [6] .

فلا بد من التقوى بفعل المأمور والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف عليه السلام : اتقى الله بالعفة عن الفاحشة ، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس ، واستعان الله ودعاه ، حتى يثبته على العفة فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن ، وصبر على الحبس . وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِالله فَإِذَا أُوذِيَ فِي الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ الله ﴾ [7] وكما قال تعالى :

---

(1) سورة الأعراف آية رقم ١٢٨ .

(2) سورة الأعراف آية رقم ١٢٧ .

(3) سورة النحل آية رقم ٤١ - ٤٢ .

(4) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(5) سورة آل عمران آية رقم ١٢٠ .

(6) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ .

(7) سورة العنكبوت آية رقم ١٠ قال ابن عباس يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله ، وكذا قال غيره من علماء السلف وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ الى قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ، ذَٰلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينُ ، يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ البَعِيدُ يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ، لَبِئْسَ المَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ العَشِيرُ ﴾ (١) فإنه لا بد من أذى لكل من كان في الدنيا ، فإن لم يصبر على الأذى في طاعة الله ، بل اختار المعصية ،كان مايحصل له من الشر أعظم مما فر منه بكثير . ﴿ وَمِنْهُم مَن يَقُولُ ائْذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ (٢) ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله ، كما فعل يوسف عليه السلام وغيره من الأنبياء والصالحين ، كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسروراً ، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزناً وثبوراً .

فيوسف ﷺ خاف الله من الذنوب ، ولم يخف من أذى الخلق وحبسهم إذا أطاع الله ؛ بل آثر الحبس والأذى مع الطاعة على الكرامة والعز وقضاء الشهوات ونيل الرياسة والمال مع المعصية ، فإنه لو وافق امرأة العزيز نال الشهوة ، وأكرمته المرأة بالمال والرياسة ، وزوجها في طاعتها ، فاختار يوسف الذل والحبس ، وترك الشهوة والخروج عن المال والرياسة ، مع الطاعة على العز والرياسة والمال وقضاء الشهوة مع المعصية . بل قدم الخوف من الخالق على الخوف من المخلوق ، وإن آذاه بالحبس والكذب فإنها كذبت عليه فزعمت أنه راودها ثم حبسته بعد ذلك . وقد قيل : إنها قالت لزوجها إنه هتك عرضي لم يمكنها أن تقول له راودني ، فإن زوجها قد عرف القصة ، بل كذبت عليه كذبة

---

(١) سورة الحج آية رقم ١١ ـ ١٣ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٤٩ روي عن ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد أنها نزلت في الجد بن قيس ، وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة ، وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لهم : من سيدكم يا بني سلمة . . ؟ قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله فقال رسول الله ﷺ وأي داء أدوأ من البخل . . ؟ ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » .

تروج على زوجها ، وهو أنه قد هتك عرضها بإشاعة فعلها ، وكانت كاذبة على يوسف لم يذكر عنها شيئاً ، بل كذبت أولاً وآخراً ، كذبت عليه بأنه طلب الفاحشة ، وكذبت عليه بأنه أشاعها ، وهي التي طالبت وأشاعت ، فإنها قالت للنسوة : فذلكن الذي لمتنني فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، فهذا غاية الإشاعة لفاحشتها لم تستر نفسها .

والنساء أعظم إخباراً بمثل ذلك ، وهن قبل أن يسمعن قولها قد قلن في المدينة : ﴿ **امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه** ﴾ فكيف إذا اعترفت بذلك وطلبت رفع الملام عنها ؟ وقد قيل : إنهن أعنها على المراودة ، وعذلته على الامتناع ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ **وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ** ﴾[1] وقوله : ﴿ **ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ** ﴾[2] فدل على أن هناك كيداً منهن ، وقد قال لهن الملك : ﴿ **مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ لله مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ العَزِيزِ : الآنَ حَصْحَصَ الحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾[3] فهن لم يراودنه لأنفسهن ، إذ كان ذلك غير ممكن ، وهو عند المرأة في بيتها وتحت حجرها ، لكن قد يكن أعنَّ المرأة على مطلوبها .

وإذا كان هذا في فعل الفاحشة فغيرها من الذنوب أعظم ، مثل الظلم العظيم للخلق ، كقتل النفس المعصومة ، ومثل الإشراك بالله ، ومثل القول على الله بغير علم . قال تعالى : -

﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ**

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٠ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٥١ .

الحَقِّ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً . وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) . فهذه أجناس المحرمات التي لا تباح بحال ، ولا في شريعة ، وما سواها ـ وإن حرم في حال ـ فقد يباح في حال .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

فصل

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ (١) فالهم : اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد : الهم همان ، هم خطرات وهم إصرار ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي - ﷺ - أن العبد إذا هم بسيئة لم تكتب عليه ، وإذا تركها لله كتبت له حسنة . وإن عملها كتبت له سيئة واحدة ، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ، ولا تكتب عليه سيئة ، ويوسف ﷺ - هم هماً تركه لله ، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء **لإخلاصه** . وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب وهو الهم وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله . فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ ﴾ (٢) وأما ما ينقل من أنه حل سراويله

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٠١ أورد الحافظ أبو بكر بن مرداويه ههنا حديث عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضي الله عنه . قال : جاءت امرأة الى النبي ﷺ - وبها طيف فقالت يا رسول الله : ادع الله أن يشفيني فقال : إن شئت دعوت الله فشفاك وإن شئت صبرت ولك الجنة ، فقالت : بل أصبر ولي الجنة ، ولكن ادع الله أن لا أتكشف فدعا لها فكانت لا تتكشف وأخرجه الحاكم في مستدركه ، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة عمرو بن جامع من تاريخه أن شاباً كان يتعبد في المسجد فهويته امرأة فدعته الى نفسها فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل فذكر هذه الآية ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم =

وجلس مجلس الرجل من المرأة ، وأنه رأى صورة يعقوب عاضاً على يده ، وأمثال ذلك فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله ، وما لم يكن كذلك فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء ، وقدحاً فيهم ، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله ، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ـ ﷺ حرفاً واحداً . وقوله ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (١) فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالة بينة لا يرتاب فيها من تدبر القرآن حيث قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ . قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أبرىء نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَة بِالسوء إلا مَا رَحِمَ رَبِّي إن ربي غَفُورٌ رَحِيم ﴾ (٢) فهذا كله كلام امرأة العزيز ، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه .

ولكن لما ظهرت براءته في غيبته كما قالت امرأة العزيز ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ .

أي لم أخنه في حال مغيبه عني ، وإن كنت في حال شهوده راودته فحينئذ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ : إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٣) .

= طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ فخر مغشياً عليه .

(١) سورة يوسف آية رقم ٥٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٠ ـ ٥٢ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٥٤.

وقـد قال كثـير من المفسرين : إن هـذا من كـلام يـوسف ، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول ، وهو قول في غاية الفساد ، ولا دليل عليـه بل الأدلـة تدل على نقيضه ، وقد بسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضوع .

فصل

واختيــار النبي ﷺ لـه ولأهله الاحتبـاس في شعب بني هـاشم بضـع سنين ، لا يبايعون ولا يشارون ، وصبياتهم يتضاغون من الجوع ، قد هجرهم وقلاهم قومهم ، وغير قومهم ، هذا أكمل من حال يوسف عليه السلام [(١)] .

فإن هؤلاء كانـوا يدعـون الرسـول إلى الشرك ، وأن يقـول على الله غير الحق ، يقـول : ما أرسلني ولا نهى عن الشـرك . وقد قـال تعالى : ـ ﴿ **وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَـا إِلَيْكَ ، لِتَفْتَـرِيَ عَلَيْنَا غَيْـرَهُ ، وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ، وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئـاً قَلِيلاً، إِذاً لأَذَقْنَـاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ، وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا . وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً ، سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا**

---

(١) قصة شعب بني هاشم . والـوثيقة التي كتبتهـا قريش ، والصبـر الشديـد والآلام القواتن الـذي تعرض له رسول الله ـ ﷺ ـ في تلك الفترة العصيبة من بدايـة الدعـوة الإسلاميـة ـ ويقابـل هذا الاغراء الكبير والنعيم الوافر الذي كانت تعده قريش للرسول ـ ﷺ ـ إذا رجع عن هـذه الدعـوة وتركهم وأصنامهم ـ ولكن الرسول ـ ﷺ ـ آثر الجوع والحرمان والتنكيل لأصحابه حتى يظهـر الله هذا الأمر . كما قال كلمته المشهورة : والله يا عم لو وضعـوا الشمس في يميني والقمر في يسـاري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

راجع قصة شعب بني هاشم ووثيقة المقاطعة في سيرة ابن هشام الجزء الأول

﴿ قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا . وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [1]

وكان كذب هؤلاء على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف ، فإنهم قالوا : إنه ساحر ، وإنه كاهن ، وإنه مجنون ، وإنه مفتر ، وكل واحدة من هؤلاء أعظم من الزنا والقذف ، لا سيما الزنا المستور الذي لا يدري به أحد ، فإن يوسف كذب عليه في أنه زنى ، وأنه قذفها وأشاع عنها الفاحشة ، فكان الكذب على النبي ﷺ أعظم من الكذب على يوسف . وكذلك الكذب على أولي العزم ، مثل نوح وموسى ، حيث يقال عن الواحد منهم : إنه مجنون ، وإنه كذاب ، يكذب على الله ، وما لقي النبي ﷺ وأصحابه من أذى المشركين أعظم من مجرد الحبس ، فإن يوسف حبس وسكت عنه ، والنبي ﷺ وأصحابه كانوا يؤذون بالأقوال والأفعال مع منعهم من تصرفاتهم المعتادة . وهذا معنى الحبس ، فإنه ليس المقصود بالحبس سكناه في السجن ، بل المراد منعه من التصرف المعتاد ، والنبي ﷺ لم يكن له حبس ، ولا لأبي بكر ، بل أول من اتخذ السجن عمر ، وكان النبي ﷺ يسلم الغريم إلى غريمه ويقول : « ما فعل أسيرك » فيجعله أسيراً معه ، حتى يقضيه حقه ، وهذا هو المطلوب من الحبس . والصحابة - رضي الله عنهم - منعوهم من التصرف بمكة أذى لهم ، حتى خرج كثير منهم إلى أرض الحبشة ، فاختاروا السكنى بين أولئك النصارى عند ملك عادل على السكنى بين قومهم ، والباقون أخرجوا من ديارهم وأموالهم أيضاً مع ما آذوهم به ، حتى قتلوا بعضهم وكانوا يضربون بعضهم ويمنعون بعضهم ما يحتاج إليه ، ويضعون الصخرة على بطن أحدهم في رمضاء مكة [2] ، إلى غير ذلك من أنواع

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ٧٣ - ٧٧ .

(٢) إن التاريخ يحدثنا حديثاً مستفيضاً عن هؤلاء الصحابة الأول الذين اعتنقوا الاسلام وكيف أن قريشاً كانت تصب عليهم العذاب صباً كما فعلت مع أسماء . أم عمار بن ياسر الذي صب أبو =

الأذى . وكـذلك المؤمن من أمـة محمد ﷺ يختـار الأذى في طاعـة الله على الإكـرام مع معصيتـه ، كأحمـد بن حنبل اختـار القيد والحبس والضـرب على موافقة السلطان ، وجنده ، على أن يقول على الله غيـر الحق في كلامـه [١] ، وعلى أن يقول ما لا يعلم أيضاً ، فإنهم كانوا يـأتون بكـلام يعرف أنـه مخالف للكتاب والسنة ، فهو باطـل ، وبكلام مجمـل يحتاج إلى تفسيـر ، فيقول لهم الإمـام أحمد : مـا أدري ما هـذا ؟ فلم يـوافقهم على أن يقـول على الله غيـر الحق ، ولا على أن يقول على الله ما لا يعلم .

= جهل عليها صنوفاً عدة من النكار والتعذيب حتى فارقت الحياة ولم تتلفظ بكلمة واحـدة ضد دين الله ولا رسوله محمد ـ ﷺ ـ وكذلك ما فعل ببلال مؤذن الرسول ـ ﷺ ـ وهـو يقول أحـد أحد . ويمر الرسول على آل ياسر ويشاهد بنفسه الهول الأكبر الذي يتعرض له هؤلاء فيقول لهم : صبراً آل ياسر فموعدكم الجنة » .

(١) وأيضاً الامام أحمد بن حنبل تعرض لسياط العباسيين وألقي به في السجن ، ويتوجه إليه الخليفة ليقول كلمة واحدة ، كلمة يتلفظ بها حتى يرفع عنه السوط والسيف . ولكن الرجـل الأمة أحس في هذه اللحظة أنه لا يملك من أمر نفسه شيء ، وإنما هي حياة الأمة لا حياة أحمد بن حنبل فلو غير أو بدل لماتت الأمة الإسلامية وعـاش أحمد بن حنبـل ، ولكنه اختـار الثانيـة ـ وهو أن يمـوت أحمد بن حنبل حتى تعيش الأمة الاسلامية ويسلم لها معتقدها ودينها .

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله بعد كلام

[يهم أحدهم] بالذنب فيذكر مقامه بين يدي الله فيدعه ، فكان يوسف ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى .

ثم إن يوسف عليه الصلاة والسلام كان شاباً عزباً أسيراً في بلاد العدو ، حيث لم يكن هناك أقارب أو أصدقاء فيستحي منهم إذا فعل فاحشة ، فإن كثيراً من الناس يمنعه من مواقعة القبائح حياؤه ممن يعرفه ، فإذا تغرب فعل ما يشتهيه ، وكان أيضاً خالياً لا يخاف مخلوقاً ، فحكم النفس الأمارة ـ لو كانت نفسه كذلك ـ أن يكون هو المتعرض لها ، بل يكون هو المتحيل عليها ، كما جرت به عادة كثير ممن له غرض في نساء الأكابر إن لم يتمكن من الدعوة ابتداء ، فإما إذا دعي ولو كانت الداعية خدامة لكان أسرع مجيب ، فكيف إذا كانت الداعية سيدته الحاكمة عليه ، التي يخاف الضرر بمخالفتها ؟!

ثم إن زوجها الذي عادته أن يزجر المرأة لم يعاقبها ، بل أمر يوسف بالإعراض ، كما ينعر الديوث ثم إنها استعانت بالنساء وحبسته . وهو يقول : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ

إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ (١) .

فليتدبر اللبيب هذه الدواعي التي دعت يوسف إلى ما دعته ، وإنه مع توفرها وقوتها ليس له عن ذلك صارف إذا فعل ذلك ، ولا من ينجيه من المخلوقين ، ليتبين له أن الذي ابتلى به يوسف كان من أعظم الأمور ، وأن تقواه وصبره عن المعصية - حتى لا يفعلها [مع] ظلم الظالمين له، حتى لا يجيبهم - كان من أعظم الحسنات وأكبر الطاعات ، وأن نفس يوسف عليه الصلاة والسلام كانت من أزكى الأنفس ، فكيف أن يقول : ﴿ وَما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ والله يعلم أن نفسه بريئة ليست أمارة بالسوء بل نفس زكية من أعظم النفوس زكاء ، والهم الذي وقع كان زيادة في زكاء نفسه وتقواها ، وبحصوله مع تركه لله لتثبت له به حسنة من أعظم الحسنات التي تزكي نفسه .

« الوجه السادس » أن قوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالغَيْبِ ﴾ (٢) إذا كان معناه على ما زعموه أن يوسف أراد أن يعلم العزيز أني لم أخنه في امرأته على قول أكثرهم ؛ أو ليعلم الملك أو ليعلم الله لم يكن هنا ما يشار إليه ، فإنه لم يتقدم من يوسف كلام يشير به إليه ، ولا تقدم أيضاً ذكر عفافه واعتصامه ، فإن الذي ذكره النسوة قولهن : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ (٣) وقول امرأة العزيز : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَن نَفْسِهِ ﴾ (٤) وهذا فيه بيان كذبها فيما قالته أولاً ، ليس فيه نفس فعله الذي فعله هو .

فقول القائل : إن قوله ﴿ ذلك ﴾ من قول يوسف ، مع أنه لم يتقدم منه هنا قول ولا عمل لا يصح بحال .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٣٣.

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥٢ .

(٣) (٤) سورة يوسف آية رقم ٥١ .

« الوجه السابع » أن المعنى على هذا التقدير ـ لو كان هنا ما يشار إليه من قول يوسف أو عمله ـ إن عفتي عن الفاحشة كان ليعلم العزيز أني لم أخنه ، ويوسف عليه الصلاة والسلام إنما تركها خوفاً من الله ، ورجاء لثوابه ، ولعلمه بأن الله يراه ، لا لأجل مجرد علم مخلوق . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ، لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ، كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) فأخبر أنه رأى برهان ربه وأنه من عباده المخلصين .

ومن ترك المحرمات ليعلم المخلوق بذلك لم يكن هذا لأجل برهان من ربه ولم يكن بذلك مخلصاً فهذا الذي أضافوه إلى يوسف إذا فعله آحاد الناس لم يكن له ثواب من الله ، بل يكون ثوابه على من عمل لأجله . فإن قيل : فقد قال يوسف أولاً : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

قيل : إن كان مراده بذلك سيده : فالمعنى أنه أحسن إلي ، وأكرمني ، فلا يحل لي أن أخونه في أهله ، فإني أكون ظالماً ولا يفلح الظالم ، فترك خيانته في أهله خوفاً من الله لا ليعلم هو بذلك .

فإن قيل : مراده تأتي إظهار براءتي ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب ، فالمعلل إظهار براءته لا نفس عفافه .

قيل : لم يكن مراده بإظهار براءته مجرد علم واحد ، بل مراده علم الملك

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٤ وفي تفسير هذه الآية حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ ـ يقول الله تعالى : إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من جرائي فإن عملها فاكتبوها بمثلها » . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وله ألفاظ كثيرة هذا منها » .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

وغيره ، ولهذا قال للرسول : ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (١) ولو كان هذا من قول يوسف لقال : ذلك ليعلموا أني بريء وأني مظلوم .

ثم هذا لا يليق أن يذكر عن يوسف ، لأنه قد ظهرت براءته ، وحصل مطلوبه ، فلا يحتاج أن يقول ذلك لتحصيل ذلك ، وهم قد علموا أنه إنما تأخر لتظهر براءته ، فلا يحتاج مثل هذا أن ينطق به .

« الوجه الثامن » أن الناس عادتهم في مثل هذا يعرفون بما عملوه من لذلك عنده قدر ، وهذا يناسب لو كان العزيز غيوراً ، وللعفة عنه جزاء كثير ، والعزيز قد ظهر عنه من قلة الغيرة وتمكين امرأته من حبسه مع الظالمين مع ظهور براءته ما يقتضي أن مثل هذا ينبغي في عادة الطباع أن يقابل على ذلك بمواقعة أهله ، فإن النفس الأمارة تقول في مثل هذا : هذا لم يعرف قدر إحساني إليه ، وصوني لأهله ، وكف نفسي عن ذلك ، بل سلطها ومكنها . فكثير من النفوس لو لم يكن في نفسها الفاحشة إذا رأت من حاله هذا تفعل الفاحشة ؛ إما نكاية فيه ومجازاة له على ظلمه ، وإما إهمالاً له لعدم غيرته وظهور دياثته ، ولا يصبر في مثل هذا المقام عن الفاحشة إلا من يعمل لله خائفاً منه ، وراجياً لثوابه ، لا من يريد تعريف الخلق بعمله .

« الوجه التاسع » إن الخيانة ضد الإمانة ، وهما من جنس الصدق والكذب ، ولهذا يقال : الصادق الأمين ، ويقال : الكاذب الخائن . وهذا حال امرأة العزيز ؛ فإنها لو كذبت على يوسف في مغيبه ، وقالت راودني لكانت كاذبة وخائنة ، فلما اعترفت بأنها هي المراودة كانت صادقة في هذا الخبر أمينة فيه ، ولهذا قالت : ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) فأخبرت بأنه صادق في تبرءته

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٥١ وأول الآية ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

نفسه دونها .

فأما فعل الفاحشة فليس من باب الخيانة والأمانة . ولكن هو [من] باب الظلم والسوء والفحشاء ، كما وصفها الله بذلك في قوله تعالى عن يوسف : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١) ولم يقل هنا الخائنين - ثم قال تعالى :- ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ . إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ ﴾(٢) ولم يقل لنصرف عنه الخيانة . فليتدبر اللبيب هذه الدقائق في كتاب الله تعالى .

« الوجه العاشر » أن في الكلام المحكي الذي أقره الله تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ وهذا يدل على أنه ليس كل نفس أمارة بالسوء ، بل ما رحم ربي ليس فيه النفس الأمارة بالسوء .

وقد ذكر طائفة من الناس أن النفس لها ثلاثة أحوال : تكون أمارة بالسوء (٣) ، ثم تكون لوامة ، أي تفعل الذنب ثم تلوم عليه (٤) ، أو تتلوم فتتردد بين الذنب والتوبة ، ثم تصير مطمئنة (٥) .

و« المقصود هنا » أن ما رحم ربي من النفوس ليست بأمارة ، وإذا كانت النفوس منقسمة إلى مرحومة وأمارة فقد علمنا قطعاً أن نفس امرأة العزيز من النفوس الأمارة بالسوء ، لأنها أمرت بذلك مرة بعد مرة ، وراودت وافترت ، واستعانت بالنسوة وسجنت وهذا من أعظم ما يكون من الأمر بالسوء .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٣) قال تعالى : ﴿ وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ .

(٤) قال تعالى : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ . روى ابن جرير عن أبي كريب ، عن وكيع عن اسرائيل به وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان عن ابن جريج عن الحسن بن مسلم عن سعيد بن جبير في قوله : ولا أقسم بالنفس اللوامة . قال تلوم على الخير والشر » .

(٥) قال تعالى ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية ﴾ . سورة الفجر آية رقم ٢٧ .

وأما يوسف عليه الصلاة والسلام فإن لم تكن نفسه من النفوس المرحومة عن أن تكون أمارة فما في الأنفس مرحوم ، فإن من تدبر قصة يوسف علم أن الذي رحم به وصرف عنه من السوء والفحشاء من أعظم ما يكون ، ولولا ذلك لما ذكره الله في القرآن وجعله عبرة ، وما من أحد من الصالحين الكبار والصغار إلا ونفسه إذا ابتليت بمثل هذه الدواعي أبعد عن أن تكون مرحومة من نفس يوسف ، وعلى هذا التقدير : فإن لم تكن نفس يوسف مرحومة ، فما في النفوس مرحومة ، فإذا كل النفوس أمارة بالسوء ، وهو خلاف ما في القرآن . ولا يلتفت إلى الحكاية المذكورة عن مسلم بن يسار (١) : أن أعرابية دعته إلى نفسها ، وهما في البادية ، فامتنع وبكى ، وجاء أخوه وهو يبكي فبكى وبكت المرأة ، وذهبت فنام فرأى يوسف في منامه ، وقال : أنا يوسف الذي هممت ، وأنت مسلم الذي لم تهم ، فقد يظن من يسمع هذه الحكاية أن حال مسلم كان أكمل وهذا جهل لوجهين : ـ

« أحدهما » أن مسلماً لم يكن تحت حكم المرأة المراودة ولا لها عليه حكم ، ولا لها عليه قدرة أن تكذب عليه ، وتستعين بالنسوة وتحبسه ، وزوجها لا يعينه ولا أحد غير زوجها يعينه على العصمة ، بل مسلم لما بكى ذهبت تلك المرأة ، ولو استعصمت لكان صراخه منها أو خوفها من الناس يصرفها عنه ، وأين هذا مما ابتلي به يوسف عليه الصلاة والسلام ؟

« الثاني » أن ألهم من يوسف لما تركه لله كان له به حسنة ، ولا نقص عليه ، وثبت في الصحيحين من حديث السبعة الذين «يظلهم » الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : **﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾**(٢) وهذا لمجرد الدعوة ، فكيف بالمراودة والإستعانة والحبس ؟ .

(١) هو مسلم بن يسار الأموي بالولاء أبو عبد الله ، فقيه ناسك من رجال الحديث ، أصله من مكة ـ سكن البصرة ، فكان مفتيها وتوفي بها عام ١٠٨ هـ .
راجع تهذيب التهذيب ١٠ : ١٤٠ وحلية الأولياء ٢ : ٢٩٠

(٢) الحديث عند البخاري في كتاب الآذان ٣٦ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل =

ومعلوم أنها كانت ذات منصب ، وقد ذكر أنها كانت ذات جمال وهذا هو الظاهر ، فإن امرأة عزيز مصر يشبه أن تكون جميلة ، وأما البدوية الداعية لمسلم فلا ريب أنها دون ذلك ، ورؤ ياه في المنام وقوله : أنا يوسف الذي هممت وأنت مسلم الذي لم تهم غايته أن يكون بمنزلة أن يقول ذلك له يوسف في اليقظة ، وإذا قال هذا : كان هذا خيراً له ومدحاً وثناء ، وتواضعاً من يوسف ، وإذا تواضع الكبير مع من دونه لم تسقط منزلته .

« الوجه الحادي عشر » أن هذا الكلام فيه ـ مع الاعتراف بالذنب ـ الاعتذار بذكر سببه ، فإن قولها : ﴿ **أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين** ﴾ فيه اعتراف بالذنب ، وقولها : ﴿ **وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ إشارة تطابق لقولها : ﴿ **أنا راودته** ﴾ أي أنا مقرة بالذنب ما أنا مبرئة لنفسي ، ثم بينت السبب فقالت : ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾ فنفسي من هذا الباب ، فلا ينكر صدور هذا مني ، ثم ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة ، فقالت : إن ربي غفور رحيم .

فإن قيل : فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب ، وأن الله قد يغفر لصاحبه . قلت : نعم ، والقرآن قد دل على ذلك . حيث قال زوجها : ﴿ **يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك** ﴾ فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل على أنهم كانوا يرون ذلك ذنباً ويستغفرون منه ، وإن كانوا مع ذلك مشركين ، فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش ، ويستغفرون الله

المساجد ٦٦٠ ـ حدثنا محمد بن بشار قال : حدثنا يحيى عن عبيد الله قال : حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم ، عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه صاحب الموطأ في الشعر ١٤ ـ والترمذي في الزهد ٥٣ والنسائي في الأقضية ٢ وقد نظم السبعة العلامة أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل فيما أنشده أبو اسحاق التنوخي إذناً عن أبي الهدى أحمد بن أبي شامة عن أبيه سماعاً من لفظه قال :

وقال النبي المصطفى ان سبعة يظلهم الله الكريم بظله
محب عفيف ، ناشىء متصدق وباك مصل والإمام بعدله .

منها . حتى أن النبي ﷺ لما بايع هند بنت عتبة (١) بن ربيعة بيعة النساء على أن لا تشرك بالله شيئاً ، ولا تسرق ولا تـزني . قالت : أوتـزني الحرة ؟ وكـان الزنـا معروفاً عندهم في الإماء .

ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحـرية في مقـابلة الرق ، وأصـل اللفظ هو العفة ، ولكن العفة عادة من ليست أمة ، بل قد ذكر البخـاري في صحيحه عن أبي رجـاء العطاردي ، أنـه رأى في الجاهليـة قرداً يـزني بقـردة ، فـاجتمعت القرود عليه حتى رجمته (٢) .

وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقين ، أنه رأى في جامع نوعاً من الطير قد بـاض ، فأخـذ الناس بيضـة ، وجاء ببيض جنس آخـر من الطير ، فلما انفقس البيض خـرجت الفراخ من غـير الجنس ، فجعل الـذكـر يـطلب جنسـه ، حتى اجتمـع منهن عدد فـما زالوا بـالأنثى حتى قتلوهـا ومثـل هـذا معـروف في عـادة البهائم .

والفواحش مما اتفق أهل الأرض على استقباحها وكراهتها ، وأولئك القوم كـانوا يقـرون بالصـانع مـع شركهم ، ولهـذا قال لهم يـوسـف : ﴿ يَا صَـاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُـونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الـوَاحِدُ القَهَّـارُ؟ مَا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا

---

(١) هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، صحابيه قـرشية ، عـالية الشهـرة ، وهي أم الخليفـة الأموي معـاوية بن أبي سفيـان ، تزوجت أبـاه بعد مفـارقتهـا لـزوجهـا الأول الفاكهة بن المغيرة المخزومي في خبر طويل من طرائف أخبار الجاهليـة وكانت فصيحـة جريئـة ، صاحبة رأي وحزم ، ونفس أبية تقول الشعر الجيد ، وكانت لها تجارة في خلافة عمر بن الخطاب وشهدت اليرموك وحرضت على قتال الروم وأخبارها كثيرة توفيت عام ١٤ هـ .

راجع طبقات ابن سعد ٨ : ١٧٠ والروض الأنف ٢ : ٢٧٧ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصـار ٢٧ باب القسـامة في الجـاهلية ٣٨٤٩ ـ حـدثنا نعيم بن حماد ، حدثنـا هشيم عن حصين ، عن عمـرو بن ميمون قـال : وذكره ولفظ البخـاري (قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم) .

أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم ، مَا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إن الحُكْمُ إلاَّ لله ، أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١)

« الوجه الثاني عشر » أن يقال : إن الله سبحانه وتعالى لم يذكر عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه ، ولهذا كان الناس في عصمة الأنبياء على قولين : إما أن يقولوا بالعصمة من فعلها ، وإما أن يقولوا بالعصمة من الإقرار عليها ، لا سيما فيما يتعلق بتبليغ الرسالة . فإن الأمة متفقة على أن ذلك معصوم أن يقر فيه على خطأ ، فإن ذلك يناقض مقصود الرسالة ، ومدلول المعجزة .

وليس هذا موضع بسط الكلام في ذلك ، ولكن المقصود هنا أن الله لم يذكر في كتابه عن نبي من الأنبياء ذنباً إلا ذكر توبته منه ، كما ذكر في قصة آدم وموسى ، وداود وغيرهم من الأنبياء .

وبهذا يجيب من ينصر قول الجمهور الذين يقولون بالعصمة من الإقرار على من ينفي الذنوب مطلقاً ، فإن هؤلاء من أعظم حججهم ما اعتمده القاضي (٢) عياض وغيره ، حيث قالوا : نحن مأمورون بالتأسي بهم في الأفعال ، وتجويز ذلك يقدح في التأسي ! فأجيبوا بأن التأسي إنما هو فيما أقروا عليه ، كما أن النسخ جائز فيما يبلغونه من الأمر والنهي ، وليس تجويز ذلك مانعاً من وجوب الطاعة لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ ، فعدم النسخ يقرر الحكم ، وعدم الإنكار يقرر الفعل ، والأصل عدم كل منهما .

ويوسف عليه الصلاة والسلام لم يذكر الله تعالى عنه في القرآن أنه فعل مع

---

(١) سورة يوسف الآيات رقم ٣٩ - ٤٠ .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الخامس في كلمة وافية .

المرأة ما يتوب منه ، أو يستغفر منه أصلاً ، وقد اتفق الناس على أنـه لم تقع منـه الفـاحشة ، ولكن بعض النـاس يذكـر أنه وقـع منه بعض مقـدماتهـا ، مثل مـا يذكرون أنه حل السراويل ، وقعد منها مقعد الخائن ونحو هذا ، ومـا ينقلونه في ذلك ليس هو عن النبي ﷺ ، ولا مستند لهم إلا النقل عن بعض أهـل الكتاب وقد عرف كلام اليهود في الأنبياء وغضبهم منهم ، كما قالوا في سليمان ما قالوا ، وفي داود مـا قالـوا [1] ، فلو لم يكن معنا مـا يرد نقلهم لم نصـدقهم فيـما لم نعلم صدقهم فيه ، فكيف نصدقهم فيما قد دل القرآن على خلافه .

والقـرآن قد أخبـر عن يوسف من الاستعصـام والتقـوى والصبـر في هـذه القضية ما لم يذكر عن أحد نظيـره ، فلو كان يـوسف قد أذنب لكـان إما مصـراً وإما تائباً ، والإصرار ممتنع ، فتعين أن يكون تائبـاً ، والله لم يذكـر عنه تـوبة في هـذا ولا استغفاراً كـما ذكر عن غيـره من الأنبياء ، فـدل ذلك عـلى أن مـا فعله يوسـف كان من الحسنـات المبرورة والمسـاعي المشكورة كـما أخبر الله عنـه بقولـه تعالى : ـ

﴿ **إنَّـهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَـإنَّ الله لَا يُضِيعُ أَجْـرَ الُمحْسِنِينَ** ﴾ [2] وإذا كـان الأمر في يوسـف كذلك ، كان ما ذكر من قوله : ﴿ **إن النفس لأمارة بـالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾ إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حـال يوسف ، فـإضافـة الذنوب إلى يوسـف في هذه القضية فريـة على الكتـاب والرسـول ، وفيه تحـريف للكلم عن مواضعه ، وفيه الاغتياب لنبي كريم ، وقول الباطل فيـه بلا دليـل ،

---

(١) راجع في ذلك العهد القديم المسمى « بالتوراة » وراجع أيضاً مـا كتبه الامـام ابن حزم في كتـابه الفصل عند تناوله للتوراة والانجيل وبيان ما فيهما من تحريف وتضليل وإدعاء على أنبياء الله بغـير حق . وإذا كان هؤلاء الأبالسة قد أبـاحوا لأنفسهم قتـل الأنبياء وقتلوهم فعـلاً كما أخبـر القرآن بذلك أيستعصي عليهم الادعاء وتلطيخ سمعتهم ورميهم بالبهتان والفسق . . ؟ قـاتلهم الله أنى يؤفكون .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

ونسبته إلى ما نزهه الله منه ، وغير مستبعد أن يكون أصل هذا من اليهود أهل البهت . الذين كانوا يرمون موسى بما برأه الله منه ، فكيف بغيره من الأنبياء ؟ وقد تلقى نقلهم من أحسن به الظن ، وجعل تفسير القرآن تابعاً لهذا الاعتقاد .

وأعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض ، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه : قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب ، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب ، ومغفرة الله لهم ، ورفع درجاتهم بذلك ، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه ، وأضافوا إليهم ذنوباً وعيوباً نزههم الله عنها ، وهؤلاء مخالفون للقرآن وهؤلاء مخالفون للقرآن ، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط [1] ، مهتدياً إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .

قال النبي ﷺ : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » [2] وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا : يا رسول الله ؟ اليهود والنصارى ؟ قال : «فمن؟» [3]

---

(١) قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

والوسط : هنا الخيار والأجود كما يقال قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها وكان رسول الله ـ ﷺ ـ وسطاً في قومه : أي أشرفهم نسباً ومنه الصلاة الوسطى : التي هي أفضل الصلوات ـ وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها .

(٢) الحديث عند الامام الترمذي في التفسير سورة ١ ، ٢ وعند الامام أحمد في المسند ٤ : ٣٧٨ .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني اسرائيل ٣٤٥٦ ـ حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا غسان ، قال : حدثني زيد بن أسلم ـ عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : وذكره . ورواه أيضاً في الاعتصام بسنده عن أبي هريرة ١٤ باب قول النبي ـ ﷺ « لتتبعن سنن من كان قبلكم » ورواه الامام مسلم في العلم ٦ ، وابن ماجه في كتاب الفتن ١٧ ـ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٦ ،

وفي الحديث الآخر الذي في الصحيح « لتأخذن أمتي مأخذ الأمم قبلها شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع » قالوا يا رسول الله فارس والروم ؟ قال : « ومن الناس إلا هؤلاء ؟ »[١] .

ولا ريب أنه صار عند كثير من الناس من علم أهل الكتاب ومن فارس والروم ما أدخلوه في علم المسلمين ودينهم وهم لا يشعرون ، كما دخل كثير من أقوال المشركين من أهل الهند واليونان وغيرهم ، والمجوس والفرس والصابئين من اليونان وغيرهم في كثير من المتأخرين لا سيما في جنس المتفلسفة والمتكلمة .

ودخل كثير من أقوال أهل الكتاب اليهود والنصارى في طائفة هم أمثل من هؤلاء ، إذ أهل الكتاب كانوا خيراً من غيرهم .

ولما فتح المسلمون البلاد كانت الشام ومصر ونحوهما مملوءة من أهل الكتاب ، النصارى واليهود ، فكانوا يحدثونهم عن أهل الكتاب بما بعضه حق ، وبعضه باطل ، فكان من أكثرهم حديثاً عن أهل الكتاب كعب الأحبار ، وقد قال معاوية ـ رضي الله عنه ـ ما رأينا في هؤلاء الذين يحدثونا عن أهل الكتاب أصدق من كعب ، وان كنا لنبلوا عليه الكذب أحياناً[٢] .

= ٣٦٧ ، ٤٥٠ ، ٥١١ ، ٥٢٧ (حلبي) .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام ١٤ باب قول النبي ـ ﷺ ـ لتتبعن سنن من كان قبلكم .

٧٣١٩ ـ حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا ابن أبي ذئب عن المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره . وفيه لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٢٥ باب قول النبي ـ ﷺ ـ (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء) ٧٣٦١ قال أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن سمع معاوية يحدث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين ، الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا ـ مع ذلك ـ لنبلو عليه الكذب » .

ومعلوم أن عامة ما عند كعب أن ينقل ما وجده في كتبهم ، ولو نقل ناقل ما وجده في الكتب عن نبينا ﷺ لكان فيه كذب كثير ، فكيف بما في كتب أهل الكتاب مع طول المدة ، وتبديل الدين ، وتفرق أهله ، وكثرة أهل الباطل فيه .

وهذا باب ينبغي للمسلم أن يعتني به ، وينظر ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين هم أعلم الناس بما جاء به ، وأعلم الناس بما يخالف ذلك من دين أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين ، فإن هذا أصل عظيم .

ولهذا قال الأئمة ـ كأحمد بن حنبل وغيره ـ أصول السنة هي التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ .

ومن تأمل هذا الباب وجد كثيراً من البدع أحدثت بآثار أصلها عنهم ، مثل ما يروى في فضائل بقاع في [1] الشام ، من الجبال والغيران ، ومقامات الأنبياء ونحو ذلك ، مثل ما يذكر في جبل قاسيون ، ومقامات الأنبياء التي فيه ، وما في إتيان ذلك من الفضيلة حتى إن بعض المفترين من الشيوخ جعل زيارة مغارة فيه ثلاث مرات تعدل حجة ويسمونها مقامات الأنبياء . والآثار التي تروى في ذلك لا تصل إلى الصحابة، وإنما هي عمن دونهم ممن أخذها عن أهل الكتاب ، وإلا فلو كان لهذا أصل لكان هذا عند أكابر الصحابة الذين قدموا الشام ، مثل بلال بن رباح [2] ، ومعاذ بن جبل [3] ، وعبادة بن

---

(١) راجع في ذلك ـ وما يحدث في تلك البقاع من هوس وتضليل وإتيان المحرمات ـ مقدمة كتاب فتح المجيد بتحقيقنا ـ مطبعة ـ فيصل الحلبي ـ القاهرة .

(٢) هو بلال بن رباح الحبشي أبو عبد الله ، مؤذن رسول الله ـ ﷺ ـ وخازنه على بيت ماله ،من مولدي السراة ، وأحد السابقين للإسلام ، وفي الحديث بلال سابق الحبشة » وكان شديد السمرة نحيفاً طوالاً خفيف العارضين ، له شعر كثيف ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ـ ﷺ ـ ولما توفي رسول الله ـ أذن بلال ، ولم يؤذن بعد ذلك وأقام حتى خرجت البعوث الى

الصامت [1] ، بل ومثـل أبي عبيدة بن الجـراح [2] أمين الأمة وأمثـالهم ، فقد دخل الشام من أكابر الصحـابة أفضـل ممن دخل بقيـة الأمصار غيـر الحجاز ، فلم ينقــل عن أحـد منهم اتبـاع شيء من آثـار الأنبيــاء ، لا مقـابـرهم ولا مقاماتهم ، فلم يتخذوها مساجد ، ولا كـانوا يتحـرون الصلاة فيهـا ، والدعـاء عندها ، بل قد ثبت عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه كان في سفر ، فرأى قوماً ينتابون مكاناً يصلون فيه . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا مكان صلى فيـه رسول الله ﷺ ، فقـال : ومكان صلى فيـه رسول الله ﷺ ؟؟ أتـريدون أن تتخـذوا آثار أنبيـائكم مساجـد ؟ إنما هلك من كـان قبلكم بهـذا ، من أدركتـه الصلاة فيه فليصل وإلا فليمض .

ولمـا دخــل البيت المقـدس وأراد أن يبني مصلى المسلمـين : قـال لكعب : أين أبنيه ؟ قال : ابنه خلف الصخرة . قال : خالطتك يهودية يـا بن اليهودية ، بل أبنيه أمامها ، ولهذا كان عبد الله بن عمر إذا دخل بيت المقدس

= الشـام فسار معهم ، وتـوفي بدمشق عـام ٢٠ هـ روى له البخـاري ومسلم ٤٤ حـديثـاً راجـع طبقات ابن سعد وفيه عن مجاهد « أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله ، وأبو بكر وبلال وخباب ، وصهيب ، وعمار ، وسمية أم عمار » .

(٣) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن صحابي جليل ، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ أسلم وهو فتى وآخى النبي ـ ﷺ ـ بينـه وبين جعفر بن أبي طـالب ، وشهد العقبـة مـع الأنصـار السبعين ، وشهـد بـدراً وأحـداً والخندق والمشاهد كلها مـع رسول الله ـ ﷺ ـ تـوفي عام ١٨ هـ . [راجـع ابن سعـد ٣ : ١٢٠ والاصابة ت ٨٠٣٩ وأسد الغابة ٤ : ٣٧٦ وحلية الأولياء ١ : ٢٢٨]

(١) عبادة بن الصامت سبق الترجمة له في الجزء السادس

(٢) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال الفهري القرشي ، الأمير القائد ، فاتح ديار الشامية ، والصحابي ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . قال ابن عساكر : داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة وكان لقبه أمين الأمة ، ولد بمكة عام ٤٠ ق . هـ . وهو من السابقين الى الاسلام توفي بطاعون عمواس عام ١٨ هـ . [راجع طبقات ابن سعد ، والاصابة وحلية الأولياء ١ : ١٠٠ والبدء والتاريخ ٥ : ٨٧] .

صلى في قبليه ، ولم يذهب إلى الصخرة . وكانوا يكذبون ما ينقله كعب : أن الله قال لها : أنت عرشي الأدنى ، ويقولون : من وسع كرسيه السموات والأرض كيف تكون الصخرة عرشه الأدنى ؟! ولم تكن الصحابة يعظمونها ، وقالوا : إنما بنى القبة عليها عبد الملك بن مروان لما كان محارباً لابن الزبير ، وكان الناس يذهبون إلى الحج فيجتمعون به ، عظم الصخرة ليشتغلوا بزيارتها عن جهة ابن الزبير ، وإلا فلا موجب في شريعتنا لتعظيم الصخرة ، وبناء القبة عليها وسترها بالأنطاع والجوخ ، ولو كان هذا من شريعتنا : لكان عمر وعثمان ومعاوية رضي الله عنهم أحق بذلك من بعدهم ، فإن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ وأعلم بسنته ، واتبع لها ممن بعدهم .

وكذلك الصحابة لم يكونوا ينتابون قبر الخليل ﷺ بل ولا فتحوه ، بل ولا بنوا على قبر أحد من الأنبياء مسجداً ، فإنهم كانوا يعلمون أن النبي ﷺ قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » (١) .

ولما ظهر قبر دانيال بتستر كتب فيه أبو موسى إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فكتب إليه عمر ، إذا كان بالنهار فاحفر ثلاثة عشر قبراً ثم أدفنه بالليل في واحد منها ، وعفر قبره لئلا يفتتن به الناس ، وقد تأملت الآثار التي تروى في قصد هذه المقامات ، والدعاء عندها أو الصلاة ، فلم أجد لها عن

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب المغازي ٨٣ باب مرض النبي ـ ﷺ ووفاته. ٤٤٤٣ ، ٤٤٤٤ ـ وأخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أن عائشة ـ وعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهم قالا : لما نزل برسول الله ـ ﷺ ـ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو كذلك يقول : وذكره ورواه مسلم في المساجد ١٩ ، ٢٣ وأبو داود في الجنائز ٧٢ ، والنسائي في المساجد ١٣ ، والجنائز ١٠٦ والدارمي في الصلاة ١٢٠ وصاحب الموطأ في المدينة ١٧ ـ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢١٨ ، ٢ : ٢٦٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٦٦ ، ٣٩٦ ، ٤٥٤ ، ٥١٨ ، ٥ : ١٨٤ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ، ٦ : ٣٤ ، ٨٠ ، ١٢١ ، ١٤٦ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ (حلبي)

الصحابة أصلاً ، بل أصلها عمن أخذ عن أهل الكتاب .

فمن أصول الإسلام أن تتميز ما بعث الله به محمداً ﷺ من الكتاب والحكمة ، ولا نخلطه بغيره ، ولا نلبس الحق بالباطل كفعل أهل الكتاب ، فإن الله سبحانه أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ، ورضي لنا الإسلام ديناً .

وقد قال النبي ﷺ « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك » (١) وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه « خط لنا رسول الله ﷺ خطاً ، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ قوله تعالى : - **﴿ وأَنَّ هَذَا صراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولاَ تَتَّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِهِ ﴾** (٢) وجماع **ذلك بحفظ أصلين :**

« أحدهما » تحقيق ما جاء به الرسول ﷺ ، فلا يخلط بما ليس منه من المنقولات الضعيفة ، والتفسيرات الباطلة ، بل يعطى حقه من معرفة نقله ، ودلالته .

و« الثاني » أن لا يعارض ذلك بالشبهات لا رأياً ولا رواية . قال الله تعالى فيما يأمر به بني إسرائيل وهو عبرة لنا : **﴿ آمنوا بِمَا أَنـزَلْتُ مُصَدِّقـاً لِمَا**

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ٦ ، والإمام أحمد في المسند : ٤ : ١٢٦ (حلبي) .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ قال الامام أحمد بن حنبل : حدثنا الأسود بن عامر شاذان ، حدثنا أبو بكر هو ابن عياش عن عاصم هو ابن أبي النجود عن أبي وائل عن عبد الله - وهو ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : خط رسول الله ﷺ خطاً بيده - ثم قال : هذا سبيل الله مستقيماً . وخط عن يمينه وشماله ثم قال : هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه ثم قرأ **﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾** وكذا رواه الحاكم عن الأصم عن أحمد بن عبد الجبار عن أبي بكر بن عياش به وقال : صحيح ولم يخرجاه » .

مَعَكُمْ ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ، وَلَا تَلْبِسُـوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) فلا يكتم الحق الذي جاء بهِ الرسول ﷺ ، ولا يلبس بغيره من الباطل ، ولا يعارض بغيره . قال الله تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُمْ ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى : ـ

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ (٣)

وهؤلاء الأقسام الثلاثة هم أعداء الرسل ، فإن أحدهم إذا أتى بما يخالفه ، إما أن يقول : إن الله أنزله علي فيكون قد افترى على الله ، أو يقول : أوحى إليه ولم يسم من أوحاه ، أو يقول : أنا أنشأته ، وأنا أنزل مثل ما أنزل الله ، فإما أن يضيفه إلى الله أو إلى نفسه أو لا يضيفه إلى أحد .

وهذه الأقسام الثلاثة هم من شياطين الإنس والجن ، الذي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، قال الله تعالى : ـ

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القُرْآنَ مَهْجُوراً ، وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ المُجْرِمِينَ ، وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾ (٤) والله أعلم ـ والحمد لله

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٤١ ـ ٤٢ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٣ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٩٣ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٣٠ ـ ٣١ .

سئل رضي الله عنه

عن قوله تعالى : ﴿ قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (١) ؟ وهل الدعوة عامة تتعين في حق كل مسلم ومسلمة أم لا ؟ وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في هذه الدعوة أم لا وإذا كانا داخلين أو لم يكونا فهل هما من الواجبات على كل فرد من أفراد المسلمين كما تقدم أم لا ؟ وإذا كانا واجبين فهل يجبان مطلقاً مع وجود المشقة بسببهما أم لا ؟ وهل للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يقتص من الجاني عليه إذا آذاه في ذلك لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق أم لا ؟ وإذا كان له ذلك فهل تركه أولى مطلقاً أم لا ؟؟

فأجاب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ الحمد لله رب العالمين .

الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله ، بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا ، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، والدعوة إلى الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والبعث بعد الموت ، والإيمان بالقدر خيره وشره ، والدعوة إلى أن يعبد العبد ربه كأنه يراه .

فإن هذه الدرجات الثلاث التي هي « الإسلام » و« الإيمان » و« الإحسان » داخلة في الدين ، كما قال في الحديث الصحيح : « هذا

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٨ .

يقول الله تعالى لرسوله ـ ﷺ ـ قل يا محمد الى الثقلين الجن والأنس : هذه سبيله أي طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة الى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو الى الله بها على بصيرة .

جبريل جاءكم يعلمكم دينكم »[1] بعد أن أجابه عن هذه الثلاث ، فبين أنها كلها من ديننا .

و« الدين » مصدر ، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول ، يقال دان فلان فلاناً إذا عبده وأطاعه ، كما يقول دانه إذا أذله ، فالعبد يدين الله أي يعبده ويطيعه ، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع ، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع - كما قال تعالى : - ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله ﴾[2] فالدعوة إلى الله تكون بدعوة العبد إلى دينه ، وأصل ذلك عبادته وحده لا شريك له ، كما بعث الله بذلك رسله ، وأنزل به كتبه ، قال تعالى : ﴿ شَرَّعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٢ باب ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ ٤٧٧٧ - حدثني اسحاق عن جرير ، عن أبي حيان ، عن أبي زرعة ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يوماً بارزاً للناس إذ أتاه رجل يمشي فقال : يا رسول الله ما الإيمان . . ؟ وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الإيمان ٣٧ ، والامام مسلم في إيمان ٥٧ ، وأبو داود في السنة ١٦ والترمذي في إيمان ٤ وابن ماجه في المقدمة ٩ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، ٣ : ١٠٧ (حلبي) .

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٣٩ قال البخاري حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى ، حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه . . ؟ فقال : يا بن أخي أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلي من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ إلى آخره قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله - ﷺ - إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن في دينه إما أن يقتلوه ، وأما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم في علي وعثمان . . . ؟ .

قال ابن عمر : أما قولي في علي وعثمان ، أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه .

وأما علي فابن عم رسول الله - ﷺ - وختنه وأشار بيده ، وهذه ابنته أو بنته حيث ترون » .

إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ، أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ ؟ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغوت ، فَمِنْهُم مَنْ هَدَى الله ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ (٣) وقال تعالى : ـ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ (٤)

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد . الأنبياء إخوة لعلات ، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا ، إنه ليس بيني وبينه نبي » (٥) فالدين واحد وإنما تنوعت شرائعهم ومناهجهم . كما قال تعالى : ـ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرعَةً ومِنْهَاجاً ﴾ (٦) .

فالرسل متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية ، فالاعتقادية كالإيمان بالله وبرسله وباليوم الآخر ، والعملية كالأعمال العامة

---

(١) سورة الشورى اية رقم ١٣ .

(٢) سورة الزخرف آية رقم ٤٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٣٦ .

(٤) سورة الأنبياء آية رقم ٢٥ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٤٨ باب ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ ٣٤٤٢ ـ أخبرنا شعيب عن الزهري قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة ـ رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ورواه مسلم في الفضائل ١٤٣ ـ ١٤٤ .

(٦) سورة المائدة آية رقم ٤٨ .

المذكورة في الأنعام والأعراف ، وسورة بني اسرائيل ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (١) إلى آخر الآيات الثلاث . وقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (٢) إلى آخر الوصايا . وقوله : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٣) وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) فهذه الأمور هي من الدين الذي اتفقت عليه الشرائع ، كعامة ما في السور المكية ، فإن السور المكية تضمنت الأصول التي اتفقت عليها رسل الله . إذ كان الخطاب فيها يتضمن الدعوة لمن لا يقر بأصل الرسالة ، وأما السور المدنية ففيها الخطاب لمن يقر بأصل الرسالة كأهل الكتاب الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وكالمؤمنين الذين آمنوا بكتب الله ورسله ، ولهذا قرر فيها الشرائع التي أكمل الله بها الدين : كالقبلة ، والحج ، والصيام ، والاعتكاف ، والجهاد ، وأحكام المناكح ونحوها . وأحكام الأموال بالعدل كالبيع ، والإحسان كالصدقة ، والظلم كالربا ، وغير ذلك مما هو من تمام الدين .

ولهذا كان الخطاب في السور المكية : ﴿ يا أيها الناس ﴾ لعموم الدعوة إلى الأصول ، إذ لا يدعي إلى الفرع من لا يقر بالأصل ، فلما هاجر النبي

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥١ .

(٢) سورة الاسراء آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٩ .

(٤) سورة الأعراف اية رقم ٣٣ .

قال الإمام أحمد ، حدثنا معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : لا أحد أغير من الله ، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله » . أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن شقيق عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود .

ﷺ إلى المدينة وعز بها أهل الإيمان ، وكان بها أهـل الكتاب خـوطب هؤلاء وهؤلاء ، فهؤلاء : ﴿ **يـا أيها الـذين آمنوا** ﴾ وهؤلاء ﴿ **يـا أهل الكتـاب** ﴾ أو ﴿ **يا بني إسرائيل** ﴾ ولم ينزل بمكة شيء من هذا ، ولكن في السـور المدنيـة خطاب ، ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ كما في سورة النساء وسورة الحج وهما مدنيتان ، وكذا في البقرة .

وهذا يعم [(١)] على قول الحبر ابن عباس ، لأن الحكم المـذكور يشمـل جنس النـاس ، والدعـوة بالاسم الخـاص لا تنـافي الـدعـوة بـالاسم العـام . فالمؤمنون داخلون في الخـطاب ﴿ **يا أيهـا الناس** ﴾ وفي الخـطاب ﴿ **يا أيهـا الذين آمنوا** ﴾ فالدعـوة إلى الله تتضمن الأمر بكـل ما أمـر الله به ، والنهي عن كل ما نهى الله عنـه ، وهذا هـو الأمر بكـل معروف ، والنهي عن كـل منكر . والرسول ﷺ قام بهذه الدعوة ، فـإنه أمـر الخلق بكل مـا أمر الله بـه ، ونهاهم عن كل ما نهى الله عنه ، أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر . قـال تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدونَهُ مَكْتُوباً عِنْـدَهُمْ فِي التَّـوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ، يَـأْمُرُهُم بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـاهُمْ عَنِ الْمُنْكَـرِ ، وَيُحِـلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ** ﴾ [(٢)] .

ودعـوته إلى الله هي بـإذنه لم يشـرع دينـاً لم يـأذن بـه الله ، كمـا قـال تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِيـاً إِلَى الله بِإِذْنِـهِ وَسِرَاجـاً**

---

(١) في الأصل : يعكر ، ولعله تحريف من الناسخ .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ١٥٦ ـ ١٥٧ قال الإمام أحمد ـ حدثنا يحيى بن سعيد عن سليمان عن أبي عثمان ، عن سلمان ، عن النبي ـ ﷺ : إن لله عـز وجـل مـائة رحمـة يتراحم بهـا الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعيـن إلى يوم القيامـة » . تفرد بـإخراجـه مسلم ، فرواه من حديث سليمان هو ابن طرخان ، وداود بن أبي هند كلاهما عن أبي عثمان ، واسمه عبد الرحمن ابن مل عن سلمان هو الفارسي عن النبي ـ ﷺ ـ به .

مُنِيراً ﴾ [1] خلاف الذين ذمهم في قوله : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله ﴾ [2] وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنزَلَ الله لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُم مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً ، قُلْ : ءَآلله أَذِنَ لَكُمْ ؟ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ ؟ ﴾ [3]

ومما يبين ما ذكرناه : أنه سبحانه يذكر أنه أمره بالدعوة إلى الله تارة ، وتارة بالدعوة إلى سبيله ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ﴾ [4] وذلك أنه قد علم أن الداعي الذي يدعو غيره إلى أمر لا بد فيما يدعو إليه من أمرين :

« أحدهما » المقصود المراد .

و « الثاني » الوسيلة والطريق الموصل إلى المقصود ، فلهذا يذكر الدعوة تارة إلى الله ، وتارة إلى سبيله ، فإنه سبحانه هو المعبود المراد المقصود بالدعوة .

والعبادة : اسم يجمع غاية الحب له ، وغاية الذل له ، فمن ذل لغيره مع بغضه لم يكن عابداً ، ومن أحبه من غير ذل له لم يكن عابداً ، والله سبحانه يستحق أن يحب غاية المحبة ، بل يكون هو المحبوب المطلق ، الذي لا يحب شيء إلا له ، وأن يعظم ويذل له غاية الذل ، بل لا يذل لشيء إلا من أجله ، ومن أشرك غيره في هذا وهذا لم يحصل له حقيقة الحب والتعظيم فإن الشرك يوجب نقص المحبة .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ الله أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله . وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لله ﴾ [5] أي أشد حباً لله من هؤلاء لأندادهم .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥ ـ ٤٦ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٢١ .

(٣) سورة يونس آية رقم ٥٩ .

(٤) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

(٥) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أي =

وقال تعالى ﴿ ضَرَبَ الله مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ؟ ﴾ (١) وكذلك الاستكبار يمنع حقيقة الذل لله ، بل يمنع حقيقة المحبة لله ، فإن الحب التام يوجب الذل والطاعة فإن المحب لمن يحب مطيع .

ولهذا كان الحب درجات أعلاها « التتيم » وهو التعبد ، وتيم الله أي عبد الله ، فالقلب المتيم هو العبد لمحبوبه ، وهذا لا يستحقه إلا الله وحده .

والإسلام أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، كما ينبىء عنه قول : « لا إله إلا الله » فمن استسلم له ولغيره فهو مشرك ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، وكلاهما ضد الإسلام ، والشرك غالب على النصارى ومن ضاهاهم من الضلال والمنتسبين إلى الأمة .

وقد بسطنا الكلام على ما يتعلق بهذا الموضع في مواضع متعددة . وذلك يتعلق بتحقيق الألوهية لله وتوحيده ، وامتناع الشرك ، وفساد السموات والأرض بتقدير إله غيره ، والفرق بين الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية ، وبيان أن العباد فطروا على الإقرار به ومحبته وتعظيمه ، وأن القلوب لا تصلح إلا بأن تعبد الله وحده ، ولا كمال لها ولا صلاح ولا لذة ولا سرور ولا فرح ولا سعادة بدون ذلك ، وتحقيق الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الموضع الذي في تحقيقه تحقيق مقصود الدعوة النبوية ، والرسالة الإلهية ، وهو لب القرآن وزبدته ، وبيان التوحيد العلمي القولي ، المذكور في قوله ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ الله الصَّمَدُ ﴾ (٢) والتوحيد القصدي العملي

= الذنب أعظم . . ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك » .

(١) سورة الزمر آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة الصمد آية رقم ١ و ٢ .

المذكور في قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ ﴾ [1] وما يتصل بذلك ، فإن هذا بيان لأصل الدعوة إلى الله وحقيقتها ومقصودها . لكن المقصود في الجواب ذكر ذلك على طريق الإجمال ، إذ لا يتسع الجواب لتفصيل ذلك ، وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب ، من باطن وظاهر فمن الدعوة إلى الله الأمر به ، وكل ما أبغضه الله ورسوله من باطن وظاهر ، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ، ويترك ما أبغضه الله ، سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة ، كالتصديق بما أخبر به الرسول ﷺ من أسماء الله وصفاته ، والمعاد وتفصيل ذلك ، وما أخبر به عن سائر المخلوقات ، كالعرش ، والكرسي ، والملائكة ، والأنبياء وأممهم ، وأعدائهم ، وكإخلاص الدين لله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، وكالتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، وخشية عذابه ، والصبر لحكمه ، وأمثال ذلك ، وكصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، وكالجهاد في سبيله بالقلب واليد واللسان .

إذا تبين ذلك ، فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه ، وهم أمته يدعون إلى الله ، كما دعا إلى الله .

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به ، ونهيهم عما ينهى عنه ، وإخبارهم بما أخبر به ، إذ الدعوة تتضمن الأمر ، وذلك يتناول الأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر .

---

(1) سورة الكافرون آية رقم ١ هذه السورة ، سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون - وهي آمرة بالإخلاص فيه . فقوله : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش . وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله - ﷺ - إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة - فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله - ﷺ - أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ من الأصنام والأنداد .

وقد وصف أمته بذلك في غير موضع ، كما وصفه بذلك فقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَالمُؤْمِنُونَ والمُؤْمِنَاتِ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (٢) الآية وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة ، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين ، فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ، ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين . قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾ (٣)

فمجموع أمّته تقوم مقامه في الدعوة إلى الله ، ولهذا كان إجماعهم حجة قاطعة ، فأمته لا تجتمع على ضلالة ، وإذا تنازعوا في شيء ردوا ما تنازعوا فيه إلى الله وإلى رسوله ، وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، فما قام به غيره سقط عنه ، وما عجز لم يطالب به ، وأما لم يقم به غيره وهو قادر عليه فعليه أن يقوم به ، ولهذا يجب على هذا أن يقوم بما لا يجب على هذا ، وقد تقسطت

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ في مسند الإمام أحمد ، وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه ، ومستدرك الحاكم من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجل » وهو حديث مشهور ، وقد حسنه الترمذي ، ويروى من حديث معاذ بن جبل وأبي سعيد ونحوه ، وإنما حازت الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ـ ﷺ . قال الإمام أحمد ـ حدثنا عبد الرحمن حدثنا ابن زهير، عن عبد الله ـ يعني ابن محمد بن عقيل عن محمد بن علي وهو ابن الحنفية سمع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ أعطيت ما لم يعط أحداً من الأنبياء فقلنا يا رسول الله ما هو . . ؟ قال : نصرت بالرعب ، وأعطيت مفاتيح الأرض وسميت أحمد ، وجعل التراب لي طهوراً ، وجعلت أمتي خير الأمم » . تفرد به أحمد من هذا الوجه ، واسناده حسن .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٧١ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤ .

الدعوة على الأمة بحسب ذلك تارة وبحسب غيره أخرى ، فقد يدعو هـذا إلى اعتقاد الواجب ، وهذا إلى عمل ظاهر واجب ، وهذا إلى عمل باطن واجب ، فتنوع الدعوة يكون في الوجوب تارة ، وفي الوقوع أخرى .

وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم ، لكنها فرض على الكفاية ، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك ما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره ، وهذا شأن الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتبليغ ما جاء به الرسول ، والجهاد في سبيل الله ، وتعليم الإيمان والقرآن .

وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، فإن الداعي طالب مستدع مقتض لما دعي إليه ، وذلك هو الأمر به ، إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به ، واستدعاء له ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله الدعاء إلى سبيله ، فهو أمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر .

وقد تبين أنهما واجبان على كل فرد من أفراد المسلمين ، وجوب فرض الكفاية لا وجوب فرض الأعيان ، كالصلوات الخمس ، بل كوجوب الجهاد . والقيام بالواجبات : من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها ، كما جاء في الحديث : « ينبغي لمن أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر أن يكون فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر ، والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق إلى تحصيل المقصود ، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهي ، فإنه كثيراً ما يحصل له الأذى بذلك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ﴾ (١) وقد أمر نبينا بالصبر في مواضع كثيرة ، كما قال تعالى : في

---

(١) سورة لقمان آية رقم ١٧ .

أول المدثر ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ، وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ، وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ، وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢) وقال : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا ، وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (٤) وقال : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (٥) وقد جمع سبحانه بين التقوى والصبر في مثل قوله : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٦) والمؤمنون

---

(١) سورة المدثر من آية ٢ ـ ٧ .

(٢) سورة الطور آية رقم ٤٨ .

(٣) سورة ق آية رقم ٣٩ .

(٤) سورة الأنعام آية رقم ٣٤ .

(٥) سورة القلم آية رقم ٤٨ صاحب الحوت : هو يونس بن متى عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر ، والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير فحينئذ نادى في الظلمات ﴿ **أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ .

(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ ذكر البخاري عند تفسير هذه الآية . قال : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب ، عن الزهري ، أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد حدثه أن رسول الله ـ ﷺ ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أبي ، وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفي المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبد الله بن أبي أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا . فسلم رسول الله ـ ﷺ ـ ثم وقف فنزل ودعاهم الى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن . فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً فلا تؤذنا به في مجالسنا ارجع الى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه . فقال عبد الله بن رواحة . رضي الله عنه بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا =

كانوا يدعون إلى الإيمان بالله وما أمر بـه من المعروف ، وينهـون عما نهى الله عنه من المنكر ، فيؤذيهم المشركون وأهل الكتاب ، وقد أخبرهم بـذلك قبـل وقوعه وقـال لهم : « وإن تصبروا وتتقـوا فإن ذلـك من عزم الأمـور » وقد قـال يوسف عليه السـلام : ﴿ أَنَا يُـوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَـدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إنَّـهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

فالتقوى تتضمن طـاعة الله ومنهـا الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر ، والصبـر يتناول الصبـر على المصائب التي منهـا أذى المـأمـور المنهي لـلآمـر الناهي . لكن للآمر الناهي أن يـدفع عنـه ما يضـره ، كما يـدفع الإنسـان عن نفسه الصائل ، فإذا أراد المـأمور المنهي ضـربه أو أخـذ مالـه ونحو ذلـك وهو قادر على دفعه فله دفعه عنه ، بخلاف ما إذا وقع الأذى وتاب منـه ، فإن هـذا مقـام الصبـر والحلم ، والكمـال في هـذا البـاب حـال نبينـا ﷺ ، كمـا في الصحيحين عن عائشة أنها قالت « ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له ، ولا امـرأة ، ولا دابة ، ولا شيئـاً قط إلا أن يجـاهـد في سبيـل الله ، ولا نيـل منـه فانتقم لنفسه إلا أن تنتهـك محارم الله فـإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبـه شيء حتى ينتقم لله »(٢) فقـد تضمن خلقه العـظيم أنه لا ينتقم لنفسـه إذا نيل منه ، وإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبـه شيء حتى ينتقم لله ، ومعلوم أن

= نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كـادوا يتثاورون فلم يـزل النبي ﷺ - يخفضهم حتى سكتوا فنزل قول الله تـعـالى : ﴿ ولتسمعـن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ﴾ .

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المناقب ٢٣ باب صفة النبي - ﷺ ٣٥٦٠ أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة - رضي الله عنها أنها قالت « ما خير رسول الله - ﷺ - وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الحدود١٠ باب اقامة الحدود والانتقام لحرمات الله . وفي الأدب ٨٠ باب قول النبي - ﷺ يسروا ولا تعسروا وكـان يحب التخفيف والتسري على النـاس ورواه مسلم في الفضائل ٧٧ - ٧٩ والموطأ في حسن الخلق ٢ وأحمـد بن حنبل في المسنـد ٦ : ٢٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٨٢ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ ، ٢٦٢ ، ٢٨١ (حلبي)

أذى الرسول من أعظم الحرمات ، فإن من آذاه فقد آذى الله ، وقتل سابه واجب باتفاق الأمة ، سواء قيل إنه قتل لكونه ردة ، أو لكونه ردة مغلظة أوجبت أن صار قتل الساب حداً من الحدود . والمنقول عن النبي ﷺ في احتماله وعفوه عمن كان يؤذيه كثير كما قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ،فَاعْفُواوَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ (١) فالآمر الناهي إذا أوذي وكان أذاه تعدياً لحدود الله وفيه حق لله يجب على كل أحد النهي عنه ، وصاحبه مستحق للعقوبة ، لكن لما فيه حق الآدمي كان له العفو عنه ، كما له أن يعفو عن القاذف والقاتل وغير ذلك ، وعفوه عنه لا يسقط من ذلك العقوبة التي وجبت عليه لحق الله ، لكن يكمل لهذا الآمر الناهي مقام الصبر والعفو الذي شرع الله لمثله ، حتى يدخل في قوله تعالى : ـ ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ (٢) وفي قوله : ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ ﴾ (٣) ثم هنا فرق لطيف : أما الصبر فإنه مأمور به مطلقاً ، فلا ينسخ ، وأما العفو والصفح فإنه جعل إلى غاية وهو أن : ﴿ يأتي الله بأمره ﴾ فلما أتى بأمره : بتمكين الرسول ونصره ـ صار قادراً على الجهاد لأولئك ، والزامهم بالمعروف ، ومنعهم عن المنكر ـ صار يجب عليه العمل باليد في ذلك ما كان عاجزاً عنه ، وهو مأمور بالصبر في ذلك ، كما هو مأموراً بالصبر أولاً .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٠٩ قال : محمد بن اسحاق ، حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد ابن جبير أو عكرمة عن ابن عباس . قال : كان حيي بن أخطب ، وأبو ياسر بن أخطب من أشد اليهود للعرب حسداً إذ خصهم الله برسوله ـ ﷺ ـ وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعا فانزل الله ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم** ﴾ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ١٠٩ .

والجهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا ، وأن يكون الدين كله لله ، فمقصوده إقامة دين الله لا استيفاء الرجل حظه ، ولهذا كان ما يصاب به المجاهد في نفسه وماله أجره فيه على الله ، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، حتى إن الكفار إذا أسلموا أو عاهدوا لم يضمنوا ما أتلفوه للمسلمين من الدماء والأموال ، بل لو أسلموا وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين كان ملكاً لهم عند جمهور العلماء ، كمالك وأبي حنيفة وأحمد . وهو الذي مضت به سنة رسول الله ﷺ ، وسنة خلفائه الراشدين . فالآمر الناهي إذا نيل منه وأوذي ، ثم إن ذلك المأمور المنهي تاب وقبل الحق منه : فلا ينبغي له أن يقتص منه ، ويعاقبه على أذاه ، فإنه قد سقط عنه بالتوبة حق الله كما يسقط عن الكافر إذا أسلم حقوق الله تعالى . كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « الإسلام يهدم ما كان قبله ، والتوبة تهدم ما كان قبلها »(١) والكافر إذا أسلم هدم الإسلام ما كان قبله : دخل في ذلك ما اعتدى به على المسلمين في نفوسهم وأموالهم ، لأنه ما كان يعتقد ذلك حراماً ، بل كان يستحله ، فلما تاب من ذلك غفر له هذا الاستحلال ، وغفرت له توابعه . فالمأمور المنهي إن كان مستحلاً لأذى الآمر الناهي كأهل البدع والأهواء ، الذين يعتقدون أنهم على حق ، وأن الآمر الناهي لهم معتد عليهم ، فإذا تابوا لم يعاقبوا بما اعتدوا به على الآمر الناهي من أهل السنة ، كالرافضي الذي يعتقد كفر الصحابة أو فسقهم وسبهم على ذلك ، فإن تاب من هذا الاعتقاد وصار يحبهم ويتولاهم لم يبق لهم عليه حق ، بل دخل حقهم في حق الله ثبوتاً وسقوطاً ، لأنه تابع لاعتقاده .

ولهذا كان جمهور العلماء ـ كأبي حنيفة ومالك وأحمد في أصح الروايتين والشافعي في أحد القولين على ـ أن أهل البغي المتأولين لا يضمنون ما أتلفوه على أهل العدل بالتأويل ، كما لا يضمن أهل العدل ما أتلفوه على

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الإيمان باب ١٩٢ .

أهل البغي بالتأويل باتفاق العلماء .

وكذلك أصح قولي العلماء في المرتدين ، فإن المرتد والباغي المتأول والمبتدع كل هؤلاء يعتقد أحدهم أنه على حق ، فيفعل ما يفعله متأولاً ، فإذا تاب من ذلك كان كتوبة الكافر من كفره ، فيغفر له ما سلف مما فعله متأولاً ، وهذا بخلاف من يعتقد أن ما يفعله بغي وعدوان كالمسلم إذا ظلم المسلم ، والذمي إذا ظلم المسلم ، والمرتد الذي أتلف مال غيره ، وليس بمحارب بل هو في الظاهر مسلم أو معاهد ، فإن هؤلاء يضمنون ما أتلفوه بالاتفاق .

فالمأمور المنهي إذا كان يعتقد أن أذى الآمر الناهي جائز له فهو من المتأولين وحق الآمر الناهي داخل في حق الله تعالى ، فإذا تاب سقط الحقان ، وإن لم يتب كان مطلوباً بحق الله المتضمن حق الآدمي ، فإما أن يكون كافراً ، وإما أن يكون فاسقاً وإما أن يكون عاصياً ، فهؤلاء كل يستحق العقوبة الشرعية بحسبه ، وإن كان مجتهداً مخطئاً فهذا قد عفى الله عنه خطأه ، فإن كان قد حصل بسبب اجتهاده الخطأ أذى للآمر الناهي بغير حق كالحاكم إذا اجتهد فأخطأ ، وكان في ذلك ما هو أذى للمسلم ، أو كالشاهد ، أو كالمفتي . فإذا كان الخطأ لم يتبين لذلك المجتهد المخطىء كان هذا مما ابتلى الله به هذا الآمر الناهي . قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً** ﴾(1) فهذا مما يترفع عنه الإثم في نفس الأمر ، وكذلك الجزاء على وجه العقوبة ، ولكن قد يقال : قد يسقط الجزاء على وجه القصاص الذي يجب في العمد ، ويثبت الضمان الذي يجب في

---

(1) سورة الفرقان آية رقم ٢٠ في صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله - ﷺ - يقول الله تعالى : ﴿ إني مبتليك ومبتلي بك ﴾ .

وفي المسند عن رسول الله - ﷺ - لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » .

وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام : خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً » .

الخطأ ؛ كما تجب الدية في الخطأ ، وكما يجب ضمان الأموال التي يتلفها الصبي والمجنون في ماله ، وإن وجبت الدية على عاقلة القاتل خطأ ، معاونة له ، فلا بد من استيفاء حق المظلوم خطأ ، فكذلك هذا الذي ظلم خطأ ، لكن يقال : يفرق بين ما كان الحق فيه لله ، وحق الآدمي تبع له ، وما كان حقاً لآدمي محضاً أو غالباً ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد من هذا الباب موافق لقول الجمهور الذين لا يوجبون على أهل البغي ضمان ما أتلفوه لأهل العدل بالتأويل ، وإن كان ذلك خطأ منهم ليس كفراً ولا فسقاً . وإذا قدر عليهم أهل العدل لم يتبعوا مدبرهم ، ولم يجهزوا على جريحهم ، ولم يسبوا حريمهم ، ولم يغنموا أموالهم ، فلا يقاتلونهم على ما أتلفوه من النفوس والأموال إذا أتلفوا مثل ذلك ، أو تملكوا عليهم .

فتبين أن القصاص ساقط في هذا الموضع ، لأن هذا من باب الجهاد الذي يجب فيه الأجر على الله ، وهذا مما يتعلق بحق العبد الآمر الناهي . وأما قول السائل : هل يقتص منه لئلا يؤدي إلى طمع منه في جانب الحق ؟ فيقال : متى كان فيما فعله إفساد لجانب الحق كان الحق في ذلك لله ورسوله ، فليفعل فيه ما يفعل في نظيره ، وإن لم يكن فيه أذى للآمر الناهي .

والمصلحة في ذلك تتنوع ، فتارة تكون المصلحة الشرعية القتال ، وتارة تكون المصلحة المهادنة ، وتارة تكون المصلحة الإمساك والاستعداد بلا مهادنة ، وهذا يشبه ذلك ، لكن الإنسان تزين له نفسه أن عفوه عن ظالمه يجريه عليه ، وليس كذلك ، بل قد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه قال : « ثلاث إن كنت لحالفاً عليهن ، ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وما نقصت صدقة من مال ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » [1] .

فالذي ينبغي في هذا الباب أن يعفو الإنسان عن حقه ، ويستوفي حقوق

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ١٤٥ (حلبي) ٢ : ٢٣٥ (حلبي)

الله بحسب الإمكان . قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ** ﴾ (١) قال إبراهيم النخعي (٢) : كانوا يكرهون أن يستذلوا فإذا قدروا عفوا . قال تعالى ﴿ **هم ينتصرون** ﴾ يمدحهم، بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ، ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزاً وذلاً ، بل هذا مما يذم به الرجل ، والممدوح العفو مع القدرة ، والقيام لما يجب من نصر الحق ، لا مع إهمال حق الله وحق العباد ، والله تعالى أعلم

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٣٩ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم . وكما عفا رسول الله ـ ﷺ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ، ونزلوا من جبل التنعيم فلما قدر عليهم منَّ عليهم مع قدرته على الانتقام وكذلك عفوه ـ ﷺ ـ عن غوث بن الحارث الذي أراد الفتك به حين اخترط سيفه ـ وهو نائم فاستيقظ ـ ﷺ ـ وهو في يده صلتاً فانتهره فوضعه من يده ، وأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ السيف في يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه ، وكذلك عفا ـ ﷺ ـ عن لبيد بن الأعصم الذي سحره عليه السلام ـ ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه ـ وكذلك عفوه ـ ﷺ ـ عن المرأة اليهودية وهي زينب أخت مرحب اليهودي الخيبري الذي قتله محمود بن سلمة التي سمت الذراع يوم خيبر ، فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ـ ﷺ ـ ما حملك على ذلك . . ؟ قالت أردت إن كنت نبياً لم يضرك ، وإن لم تكن نبياً استرحنا منك فأطلقها عليه الصلاة والسلام .

(٢) سبق الترجمة له في الجزء الثاني .

فصل

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

في قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ (١) الآية : قراءتان في هذه الآية ، بالتخفيف والتثقيل ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالتثقيل وتنكر التخفيف ، كما في الصحيح عن الزهري قال : أخبرني عروة عن عائشة قالت له ـ وهو يسألها عن قوله : ﴿ **وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ مخففة قالت ـ معاذ الله ! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ـ قلت : فما هذا النصر ـ ﴿ **حتى اذا استيأس الرسل** ﴾ ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك ، لعمري لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم فما هو بالظن .

وفي الصحيح أيضاً عن ابن جريج سمعت ابن أبي مليكة يقول قال ابن عباس : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ خفيفة ذهب بها هنالك وتلا : ﴿ **حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ** ﴾ فلقيت عروة فذكرت ذلك له ، فقال : قالت عائشة : معاذ الله ، والله ما وعد الله رسوله من شيء قط إلاّ علم أنه كائن قبل أن يكون ،

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١١٠ .

ولكن لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا خافوا أن يكون من معهم يكذبهم ، فكانت تقرأها ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾(1) مثقلة .

فعائشة جعلت استيأس الرسل من الكفار للمكذبين ، وظنهم التكذيب من المؤمنين بهم ، ولكن القراءة الأخرى ثابتة لا يمكن إنكارها ، وقد تأولها ابن عباس ، وظاهر الكلام معه ، والآية التي تليها إنما فيها استبطاء النصر وهو قولهم : ﴿ متى نصر الله ؟ ﴾ فإن هذه كلمة تبطىء لطلب التعجيل .

وقوله : ﴿وَظَنُّوا أنهم قد كذبوا ﴾ قد يكون مثل قوله : ﴿ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ، فَيَنْسَخُ الله مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ﴾ (2) والظن لا يراد به في الكتاب والسنة الاعتقاد الراجح ، كما هو في اصطلاح طائفة من أهل الكلام في العلم ، ويسمون الاعتقاد المرجوح وهما . بل قد قال النبي ﷺ : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » (3) وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئاً ﴾ (4) فالاعتقاد المرجوح هو ظن ، وهو وهم ، وهذا الباب قد يكون من حديث النفس المعفو عنه ، كما قال النبي ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل » (5) وقد يكون من باب

---

(1) سورة يوسف آية رقم 110 .

(2) سورة الحج آية رقم 52 .

(3) الحديث عند البخاري في كتابا الوصايا 8 باب قول الله عز وجل ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ 22 النساء وذكره ورواه أيضاً في كتاب النكاح 45 والفرائض 2 وكتاب الأدب 57 ـ 58 ورواه الإمام مسلم في البر 28 والترمذي في البر 56 ، وصاحب الموطأ في حسن الخلق 15 وأحمد بن حنبل في المسند 2 : 245 ، 287 ، 312، 342 ، 465 (حلبي)

(4) سورة النجم آية رقم 28 .

(5) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب العتق 6 باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه .

2528 ـ حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا مسعر عن قتادة عن زرارة بن أبي أوفى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه في الطلاق 11 وإيمان 15 ، ورواه الإمام مسلم في إيمان 201 ، 202 ، ورواه أبو داود في الطلاق 15 وابن ماجه في =

الوسوسة التي هي صريح الإيمان كما ثبت في الصحيح أن الصحابة قالوا يا رسول الله : « إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحرق حتى يصير حممة ، أو يخر من السماء إلى الأرض: أحب إليه من أن يتكلم به . قال : « أو قد وجدتموه » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان » (١) وفي حديث آخر : « إن أحدنا ليجد ما يتعاظم أن يتكلم به : قال : « الحمد لله الذي رد كيده الى الوسوسة » (٢) ..

فهذه الأمور التي هي تعرض ثلاثة أقسام : منها ما هو ذنب يضعف به الإيمان ، وإن كان لا يزيله ، واليقين في القلب له مراتب ، ومنه ما هو عفو بعفى عن صاحبه ، ومنه ما يكون يقترن به صريح الإيمان .

ونظير هذا : ما في الصحيح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يرحم الله لوطاً ! لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي ، ونحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال له ربه : ﴿**أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ (٣) وقد ترك البخاري ذكر قوله : « بالشك » لما خاف فيها من توهم بعض الناس .

ومعلوم أن إبراهيم كان مؤمناً كما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ **أو لم تؤمن ؟ قال : بلى** ﴾ ولكن طلب طمأنينة قلبه ، كما قال : ﴿ **ولكن ليطمئن قلبي** ﴾

= الطلاق ١٤ ، ١٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٩٨ ، ٤٢٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨١ ، ٤٩١ (حلبي)

(١) الحديث رواه مسلم في الإيمان ٢٠٩ ، وأبو داود في الأدب ١٠٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٩٦ - ٤٤١ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الإيمان ٢١١ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٠ .

فالتفاوت بين الإيمان والاطمئنان سماه النبي ﷺ شكاً لذلك بإحياء الموتى ، كذلك الوعد بالنصر في الدنيا : يكون الشخص مؤمناً بذلك ، ولكن قد يضطرب قلبه فلا يطمئن ، فيكون فوات الاطمئنان ظناً أنه قد كذب ، فالشك مظنة أنه يكون من باب واحد ، وهذه الأمور لا تقدح في الإيمان الواجب ، وإن كان فيها ما هو ذنب فالأنبياء عليهم السلام معصومون من الإقرار على ذلك ، كما في أفعالهم على ما عرف من أصول السنة والحديث .

وفي قصص هذه الأموز عبرة للمؤمنين بهم ، فإنهم لا بد أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك ، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك ، ويعلمون أنه قد ابتلى به من هو خير منهم ، وكانت العاقبة إلى خير ، فليتيقن المرتاب ، ويتوب المذنب ويقوى إيمان المؤمنين فبها يصح الإتساء بالأنبياء كما في قوله : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ** ﴾[1] .

وفي القرآن من قصص المرسلين التي فيها تسلية وتثبيت ، ليتأسى بهم في الصبر على ما كذبوا وأوذوا كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا** ﴾[2] ولنا لأنه أسوة في ذلك ما هو كثير في القرآن ؛ ولهذا قال : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب** ﴾ وقال : ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ، وَلَا تَسْتَعْجِل**

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٢١ هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله - ﷺ - في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي - ﷺ - يوم الأحزاب - في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه عز وجل - لهذا قال تعالى : للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ٣٤ .

لَهُمْ ﴾ (١) وقال : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (٢) وقال : ﴿ وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾(٣) وإذا كان الاتساء بهم مشروعاً في هذا وفي هذا فمن المشروع التوبة من الذنب ، والثقة بوعد الله ، وإن وقع في القلب ظن من الظنون وطلب مزيد الآيات لطمأنينة القلوب ، كما هو المناسب للاتساء والاقتداء دون ما كان المتبوع معصوماً مطلقاً ، فيقول التابع : أنا لست من جنسه ، فإنه لا يذكر بذنب ، فإذا أذنب استيأس من المتابعة والاقتداء ، لما أتى به من الذنب الذي يفسد المتابعة على القول بالعصمة ، بخلاف ما إذا قيل : إن ذلك مجبور بالتوبة ، فإنه تصح معه المتابعة ، كما قيل : أول من أذنب وأجرم ثم تاب وندم آدم أبو البشر ، ومن أشبه أباه ما ظلم .

والله تعالى قص علينا قصص توبة الأنبياء لنقتدي بهم في المتاب ، وأما ما ذكره سبحانه أن الاقتداء بهم في الأفعال التي أقروا عليها فلم ينهوا عنها ، ولم يتوبوا منها ، فهذا هو المشروع ، فأما ما نهوا عنه وتابوا منه فليس بدون المنسوخ من أفعالهم ، وإن كان ما أمروا به أبيح لهم ، ثم نسخ تنقطع فيه المتابعة ، فما لم يؤمروا به أحرى وأولى . وأيضاً فقوله : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ (٤) فديكونون ظنوا في الموعود به ما ليس هو فيه بطريق الاجتهاد

---

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة فصلت آية رقم ٤٣ .

(٣) سورة هود آية رقم ١٢٠ .

(٤) سورة يوسف آية رقم ١١٠ روى الامام البخاري في كتاب التفسير ٦ باب ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ ٤٦٩٥ ـ حدثنا ابراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي الله عنها . قالت له وهو يسألها عن قول الله تعالى ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ قال : قلت : اكذبوا أم كذبوا ؟ قالت عائشة : كذبوا . قلت فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن قالت : أجل لعمري . لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : وظنوا أنهم كذبوا قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت : فما هذه =

منهم ، فتبين الأمر بخلافه ، فهذا جائز عليهم كما سنبينه ، فإذا ظن بالموعود به ما ليس هو فيه ، ثم تبين الأمر بخلافه ظن أن ذلك كذب ، وكان كذباً من جهة ظن في الخبر ما لا يجب أن يكون فيه . فأما الشك فيما يعلم أنه أخبر به فهذا لا يكون ، وسنوضح ذلك إن شاء الله تعالى . ومما ينبغي أن يعلم أنه سبحانه ذكر هنا شيئين : « أحدهما » استيئاس الرسل ، و« الثاني » ظن أنهم كذبوا ، وقد ذكرنا لفظ « الظن » فأما لفظ ﴿ استيأسوا ﴾ فإنه قال سبحانه : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل** ﴾ ولم يقل يئس الرسل ، ولا ذكر ما استيأسوا منه ، وهذا اللفظ قد ذكره في هذه السورة : ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً ، قَالَ كَبِيرُهُمْ : أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً مِنَ اللهِ ، وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ؟ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ، أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ** ﴾[1] وقد يقال الاستيئاس ليس هو الإياس ، لوجوه :

« أحدها » إن إخوة يوسف لم ييأسوا منه بالكلية ، فإن قول كبيرهم : ﴿ **فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين** ﴾ دليل على أنه يرجو أن يحكم الله له ، وحكمه هنا لا بد أن يتضمن تخليصنا ليوسف منهم ، وإلا فحكمه له بغير ذلك لا يناسب قعوده في مصر لأجل ذلك . وأيضاً : فـ « اليأس » يكون في الشيء الذي لا يكون ، ولم يجيء ما يقتضي ، فإنهم ﴿ **قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ . قَالَ : مَعَاذَ اللهِ ، أَن نَأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ** ﴾[2] فامتنع من تسليمه إليهم ، ومن المعلوم أن هذا

= الآية . . ؟ قالت : هم اتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم . فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر . حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم . جاءهم نصر الله عند ذلك .

(١) سورة يوسف آية رقم ٨٠ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٧٨ ـ ٧٩ .

لا يوجب القطع بأنه لا يسلم إليهم ، فإنه يتغير عزمه ونيته ، وما أكثر تقليب القلوب ، وقد يتبدل الأمر بغيره حتى يصير الحكم إلى غيره ، وقد يتخلص بغير اختياره ، والعادات قد جرت بهذا على مثل من عنده من قال لا يعطيه ، فقد يعطيه ، وقد يخرج من يده بغير اختياره ، وقد يموت عنه فيخرج والعالم مملوء من هذا .

« الوجه الثاني » قال لهم يعقوب : ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وأخِيهِ ، وَلَا تَيْأَسُوا مِن رُوحِ الله ، إنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ الله إلَّا القَوْمُ الكَافِرُونَ** ﴾ [1] .

ومن المعلوم أنهم لم يكونوا كافرين فهذا هو « الوجه الثالث » أيضاً وهو أنه أخبر ﴿ **أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ فيمتنع أن يكون للأنبياء يأس من روح الله ، وأن يقعوا في الاستيئاس بل المؤمنون ما داموا مؤمنين لا ييأسون من روح الله ، وهذه السورة تضمنت ذكر المستيئسين ، وأن الفرح جاءهم بعد ذلك ، لئلا ييأس المؤمن ، ولهذا فيها : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [2] فذكر استيئاس الإخوة من أخي يوسف وذكر استيئاس الرسل يصلح أن يدخل فيه ما ذكره ابن عباس ، وما ذكرته عائشة جميعاً .

« الوجه الرابع » أن الاستيئاس استفعال من اليأس ، والاستفعال يقع على وجوه : يكون لطلب الفعل من الغير ، فالاستخراج والاستفهام والاستعلام يكون في الأفعال المتعدية ، يقال : استخرجت المال من غيري ، وكذلك استفهمت ، ولا يصلح هذا أن يكون معنى الاستيئاس ، فإن أحداً لا

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٨٧ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ١١١ وتكملة الآية ﴿ **ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .

يطلب اليأس ويستدعيه ، ولأن استيأس فعل لازم لا متعدي . ويكون للاستفعال لصيرورة المستفعل على صفة غيره ، وهذا يكون في الأفعال اللازمة كقولهم : استحجر الطين ، أي صار كالحجر ، واستنوق الفحل ، أي صار كالناقة ، وأما النظر فيما استيأسوا منه ، فإن الله تعالى ذكر ذلك في قصة إخوة يوسف حيث قال : ﴿ **فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ** ﴾ (١) .

وأما الرسل فلم يذكر ما استيأسوا منه ، بل أطلق وصفهم بالاستيئاس ، فليس لأحد أن يقيده بأنهم استيأسوا مما وعدوا به وأخبروا بكونه ، ولا ذكر ابن عباس ذلك .

وثبت أن قوله : ﴿ **وظنوا أنهم قد كذبوا** ﴾ لا يدل على ظاهره فضلاً عن باطنه : أنه حصل في قلوبهم مثل تساوي الطرفين فيما أخبروا به ، فإن لفظ الظن في اللغة لا يقتضي ذلك ، بل يسمى ظناً ما هو من أكذب الحديث عن الظان ، لكونه أمراً مرجوحاً في نفسه ، واسم اليقين والريب والشك ونحوها يتناول علم القلب وعمله وتصديقه ، وعدم تصديقه وسكينته وعدم سكينته ، ليست هذه الأمور بمجرد العلم فقط ، كما يحسب ذلك بعض الناس ، كما نبهنا [عليه] في غير هذا الموضع . إذ المقصود هنا الكلام على قوله : ﴿ **حتى إذا استيأس الرسل** ﴾ فإذا كان الخبر عن استيئاسهم مطلقاً فمن المعلوم أن الله إذا وعد الرسل والمؤمنين بنصر مطلق ـ كما هو غالب إخباراته ـ لم يقيد زمانه ولا مكانه ، ولا سنته ، ولا صفته ، فكثيراً ما يعتقد الناس في الموعود به صفات أخرى لم ينزل عليها خطاب الحق ، بل اعتقدوها بأسباب أخرى ، كما اعتقد طائفة من الصحابة إخبار النبي ﷺ لهم أنهم يدخلون المسجد الحرام ، ويطوفون به ، أن ذلك يكون عام

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٨٠ وتكملة الآية ﴿ خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ .

الحديبية [1] ، لأن النبي ﷺ خرج معتمراً ، ورجا أن يدخل مكة ذلك العام ، ويطوف ويسعى ، فلما استيأسوا من دخوله مكة ذلك العام ـ لما صدهم المشركون ، حتى قاضاهم النبي ﷺ على الصلح المشهور ـ بقي في قلب بعضهم شيء ، حتى قال عمر للنبي ﷺ : ألم تخبرنا أنا ندخل البيت ونطوف ؟ قال : « بلى » . أفأخبرتك أنك تدخله هذا العام ؟ قال : لا . قال : « فإنك داخله ومطوف » [2] وكذلك قال له أبو بكر .

وكان أبو بكر رضي الله عنه أكثر علماً وإيماناً من عمر حتى تاب عمر . مما صدر منه ، وإن كان عمر ـ رضي الله عنه ـ محدثاً كما جاء في الحديث الصحيح ، أنه ﷺ قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر » [3] فهو ـ رضي الله عنه ـ المحدث الملهم ، الذي ضرب الله الحق على لسانه وقلبه ، ولكن مزية التصديق الذي هو أكمل متابعة للرسول ، وعلماً وإيماناً بما جاء به ، درجته فوق درجته ، فلهذا كان الصديق أفضل الأمة ، صاحب المتابعة للآثار النبوية ، فهو معلم لعمر ، ومؤدب

---

(١) روى البخاري في كتاب المغازي ٣٥ باب غزوة الحديبية وقول الله تعالى : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ .

٤١٥٤ حدثنا سفيان قال عمرو : سمعت جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما قال : قال لنا رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية : أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفاً وأربعمائة ، ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة » تابعه الأعمش (سمع سالماً سمع جابراً ألفاً وأربعمائة) .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٣٣٠ ، ٣٣١ (حلبي)

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب فضائل الصحابة ـ ٦ باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي ـ رضي الله عنه .

٣٦٨٩ ـ حدثنا يحيى بن قزعة ، حدثنا ابراهيم بن سعد عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر » . وفي رواية عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه (لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر) ورواه البخاري في الأنبياء ٥٤ ، والامام مسلم في كتاب فضائل الصحابة ٣٣ ـ ورواه الامام الترمذي في المناقب ١٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٥٥ (حلبي) .

للمحدث منهم الذي يكون له من ربه إلهام وخطاب كما كان أبو بكر معلماً لعمر ومؤدباً له حيث قال له : أفأخبرك أنك تدخله هذا العام ؟ قال : لا ، قال إنك آتيه ومطوف . فبين له الصديق أن وعد النبي ﷺ مطلق غير مقيد بوقت ، وكونه سعى في ذلك العام وقصده لا يوجب أن يعني ما أخبر به ، فإنه قد يقصد الشيء ولا يكون ، بل يكون غيره ، إذ ليس من شرط النبي ﷺ أن يكون كما قصده ، بل من تمام نعمة ربه عليه أن يقيده عما يقصده إلى أمر آخر هو أنفع مما قصده ، كما كان صلح الحديبية أنفع للمؤمنين من دخولهم ذلك العام بخلاف خبر النبي ﷺ ، فإنه صادق لا بد أن يقع ما أخبر به ويتحقق . وكذلك ظن النبي كما قال في تأبير النخل : « إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله فإني لن أكذب على الله »[1] فاستيأس عمر وغيره من دخول ذلك هو استيئاس مما ظنوه موعوداً به ، ولم يكن موعوداً به .

ومثل هذا لا يمتنع على الأنبياء أن يظنوا شيئاً فيكون الأمر بخلاف ما [ظنوه] فقد يظنون فيما وعدوه تعييناً وصفات ولا يكون كما ظنوه ، فييأسون مما ظنوه في الوعد ، لا من تعيين الوعد ، كما قال النبي ﷺ : « رأيت أن أبا جهل قد أسلم ؛ فلما أسلم خالد ظنوه هو ، فلما أسلم عكرمة علم أنه هو » .

وروى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون : فقال : « لو لم تفعلوا هذا لصلح » قال : فخرج سبتاً فمر بهم فقال : « ما لفحلكم ؟ » قالوا : قلت : كذا وكذا . قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم »[2] وروي أيضاً عن موسى بن طلحة ، عن أبيه طلحة بن عبيد الله . قال : مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل ، فقال : « ما يصنع هؤلاء » ؟ فقال : يلقحونه

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم في الفضائل باب ١٤٠ ورواه الامام النسائي في الرهون ١٥ ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٦ : ١٢٣ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الفضائل ١٤١

يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله ﷺ : « ما أظن يغني ذلك شيئاً » فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقال : « إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه ، فإنني ظننت ظناً فلا تؤاخذني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله » (١) .

فإذا كان النبي ﷺ يأمرنا إذا حدثنا بشيء عن الله أن نأخذ به فإنه لن يكذب على الله ، فهو أتقانا لله ، وأعلمنا بما يتقى ، وهو أحق أن يكون آخذاً بما يحدثنا عن الله ، فإذا أخبره الله بوعد كان علينا أن نصدق به ، وتصديقه هو به أعظم من تصديقنا ، ولم يكن لنا أن نشك فيه ، وهو - بأبي - أولى وأحرى أن لا يشك فيه ، لكن قد يظن ظناً ، كقوله : « إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن » وإن كان أخبره به مطلقاً فمستنده ظنون ، كقوله في حديث ذي اليدين : « ما قصرت الصلاة ولا نسيت » (٢) .

وقد يظن الشيء ثم يبين الله الأمر على جليته ، كما وقع مثل ذلك في أمور كقوله تعالى : ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٣) نزلت في الوليد بن

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٣ : ١٥٣ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الصلاة ٨٨ باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ، ٤٨٢ - حدثنا ابن شميل أخبرنا ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: صلى بنا رسول الله - ﷺ - إحدى صلاتي العشى - قال ابن سيرين : سماها أبو هريرة ولكن نسيت أنا قال : فصلى بنا ركعتين ثم سلم - فقام الى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنه غضبان ووضع يده اليمنى على اليسرى وشبك بين أصابعه ، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى ، وخرجت السرعان من أبواب المسجد، فقالوا : قصرت الصلاة . وفي القوم أبو بكر وعمر . فهابا أن يكلماه - وفي القوم رجل في يده طول يقال له ذو اليدين قال : يا رسول الله أنسيت أم قصرت الصلاة قال : وذكره . ورواه البخاري في الأذان ٦٩ وفي كتاب السهو ٤ ، ٥ ورواه الإمام مسلم في المساجد٩٧ ،٩٨، ٩٩ ، ١٠٢ والنسائي في السهو ٢٢ وابن ماجه في الإقامة ١٣٤ وصاحب الموطأ في النداء ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٧٧، ٢٣٥ ، ٤٢٣ ، ٤٦٠ (حلبي) .

(٣) سورة الحجرات آية رقم ٦ .

عقبة كما استعمله النبي ﷺ [وهم أن] تغزوهم لما ظن صدقه ، حتى أنزل الله هذه الآية . وكذلك في قصة بني أبيرق التي أنزل الله فيها : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله ، وَلاَ تَكُن لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً ﴾ (١) وذلك لما جاء قوم تركوا السارق الذي كان يسرق ، وأخرجوا البريء ، فظن النبي ﷺ صدقهم ، حتى تبين الأمر بعد ذلك . وقال في حديث قصر الصلاة : « لم أنس ولم تقصر » فقالوا : بلى قد نسيت . وكان قد نسي ، فأخبر عن موجب ظنه واعتقاده ، حتى تبين الأمر بعد ذلك ، وروى عنه أنه قال : « إني لا أنسى لأسن » وأيضاً فقوله في القرآن : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إن نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٢) شامل للنبي ﷺ وأمته ، حيث قال في صدر الآيات : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٣) الآيات .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عيسى الأنصاري عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : « بينا جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته » (٤) .

وفي صحيح مسلم عن آدم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: «لما نزلت هذه الآية : ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ دخل في

---

(١) سورة النساء اية رقم ١٠٥ .
(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٥ .
(٤) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب المسافرين ٢٥٤ ، ورواه النسائي في الافتتاح ٢٥ .

قلوبهم منها شيء لم يدخل مثله، فقال النبي : « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا »[1] قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾[2] الآيات إلى قوله : ﴿ **أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ قال قد فعلت ، إلى آخر السورة قال : قد فعلت »[3]

وفي صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ إشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم بركوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ! كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما اقتراها القوم وذلت بها ألسنتهم : أنزل الله عز وجل في أثرها : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه** ﴾ إلى قوله ﴿ **وإليك المصير** ﴾ فلما

---

(١) قال الامام أحمد ـ حدثنا عفان ، حدثنا عبد الرحمن بن ابراهيم ، حدثني أبو عبد الرحمن يعني العلاء عن أبيه عن أبي هريرة ـ قال : لما نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ **لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فأتوا رسول الله ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله ـ أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير فلما أقربها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله .

﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ ورواه مسلم منفرداً به من حديث يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة فذكر مثله .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

فعلوا ذلك نسخها سبحانه ، فأنزل الله ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ إلى قوله ﴿ **قبلنا** ﴾ قال : « نعم » ﴿ **ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به** ﴾ قال : نعم . إلى آخر السورة ، قال : نعم [1] .

والذي عليه جمهور أهل الحديث والفقه أنه يجوز عليهم الخطأ في الاجتهاد ، لكن لا يقرون عليه ، وإذا كان في الأمر والنهي فكيف في الخبر ؟ وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فأحسب أنه صادق ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » [2] فنفس ما يعد الله به الأنبياء والمؤمنين حقاً لا يمترون فيه ، كما قال تعالى في قصة نوح ﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ** ﴾ إلى آخر الآية ، ومثل هذا الظن قد يكون من إلقاء الشيطان المذكور في قوله ﴿ **مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ** ﴾ إلى قوله ﴿ **صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ [3] وقد تكلمنا على هذه الآية في غير هذا الموضع. وللناس فيها قولان مشهوران : بعد اتفاقهم على أن التمني هو التلاوة والقرآن كما عليه المفسرون من السلف كما في قوله :

---

(١) رواية الامام مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب واسحاق بن ابراهيم ثلاثتهم عن وكيع به . ورواية الامام أحمد بن حنبل : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن آدم بن سليمان . سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ وذكره .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب المظالم ١٦ باب اثم من خاصم في باطل وهو يعلمه ، ٢٤٥٨ قال : حدثني ابراهيم بن سعد عن صالح عن ابن شهاب قال : أخبرني عروة بن الزبير أن زينب بنت أم سلمة أخبرته ان أمها أم سلمة رضي الله عنها ـ زوج النبي ـ ﷺ ـ أخبرتها عن رسول الله ﷺ ـ أنه سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم فقال : وذكره . ورواه في الأحكام ٢٩ ، ٣١ ـ ورواه الامام مسلم في كتاب الأقضية ٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٣٠٨ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٥٢ إلى ٥٤ .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [1] وأما من أول النهي على تمني القلب فذاك فيه كلام آخر ؛ وإن قيل : إن الآية تعم النوعين ؛ لكن الأول هو المعروف المشهور في التفسير ، وهو ظاهر القرآن ومراد الآية قطعاً ، لقوله بعد ذلك : ﴿ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ، ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ، لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [2] وهذا كله لا يكون في مجرد القلب إذا لم يتكلم به النبي ، لكن قد يكون في ظنه الذي يتكلم به بعضه النخل ونحوها ، وهذا يوافق ما ذكرناه . وإذا كان التمني لا بدّ أن يدخل فيه القول ففيه قولان . « الأول » أن الإلقاء هو في سمع المستمعين ولم يتكلم به الرسول وهذا قول من تأويل الآية بمنع جواز الإلقاء في كلامه .

و« الثاني » ـ وهو الذي عليه عامة السلف ومن اتبعهم ـ أن الإلقاء في نفس التلاوة ، كما دلت عليه الآية وسياقها من غير وجه ، كما وردت به الآثار المتعددة ، ولا محذور في ذلك إلا إذا أقر عليه ، فأما إذا نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته فلا محذور في ذلك ، وليس هو خطأ وغلط في تبليغ الرسالة ، إلا إذا أقر عليه. ولا ريب أنه معصوم في تبليغ الرسالة أن يقر على خطأ ، كما قال : « فإذا حدثتكم عن الله بشيء فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله » ولولا ذلك لما قامت الحجة به ، فإن كونه رسول الله يقتضي أنه صادق فيما يخبر به عن الله ، والصدق يتضمن نفي الكذب ونفي الخطأ فيه ، فلو جاز عليه الخطأ فيما يخبر به عن الله ، وأقر عليه لم يكن كما يخبر به عن الله .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٥٢ ـ ٥٣ .

والذين منعوا أن يقع الإلقاء في تبليغه فروا من هذا ، وقصدوا خيراً ، وأحسنوا في ذلك ، لكن يقال لهم : ألقى ثم أحكم ، فلا محذور في ذلك ، فإن هذا يشبه النسخ لمن بلغه الأمر والنهي من بعض الوجوه فإنه إذاً موقن مصدق برفع قول سبق لسانه به ليس أعظم من إخباره برفعه .

ولهذا قال في النسخ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ﴾ [1] فظنهم أنهم قد كذبوا هو يتبع ما يظنونه من معنى الوعد وهذا جائز لا محذور فيه ، إذا لم يقروا عليه ، وهذا وجه حسن ، وهو موافق لظاهر الآية ولسائر الأصول من الآيات والأحاديث ، والذي يحقق [ذلك] أن باب الوعد والوعيد ليس بأعظم من باب الأمر والنهي . فإذا كان من الجائز في باب الأمر والنهي أن يظنوا شيئاً ، ثم يتبين الأمر لهم بخلافه ، فلأن يجوز ذلك في باب الوعد والوعيد بطريق الأولى والأحرى ، حتى أن باب الأمر والنهي إذ تمسكوا فيه بالاستصحاب لم يقع في ذلك ظن خلاف ما هو عليه الأمر في نفسه ، فإن الوجوب والتحريم الذي لا يثبت إلا بخطاب إذا نفوه قبل الخطاب كان ذلك اعتقاداً مطابقاً للأمر في نفسه ، وباب الوعد إذا لم يخبروا به قد يظنون انتفاءه ، كما ظن الخليل جواز المغفرة لأبيه حتى استغفر له ، ونهينا عن الاقتداء ، كما قال النبيّ ﷺ لأبي طالب : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » [2] وحتى استأذن ربه في الاستغفار لأمه فلم يؤذن له في ذلك » [3]

---

(1) سورة البقرة اية رقم ١٤٣ تكملة الآية ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ قال البخاري في تفسير هذه الآية حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله ابن دينار عن ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل قال أنزل على النبي ـ ﷺ قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فتوجهوا إلى الكعبة وقد رواه مسلم من وجه آخر

(2) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز ٨٠ باب إذا قال المشرك عند الموت لا إله إلا الله =

وحتى صلى على المنافقين قبل أن ينهى عن ذلك وكان يرجو لهم المغفرة حتى أنزل الله عز وجل : ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ إلى قوله ﴿ **لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾[1] وقال عن المنافقين : ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً** ﴾[2] الآية . وقال : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ** ﴾[3] فإذا كان صلى على المنافقين واستغفر لهم راجياً أن يغفر لهم قبل أن يعلم ذلك .

ولهذا سوغ العلماء أن يروى في باب الوعد والوعيد من الأحاديث ما لم يعلم أنه كذب ، وإن كان ضعيف الإسناد ، بخلاف باب الأمر والنهي فإنه لا يؤخذ فيه إلا بما يثبت أنه صدق ، لأن باب الوعد والوعيد إذا أمكن أن يكون الخبر صدقاً وأمكن أن يكون الخبر كذباً لم يجز نفيه ، لا سيما بلا علم ، كما

= **١٣٦٠** ـ أخبرنا يعقوب بن ابراهيم ، قال حدثني أبي عن صالح عن ابن شهاب . قال أخبرني سعيد بن المسيب عن أبيه أنه أخبره « أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة . جاءه رسول الله ـ ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأبي طالب : **يا** عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله ـ فقال أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية . **يا** أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب . . ؟ فلم يزل رسول الله ـ ﷺ يعرضها عليه ، **ويعودان** بتلك المقالة حتى قال أبو طالب : آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن **يقول** لا إله إلا الله . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره. ورواه مسلم في الإيمان **٣٩** وأحمد بن **حنبل** في المسند **٥** : **٤٣٣** ، والنسائي في الجنائز **١٠٢** .

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنائز **١٠٥ ـ ١٠٦** ، وأبو داود في الجنائز ٧٧ والنسائي **في** الجنائز **١٠١** ، وابن ماجه في الجنائز **٤٨** ، وأحمد بن حنبل في المسند **٢** : **٤٤١** (حلبي) .

(١) سورة التوبة آية رقم **١١٣ ـ ١١٤** .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٨٤ .

(٣) سورة المنافقون آية رقم ٦ .

لم يجز الجزم بثبوته بلا علم ، إذ لا محذور فيه ، منابت الناس اللفظ تعيين الوعد والوعيد ، فلا يجوز منع ذلك بمنع الحديث إذا أمكن أن يكون صدقاً ، لأن في ذلك إبطال لما هو حق ، وذلك لا يجوز .

ولهذا قال النبي ﷺ : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج »[1] وهذا الباب وهو « باب الوعد والوعيد » هو في الكتاب بأسماء مطلقة للمؤمنين ، والصابرين ، والمجاهدين ، والمحسنين ، فما أكثر من يظن من الناس أنه من أهل الوعد ، ويكون اللفظ في ظنه أنه متصف بما يدخل في الوعد لا في اعتقاد صدق الوعد في نفسه .

وهذا كقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا ،وَالَّذِينَآمَنُوا فِي الحَيَاةِ الـدُّنْيَا ، وَيَـوْمَ يَقُـومُ الأَشْهَادُ ﴾[2] وقوله : ﴿ وَلَقَـدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُـرْسَلِينَ ﴾[3] الآيتين . فقد يظن الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحق للنصر ، وأن جند الله الغالبون ، ويكون الأمر بخلاف ذلك .

وقد يقع من النصر الموعود به ما لا يظن أنه من الموعود به ، فالظن المخطىء فهم ذلك كثير جداً أكثر من باب الأمر والنهي مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك ، وهذا مما لا يحصر الغلط فيه إلا الله تعالى ، وهذا عام

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء ٥٠ باب ما ذكر عن بني اسرائيل :
٣٤٦١ ـ حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد ، أخبرنا الأوزاعي ، حدثنا حسان بن عطية عن أبي كبشة عن عبد الله بن عمرو أن النبي ـ ﷺ قال : بلغوا عني ولو آية وذكره وفيه زيادة (ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) ورواه الإمام مسلم في الزهد ٧٢ ، والإمام الترمذي في كتاب العلم ١٣ ، وابن ماجه في المقدمة ٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٩ ـ ٤٦ (حلبي) .

(٢) سورة غافر اية رقم ٥١ .

(٣) سورة الصافات آية رقم ١٧١ .

لجميع الآدميين ، لكن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه لا يقرون ، بل يتبين لهم ، وغير الأنبياء قد لا يتبين له ذلك في الدنيا .

ولهذا كثر في القرآن ما يأمر نبيه ﷺ بتصديق الوعد والإيمان ، وما يحتاج إليه ذلك من الصبر إلى أن يجيء الوقت ، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتصافه بصفة الوعد ، كما قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌ ، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُون ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ ، فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ (٢) الآية . والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة . والله تعالى أعلم

---

(١) سورة الروم آية رقم ٦٠ .

(٢) سورة غافر آية رقم ٧٧ .

فصل

وسئل الشيخ الإمام العالم العامل الحبر الكامل ، شيخ الإسلام ومفتي الأنام تقي الدين « ابن تيمية » أيده الله وزاده من فضله العظيم عن « الصبر الجميل » في قوله تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1] و « الصفح الجميل » و « الهجر الجميل » وما أقسام التقوى والصبر الذي عليه الناس . . ؟

فأجاب رحمه الله :

الحمد لله أما بعد : الله أمر نبيه بالهجر الجميل . والصفح الجميل والصبر الجميل ، فالهجر الجميل هجر بلا أذى ، والصفح الجميل ، صفح بلا عتاب ، والصبر الجميل : صبر بلا شكوى . قال يعقوب عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَىٰ اللهِ ﴾[2] مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[3] فالشكوى الى الله لا تنافي الصبر الجميل ، ويروى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول : اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان »[4] .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١٨ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٨٦ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٨ .

(٤) لم نعثر على هذا الأثر على كثرة تفتيشنا في كتب الآثار .

ومن دعاء النبي ﷺ : « اللهم إليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس أنت رب المستضعفين وأنت ربي اللهم الى من تكلني . . ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك لك العتبى حتى ترضى »[1] .

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقرأ في صلاة الفجر : ﴿ إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ .

ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف .

بخلاف الشكوى الي المخلوق . قرىء على الامام أحمد في مرض موته أن طاووساً كره أنين المريض وقال إنه شكوى . فما أنَّ حتى مات وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال أما ازالة ما يضره أو حصول ما ينفعه . والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه كما قال تعالى : ﴿ فَإذا فَرَغْتَ فَانْصُبْ ، وَإلىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾[2] .

وقال ﷺ لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله »[3] .

ولا بد للإنسان من شيئين طاعته بفعل المأمور وترك المحظور وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور . فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[4] .

---

(١) هذا الدعاء قاله الرسول ﷺ عندما خرج من الطائف هارباً وخرج عليه السفهاء يقذفونه بالحجارة ويضربونه بعد أن فر من أهل مكة .

(٢) سورة الشرح آية رقم ٧ ، ٨ .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب القيامة ٩٥ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١١٨ - ١٢٠ .

وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[٢] .

وقد قال يوسف : ﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣] .

ولهذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني[٤] ونحوه من المشائخ المستقيمين يوصون في عامة كلامهم بهذين الأصلين ، المسارعة إلى فعل المأمور والتقاعد عن فعل المحظور ، والصبر والرضا بالأمر المقدور وذلك أن هذا الموضع غلط فيه كثير من العامة بل ومن السالكين فمنهم من يشهد القدر فقط ويشهد (الحقيقة الكونية) دون (الدينية) فيرى أن الله خالق كل شيء وربه ، ولا يفرق بين ما يحبه الله ويرضاه وبين ما يسخطه ويبغضه وإن قدره وقضاه ولا يميز بين توحيد الألوهية وبين توحيد الربوبية فيشهد الجمع الذي يشترك فيه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والنبي الصادق والمتنبىء الكاذب ، وأهل الجنة وأهل النار ، وأولياء الله وأعداؤه والملائكة المقربون والمردة الشياطين .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .

(٤) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محيي الدين الجيلاني أو الكيلاني مؤسس الطريقة القادرية من كبار الزهاد والمتصوفين ولد في جيلان عام ٤٧١ هـ وانتقل الى بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ برع في أساليب الوعظ والتصوف تفقه وسمع الحديث وتصدر للتدريس والافتاء توفي ببغداد عام ٥٢٨ هـ له كتب منها الغنية لطالب طريق الحق ، والفتح الرباني .

راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧١ ، وفوات الوفيات ٢ : ٢ .

فإن هؤلاء كلهم يشتركون في هذا الجمع وهذه الحقيقة الكونية وهو أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم لا رب لهم غيره ولا يشهد الفرق الذي فرق الله به بين أوليائه وأعدائه ، وبين المؤمنين والكافرين ، والأبرار والفجار ، وأهل الجنة ، وأهل النار ، وهو توحيد الألوهية ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وطاعته رسوله وفعل ما يحبه ويرضاه ، وهو ما أمر الله به ورسوله أمر ايجاب أو أمر استحباب، وترك ما نهى الله عنه ورسوله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين بالقلب واليد واللسان فمن لم يشهد هذه الحقيقة الدينية وإلا فهو من جنس المشركين وهو شر من اليهود والنصارى .

فإن المشركين يقرون بالحقيقة الكونية إذ هم يقرون بأن الله رب كل شيء كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ الله ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنْ الأَرْضُ وَمَنْ فِيها إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾[2] .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بالله إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾[3] .

قال بعض السلف : تسألهم من خلق السموات والأرض فيقولون الله وهم مع هذا يعبدون غيره .

فمن أقر بالقضاء والقدر دون الأمر والنهي الشرعيين فهو أكفر من اليهود

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٦١ .

(٢) سورة المؤمنون من ٨٤ ـ ٨٩ .

(٣) سورة يوسف آية رقم ١٠٦ .

والنصارى ، فإن أولئك يقرون بالملائكة والرسل الذين جاؤوا بالأمر والنهي الشرعيين لكن آمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً** ﴾(١) .

وأما الذي يشهد « الحقيقة الكونية » وتوحيد الربوبية الشامل للخليقة ويقر أن العباد كلهم تحت القضاء والقدر ويسلك هذه الحقيقة فلا يفرق بين المؤمنين والمتقين الذين أطاعوا أمر الله الذي بعث به رسله ، وبين من عصى الله ورسوله من الكفار والفجار فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى لكن من الناس من قد لمحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وهواه فيكون ناقص الايمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ، ويكون معه من الايمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه .

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر كان من القدرية كالمعتزلة وغيرهم الذين هم مجوس هذه الأمة فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس .

ومن أقرّ بهما وجعل الرب متناقضاً فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه كما نقل ذلك عنه . فهذا التقسيم في القول والاعتقاد .

وكذلك هم في « الأحوال والأفعال » فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ويترك المحظور ويصبر على ما يصيبه من المقدور فهو عند الأمر والنهي والدين والشريعة ويستعين بالله على ذلك كما قال تعالى :

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٥٠ ـ ١٥١ .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1] .

وإذا أذنب استغفر وتاب لا يحتج بالقدر على ما يفعله من السيئات ولا يرى للمخلوق حجة على رب الكائنات بل يؤمن بالقدر ولا يحتج به كما في الحديث الصحيح الذي فيه : سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »[2] .

فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى ، ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها كما قال بعضهم أطعتك بفضلك ، والمنة لك وعصيتك بعلمك والحجة لك فأسألك بوجوب حجتك علي وانقطاع حجتي إلا غفرت لي » .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : يا عبادي إنما هي اعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[3] .

وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون الأمر فقط فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة ، لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر . وآخرون يشهدون القدر فقط فيكون عندهم من

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٥ .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء ١٤ باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ٣٨٧٢ عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ وذكره .

(٣) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ١٥ باب تحريم الظلم ٥٥ (٢٥٧٧) عن ربيعة بن يزيد عن أبي ادريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ وذكره ورواه ابو داود في كتاب الأطعمة ٤٨ وابن ماجه في الأطعمة ٢٢ واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢١٣ ، ٣٤٤ ، ٥٢٧ .

الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله واتباع شريعته وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه والمؤمن يعبده ويستعينه .

والقسم الرابع : شر الأقسام وهو من لا يعبده ولا يستعينه فلا هو مع الشريعة الأمرية ولا من القدر الكوني ، وانقسامهم الى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل وقوع المقدور من توكل واستعانة ونحو ذلك ، وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك ، فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني ، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام .

أحدهما : أهل التقوى والصبر وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

والثاني : الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات لكن إذا أصيب أحدهم في بدنه بمرض ونحوه أو في ماله أو في عرضه أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه .

الثالث : قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام .

والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل لهم من الأموال بالخيانة وغيرها وكذلك طلاب الرئاسة والعلو على غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها اكثر الناس ، وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام وهؤلاء هم الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرئاسة والعلو على الخلق ، ومن طلاب الأموال

بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك يصبرون على أنواع من المكروهات ، ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من الأمور وفعلوه من المحظور وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب كالمرض والفقر وغير ذلك ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

وأما القسم الرابع : فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا ولا يصبرون إذا ابتلوا بل هم كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً** ﴾[1] فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم اذا قدروا ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا إن قهرتهم ذلوا لك ونافقوك وحابوك واسترجعوك ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل وتعظيم المسؤول وإن قهروك كانوا من أظلم الناس وأقساهم قلباً وأقلهم رحمة واحساناً وعفواً كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد ، مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ومن يشبههم في كثير من أمورهم وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلمائهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم فالاعتبار بالحقائق « فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا الى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[2] .

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم كان شبيهاً لهم من هذا الوجه ، وكان ما معه من الاسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الاسلامية من التتار .

---

(١) سورة المعارج آية رقم ١٩ ـ ٢١ .

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ حلبي ورواه الامام مسلم في البر ١٠ باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ٣٣ عن أسامه (وهو ابن زيد أنه سمع ابا سعيد مولى عبد الله بن عامر بن كريز يقول سمعت ابا هريرة يقول سمعت رسول الله ﷺ وذكره .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول في خطبته « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة »[1] .

وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد . فكل مَن كان إلى ذلك أقرب وهو به أشبه كان الى الكمال أقرب وهو به أحق ، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه به أضعف كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق ، والكامل هو من كان لله أطوع وعلى ما يصيبه أصبر ، فكلما كان اتبع لما يأمر الله به ورسوله ، وأعظم موافقة لله فيما يحميه ويرضاه وصبراً على ما قدره وقضاه . كان أكمل وأفضل ، وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه وبيّن أنه ينتصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين المعاندين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة قال الله تعالى : ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[2] .

وقال الله تعالى : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام ٢ ورواه الامام مسلم في الجمعة ٤٣ ورواه ابن ماجه في المقدمة ٧ والدارمي في المقدمة ٢٣ واحمد بن حنبل في المسند ٣: ٣١، ٣١٩، ٣٧١ (حلبي) .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٢٥ .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٨٦ .

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَا لَكُمْ الآياتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . هَا أَنْتُمْ أُوْلاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالكِتَابِ كُلِّهِ وَإذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الأَنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ قُلْ مُوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾(١) .

وقال إخوة يوسف له : ﴿ إنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ . . ؟ قَالَ : أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِر فَإنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(٢) .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحىٰ إلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾(٣) .

وفي اتباع ما أوحى إليه : التقوى كلها تصديقاً لخبر الله وطاعة لأمره وقال تعالى : ﴿ وَأَقِمْ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ . وَاصْبِرْ فَإنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسنِين ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ واسْتَغْفر لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بالعَشِيِّ والإِبْكَارِ ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ فاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ(٦) .

وقال تعالى : ﴿ وَاستَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ ﴾(٧) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١٨ ـ ١٢٠ .
(٢) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .
(٣) سورة يونس آية رقم ١٠٩ .
(٤) سورة هود آية رقم ١١٤ ـ ١١٥ .
(٥) سورة غافر آية رقم ٥٥ .
(٦) سورة طه آية رقم ١٣٠ .
(٧) سورة البقرة آية رقم ٤٥ .

وقال تعالى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ إنَّ الله مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر(١) .

وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى : ﴿ وَتَواصَوْا بالصَّبْرِ وَتَواصَوْا بِالمَرْحمةِ ﴾(٢) . وفي الرحمة الإحسان الى الخلق بالزكاة وغيرها : فإن القسمة أيضاً رباعية إذ من الناس من يصبر ولا يرحم كأهل القوة والقسوة ومنهم من يرحم ولا يصبر كأهل الضعف واللين مثل كثير من النساء ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل القسوة والهلع والمحمود هو الذي يصبر ويرحم كما قال الفقهاء في المتولي ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف لينا من غير ضعف فبصبره يقوى وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ، فإن النصر مع الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى كما قال النبي ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » .

وقال : « من لا يرحم لا يرحم »(٣) .

وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي »(٤) .

وقال : الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »(٥) . والله أعلم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٥٣ .

(٢) سورة البلد آية رقم ١٧ .

(٣) الحديث رواه البخاري في التوحيد ٢ والامام مسلم في الفضائل ٦٦ والترمذي في البر ١٦ والزهد ٤٨ واحمد بن حنبل في المسند ٣، ٤، ٣٥٨، ٣٦٠ (حلبي) .

(٤) الحديث رواه الترمذي في البر ١٦ واحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠١، ٤٤٢، ٤٦١، ٥٣٩ (حلبي) .

(٥) الحديث رواه أبو داود في الأدب ٥٨ والترمذي في البر ١٦ باب ما جاء في رحمة الناس ١٩٨٩ عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ وذكره وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

سورة الرعد

فصل

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى

في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ ، قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [1] قيل المراد سموهم بأسماء حقيقة لها معان تستحق بها الشرك له والعبادة ، فإن لم تقدروا بطل ما تدعونه .

وقيل : إذا سميتموها آلهة فسموها باسم الإله ، كالخالق والرازق ، فإذا كانت هذه كاذبة عليها فكذلك اسم الألهة ، وقد حام حول معناها كثير من المفسرين ، فما شفوا عليلاً ولا أرووا غليلاً ، وإن كان ما قالوه صحيحاً .

فتأمل ما قبل الآية وما بعدها يطلعك على حقيقة المعنى ، فإنه سبحانه يقول : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ؟ ﴾ [2] وهذا استفهام تقرير يتضمن إقامة الحجة عليهم . ونفي كل معبود مع الله ، الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت بعلمه وقدرته ، وجزائه في الدنيا والآخرة ، فهو رقيب عليها ، حافظ لأعمالها ، مجاز لها بما كسبت من خير وشر . فإذا جعلتم أولئك شركاء فسموهم إذاً بالأسماء التي يسمى بها القائم على كل

---

(١) سورة الرعد آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الرعد آية رقم ٣٣ .

نفس بما كسبت ، فإنه سبحانه يسمى بالحي القيوم (١) ، المحيي المميت (٢) ، السميع البصير ، الغني عما سواه وكل شيء فقير اليه (٣) ، ووجود كل شيء به ، فهل تستحق آلهتكم اسماً من تلك الأسماء ؟ فإن كانت آلهة حقاً فسموها باسم من هذه الأسماء ، وذلك بهت بين ، فإذا انتفى عنها ذلك علم بطلانها كما علم بطلان مسماها .

وأما إن سموها بأسمائها الصادقة عليها كالحجارة ، وغيرها من مسمى الجمادات ، وأسماء الحيوان التي عبدوها من دون الله ، كالبقر وغيرها ، وبأسماء الشياطين الذين أشركوهم مع الله جل وعلا ، وبأسماء الكواكب المسخرات تحت أوامر الرب ، والأسماء الشاملة لجميعها أسماء المخلوقات : المحتاجات ، المدبرات ، المقهورات .

وكذلك بنو آدم عبادة بعضهم بعضاً ، فهذه أسماؤها الحقة وهي تبطل إلهيتها (٤) ؛ لأن الأسماء التي من لوازم الإلهية مستحيلة عليها ؛ فظهر أن تسميتها آلهة من أكبر الأدلة على بطلان إلهيتها ، وامتناع كونها شركاء لله عز وجل .

---

(١) قال تعالى :﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ .

(٢) قال تعالى : ﴿ هو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم إليه ترجعون ﴾ .

(٣) قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ .

(٤) كما قال فرعون : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وقال أيضاً ﴿ فاجعل لي صرحاً لعلي اطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ﴾ .
سورة القصص آية رقم ٣٨ .

سورة الحجر

فصل

وقال شيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ـ قدس الله روحه ، ونور ضريحه ورحمه :

في آيات ثلاث متناسبة متشابهة اللفظ والمعنى يخفى معناها على أكثر الناس .

قوله تعالى : ﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ

---

(١) سورة الحجر اية رقم ٤١ ـ ٤٢ قد أورد ابن جرير ههنا من حديث عبد الله بن المبارك عن عبد الله بن وهب ـ حدثنا يزيد بن قسيط . قال : كانت الأنبياء يكون لهم مساجد خارجة من قراهم فإذا أراد النبي أن يستنبىء ربه عن شيء خرج الى مسجده فصلى ما كتب الله له ثم سأله ما بدا له فبينا نبي في مسجده إذ جاء عدو الله يعني إبليس حتى جلس بينه وبين القبلة فقال النبي ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ فقال عدو الله أخبرني بأي شيء تنجو مني ؟ فقال النبي بل أخبرني بأي شيء تغلب بني آدم قال النبي يقول الله ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾ وإني والله ما أحسست بك قط إلا استعذت بالله منك . قال عدو الله صدقت بهذا تنجو مني فقال النبي أخبرني بأي شيء تغلب بني آدم قال : آخذه عند الغضب والهوى .

قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ [1]، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴾ [2] فلفظ هذه الآيات فيه أن السبيل الهادي هو على الله . وقد ذكر أبو الفرج بن الجوزي [3] في الآية الأولى ثلاثة أقوال بخلاف الآيتين الأخريين، فإنه لم يذكر فيهما إلا قولاً واحداً ، فقال في تلك الآية : اختلفوا في معنى هذا الكلام على ثلاثة أقوال .

« أحدها » : أنه يعني بقوله هذا : الإخلاص ، فالمعنى أن الإخلاص طريق إلى مستقيم و ﴿عليّ﴾ بمعنى « إلي » .

و« الثاني » : هذا طريق علي جوازه ، لأني بالمرصاد فأجازيهم بأعمالهم ، وهو خارج مخرج الوعيد ، كما تقول للرجل تخاصمه « طريقك علي » فهو كقوله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [4] .

و« الثالث » هذا صراط علي استقامته ، أي أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان . قال : وقرأ قتادة ، ويعقوب : ﴿ هذا صراط عليّ ﴾ أي رفيع .

قلت : هذه الأقوال الثلاثة قد ذكرها من قبله ، كالثعلبي [5] ، والواحدي [6] ، والبغوي ، وذكروا قولاً رابعاً . فقالوا - واللفظ للبغوي وهو مختصر الثعلبي .

قال الحسن : معناه صراط إليَّ مستقيم. وقال مجاهد : الحق يرجع إليَّ

(١) سورة النحل آية رقم ٩ .
(٢) سورة الليل آية رقم ١٢ : ١٣ .
(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية .
(٤)سورة الفجر آية رقم ١٤ .
(٥) سبق الترجمة له .
(٦) سبق الترجمة له .

وعليه طريقه لا يعرج على شيء .

وقال الأخفش (١) : يعني على الدلالة على الصراط المستقيم . وقال الكسائي (٢) : هذا على التهديد والوعيد ، كما يقول الرجل لمن يخاصمه « طريقك علي » أي لا تفلت مني ، كما قال تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

وقيل معناه علي استقامته بالبيان والبرهان والتوفيق والهداية . فذكروا الأقوال الثلاثة ، وذكروا قول الأخفش « على الدلالة على الصراط المستقيم » وهو يشبه القول الأخير ، لكن بينهما فرق . فإن ذلك يقول : علي استقامته بإقامة الأدلة ، فمن سلكه كان على صراط مستقيم ، والآخر يقول : علي أن أدل الخلق عليه بإقامة الحجج ففي كلا القولين أنه بين الصراط المسقيم بنصب الأدلة ، لكن هذا جعل الدلالة عليه ، وهذا جعل عليه استقامته - أي بيان استقامته - وهما متلازمان ، ولهذا - والله أعلم - لم يجعله أبو الفرج قولاً رابعاً . وذكروا القراءة الأخرى عن يعقوب وغيره : أي رفيع . قال البغوي : وعبر بعضهم عنه « رفيع أن ينال ، مستقيم أن يمال .

---

(١) هو علي بن سليمان بن الفضل أبو المحاسن ، المعروف بالأخفش الأصغر ، نحوي من العلماء من أهل بغداد أقام بمصر سنة ٢٨٧ - ٣٠٠ هـ وخرج الى حلب ، ثم عاد إلى بغداد ، وتوفي بها - وهو ابن ٨٠ سنة له تصانيف منها شرح سيبويه ، والأنواء ، والمهذب ، وكان ابن الرومي مكثراً من هجوه . [راجع بغية الوعاة ٣٣٨ ووفيات الأعيان ١ : ٣٣٣ وطبقات النحويين ، وأنباه الرواة ٢ : ٢٧٦]

(٢) هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء الكوفي أبو الحسن الكسائي إمام في اللغة والنحو والقراءة من أهل الكوفة ولد في إحدى قراها وتعلم وقرأ النحو بعدالكبر وتنقل في البادية وسكن بغداد وتوفي بالري عن سبعين عاماً وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين ، أصله من أولاد الفرس ، وأخباره مع علماء الأدب في عصره كثيرة من كتبه (معاني القرآن) و(المصادر) و(الحروف) والمتشابه في القرآن ، وغير ذلك كثير توفي عام ١٨٩ هـ . [راجع غاية النهاية ١ : ٥٣٥ وابن خلكان ١ : ٢٣٠ وتاريخ بغداد ١١ : ٤٠٣] .

« قلت » : القول الصواب هو قول أئمة السلف ـ قول مجاهد ونحوه ـ فإنهم أعلم بمعاني القرآن . لا سيما مجاهد ـ فإنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أقفه عن كل آية وأسأله عنها » . وقال الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به ، والأئمة كالشافعي ، وأحمد والبخاري [1] ، ونحوهم ، يعتمدون على تفسيره ، والبخاري في صحيحه أكثر ما ينقله عن التفسير ينقله عنه . والحسن البصري أعلم التابعين بالبصرة ، وما ذكروه عن مجاهد ثابت عنه ، رواه الناس كابن أبي حاتم وغيره من تفسير ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله ﴿ **هذا صراط عليّ مستقيم** ﴾ : الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه لا يعرج على شيء ، وذكر عن قتادة أنه فسرها على قراءته ـ وهو يقرأ ﴿ **عليّ** ﴾ ـ فقال : أي رفيع مستقيم . وكذلك ذكر ابن أبي حاتم عن السلف أنهم فسروا آية النحل . فروى عن طريق ورقاء ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، قوله ﴿ **قصد السبيل** ﴾ قال : طريق الحق على الله ، قال : وروي عن السدي [2] أنه قال : الإسلام ، وعطاء قال : هي طريق الجنة . فهذه الأقوال ـ قول

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله ، حبر الإسلام ، والحافظ للحديث ،ـ صاحب الجامع الصحيح . المعروف بصحيح البخاري والتاريخ ، والضعفاء في رجال الحديث ، وخلق أفعال العباد ، والأدب المفرد ، ولد في بخارى عام ١٩٤ هـ يتيماً وقام برحلة طويلة سنة ٢١٠ هـ في طلب الحديث فزار خراسان ، والعراق ، ومصر ، والشام وسمع من نحو ألف شيخ وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق بروايته وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً على هذا النحو توفي عام ٢٥٦ هـ [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ والوفيات ١ : ٤٥٥ وتاريخ بغداد ٢ : ٤ ـ ٣٦] .

(٢) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي تابعي ، حجازي الأصل ، سكن الكوفة . قال فيه ابن تغري بردى ، صاحب التفسير والمغازي والسير وكان إماماً عارفاً بالوقائع وأيام الناس توفي عام ١٢٨ هـ [راجع النجوم الزاهرة ١ : ٣٠٨ واللباب ١ : ٥٣٧ وفيه وفاته سنة١٢٧]

مجاهد ، والسدي ، وعطاء - في هذه الآية هي مثل قول مجاهد ، والحسن ، في تلك الآية .

وذكر ابن أبي حاتم من تفسير العوفي ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ يقول : على الله البيان - أن يبين الهدى والضلالة . وذكر ابن أبي حاتم في هذه الآية قولين ، ولم يذكر في آية الحجر إلا قول مجاهد فقط .

وابن الجوزي لم يذكر في آية النحل إلا هذا القول الثاني ، وذكره عن الزجاج ، فقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ القصد : استقامة الطريق - يقال : طريق قصد ، وقاصد ، إذا قصد ربك إلى ما تريد . قال الزجاج : المعنى ، وعلى الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين . وكذلك الثعلبي والبغوي ، ونحوهما ، لم يذكروا إلا هذا القول ، لكن ذكروه باللفظين .

قال البغوي : يعني بيان طريق الهدى من الضلالة ، وقيل : بيان الحق بالآيات والبراهين .

قال : والقصد : الصراط المستقيم . ﴿ ومنها جائر ﴾ يعني ومن السبيل ما هو جائر عن الاستقامة معوج ، فالقصد من السبيل : دين الإسلام ، والجائر منها : اليهودية والنصرانية ، وسائر ملل الكفر . قال جابر بن عبد الله [1] : قصد السبيل : بيان الشرائع والفرائض . وقال عبد الله بن

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري السلمي صحابي من المكثرين في الرواية عن النبي - ﷺ - وروى عنه جماعة من الصحابة له ولأبيه صحبة ، غزا تسع عشرة غزوة ، وكانت له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم ، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ١٥٤٠ حديثاً توفي عام ٧٨ هـ . [راجع الإصابة ١ : ٢١٣ وذيل =

المبارك [1] ، وسهل بن عبد الله [2] : قصد السبيل : السنة ﴿ ومنها جائر ﴾ : الأهواء والبدع . دليله : قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [3] ولكن البغوي ذكر فيها القول الآخر ، ذكره في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ [4] ـ عن الفراء ، كما سيأتي ، فقد ذكر القولين في الآيات الثلاث تبعاً لمن قبله ، كالثعلبي وغيره .

والمهدوي ذكر في الآية الأولى قولين من الثلاثة ، وذكر في الثانية ما رواه العوفي ، وقولاً آخر فقال :

قوله : ﴿ هذا صراط عليّ المستقيم ﴾ أي على أمري وإرادتي . وقيل : هو على التهديد ، كما يقال « عليَّ طريقك وإليَّ مصيرك » .

وقال في قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ [5] قال ابن عباس: أي بيان الهدى من الضلال وقيل : السبيل : الإسلام ، ﴿ ومنها جائر ﴾ أي ومن

= المذيل ٢٢ وكشف النقاب وتهذيب الأسماء ١ : ١٤٢]

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء المروزي أبو عبد الرحمن الحافظ شيخ الاسلام المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف والرحلات أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ، ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه والعبرية وأيام الناس ، والشجاعة والسخاء ، كان من سكان خراسان ومات بهيت (على الفرات) عام ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم له كتاب في الجهاد ، وهو أول من صنف فيه ، والرقائق) .

(٢) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري أبو محمد : أحد أئمة الصوفية ابن يونس التستري أبو محمد ، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات ، وعيوب الأفعال له كتاب في « تفسير القرآن » مختصر ، وكتاب رقائق المحبين وغير ذلك توفي عام ٢٨٣ هـ [راجع طبقات الصوفية ٢٠٦ والوفيات ١ : ٢١٨ وحلية الأولياء ١٠ : ١٨٩ والشعراني ١ : ٦٦ والمناوي ١ : ٢٣٧] .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٤) سورة الليل آية رقم ١٢ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٩ .

السبيل جائر أي عادل من الحق ، وقيل المعنى ﴿ وعنها جائر ﴾ أي عن السبيل ، فـ ﴿ من ﴾ بمعنى « عن » .

وقيل : معنى قصد السبيل : سيركم ورجوعكم ، والسبيل واحدة بمعنى الجمع .

قلت : هذا قول بعض المتأخرين - جعل « القصد » بمعنى « الإرادة » أي عليه قصدكم للسبيل في ذهابكم ورجوعكم، وهو كلام من لم يفهم الآية ، فإن « السبيل القصد » هي السبيل العادلة ، أي عليه السبيل القصد و« السبيل » اسم جنس ، ولهذا قال ﴿ ومنها جائر ﴾ أي عليه القصد من السبيل ، ومن السبيل جائر . فأضافه الى اسم الجنس إضافة النوع إلى الجنس ، أي « القصد من السبيل » كما تقول «ثوب خز » ولهذا قال : ﴿ ومنها جائر ﴾ وأما من ظن أن التقدير « قصدكم السبيل » فهذا لا يطابق لفظ الآية ونظمها من وجوه متعددة .

وابن عطية (١) لم يذكر في آية الحجر إلا قول الكسائي ، وهو أضعف الأقوال ، وذكر المعنى الصحيح تفسيراً للقراءة الأخرى ، فذكر أن جماعة من السلف قرأوا ﴿ عليّ مستقيم ﴾ من العلو والرفعة . قال : والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى الاخلاص - لما استثنى إبليس من أخلص ، قال الله له :

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي ، من محارب قيس الغرناطي ، أبو محمد : مفسر ، فقيه أندلسي من أهل غرناطة ، عارف بالأحكام والحديث ، له شعر ، ولي قضاء المرية ، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين ، وتوفي بلورقة عام ٥٤٢ هـ له المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، والمجموع في ذكر مروياته وأسماء شيوخه وقيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ - ٥٤٦ هـ . [راجع نفح الطيب ١ : ٥٩٣ وقضاة الأندلس ١٠٩ ، وبغية الملتمس ٣٧٦، والمعجم لابن الأبار ٢٥٩ ، وكشف الظنون ٤٣٩ و١٦١٣ وبغية الوعاة ٢٩٥] .

هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله . قال : وقرأ جمهور الناس ﴿ عليَّ مستقيم ﴾ والإشارة بهذا على هذه القراءة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص ، لما قسم إبليس هذين القسمين قال الله « هذا طريق علي » أي هذا أمر إلي مصيره » ، والعرب تقول « طريقك في هذا الأمر على فلان » أي إليه يصير النظر في أمرك . وهذا نحو قوله ﴿ إنَّ ربَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[1] قال : والآية على هذه القراءة خبر يتضمن وعيداً .

« قلت » : هذا قول لم ينقل عن أحد من علماء التفسير - لا في هذه الآية ولا في نظيرها ، وإنما قاله الكسائي لما أشكل عليه معنى الآية الذي فهمه السلف ، ودل عليه السياق والنظائر .

وكلام العرب لا يدل على هذا القول ، فإن الرجل وإن كان يقول لمن يتهدده ويتوعده « علي طريقك » فإنه لا يقول : إن طريقك مستقيم » وأيضاً فالوعيد إنما يكون للمسيء ، لا يكون للمخلصين ، فكيف يكون قوله هذا « إشارة إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص » وطريق هؤلاء غير طريق هؤلاء ؟ هؤلاء سلكوا الطريق المستقيم التي تدل على الله ، وهؤلاء سلكوا السبيل الجائرة .

وأيضاً فإنما يقول لغيره في التهديد « طريقك علي » من لا يقدر عليه في الحال لكن ذاك يمر بنفسه عليه وهو متمكن منه ، كما كان أهل المدينة يتوعدون أهل مكة بأن « طريقكم علينا » كما تهددوهم بأنكم آويتم محمداً وأصحابه ، كما قال أبو جهل لسعد بن معاذ[2] لما ذهب سعد إلى مكة « لا

---

(١) سورة الفجر آية رقم ١٤ .

(٢) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرىء القيس ، الأوسي الأنصاري صحابي من الأبطال من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، وحمل لواءهم يوم بدر ، وشهد أحداً ، فكان ممن

أراك تطوف بالبيت آمنا وقد آويتم الصباة وزعمتم أنكم تنصرونهم » فقال « لئن منعتني هذا لأمنعنك مـا هو أشـد عليك منـه ـ طريقـك على المدينـة » أو نحو هذا .

فذكر أن طـريقهم في متجرهم إلى الشـام عليهم ، فيتمكنون حينئـذ من جـزائهم . ومثل هـذا المعنى لا يقال في حق الله تعـالى ، فإن الله قـادر على العباد حيث كانوا ، كما قـالت الجن ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّـا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ الله فِي الأَرْضِ وَلَـنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً ﴾ (١) وقال ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ ﴾ (٢) .

وإذا كانت العرب تقول ما ذكره : يقولون « طريقـك في هذا الأمـر على فلان » أي إليه يصير أمرك ، فهذا يطابق تفسير مجاهد وغيره من السلف ، كما قال مجاهد : الحق يرجـع إلى الله وعليه طـريقه لا يعـرج على شيء، فطريق الحق على الله ، وهو الصراط المستقيم الذي قال الله فيه ﴿ هَذَا صِـرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٣) كمـا فسرت بـه القراءة الأخـرى . فالصـراط في القراءتين هـذا الصراط المستقيم الذي أمر الله المؤمنين أن يسألـوه إياه في صـلاتهم فيقولـوا ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (٤) وهو الذي وصى به في قـوله ﴿ وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمـاً

= ثبت فيها ، وكان من أطول الناس وأعـظمهم جسماً ، ورمي بسهم يـوم الخندق فمـات من أثر جـراحه ودفن بـالبقيع ، وعمـره سبع وثـلاثون سنـة ، وحزن عليـه النبي ـ ﷺ ـ وفي الحديث « اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ » [راجع صفة الصفوة ١ : ١٨٠ وطبقات ابن سعـد ٣ : ٢ القسم الثاني ، والإصابة الترجمة ٣١٩٧]

(١) سورة الجن آية رقم ١٢ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٢٢ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤١ .

(٤) سورة الفاتحة الآيات ٦ ـ ٧ .

فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وقوله هذا إشارة إلى ما تقدم ذكره وهو قوله ﴿ إلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢) فتعبد العباد له بإخلاص الدين له : طريق يدل عليه ، وهو طريق مستقيم ، ولهذا قال بعده ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ (٣) وابن عطية ذكر أن هذا معنى الآية في تفسير الآية الأخرى مستشهداً به ، مع أنه لم يذكره في تفسيرها ، فهو بفطرته عرف أن هذا معنى الآية ، ولكنه لما فسرها ذكر ذلك القول ، كأنه هو الذي اتفق أن رأي غيره قد قاله هناك . فقال ـ رحمه الله .

وقوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ﴾ وهذه أيضاً من أجل نعم الله تعالى ، أي على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه ـ وذلك بنصب الأدلة وبعث الرسل ، وإلى هذا ذهب المتأولون . قال : ويحتمل أن يكون المعنى أن من سلك السبيل القاصد فعلى الله طريقه ، وإلى الله مصيره ، فيكون هذا مثل قوله ﴿ هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾ وضد قول النبي ﷺ « والشر ليس إليك » (٤) أي لا يفضي إلى رحمتك ، وطريق قاصد معناه : بين مستقيم قريب ، ومنه قول الراجز :

بعيد عن نهج الطريق القاصد

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .
(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٠ .
(٣) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .
(٤) الحديث (والخير كله في يديك والشر ليس إليك) رواه الإمام مسلم في كتاب المسافرين ٢٠١ والنسائي في الافتتاح ١٧ .

قال : والألف واللام في « السبيل » للعهد ، وهي سبيل الشرع وليست للجنس ، ولو كانت للجنس لم يكن منها جائر وقوله ﴿ **ومنها جائر** ﴾ يريد طريق اليهود والنصارى ، وغيرهم كعباد الأصنام ، والضمير في ﴿ **منها** ﴾ يعود على ﴿ **السبيل** ﴾ التي يتضمنها معنى الآية ، كأنه قال « ومن السبيل جائر » فأعاد عليها وإن كان لم يجر لها ذكر لتضمن لفظة ﴿ **السبيل** ﴾ بالمعنى لها .

قال : ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ **منها** ﴾ على « سبيل الشرع » المذكورة ، ويكون « من » للتبعيض ، ويكون المراد فرق الضلالة من أمة محمد ـ كأنه قال : ومن بنيات الطرق من هذه السبيل ومن شعبها جائر . « قلت » : سبيل أهل البدع جائرة خارجة عن الصراط المستقيم فيما ابتدعوا فيه ، ولا يقال إن ذلك من السبيل المشروعة .

وأما قوله « إن قوله : ﴿ **قصد السبيل** ﴾ هي سبيل الشرع ، وهي سبيل الهدى ، والصراط المستقيم ، وأنها لو كانت للجنس لم يكن منها جائر ، فهذا أحد الوجهين في دلالة الآية ، وهو مرجوح ، والصحيح الوجه الآخر أن ﴿ **السبيل** ﴾ اسم جنس ، ولكن الذي على الله هو القصد منها ، وهي سبيل واحد ، ولما كان جنساً قال ﴿ **ومنها جائر** ﴾ والضمير يعود على ما ذكر بلا تكلف .

وقوله « لو كان للجنس لم يكن منها جائر » ليس كذلك ، فإنها ليست كلها عليه ، بل إنما عليه القصد منها ، وهي سبيل الهدى ، والجائر ليس من القصد ، وكأنه ظن أنه إذا كانت للجنس يكون عليه قصد كل سبيل ، وليس كذلك ، بل إنما عليه سبيل واحدة ، وهي الصراط المستقيم ـ هي التي تدل عليه ، وسائرها سبل الشيطان ، كما قال ﴿ **وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً**

فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (١) .

وقد أحسن ـ رحمه الله ـ في هـذا الاحتمال ، وفي تمثيله ذلـك بقولـه : ﴿ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٢) .

وأما آية الليل ـ قوله ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ (٣) ـ فابن عطية مثلهـا بهذه الآية ، لكنه فسرها بالوجه الأول فقال : ـ

ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً ، أي تعـريفهم بالسبـل كلها ومنحهم الإدراك ، كما قال : ﴿ وعلى الله قصـد السبيل ﴾ ثم كـل أحد يتكسب ما قدر له ، وليست هذه الهـداية بـالإرشاد إلى الإيمـان ، ولو كـان كذلـك لم يوجد كافر .

قلت » : وهذا هو الذي ذكره ابن الجوزي ـ وذكره عن الزجاج . قـال الزجاج : إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

وهذا التفسير ثـابت عن قتادة ، رواه عبـد بن حميد (٤) . قـال : حدثنـا يـونس ، عن شيبان ، عن قتـادة : ﴿ إن علينا للهـدى ﴾ . علينا بيـان حلالـه وحرامه ، وطـاعته ومعصيتـه ، وكذلـك رواه ابن أبي حاتم في تفسيـر سعيد ،

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٥٣ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤١ .

(٣) سورة الليل آية رقم ١٢ .

(٤) هو عبد بن حميد بن نصر الكشي أبـو محمد : من حفـاظ الحديث قيـل اسمه عبـد الحميد ، وخفف ، نسبته الى كيس (من بلاد السند) من كتبه تفسيـر للقرآن الكـريم ، ومسند في سفـر ضخم رأيتـه في القرويين بفـاس ناقص الأول ، ورأيت في مكتبـة الفـاتيكـان (٥٠٢ عـربي) مخطوطة باسم المنتخب من مسند عبد بن حميد الكشي » تـوفي عام ٢٤٩ هـ [راجـع تذكـرة الحفـاظ ٢ : ١٠٤ والمستطرفة ٥٠ ومعجم البلدان ٧ : ٢٥١ وبرنـامج القـرويين ٥٧ وتذكـرة النوادر ٣٧] وكتاب الأعلام للزركلي .

عن قتادة في قوله : « إن علينا للهدى : يقول : على الله البيان ـ بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

لكن قتادة ذكر أن البيان الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ، فتبين به حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته .

وأما الثعلبي ، والواحدي ، والبغوي ، وغيرهم ، فذكروا القولين ، وزادوا أقوالاً أخر فقالوا ـ واللفظ للبغوي :

﴿ **إن علينا للهدى** ﴾ . يعني البيان ، قال الزجاج . علينا أن نبين طريق الطريق من طريق الضلالة ، وهو قول قتادة ، قال : على الله بيان حلاله وحرامه .

وقال الفراء: يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله تعالى : ـ ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد . قال : وقيل معناه إن علينا للهدى والإضلال كقوله ﴿ **بيدك الخير** ﴾ « قلت » : هذا القول هو من الأقوال المحدثة التي لم تعرف عن السلف ، وكذلك ما أشبهه ، فإنهم قالوا: معناه بيدك الخير والشر ، والنبي ﷺ في الحديث الصحيح يقول « والخير بيديك والشر ليس إليك » (١) والله تعالى خالق كل شيء ـ لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ـ والقدر حق لكن فهم القرآن ، ووضع كل شيء موضعه ، وبيان حكمة الرب وعدله مع الإيمان بالقدر ، هو طريق الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وقد ذكر المهدوي الأقوال الثلاثة ، فقال : إن علينا للهدى والضلال . فحذف قتادة . المعنى : إن علينا بيان الحلال والحرام .

وقيل : المعنى إن علينا أن نهدي من سلك سبيل الهدى . قلت : هذا هو قول الفراء ، لكن عبارة الفراء أبين في معرفة هذا القول . فقد تبين أن

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

جمهور المتقدمين فسروا الآيات الثلاث بأن الطريق المستقيم لا يدل إلا على الله ، ومنهم من فسرها بأن عليه بيان الطريق المستقيم ، والمعنى الأول متفق عليه بين المسلمين .

وأما الثاني . فقد يقول طائفة : ليس على الله شيء ـ لا بيان هذا ، ولا هذا ، فإنهم متنازعون هل أوجب على نفسه ، كما قال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ (٣) .

وإذا كان عليه بيان الهدى من الضلال وبيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته فهذا يوافق قول من يقول : إن عليه إرسال الرسل ، وإن ذلك واجب عليه ، فإن البيان لا يحصل إلا بهذا .

وهذا يتعلق بأصل آخر ، وهو أن كل ما فعله فهو واجب منه أوجبته مشيئته وحكمته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فما شاءه وجب وجوده وما لم يشأه امتنع وجوده ، وبسط هذا له موضع آخر .

ودلالة الآيات على هذا فيها نظر .

وأما المعنى المتفق عليه فهو مراد من الآيات الثلاث قطعاً ، وأنه أرشد بها إلى [الطريق] المستقيم ، وهي الطريق القصد ، وهي الهدى إنما تدل عليه ـ وهو الحق طريقه على الله لا يعرج عنه . لكن نشأت الشبهة من كونه قال ﴿ علينا ﴾ بحرف الاستعلاء . ولم يقل « إلينا » والمعروف أن يقال لمن يشار إليه أن يقال « هذه الطريق إلى فلان » ولمن يمر به ويجتاز عليه أن يقول « طريقنا على فلان » وذكر هذا المعنى بحرف الاستعلاء ، وهو من محاسن

---

(١) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .

(٢) سورة الروم آية رقم ٤٧ .

(٣) سورة هود آية رقم ٦ .

القرآن الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء .

فإن الخلق كلهم مصيرهم ومرجعهم إلى الله على أي طريق سلكوا كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ ﴾ (١) وقال : ﴿ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٢) ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ (٣) أي إلينا مرجعهم ، وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ، ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ (٤) وقال : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ، وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ (٥) وقال : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٦) .

فأي سبيل سلكها العبد فإلى الله مرجعه ومنتهاه ، لا بد له من لقاء الله ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ (٧)

---

(١) سورة الإنشقاق آية رقم ٦ .
(٢) سورة فاطر اية رقم ١٨ .
(٣) سورة الغاشية آية رقم ٢٥ .
(٤) سورة الأنعام الآيات رقم ٦٠ ـ ٦١ .
(٥) سورة النجم آية رقم ٣٦ ـ ٤٢ .
(٦) سورة يونس آية رقم ٤٦ .
(٧) سورة النجم آية رقم ٣١ .
قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا داود بن الجارود عن أبي السبيل عن حذيفة بن أسيد عن النبي ـ ﷺ ـ قال : عرضت علي أمتي البارحة لدى هذه الحجرة أولها وآخرها فقال رجل يا رسول الله عرض عليك من خلق فكيف من لم يخلق . . ؟

وتلك الآيات قصد بها أن سبيل الحق والهدى ، وهو الصراط المستقيم ،[1] هو الذي يسعد أصحابه ، وينالون به ولاية الله ورحمته وكرامته ، فيكون الله وليهم دون الشيطان ، وهذه سبيل من عبد الله وحده وأطاع رسله ، فلهذا قال ﴿ **إن علينا للهدى** ﴾ ﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ ﴿ **قال هذا صراط عليّ مستقيم** ﴾ فالهدى ، وقصد السبيل والصراط المستقيم ، إنما يدل على عبادته وطاعته ـ لا يدل على معصيته وطاعة الشيطان .

فالكلام تضمن معنى « الدلالة » إذ ليس المراد ذكر الجزاء في الآخرة ، فإن الجزاء يعم الخلق كلهم، بل المقصود بيان ما أمر الله به من عبادته وطاعته وطاعة رسله ـ ما الذي يدل على ذلك ؟ فكأنه قيل : الصراط المستقيم يدل على الله ـ على عبادته وطاعته .

وذلك يبين أن من لغة العرب أنهم يقولون « هذه الطريق على فلان » إذا كانت تدل عليه ، وكان هو الغاية المقصود بها ، وهذا غير كونها « عليه » بمعنى أن صاحبها يمر عليه ، وقد قيل :

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو عليّ طريقها

وهو كما قال الفراء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله . فالمقصود بالسبيل هو : الذي يدل ويوقع عليه ، كما يقال : إن سلكت هذه السبيل وقعت على المقصود ، ونحو ذلك ، وكما يقال « على الخبير سقطت » فإن الغاية المطلوبة إذا كانت عظيمة فالسالك يقع عليها ، ويرمي نفسه عليها .

= فقال : صوروا لي في الطين حتى أني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه » ورواه عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن عقبة بن مكرم عن يونس بن بكير عن زياد بن المنذر عن أبي الطفيل عن حذيفة بن أسيد به نحوه .

(1) قال تعالى : ﴿ **صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض إنك على صراط مستقيم** ﴾ . سورة الزخرف آية والشورى : ٥٣ .

وقال تعالى : ﴿ **فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً** ﴾ سورة النساء آية رقم ١٧٥ .

وأيضاً . فسالك طريق الله متوكل عليه ، فلا بد له من عبادته ومن التوكل عليه .

فإذا قيل « عليه الطريق المستقيم » تضمن أن سالكه عليه يتوكل وعليه تدله الطريق ، وعلى عبادته وطاعته يقع ويسقط ، لا يعدل عن ذلك ، إلى نحو ذلك من المعاني التي يدل عليها حرف **الإستعلاء** دون حرف الغاية .

وهو سبحانه قد أخبر أنه على صراط مستقيم ، فعليه الصراط المستقيم ، وهو على صراط مستقيم ـ سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوّاً كبيراً . والله أعلم .

سورة النحل

فصـل

قال شيخ الإسلام رحمه الله

اللباس له منفعتان :

إحداهما : الزينة بستر السوءة .

والثانية : الوقاية لما يضر من حر أو برد أو عدو .

فـذكر اللبـاس في « سورة الأعـراف » لفائـدة الـزينـة وهي المعتبـرة في الصلاة والطواف ، كما دل عليه قوله : ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُـلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [1] وقـال : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَـدْ أَنْزَلْنَـا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَـوْءَاتِكُمْ ﴾ [2] وقـال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ [3] رداً على

---

(١) سـورة الأعـراف آيـة رقم ٣١ تكملة الآية ﴿ وكلوا واشـربوا ولا تسـرفـوا إنـه لا يحب المسرفين ﴾ .

هذه الآية رد على المشركين الذين كـانوا يـطوفون بـالبيت عراة كمـا رواه مسلم والنسائي وابن جرير واللفظ له من حديث شعبة عن سلمة بن كهيل عن مسلم البطين عن سعيـد بن جبير عن ابن عباس ـ قال : كانوا يطوفون بالبيت عراة الرجال والنساء ، الرجال بالنهار ، والنساء بـالليل وكانت المرأة تقول : اليوم يبدو بعضه أو كله.: وما بدا منه فلا أحله .

(٢) سورة الأعراف آية رقم ٢٦ وتكملة الآية ﴿ وريشاً ولباس التقـوى ذلك خيـر ، ذلك من آيـات الله لعلهم يذكرون ﴾ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٣٢ وتكملة الآية : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيـا خالصـة يوم

ما كانوا عليه في الجاهلية من تحريم الطواف في الثياب الذي قدم بها غير الحمس ، ومن أكل ما سلوه من الأدهان .

وذكره في النحل لفائدة الوقاية في قولـه : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ، كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (١) ولما كانت هذه الفائدة حيوانية طبيعية لا قوام للإنسان إلا بها جعلها من النعم ، ولما كانت تلك فائدة كمالية قرنها بالأمر الشرعي ، وتلك الفائدة من باب جلب المنفعة بالتزين ، وهذه من باب دفع المضرة ، فالناس إلى هذه أحوج .

فأما قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ ولم يذكر « البرد » فقد قيل لأن التنزيل كان بالأرض الحارة فهم يتخوفونه ، وقيل : حذف الآخر للعلم به ، ويقال هذا من باب التنبيه ، فإنه إذا امتن عليهم بما يقي الحر فالامتنان بما يقي البرد أعظم ، لأن الحر أذى ، والبرد بؤس ، والبرد الشديد يقتل ، والحر قل أن يقع فيه هكذا ، فإن باب التنبيه والقياس كما يكون في خطاب الأحكام يكون في خطاب الآلاء وخطاب الوعد والوعيد كما قلته في قوله ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً ﴾ (٢) مثله من يقول : لا تنفروا في البرد فإن جهنم أشد زمهريراً « ومن اغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار »(٣)

= القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

(١) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٨١ .

(٣) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الجمعة ١٨ باب المشي الى الجمعة وقول الله جل ذكره ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾

٩٠٧ حدثنا الوليد بن مسلم ، قال : حدثنا يزيد بن أبي مريم ، قال : حدثنا عباية بن رفاعة قال : أدركني أبو عيسى وأنا أذهب الى الجمعة فقال سمعت النبي ﷺ يقول . ورواه أيضاً في كتاب الجهاد ١٦ باب من أغبرت قدماه في سبيل الله وذكره . ورواه الترمذي في فضائل الجهاد ٧ والنسائي في الجهاد ٩ والدارمي في الجهاد ٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٦٧ ، ٤٧٩ ،٥ :٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٦ : ٤٤٤ .

فالوحل والثلج أعظم ونحو ذلك .

وفي الآية شرع لباس مجن الحرب ، ولهذا قرن من قرن باب اللباس والتحلي بالصلاة ، لأن للحرب لباساً مختصاً مع اللباس المشترك ، وطابق قولهم اللباس والتحلي قوله : ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [1] وأحسن من هذا أنه قد تقدم ذكر وقايته البرد في أول السورة بقوله : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[2] فيقال لم فرق هذا ؟ فيقال والله أعلم : المذكور في أول السورة النعم الضرورية التي لا يقومون بدونها ، من الأكل ، وشرب الماء القراح ، ودفع البرد، والركوب الذي لا بد منه في النقلة ، وفي آخرها ذكر كمال النعم ، : من الأشربة الطيبة ، والسكون في البيوت ، وبيوت الأدم ، والاستظلال بالظلال ، ودفع الحر والبأس بالسرابيل ، فإن هذا يستغنى عنه في الجملة ، ففي الأول الأصول، وفي الآخر الكمال ، ولهذا قال : ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [3] و« أيضاً » : فالمساكن لها منفعتان : إحداهما السكون فيها لأجل الاستتار ، فهي كلباس من هذا الوجه . والثاني : وقاية الأذى من الشمس والمطر والريح ونحو ذلك ، فجمع الله الامتنان بهذين فقال : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾ [4] هذه بيوت المدر ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ [5] هذه بيوت العمود ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ [6] يدخل فيه أهبة البيت من البسط والأوعية والأغطية ونحوها . وقال : ﴿ من بيوتكم سكناً ﴾

---

(١) سورة فاطر آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٥ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٤) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

(٥) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

(٦) سورة النحل آية رقم ٨٠ .

ولم يقل من المدر بيوتاً كما قال : ﴿ **من جلود الأنعام بيوتاً** ﴾ لأن السكن بيان منفعة البيت فبه تظهر النعمة ، واتخاذ البيوت من المدر معتاد ، فالنعمة بظهور أثرها ، بخلاف الأنعام ، فإن الهداية إلى اتخاذ البيوت من جلودها أظهر من الهداية إلى نفس اتخاذ البيوت .

وأما فائدة الوقاية فقال : ﴿ **وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً ، وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً** ﴾ [1] فالظلال يعم جميع ما يظل من العرش والفساطيط والسقوف مما يصنعه الآدميون ، وقوله : ﴿ **ومن الجبال أكناناً** ﴾ لأن الجبل يكن الإنسان من فوقه ويمينه ويساره وأسفل منه ، ليس مقصوده الاستظلال ، بخلاف الظلال فإن مقصودها الاستظلال ، ولهذا قرن بهذه ما في السرابيل من منفعة الوقاية ، فجمع في هذه الآية بين وقاية اللباس المنتقل مع البدن ووقاية الظلال الثابتة على الأرض ، ولهذا كانوا في الجاهلية يسوون بينهما في حق المحرم ، فكما نهى عن تغطية الرأس نهوه عن الدخول تحت سقف حتى أنزل الله ﴿ **وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا** ﴾ [2] وجاز للمحرم أن يستظل بالثابت من الخيام والشجر ، وأما الشيء المنتقل معه المتصل كالمحمل ففيه ما فيه لتردده بين السرابيل وبين المستقر من الظلال والأكنة .

كما أنه قبل هذه الآيات ذكر أصناف الأشربة من اللبن والخمر والعسل [3] ، وذكر في أول السورة المراكب والأطعمة ، وهذه مجامع

---

(١) سورة النحل آية رقم ٨١ قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن مجاهد أن أعرابياً أتى النبي - ﷺ - فقرأ عليه رسول الله - ﷺ - ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ فقال الأعرابي : نعم قال : ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً** ﴾ الآية قال الأعرابي . نعم ، ثم قرأ عليه كل ذلك يقول الأعرابي نعم حتى بلغ ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ فولى الأعرابي فأنزل الله ﴿ **يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها** ﴾

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٨٩ .

(٣) قال تعالى : ﴿ **وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً**

المطاعم والمشارب والملابس والمساكن والمراكب .

وقال شيخ الإسلام

قوله عز وجل : ﴿قُل نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن ربِّك بِالحقِّ﴾[1] الآيتين لفظ « الانزال » في القرآن يرد « مقيداً » بأنه منه كالقرآن ، وبالإنزال من السماء ، ويراد به العلو كالمطر و« مطلقاً » فلا يختص بنوع ، بل يتناول إنزال الحديد من الجبال ، والإنزال من ظهور الحيوان ، وغير ذلك ، فقوله : ﴿ نزله روح القدس من ربك ﴾ بيان لنزول جبريل به من الله ، كقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾[2] أي أنه مؤتمن لا يزيد ولا ينقص فإن الخائن قد يغير الرسالة .

وفيها دلالة على أمور : ـ

منها : بطلان قول من زعم خلقه في جسم كالجهمية من المعتزلة وغيرهم ، فإن السلف يسمون من قال بخلقه ونفى الصفات والرؤية جهمياً ، فإن جهماً أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات وبالغ في ذلك ، فله مزية المبالغة والابتداء بكثرة إظهاره ، وإن كان جعد[3] سبقه إلى بعض

= سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

(١) سورة النحل آية رقم ١٠٢ .

(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ .

الروح الأمين ـ هو جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف : ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وقتادة ، وعطية العوفي ، والسدي ، والضحاك والزهري وابن جريج ـ وهذا مما لا نزاع فيه قال الزهري : وهذا كقوله ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ وقال مجاهد : من كلمه الروح الأمين : لا تأكله الأرض.

(٣) هو الجعد بن درهم من الموالي مبتدع له أخبار في الزندقة ، سكن الجزيرة الفراتية ، وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولي الجزيرة في أيام هشام بن عبد الملك فنسب إليه ، أو كان =

ذلك ، لكن المعتزلة وإن وافقوه في البعض فهم يخالفونه في مثل مسائل الإيمان والقدر وبعض الصفات ، وجهم يقول إن الله لا يتكلم أو يتكلم مجازاً وهم يقولون يتكلم حقيقة ، ولكن قولهم في المعنى قوله ، وهو ينفي الأسماء كالباطنية والفلاسفة .

ومنها : بطلان قول من زعم أنه فاض من العقل الفعال أو غيره ، وهذا أعظم كفراً وضلالاً من الذي قبله .

ومنها إبطال قول الأشعرية أن كلام الله معنى وهذا العربي خلق ليدل عليه ، سواء قالوا : خلق في بعض الأجسام : أو ألهمه جبريل ، أو أخذه من اللوح ، فإن هذا لا بد له من متكلم تكلم به أولاً ، وهذا يوافق قول من قال إنه مخلوق ، لكن يفارقه من وجهين : -

أحدهما : أن أولئك يقولون المخلوق كلام الله وهؤلاء يقولون إنه كلام مجازاً ، وهذا أشر من قول المعتزلة ، بل هو قول الجهمية المحضة ، لكن المعتزلة يوافقونهم في المعنى .

الثاني : أنهم يقولون لله كلام قائم بذاته والخلقية يقولون لا يقوم بذاته ، فإن الكلابية [1] خير منهم في الظاهر ، لكن في الحقيقة لم يثبتوا كلاماً له غير المخلوق.

والمقصود أن الآية تبطل هذا و« القرآن » اسم للعربي ، لقوله : ﴿ فإذا

= الجعد مؤدبه في صغره ، ومن أراد ذم مروان لقبه بالجعدي نسبة إليه قال الذهبي : عداده في التابعين . مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يكلم موسى ، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر عام ١١٨ هـ .)

وقال ابن تغري بردى في كلامه على مروان : كان يعرف بالجعدي نسبة الى مؤدبه جعد بن درهم وقال الديار بكري : مؤدبه وأستاذه . [راجع ميزان الاعتدال ١ : ١٨٥ والكامل لابن الأثير ٥ : ١٦٠ والتاج ٢ : ٣٢١ ولسان الميزان ٢ : ١٠٥]

(١) سبق الترجمة لهم .

﴿ قَرَأْتَ القُرْآنَ ﴾ [1] وأيضاً فقوله : ﴿ نزله ﴾ عائد إلى قوله : ﴿ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾[2] فالذي نزله الله هو الذي نزله روح القدس ، وأيضاً قال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ﴾ [3] الآية . وهم يقولون : إنما يعلم هذا القرآن العربي بشر لقوله : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ ﴾ ـ الخ ، فعلم أن محمداً لم يؤلف نظماً بل سمعه من روح القدس ، وروح القدس الذي نزل به من الله ، فعلم أنه سمعه منه ، لم يؤلفه هو .

ونظيرها قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [4] و﴿ الكتاب ﴾ اسم للقرآن بالضرورة والاتفاق ، فإنهم أو بعضهم يفرقون بين كتاب الله وكلامه ، ولفظ ﴿ الكتاب ﴾ يراد به المكتوب فيه ، فيكون هو الكلام ، ويراد به ما يكتب فيه ، كقوله : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ [5] وقوله : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ [6] وقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [7] إخبار مستشهد بهم فمن لم يقربه منا فهم خير منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس وغيره : أنه أنزل في ليلة

---

(١) سورة النحل آية رقم ٩٨ وتكملتها ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٠١ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٠٣ وتكملة الآية ﴿ إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾

قال ابن جرير : حدثني أحمد بن محمد الطوسي ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا ابراهيم بن طهمان عن مسلم بن عبد الله الملائي عن مجاهد عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعلم فينا بمكة وكان فيها رجل اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان ، وكان المشركون يرون رسول الله ـ ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا : إنما يعلمه بلعام فأنزل الله هذه الآية ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾

(٤) سورة الأنعام آية رقم ١١٤ .

(٥) سورة الواقعة آية رقم ٧٨ .

(٦) سورة الاسراء آية رقم ١٣ .

(٧) سورة الانعام آية رقم ١١٤ .

القدر إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ولا ينافي أنه مكتوب في اللوح قبل نزوله ، سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل ، أو بعده ، فإذا أنزل جملة إلى بيت العزة فقد كتبه كله قبل أن ينزله ، والله يعلم ما كان وما يكون ، وما لا يكون لو كان كيف يكون وهو قد كتب المقادير وأعمال العباد قبل أن يعملوها ، ثم يأمر بكتابتها بعد أن يعملوها ، فيقابل الكتابة المتقدمة والمتأخرة فلا يكون بينهما تفاوت ، هكذا قال ابن عباس وغيره . فإذا كان ما يخلقه بائناً عنه قد كتبه قبل أن يخلقه فكيف لا يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل أن يرسلهم ؟ .

ومن قال : إن جبريل أخذه عن الكتاب لم يسمعه من الله فهو باطل من وجوه : ـ منها : أنه سبحانه كتب التوراة لموسى بيده ، فبنو إسرائيل أخذوا كلامه من الكتاب الذي كتبه ، ومحمد عن جبريل عن الكتاب فهم أعلى بدرجة ، ومن قال : إنه ألقى إلى جبريل معاني وعبر بالعربي فمعناه أنه ألهمه إلهاماً ، وهذا يكون لآحاد المؤمنين كقوله : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾(١) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ ﴾ (٢) فيكون هذا أعلى من أخذ محمد ﷺ ـ

وأيضاً : فإنه سبحانه قال : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ـ إلى قوله ـ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (٣) وهذا يدل على أمور : على أنه يكلم العبد تكليماً زائداً على الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص .

فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص فالتكليم

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١١١ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٧ تكملة الآية ﴿ أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾

(٣) سورة النساء الآيات ١٦٣ ـ ١٦٤ .

العام هو المقسوم في قوله :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً . أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [١] الآيـة ، فالتكليم المطلق قسم الوحي الخاص ، لا قسمـاً منه ، وكـذلك الـوحي يكون عاماً فيدخل فيه التكليم الخاص ، كقوله : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [٢] ويكون قسيماً له كما في الشورى ، وهـذا يبطل قـول من قال : إنـه معنى واحد قـائم بالذات ، فإنه لا فرق بين العام ومـا لموسى ، وفـرق سبحانـه في « الشورى » بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال رسول فيـوحي بإذنـه ما يشاء .

---

(١) سورة الشورى آية رقم ٥١ في الصحيح أن رسـول الله ـ ﷺ قال لجـابر بن عبـد الله رضي الله عنه ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً » كذا جاء الحديث ،وكان قتل يوم أحد ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية أنما هي في الدار الدنيا .

(٢) سورة طه آية رقم ١٣ .

سورة الإسراء

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

في الكلام على قوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا الَّـذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ (١) الآيتين ، لما ذكر أن من السلف من ذكر أنهم من الملائكة ، ومنهم من ذكر أنهم من الإنس ، ومنهم من ذكر أنهم من الجن .

لفظ السلف يذكرون جنس المراد من الآية على التمثيل ، كما يقول الترجمان لمن سأله عن الخبز فيريه رغيفاً، والآية هنا قصد بها التعميم لكل ما يدعى من دون الله ، فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين ـ سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية كما تتناول من دعا الملائكة

(١) سورة الإسراء رقم ٥٦ ـ والآية ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ روى البخاري من حديث سليمان بن مهران الأعمش عن ابراهيم عن أبي معمر عن عبد الله في قوله تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ﴾ قال ناس من الجن كانوا يعبدون فأسلموا ، وفي رواية قال : كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » . وقال قتادة عن معبد بن عبد الله الروماني عن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود في قوله ﴿ أولئك الذين يدعون ﴾ قال : نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون باسلامهم فنزلت هذه الآية .

وفي رواية ابن مسعود كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن فذكره

والجن ، ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم ، ومع ذلك فقد نهى عن دعائهم ، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله ، ولا يرفعونه بالكلية ، ولا يحولونه من موضع إلى موضع ، أو من حال إلى حال ، كتغيير صفته أو قدره ، ولهذا قال: ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ (١) كان أحدهم إذا نزل بواد يقول : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، فقالت الجن: الإنس تستعيذ بنا ، فزادوهم رهقاً ، وقد نص الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ على أن لا تجوز الاستعاذة بمخلوق وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق ، لما ثبت عنه ﷺ : أنه استعاذ بكلمات الله ، وأمر بذلك ، فإذا كان لا يجوز ذلك ، فلأن لا يجوز أن يقول : أنت خير مستعاذ يستعاذ به أولى . فالاستعاذة والاستجارة ، والاستغاثة ، كلها من نوع الدعاء ، أو الطلب ، وهي ألفاظ متقاربة .

. ولما كانت الكعبة بيت الله الذي يدعى ويذكر عنده ، فإنه سبحانه يستجار به هناك ، وقد يستمسك بأستار الكعبة كما يتعلق المتعلق بأذيال من يستجير به ، كما قال عمرو بن سعيد : إن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخزية . وفي الصحيح: « يعوذ عائذ بهذا البيت » (٢) . والمقصود أن

---

(١) سورة الجن آية رقم ٦ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب العلم ٣٧ ـ باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب قاله ابن عباس ـ عن النبي ـ ﷺ ـ
١٠٤ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، قال : حدثني الليث ، قال : حدثني سعيد عن أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد ـ وهو يبعث البعوث الى مكة ـ ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قال به النبي ـ ﷺ ـ الغد من يوم الفتح ، سمعته أذناي ووعاه قلبي ، وأبصرته عيناي حين تكلم به ـ حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ، ولا يعضد بها شجراً ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ ـ فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب . فقيل لأبي شريح ما قال عمرو ؟ =

كثيرا من الضالين يستغيثون بمن يحسنون به الظن، ولا يتصور أن يقضي لهم أكثر مطالبهم ، كما أن ما تخبر به الشياطين من الأمور الغائبة [يكذبون] في أكثره ، بل يصدقون في واحدة ، ويكذبون في أضعافها ، ويقضون لهم حاجة واحدة ويمنعونهم أضعافها ، يكذبون فيما أخبروا به وأعانوا عليه ، لإفساد حال الرجال في الدين والدنيا ويكون فيه شبهة للمشركين ، كما يخبر الكاهن ونحوه .

والله سبحانه جعل الرسول مبلغاً لأمره ونهيه ووعده ووعيده ، وهؤلاء يجعلون الرسل والمشائخ يدبرون العالم بقضاء الحاجات وكشف الكربات ، وليس هذا من دين المسلمين ، بل النصارى تقول هذا في المسيح وحده بشبهة الاتحاد والحلول ، ولهذا لم يقولوه في إبراهيم وموسى وغيرهم ، مع أنهم في غاية الجهل في ذلك ، فإن الآيات التي بعث بها موسى أعظم ، ولو كان هذا ممكناً لم يكن للمسيح خاصية به ، بل موسى أحق .

ولهذا كنت أتنزل مع علماء النصارى إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح وغيره من جهة الإلهية فلا يجدون فرقاً ، بل أبين لهم أن ما جاء به موسى من الآيات أعظم ، فإن كان حجة في دعوى الإلهية فموسى أحق ، وأما ولادته من غير أب فهو يدل على قدرة الخالق ، لا على أن المخلوق أفضل من غيره .

= قال : أنا أعلم منك يا أبا شريح ، ولا يعيذ عاصياً ، ولا فاراً بدم ، ولا فاراً بخزية »

سورة الكهف
فصل

حديث علي رضي الله عنه المخرج في الصحيحين لما طرقه رسول الله ﷺ وفاطمة وهما نائمان فقال : « ألا تصليان ؟ فقال علي : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يمسكها ، وإن شاء أن يرسلها ، فولى النبي ﷺ وهو يضرب بيده على فخذه ويعيد القول ويقول : ﴿ **وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَر شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ (١) هذا الحديث نص في ذم من عارض الأمر بالقدر فإن قوله : إنما أنفسنا بيد الله . . . الخ استناد إلى القدر في ترك امتثال الأمر ، وهي في نفسها كلمة حق ، لكن لا تصلح لمعارضة الأمر ، بل معارضة الأمْر بها ، من باب الجدل المذموم الذي قال الله فيه : ﴿ **وَكَانَ الإِنْسَانُ أكثر شَيْءٍ جَدَلاً** ﴾ (٢)

وهؤلاء أحد أقسام القدرية ، وقد صنفهم في غير هذا الموضع .

فالمجادلة الباطلة (٣) .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٥٤ .
الحديث رواه الإمام البخاري في التفسير ١ ـ باب ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ .
٤٧٢٤ ـ حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا يعقوب بن ابراهيم بن سعد حدثنا أبي عن صالح عن ابن شهاب . قال : أخبرني علي بن حسين أن حسين بن علي أخبره عن علي ـ رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره .

(٢) سورة الكهف آية رقم ٥٤ .

(٣) انقطع الكلام عند هذا الحد ولعل الله سبحانه وتعالى يوفقنا الى جمعه وترتيبه .

سورة مريم

فصل

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ

سورة مريم ، مضمونها : تحقيق عبادة الله وحده ، وأن خواص الخلق هم عباده ، فكل كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة ، وتضمنت الرد على الغالين الذين زادوا في النسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى بطريق الولادة والرد على المفرطين في تحقيق العبادة وما فيها من الكرامة وجحدوا نعم الله التي أنعم بها على عباده المصطفين .

افتتحها بقوله ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ (١) ونداءه ربه نداء خفياً ، وموهبته له يحيى ، ثم قصة مريم وابنها .

وقوله ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ﴾ (٢) الخ . بين فيها الرد على الغلاة في المسيح ، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به (٣) عليه ، ثم أمر نبيه بذكر ابراهيم وما دعا إليه من عبادة الله وحده (٤) ، ونهيه إياه عن عبادة الشيطان ،

---

(١) سورة مريم آية رقم ٢ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٣٠ وتكملة الآية ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فهو عبد الله لا ابن الإله وهو نبي ورسول لا إله له التصريف في الكون .

(٣) من النعم عليه قول الله تعالى ﴿ وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ﴾ سورة مريم آية ٣١ .

(٤) قال ابراهيم عليه السلام ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا

وموهبته له اسحاق ويعقوب وأنه جعل له لسان صدق عليا ، وهو الثناء الحسن ، وأخبر عن يحيى وعيسى وابراهيم ببر الوالدين مع التوحيد وذكر موسى وموهبته له أخاه هارون نبياً .

كما وهب يحيى لزكريا ، وعيسى لمريم ، واسحاق لابراهيم فهذه السورة سورة المواهب ، وهي ما وهبه الله لأنبيائه من الذرية الطيبة ، والعمل الصالح ، والعلم النافع ثم ذكر ذرية آدم لأجل أدريس ﴿ وَمِمَّنْ حملنا مَعَ نُوْحٍ ﴾ [1] وهو ابراهيم ومن ذرية ابراهيم واسرائيل . إلى آخر القصة . ثم قال : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلَاةَوَاتَّبَعُوا الشَّهوات﴾[2] الآية .

فهذه حال المفرطين في عبادة الله ، ثم استثنى التائبين وبين أن الجنة لمن تاب ، وأن جنات عدن وعدها الرحمن عباده بالغيب ، وهم أهل تحقيق العبادة ، ثم قال : ﴿ تِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي نُوْرِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقيًّا ﴾ [3] ثم قال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [4] .

ثم ذكر حال منكري المعاد ، وحال من جعل له الأولاد ، وقرن بينهما فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة .

« كذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، وشتمني ابن آدم وما ينبغي له

= أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ﴾ سورة مريم ٤٢ و ٤٤ .

(١) سورة مريم رقم ٥٨ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٥٩ إضاعة الصلاة واتباع الشهوات يحدث قرب قيام الساعة - وذهاب صالحي أمة محمد - ﷺ - ينزو بعضهم على بعض في الأزقة .

وكذا روى ابن جريج عن مجاهد مثله . وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة يعنون في آخر الزمان. وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا الحسن الأشيب ، حدثنا شريك عن ابراهيم بن مهاجر عن مجاهد ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ قال هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق لا يخافون الله في السماء ولا يستحيون من الناس في الأرض » .

(٣) سورة مريم آية رقم ٦٣ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٦٥ .

ذلك » [1] الحديث .

﴿ وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً ﴾ [2]

ثم ذكر إقسامه على حشدهم والشياطين ، وإحضارهم حول جهنم جثياً .

وفيها دلالة على أن المخبر عن خبر يحصل في المستقبل لا يكون إلا بطريقين :

إما إطلاعه على الغيب ، وهو العلم بما سيكون وإما أن يكون قد اتخذ عند الرحمن عهداً ، والله موف بعهده فالأول علم بالخبر ، والثاني علم بالأمر .

الأول علم بالكلمات الكونية ، والثاني علم بالكلمات الدينية وهذا الذي أقسم أنه يأتي يوم المعاد ما ذكر كاذب في قسمه، فإنه ليس له اطلاع على الغيب ، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً .

وهذا كما قيل في إجابة الدعاء ، أنه تارة يكون لصحة الاعتقاد ، وهو مطابقة الخبر ، وتارة لكمال الطاعة وهو موافقة الأمر كقوله :

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ [3] .

فذكر حال من تمنى على الله الباطل بلا علم بالواقع ، ولا اتخاذ عهد

---

(1) الحديث رواه البخاري في كتاب التفسير ٢ باب قوله ﴿ الله الصمد ﴾ ٤٩٧٥ ـ حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ قال الله تعالى : « كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد ، لم ألد ولم أولد ، ولم يكن لي كفواً أحد » . ورواه أيضاً في الجنائز ١١٧ ورواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٣١٧ ، ٣٥ ، ٣٩٤ (حلبي)

(2) سورة مريم آية رقم ٦٦ .

(3) سورة البقرة آية رقم ١٨٦ .

بالمشروع .

ثم ذكر حال الذين قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، فنفى الولادة عن نفسه ، ورد على من أثبتها ، وأثبت المودة رداً على من أنكرها فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ (١) .

أي يحبهم ، ويحببهم إلى عباده .

وقد وافق ذلك ما في الصحيحين : إذا أحب الله العبد نادى جبريل إني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء (٢) ويوضع له القبول في الأرض .

وقال في البغض عكس ذلك .

وفي قول ابراهيم ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (٣) وقوله في موسى ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ (٤) .

وما ذكره للمؤمنين من المودة إثبات لما ينكره الجاحدون من محبة الله وتكليمه ، كما في الأول نفي لما يثبته المفترون من اتخاذ الولد.

سئل رضي الله عنه .

عن قوله عز وجل : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا

---

(١) سورة مريم آية رقم ٩٦ .

(٢) الحديث أخرجه الامام الترمذي في كتاب التفسير سورة ١٩ ، ٧ ورواه البخاري في كتاب التوحيد ٣٣ باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ، وقال معمر : وإنك لتلقى القرآن أي يلقى عليك ٧٤٨٥ ـ حدثنا عبد الصمد ، حدثنا عبد الرحمن ـ هو ابن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ورواه أيضاً في كتاب بدء الخلق ٦ ، وكتاب الأدب ٤١ ، ورواه الامام مسلم في البر ١٥٧ وصاحب الموطأ في الشعر ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦٧ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ، ٥ : ٢٠٩ ، ٢٦٣ (حلبي) .

(٣) سورة مريم آية رقم ٤٧ .

(٤) سورة مريم آية رقم ٥٢ .

الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ (١) هل ذلك فيمن أضاع وقتها فصلاها في غير وقتها ؟ أم فيمن أضاعها فلم يصلها ؟

وقوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُوْنَ ﴾ (٢) .

هل هو عن فعل الصلاة أو السهو فيها كما جرت العادة من صلاة الغفلة الذين لا يعقلون من صلاتهم شيئاً أفتونا مأجورين .

فأجاب رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين : بل المراد بهاتين الآيتين من أضاع الواجب في الصلاة لا مجرد تركها ، هكذا فسرها الصحابة والتابعون ، وهو ظاهر الكلام ، فإنه قال :

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُوْنَ ﴾(٣) فأثبت لهم صلاة وجعلهم ساهين عنها ، فعلم أنهم كانوا يصلون مع السهو عنها ، وقد قال طائفة من السلف : بل هو السهو عما يجب فيها مثل ترك الطمأنينة ، وكلا المعنيين حق ، والآية تتناول هذا وهذا ، كما في صحيح مسلم عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال : تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق . يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً (٤) .

---

(١) سورة مريم آية رقم ٥٩ .

(٢) سورة الماعون - ٤ ، ٥ وفي تفسير هذه الآية (ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ قال : تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً)

(٣) سورة الماعون الآية رقم ٤ ، ٥ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث قال ابن جريج : حدثني زكريا بن أبان المصري حدثنا عمرو بن طارق ، حدثنا عكرمة بن ابراهيم ، حدثني عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعد ، عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن الذين هم عن صلاتهم =

فبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن صلاة المنافق تشتمل على التأخير عن الوقت الذي يؤمر بفعلها فيه ، وعلى النقر الذي لا يذكر الله فيه إلا قليلاً ، وهكذا فسروا قوله : ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضَاعُوْا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ** ﴾ [1] .

بأن إضاعتها تأخيرها عن وقتها وإضاعة حقوقها ، وجاء في الحديث « أن العبد إذا قام إلى الصلاة بطهورها وقراءتها وسجودها ـ أو كما قال ـ صعدت ولها برهان كبرهان الشمس تقول له : حفظك الله كما حفظتني وإذا لم يتم طهورها وقراءتها وسجودها ـ أو كما قال ـ فإنها تلف كما يلف الثوب وتقول له : ضيعك الله كما ضيعتني » .

قال سلمان الفارسي : الصلاة مكيال من وفى وفى له ومن طفف فقد علمتم ما قال في المطففين .

وفي سنن أبي داود عن عمار عن النبي ﷺ أنه قال : إن العبد لينصرف من صلاته ولم يكتب له إلا نصفها ، إلا ثلثها ، إلا ربعها إلا خمسها ، إلا سدسها ، إلا سبعها ، إلا ثمنها إلا تسعها ، إلا عشرها » .

وقد تنازع العلماء فيمن غلب عليه الوسواس في صلاته ، هل عليه الإعادة على قولين . لكن الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا إعادة عليه واحتجوا بما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال :

« إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي التأذين أقبل ، فإذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضي التثويب أقبل حتى

= ساهون . قال : هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها . قلت: وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية ويحتمل صلاتها بعد وقتها شرعاً وتأخيرها عن أول الوقت، كذا رواه الحافظ أبو يعلى عن سنان بن فروخ عن عكرمة بن ابراهيم به .

(١) سورة مريم آية رقم ٥٩ .

يخطر بين المرء ونفسه ، فيقول اذكر كذا اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل لن يدري كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل أن يسلم »(١) .

فقد عم بهذا الكلام ولم يأمر أحداً بالإعادة و« الثاني » عليه الإعادة وهو قول طائفة من العلماء : من الفقهاء والصوفية من أصحاب أحمد وغيره كأبي عبد الله بن حامد وغيره لما تقدم من قوله ولم يكتب له منها إلا عشرها .

والتحقيق أنه لا أجر له إلا بقدر الحضور لكن ارتفعت عنه العقوبة التي يستحقها تارك الصلاة وهذا معنى قولهم : تبرأ ذمته بها . أي لا يعاقب على الترك ، لكن الثواب على قدر الحضور كما قال ابن عباس : ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها ، فلهذا شرعت السنن الرواتب جبراً لما يحصل من النقص في الفرائض والله أعلم .

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الآذان ٤ باب فضل التأذين ٦٠٨ ـ حدثنا عبد الله بن يوسف ، قال أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ـ أن رسول الله ـ ﷺ قال : وذكره . ورواه أيضاً في العمل في الصلاة ١٨ وفي كتاب السهو ٦ وفي كتاب بدء الخلق ١١ ، ورواه الإمام مسلم في الصلاة ١٩ ، والمساجد ٨٣ ، وأبو داود في الصلاة ٣١ ، والنسائي في الآذان ٢٠ ، ٣٠ والدارمي في الصلاة ١١ ، ١٧٤ وصاحب الموطأ في النداء ٦ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣١٣ ، ٣٩٨ ، ٤١١ ، ٤٦٠ ، ٥٠٣ ، ٥٢٢ ، ٥٣١ (حلبي)

سورة طه

فصل

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

سورة طه ، مضمونها تخفيف أمر القرآن وما أنـزل الله تعالى من كتبـه فهي سورة كتبه ، كما أن مريم سـورة عباده ورسله افتتحهـا بقولـه ﴿ **مَا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ القُرآنَ لِتَشْقَى** ، ـ إلى قولـه ـ **تَنْزِيـلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ والسَّمواتِ العُـلاَ** ﴾ (١) ثم ذكر قصة موسى ، ونـداء الله له ومناجاته إياه وتكليمه لـه ، وقصته من أبلغ أمر الرسل ، فلهذا ثنيت في القرآن لأنه حصـل له الخطاب والكتاب ، وأُرسـل إلى فرعون الجاحد المرتاب ، المكذب للربوبية والرسالة ، وهذا أعظم الكـافرين عناداً ، واستوفى القصة في هذه السورة إلى قوله ﴿ **رَبِّ زِدْني عِلْماً** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة طه الآيات ٢ الى ٤ قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسين بـن محمد بن شيبة الواسطي ـ حـدثنا أبو أحمد ـ يعني الـزبيري أنبـأنا إسـرائيل عن سـالم الأفطس عن سعيـد بن جبير عن ابن عبـاس قال طه : يا رجل وهكذا روى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، ومحمـد بن كعب ، وأبي مالك ، وعطية العـوفي ، والحسن ، وقتادة، والضحـاك ، والسدي ، وابن أبزي أنهم قـالوا : طـه : بمعنى يا رجـل . وفي رواية عن ابن عبـاس ، وسعيد بن جبير والنووي أنها كلها بالنبطية معناها يا رجل ، وقـال أبو صـالح : هي معـربة وأسنـد القاضي عيـاض في كتابـه الشفاء من طريق عبد بن حميد في تفسيره : حدثنا هاشم بن القاسم ، عن ابن جعفر عن الربيع ابن أنس قال : كان النبي ـ ﷺ قام على رجل ورفع الأخرى فأنزل الله (طه) يعني طأ الأرض يا محمد ـ وهذا وجه غريب ، والله أعلم .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٤ .

ثم ذكر قصة آدم ؛ لأنها أول النبوات .

وتضمنت السورة ذكر موسى وآدم لما بينهما من المناسبة مما يقتضي ذكرهما ، ولما بينهما من المناظرة ، فإن موسى نظير آدم في الأمر الذي صار لكل منهما ، كما أن المسيح نظير آدم في الخلق .

وقوله ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴾ [1] الآيات . وهذا يشابه ما في القرآن في غير موضع من ذكر نبوة آدم ثم نبوة موسى بعده ، وأمر بني اسرائيل ثم أمر نبيه بالصلاة التي في القرآن ، كما جمع بين الأمرين بالقراءة والسجود في أول سورة أنزلت ، وختمها بالرسول المبلغ لكل ما أمر به كما افتتحها بذكر التنزيل عليه .

(١) سورة طه آية رقم ١٢٣ .

فصل

« في طريق العلم والعمل »

وقال :

قال الله تعالى لموسى وهارون ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (١) .

وقال في السورة بعينها ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ﴾ إلى قوله ﴿ وَكَذَلِكَ أنزلناهُ قُرآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الوَعِيدِ لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِث لَهُم ذِكْراً ﴾ (٢) .

فذكر من كل واحدة من الرسالتين العظيمتين رسالة موسى ورسالة محمد ـ أن ذلك لأجل التذكر أو الخشية ولم يقل ﴿ لِيَتَذَكَّر وَيَخْشَى ﴾

ولا قال : ليتقون ويحدث لهم ذكراً ، بل جعل المطلوب أحد الأمرين ، وهذا مطابق لقوله :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ ﴾ (٣) ونحو ذلك .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه .

---

(١) سورة طه آية رقم ٤٤ .

(٢) سورة طه آية رقم ٩٩ ـ ١١٣ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٢٥ .

وذلك يرجع إلى تحقيق قوله ﴿صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَق وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٢)

وقوله ﴿ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ (٣)

وقوله ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ ﴾ (٤)

وقوله ﴿ إِنَّ المُجْرِمِينَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُر ﴾ (٥)

وقوله : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٦) الآية . ونحو ذلك . وسبب ذلك أن الخير إما بمعرفة الحق واتباعه [و] في العلم والعمل جميعاً صلاح القول والعمل : العلم والإرادة ، وأصل الإرادة والمحبة وغير ذلك وهو مستلزم له ما لم يحصل معارض مانع ، فالعلم بالحق يوجب اتباعه إلا لمعارض راجح ، مثل اتباع الهوى بالاستكبار ونحوه ، كحال الذين قال الله فيهم ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتكبَّرُونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوه سَبِيْلاً ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الغي

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٧ .

(٢) سورة العصر آية رقم ٣ .

(٣) سورة ص آية رقم ٤٥ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ٥ .

(٥) سورة القمر آية رقم ٤٧ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٢٣ ـ ١٢٤ واختلف العلماء في المعيشة الضنك قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة حدثنا دراج أبو السمح عن ابن حجيرة واسمه عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ في قول الله عز وجل ﴿ فإن له معيشة ضنكاً ﴾ قال (ضمة القبر له) وفي رواية يضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه فيه .

يَتَّخِذوه سَبِيْلاً ﴾ [1] .

وقال ﴿ وَجَحَدُوْا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلوّاً ﴾ [2] .

وقال ﴿ فإنَّهُم لاَ يُكذِّبُونَك وَلَكِنَّ الظَّالِمِيْنَ بِآيَاتِ الله يَجْحَدُوْنَ ﴾ [3] .

ولهذا قال ﴿ يَـا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَـاكَ خليفةً في الأَرْضِ فَـاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِـالحقِ وَلاَ تَتَّبع الهَـوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيـلِ الله ﴾ [4] ونحـو ذلـك فـإن أصـل الفـطرة التي فـطر النـاس عليهـا إذا سلمت من الفســاد إذا رأت الحق اتبعتـه وأحبته . إذ الحق نوعان :

حق مـوجود فـالواجب معـرفته والصـدق في الإخبار عنـه ، وضد ذلـك الجهل والكذب .

وحق مقصود وهو النافع للإنسان ، فـالواجب إرادتـه والعمل بـه ، وضد ذلك إرادة الباطل واتباعه .

ومن المعلوم أن الله خلق في النفوس محبة العلم دون الجهـل ، ومحبة الصـدق دون الكـذب ، ومحبـة النـافـع دون الضار وحيث دخـل ضـد ذلـك فلمعارض من هوى وكبر وحسد ونحو ذلك ، كمـا أنه في صـالح الجسـد خلق الله فيه محبة الطعام والشراب الملائم له دون الضار ، فإذا اشتهى ما يضـره أو كـره مـا ينفعـه فلمـرض في الجسـد ، وكـذلـك أيضـاً إذا انـدفـع عن النفس المعـارض من الهوى والكبـر والحسد وغيـر ذلك : أحب القلب مـا ينفعـه من العلم النافع والعمل الصالح ، كما أن الجسد إذا اندفـع عنه المـرض أحب ما ينفعه من الطعـام والشراب ، فكـل واحد من وجـود المقتضى وعدم الـدافع :

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ١٤٦ .

(٢) سورة النمل آية رقم ١٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة ص آية رقم ٢٦ .

سبب للآخر ، وذلك . سبب لصلاح حال الإنسان وضدهما سبب لضد ذلك ، فإذا ضعف العلم غلبه الهوى الإنسان وإن وجد العلم والهوى وهما المقتضى والدافع فالحكم للغالب ، وإذا كان كذلك فصلاح بني آدم الإيمان والعمل الصالح ، ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان :

أحدهما : الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالاً والثاني : اتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس. فيكونون غواة مغضوباً عليهم .

ولهذا قال ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَى** ﴾ (١)

وقال « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ(٢) » فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي ، وبالهدى الذي هو خلاف الضلال ، وبهما يصلح العلم والعمل جميعاً ، ويصير الإنسان عالماً عادلاً لا جاهلاً ولا ظالماً .

وهم في الصلاح على ضربين .

تارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به ، فهذا هو الذي يدعى بالحكمة ، وهو الذي يتذكر ، وهو الذي يحدث له القرآن ذكراً .

والثاني : أن يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهي النفس عن الهوى فهذا يدعى بالموعظة الحسنة، وهذا هو القسم

---

(١) سورة النجم آية رقم ١ ، ٢ .
قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن الأخنس أخبرنا الوليد بن عبد الله عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو ، قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله - ﷺ - أريد حفظه فنهتني قريش عن ذلك فقالوا : إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ، ورسول الله - ﷺ - بشر يتكلم في الغضب فأمسكت عن الكتاب ، فذكرت ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق » . ورواه أبو داود عن مسدد ، وأبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به .

(٢) الحديث رواه أبو داود في السنة ٥ ، والترمذي في كتاب العلم ١٦ وابن ماجه في المقدمة ٦ ، والدارمي في المقدمة ١٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٢٦ ، ١٢٧ (حلبي)

الثاني المذكور في قوله ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ وفي قوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُوْنَ ﴾

وقد قال في السورة في قصة فرعون : ﴿ إِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ (١) .

فجمع بين التزكي والهدى والخشية ، كما جمع بين العلم والخشية في قوله ﴿ إنَّما يَخْشَى الله مِنْ عِبادِهِ العُلَماء ﴾ (٢)

وفي قوله ﴿ وَفِي نُسْخَتِها هُدىً وَرَحْمَة لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُوْن ﴾ (٣)

وفي قوله ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوْا مَا يُوْعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً وإذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً وَلَهَدَيْناهُم صِراطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (٤)

وذلك لما ذكرناه من أن كل واحد من العلم بالحق الذي يتضمنه التذكر ، والذكر الذي يحدثه القرآن ، ومن الخشية المانعة من اتباع الهوى سبب لصلاح حال الإنسان ، وهو مستلزم للآخر إذا قوي على ضده ، فإذا قوي العلم والتذكر دفع الهوى ، وإذا اندفع الهوى بالخشية أبصر القلب وعلم، وهاتان هما الطريقة العلمية والعملية ، كل منهما إذا صحت تستلزم ما تحتاج إليه من الأخرى وصلاح العبد ما يحتاج إليه ويجب عليه منهما جميعاً ولهذا كان فساده بانتفاء كل منهما ، فإذا انتفى العلم الحق كان ضالاً غير

(١) سورة النازعات آية رقم ١٧ ـ ١٩ .

(٢) سورة فاطر آية رقم ٢٨ وأقوال العلماء في الخشية كثيرة قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ قال الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير ، وقال ابن لهيعة عن ابن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس قال العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك شيئاً وأحل حلاله وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله ، وقال سعيد بن جبير : الخشية : هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل » .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٥٤ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٦٦ ـ ٦٨ .

مهتد ، وإذا انتفى اتباعه كان غاوياً مغضوباً عليه .

ولهذا قال ﴿ صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الظَّالِينَ ﴾(١) وقال ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى ﴾ (٢)

وقال في ضد ذلك ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ﴾ (٣)

وقال ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيرِ هُدىً مِنَ اللهِ ﴾ (٤)

وقال ﴿ وَإِنَّ كَثِيْراً لَيُضِلُّوْنَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٥)

وقال ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ (٦)

وقال في ضده :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَه مَعِيْشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (٧) ﴾ وقال ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدَىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُوْنَ ﴾ (٨)

وقال في ضده ﴿ إِنَّ المُجْرِمِيْنَ فِي ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ ﴾(٩) قال ابن عباس :

---

(١) سورة الفاتحة آية رقم ٧ .

(٢) سورة النجم آية رقم ١ ـ ٤ .

(٣) سورة النجم آية رقم ٢٣ .

(٤) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

(٥) سورة الأنعام آية رقم ١١٩ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٢٣ .

(٧) سورة طه آية رقم ١٢٤ .

(٨) سورة البقرة آية رقم ٥ .

(٩) سورة القمر آية رقم ٤٧ وبعدها ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ قال أحمد حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن إسماعيل السهمي عن محمد بن عباد ابن جعفر عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى النبي ـ ﷺ يخاصمونه في القدر فنزلت =

« تكفل الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة » فهو سبحانه يجمع بين الهدى والسعادة وبين الضلال والشقاوة ، بين حسنة الدنيا والآخرة ويقرن بين العلم النافع والعمل الصالح كما يقرن بين ضديهما وهو الضلال والغي : اتباع الظن وما تهوى الأنفس والقرينان متلازمان عند الصحة والسلامة من المعارض ، وقد يتخلف أحدهما عن الآخر عند المعارض الراجح فلهذا إذا كان في مقام الذم والنهي والاستعاذة كان الذم والنهي لكل منهما : من الضلال والغي : من الجهل والظلم : من الضلال والغضب ولأن كلاً منهما صار مكروهاً مطلوب العدم لا سيما وهو مستلزم للآخر ، وأما في مقام الحمد والطلب ومنة الله فقد يطلب أحدهما ، وقد يطلب كل منهما ، وقد يحمد أحدهما ، وقد يحمد كل منهما؛ لأن كلاً منهما خير مطلوب محمود ، وهو سبب لحصول الآخر ، لكن كمال الصلاح يكون بوجودهما جميعاً ، وهذا قد يحصل له إذا حصل أحدهما ، ولم يعارضه معارض ، والداعي للخلق الآمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين فيطلب أحدهما لأنه مطلوب في نفسه ، وهو سبب للآخر ، فإن ذلك أرفق من أن يأمر العبد بهما جميعاً ، فقد يثقل ذلك عليه ، والأمر بناء والنهي هدم ، والأمر هو يحصل العافية بتناول الأدوية ، والنهي من باب الحمية ، والبناء والعافية تأتي شيئاً بعد شيء ، وأما الهدم فهو أعجل ، والحمية أعم ، وإن كان قد يحصل فيهما ترتيب أيضاً ، فكيف إذا كان كل واحد من الأمرين سبباً وطريقاً إلى حصول المقصود مع حصول الآخر .

= ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾﴿ إن كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وهكذا رواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري به ، وقال البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ما نزلت هذه الآيات ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ إلا في أهل القدر . والله أعلم .

فقوله سبحانه ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (١) وقوله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ (٢) طلب وجود أحد الأمرين تبليغ الرسالة وجاء بصيغة: « لعل » تسهيلاً للأمر ورفقاً وبياناً ؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول المقصود فلا يطلبان جميعاً في الابتداء ، ولهذا جاء في الأثر : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها لا سيما أصول الحسنات التي تستلزم سائرها ، مثل الصدق فإنه أصل الخير ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً (٣) ولهذا قال سبحانه ﴿ هَلْ

---

(١) سورة طه آية رقم٤٤ .

(٢) سورة طه آية رقم ١١٣ .

وفي هذا يقول زيد بن عمرو بن نفيل ويروى بلامية ابن أبي الصلت فيما ذكره ابن اسحاق :

وأنت الذي من فضل منٍ ورحمة ... بعثت الى موسى رسولاً مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا ... الى الله فرعون الذي كان باغيا
فقولا له هل أنت سويت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له أأنت رفعت هذه ... بلا عمد أرفق إذن بك بانيا
وقولا له أأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرة ... فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رءوسه ... ففي ذاك آيات لمن كان راعيا

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ٦٩ باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

٦٠٩٤ ـ حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل ، عن عبد الله ـ رضي الله عنه عن النبي ـ ﷺ ـ قال : إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة وذكره . ورواه الامام مسلم في كتاب البر ١٠٥ ، ١٠٣، ١٠٤، والترمذي في البر ٤٦ وابن ماجه في المقدمة ٧ ، والدعاء ٥ والدارمي في الرقاق ٧ ، والموطأ في الكلام ١٦ وأحمد بن حنبل في المسند : ١ : ٣ ، =

أنبئكم على من تنزَّلُ الشَّياطِينُ تنزَّلُ على كُلِّ أفَّاكٍ أثِيمٍ ﴾ [1]

وقال ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ أفَّاكٍ أثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ الله تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مسْتَكْبِراً كأنْ لَم يَسْمَعْهَا ﴾ [2] ولهذا يذكر أن بعض المشايخ أراد أن يؤدب بعض أصحابه الذين لهم ذنوب كثيرة فقال : يا بني أنا آمرك بخصلة واحدة فاحفظها لي ، ولا آمرك الساعة بغيرها التزم الصدق وإياك والكذب ، وتوعده على الكذب بوعيد شديد فلما استلزم ذلك الصدق دعاه إلى بقية الخير ، ونهاه عما كان عليه ، فإن الفاجر لا حد له في الكذب .

= ٥ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ٣٨٤ ، ٤٠٥ ، ٤٣٣ (حلبي)

(١) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ ـ ٢٢٢ .

(٢) سورة الجاثية آية رقم ٧ ـ ٨ .

فصل

قال شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ

في قوله تعالى ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [1] فإن هذا مما أشكل على كثير من الناس ، فإن الذي في مصاحف المسلمين ﴿ إن هذان ﴾ بالألف وبهذا قرأ جماهير القراء وأكثرهم يقرأ ﴿ إنَّ ﴾ مشددة ، وقرأ ابن كثير وحفص عن عاصم ﴿ إن ﴾ مخففة ، لكن ابن كثير يشدد نون ﴿ هذان ﴾ دون حفص ، والإشكال من جهة العربية على القراءة المشهورة ، وهي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي ، وأبي بكر عن عاصم وجمهور القراء عليها ، وهي أصح القراءات لفظاً ومعنى .

وهذا يتبين بالكلام على ما قيل فيها .

فإن منشأ الإشكال : أن الاسم المثنى يعرب في حال النصب والخفض بالياء ، وفي حال الرفع بالألف ، وهذا متواتر من لغة العرب ، لغة القرآن وغيرها في الأسماء المبنية كقوله :

﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ ﴾ [2] .

ثم قال : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ﴾ [3]

---

(١) سورة طه آية رقم ٦٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١١ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١١ .

وقال : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ (١)

وقال ﴿ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ ﴾ (٢) .

ولم يقل : الكعبان .

وقال ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُوْنَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوْهُما فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴾ (٣) .

ولم يقل : اثنان .

وقال ﴿ قُلْنا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (٤)

وقال ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيين أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثيينِ ﴾ (٥)

ولم يقل : اثنان ، ولا الذكران و لا انثيان وقال ﴿ وَمِنْ كُلِ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ (٦) ولم يقل زوجان .

وقال : ﴿ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ ﴾ (٧) ولم يقل : اثنتان .

ومثل هذا كثير مشهور في القرآن وغيره فظن النحاة أن الأسماء المبهمة المبنية مثل هذين واللذين تجري هذا المجرى ، وأن المبنى في حال الرفع يكون بالألف ، ومن هنا نشأ الإشكال وكان أبو عمرو إماماً في العربية فقرأ بما

---

(١) سورة يوسف آية رقم ١٠٠ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ٦ .
(٣) سورة يس آية رقم ١٣ ـ ١٤ .
(٤) سورة هود آية رقم ٤٠ .
(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٤٣ .
(٦) سورة الذاريات آية رقم ٤٩ .
(٧) سورة النساء آية رقم ١١ .

يعرف من العربية « إن هذين لساحران » .

وقد ذكر أن له سلفاً في هذه القراءة ، وهو الظن به أنه لا يقرأ إلا بما يرويه ، لا بمجرد ما يراه ، وقد روى عنه أنه قال : إني لأستحيي من الله أن أقرأ : ﴿ إنْ هَذان ﴾ وذلك لأنه لم ير لها وجهاً من جهة العربية ، ومن الناس من خطأ أبا عمرو من هذه القراءة ، ومنهم الزجاج قال : لا أجيز قراءة أبي عمرو ، خلاف المصحف .

وأما القراءة المشهورة الموافقة لرسم المصحف فاحتج لها كثير من النحاة بأن هذه لغة بني الحارث بن كعب ، وقد حكى ذلك غير واحد من أئمة العربية .

قال المهدوي : بنو الحارث بن كعب يقولون : ضربت الزيدان ، ومررت بالزيدان ، كما تقول : جاءني الزيدان .

قال المهدوي : حكى ذلك أبو زيد والأخفش والكسائي والفراء .

وحكى أبو الخطاب أنها لغة بني كنانة .

وحكى غيره أنها لغة لخثعم .

ومثله قول الشاعر :

تزود منا بين أذناه ضربة دعته إلى هاوي التراب عقيم

وقال ابن الأنباري [1] : هي لغة لبني الحارث بن كعب وقريش .

قال الزجاج : وحكى أبو عبيدة [2] عن أبي الخطاب وهو رأس من

---

(١) هو محمد بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم الشيباني ، أبو عبد الله ، سديد الدولة ابن الأنباري ـ كاتب الإنشاء بديوان الخلافة ببغداد خمسين سنة كان ذا رأي وتدبير ، علت مكانته عند الخلفاء والسلاطين ، وناب في الوزارة وأنفذ رسولاً الى ملوك الشام وخراسان ، وكان فاضلاً أديباً بينه وبين الحريري (صاحب المقامات) مراسلات مدونة توفي عام ٥٥٨ هـ [راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٣٦٤ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٤٧]

(٢) هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري ، أبو عبيدة النحوي من أئمة العلم بالأدب واللغة . =

رؤوس الرواة ـ أنها لغة لكنانة يجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، وأنشدوا

فأطرق إطراق الشجاع ولو يجد مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقال : ويقول هؤلاء : ضربته بين أذناه قلت : بنو الحارث بن كعب هم أهل نجران . ولا ريب أن القرآن لم ينزل بهذه اللغة بل المثنى من الأسماء المبنية في جميع القرآن هو بالياء في النصب والجر كما تقدمت شواهده ، وقد ثبت في الصحيح عن عثمان أنه قال : إن القرآن نزل بلغة قريش [1] ، وقال للرهط القرشيين الذين كتبوا المصحف هم وزيد : إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش ، فإن القرآن نزل بلغتهم ، ولم يختلفوا إلا في حرف ، وهو التابوت فرفعوه إلى عثمان ، فأمر أن يكتب بلغة قريش رواه البخاري في صحيحه [2] .

وعن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلي

مولده ووفاته في البصرة ، استقدمه هارون الرشيد الى بغداد سنة ١٨٨ هـ وقرأ عليه أشياء من كتبه قال الجاحظ : لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه . وكان إباضياً شعوبياً ، من حفاظ الحديث قال ابن قتيبة : كان يبغض العرب وصنف في مثالبهم كتباً ، ولما مات لم يحضر جنازته أحد ، لشدة نقده معاصريه . له نحو ٢٠٠ مؤلف منها نقائض جرير والفرزدق ، ومجاز القرآن ، ومعاني القرآن توفي عام ٢٠٩ هـ . [راجع وفيات الأعيان ٢ : ١٠٥ ومجلة المجمع العلمي ٧ : ٥٥٣]

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ٤٩٨٤ ـ حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري وأخبرني أنس بن مالك قال : فأمر عثمان زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وذكره .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٣ باب جمع القرآن ٤٩٨٧ ـ بسنده عن أنس ابن مالك وذكره .

إلينا بالصحف ننسخها من المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت (١) ، وعبد الله بن الزبير (٢) ، وسعيد بن العاص (٣) وعبد الرحمن بن الحارث (٤) بن هشام فنسخوها في المصاحف وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وهذه الصحيفة التي أخذها من عند حفصة هي التي أمر أبو بكر وعمر

---

(١) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي أبو خارجة صحابي من أكابرهم ، كان كاتب الوحي ، ولد في المدينة عام ١١ ق هـ ونشأ بمكة ، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين ، وهاجر مع النبي - ﷺ - وهو ابن ١١ سنة وتعلم وتفقه في الدين ، وكان عمر يستخلفه على المدينة إذا سافر وكان ابن عباس على سعة علمه يأتيه الى منزله للأخذ منه وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي - ﷺ - من الأنصار له في كتب الأحاديث ٩٢ حديثاً [راجع صفة الصفوة ١ : ٢٩٤ والعبر للذهبي ١ : ٢٩٤ والإصابة ٢٨٨٠] .

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن العوام القرشي الأسدي أبو بكر فارس قريش في زمنه وأول مولود في المدينة بعد الهجرة شهد فتح أفريقيا زمن عثمان وبويع له بالخلافة سنة ٦٤ هـ عقب موت يزيد بن معاوية فحكم مصر والحجاز واليمن وخراسان والعراق وأكثر الشام وجعل قاعدة ملكه المدينة حتى سيروا إليه الحجاج الثقفي فقتل عام ٧٣ هـ مدة خلافته تسع سنين ، وهو أول من ضرب الدراهم المستديرة ، له في كتب الحديث ٣٣ حديثاً. [راجع ابن الأثير ٤ : ١٣٥ وتاريخ الخميس ٢ : ٣٠١ وحلية الأولياء ١ : ٣٢٩ وصفة الصفوة ١ : ٣٢٢]

(٣) هو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس صحابي من الأمراء الولاة الفاتحين ربي في حجر عمر بن الخطاب ، وولاه عثمان الكوفة وهو شاب . وعهد إليه معاوية بولاية المدينة . فتولاها الى أن مات ٥٩ هـ اعتزل فتنة الجمل وصفين. [راجع الاصابة ت ٣٢٦١ وطبقات ابن سعد ٥ : ١٩ وتهذيب ابن عساكر ٦ : ١٣١ - ١٤٥ وتاريخ الاسلام ٢ : ٢٦٦]

(٤) هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي المدني ، أبو محمد ، تابعي ثقة ، جليل القدر من أشراف قريش ، وهو أحد الأربعة الذين عهد إليهم عثمان بن عفان بنسخ المصاحف لتوزيعها على الأمصار توفي بالمدينة عام ٤٣ هـ [راجع تهذيب التهذيب ٦ : ١٥٦ والإصابة ت ٦١٩٥] .

بجمع القرآن فيها لزيد بن ثابت وحديثه معروف في الصحيحين وغيرهما ، وكانت بخطه ، فلهذا أمر عثمان أن يكون هو أحد من ينسخ المصاحف من تلك الصحف ، ولكن جعل معه ثلاثة من قريش ليكتب بلسانهم ، فلم يختلف لسان قريش والأنصار إلا في لفظ « التابوه » « والتابوت » فكتبوه « التابوت » بلغة قريش .

وهذا يبين أن المصاحف التي نسخت كانت مصاحف متعددة ، وهذا معروف مشهور ، وهذا مما يبين غلط من قال في بعض الألفاظ إنه غلط من الكاتب ، أو نقل ذلك عن عثمان ، فإن هذا ممتنع لوجوه :

منها : تعدد المصاحف واجتماع جماعة على كل مصحف ثم وصول كل مصحف إلى بلد كبير فيه كثير من الصحابة والتابعين يقرأون القرآن ، ويعتبرون ذلك بحفظهم والإنسان إذا نسخ مصحفاً غلط في بعضه عرف غلطه بمخالفة حفظه القرآن وسائر المصاحف فلو قدر أنه كتب كاتب مصحفاً ثم نسخ سائر الناس عنه من غير اعتبار للأول ، والثاني أمكن وقوع الغلط في هذا ، وهنا كل مصحف إنما كتبه جماعة ، ووقف عليه خلق عظيم ممن يحصل التواتر بأقل منهم ، ولو قدر أن الصحيفة كان فيها لحن فقد كتب منها جماعة لا يكتبون إلا بلسان قريش . فكيف يتفقون كلهم على أن يكتبوا ﴿ إن هذان ﴾ وهم يعلمون أن ذلك لحن لا يجوز في شيء من لغاتهم أو ﴿ **المقيمين الصلاة** ﴾ وهم يعلمون أن ذلك لحن كما زعم بعضهم .

قال الزجاج في قوله : ﴿ **المقيمين الصلاة** ﴾ قول من قال : إنه خطأ - بعيد جداً : لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة ، فكيف يتركون شيئاً يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم .

وقال ابن الأنباري : حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ، ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً ليصلحه من بعده قلت : ومما يبين كذب ذلك : أن عثمان لو قدر ذلك فيه ، فإنما رأى ذلك في نسخة واحدة ، فإما أن تكون جميع

المصاحف اتفقت على الغلط وعثمان قد رآه في جميعها وسكت : فهذا ممتنع عادة وشرعاً من الذين كتبوا ، ومن عثمان ، ثم من المسلمين الذين وصلت إليهم المصاحف ورأوا ما فيها ، وهم يحفظون القرآن ، ويعلمون أن فيه لحناً لا يجوز في اللغة ، فضلاً عن التلاوة ، وكلهم يقر هذا المنكر لا يغيره أحد ، فهذا مما يعلم بطلانه عادة ، ويعلم من دين القوم الذين لا يجتمعون على ضلالة ، بل يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر أن يدعوا في كتاب الله منكراً لا يغيره أحد منهم ، مع أنهم لا غرض لأحد منهم في ذلك .

ولو قيل لعثمان : مر الكاتب أن يغيره لكان تغييره من أسهل الأشياء عليه .

فهذا ونحوه مما يوجب القطع بخطأ من زعم أن في المصحف لحناً أو غلطاً ، وأن نقل ذلك عن بعض الناس ممن ليس قوله حجة ، فالخطأ جائز عليه فيما قاله بخلاف الذين نقلوا ما في المصحف وكتبوه وقرأوه فإن الغلط ممتنع عليهم في ذلك ، وكما قال عثمان إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش [1] وكذلك قال عمر لابن مسعود أقرىء الناس بلغة قريش ، ولا تقرئهم بلغة هذيل ؛ فإن القرآن لم ينزل بلغة هذيل .

وقوله تعالى في القرآن ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُوْلٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ** ﴾ [2] يدل على ذلك فإن قومه هم قريش كما قال ﴿ **وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ** ﴾ [3] وأما كنانة فهم جيران قريش ، والناقل عنهم ثقة ، ولكن الذي

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٢ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب (قراناً عربياً ـ بلسان عربي مبين) .
٤٩٨٤ ـ حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، وأخبرني أنس بن مالك قال : وذكره .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٤ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ٦٦ .

ينقل ينقل ما يسمع ، وقد يكون سمع ذلك في الأسماء المبهمة المبنية فظن أنهم يقولون ذلك في سائر الأسماء بخلاف من سمع بين أذناه ، و« لناباه » فإن هذا صريح في الأسماء التي ليست مبهمة ، وحينئذ فالذي يجب أن يقال إنه لم يثبت أنه لغة قريش ، بل ولا لغة سائر العرب أنهم ينطلقون في الأسماء المبهمة إذا تليت بالياء ، وإنما قال ذلك من قاله من النحاة قياساً ، جعلوا باب التثنية في الأسماء المبهمة كما هو في سائر الأسماء ، وإلا فليس في القرآن شاهد يدل على ما قالوه ، وليس في القرآن اسم مبهم مبني في موضع نصب أو خفض إلا هذا ولفظه ﴿ هذان ﴾ فهذا نقل ثابت متواتر لفظاً ورسماً .

ومن زعم أن الكاتب غلط فهو الغالط غلطاً منكراً ، كما قد بسط في غير هذا الموضع ، فإن المصحف منقول بالتواتر وقد كتبت عدة مصاحف ، وكلها مكتوبة بالألف ، فكيف يتصور في هذا غلط .

وأيضاً فإن القراء إنما قرأوا بما سمعوه من غيرهم ، والمسلمون كانوا يقرأون « سورة طه » على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، وهي من أول ما نزل من القرآن ، قال ابن مسعود بنو اسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول وهن من تلادي . رواه البخاري عنه .

وهي مكية باتفاق الناس .

قال أبو الفرج وغيره : هي مكية باجماعهم ، بل هي من أول ما نزل ، وقد روي : أنها كانت مكتوبة عند أخت عمر ، وأن سبب إسلام عمر كان لما بلغه إسلام أخته ، وكانت السورة تقرأ عندها .

فالصحابة لا بد أن قد قرأوا هذا الحرف ، ومن الممتنع أن يكونوا كلهم قرأوه بالياء كأبي عمر ، فإنه لو كان كذلك لم يقرأها أحد إلا بالياء ، ولم تكتب إلا بالياء فعلم أنهم أو غالبهم كانوا يقرأونها بالألف كما قرأها الجمهور ، وكان الصحابة بمكة والمدينة والشام والكوفة والبصرة يقرأون هذه السورة في الصلاة وخارج الصلاة ، ومنهم سمعها التابعون ومن التابعين

سمعها تابعوهم ، فيمتنع أن يكون الصحابة كلهم قرأوها بالياء مع أن جمهور القراء لم يقرأوها إلا بالألف ، وهم أخذوا قراءتهم عن الصحابة ، أو عن التابعين عن الصحابة ، فهذا مما يعلم به قطعاً أن عامة الصحابة إنما قرأوها بالألف كما قرأ الجمهور ، وكما هو مكتوب .

وحينئذ فقد علم أن الصحابة إنما قرأوا كما علمهم الرسول ، وكما هو لغة للعرب ، ثم لغة قريش فعلم أن هذه اللغة الفصيحة المعروفة عندهم في الأسماء المبهمة تقول « إن هذان ، ومررت بهذان تقولها في الرفع والنصب والخفض بالألف ، ومن قال : إن لغتهم أنها تكون في الرفع بالألف طولب بالشاهد على ذلك والنقل عن لغتهم المسموعة منهم نثراً ونظماً ، وليس في القرآن ما يشهد له ولكن عمدته القياس .

وحينئذ فنقول : قياس هذا بغيرها من الأسماء غلط ، فإن الفرق بينهما ثابت عقلاً وسماعاً أما النقل والسماع فكما ذكرناه ، وأما العقل والقياس فقد تفطن للفرق غير واحد من حذاق النحاة فحكى ابن الإنباري وغيره عن الفراء قال : ألف التثنية في ﴿ هذان ﴾ هي ألف هذا ، والنون فرقت بين الواحد والاثنين ، كما فرقت بين الواحد والجمع نون الذين ، وحكاه المهدوي وغيره عن الفراء ولفظه قال : إنه ذكر أن الألف ليست علامة التثنية بل هي ألف هذا ، فزدت عليها نوناً ، ولم أغيرها كما زدت على الياء من الذي فقلت الذين في كل حال .

قال : وقال بعض الكوفيين : الألف في هذا مشبهة يفعلان فلم تغير كما « لم » تغير .

قال : وقال الجرجاني [1] : لما كان اسماً على حرفين أحدهما حرف

---

(1) هو عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، أبو بكر ، واضع أصول البلاغة ، كان من أئمة اللغة من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان) له شعر رقيق من كتبه أسرار البلاغة ، ودلائل الاعجاز ، والجمل في النحو ، والمغني في شرح الايضاح ، واعجاز

مد ولين ، وهو كالحركة ، ووجب حذف إحدى الألفين في التثنية لم يحسن حذف الأولى ، لئلا يبقى الاسم على حرف واحد فحذف علم التثنية ، وكان النون يدل على التثنية ، ولم يكن لتغيير النون الأصلية الألف وجه ، فثبت في كل حال كما يثبت في الواحد .

قال المهدوي : وسأل اسماعيل القاضي ابن كيسان عن هذه المسألة فقال :

لما لم يظهر في المبهم إعراب في الواحد ولا في الجمع جرت التثنية على ذلك مجرى الواحد ، إذ التثنية يجب أن لا تغير ، فقال اسماعيل : ما أحسن ما قلت لو تقدمك أحد بالقول فيه حتى يُؤنس به ، فقال له ابن كيسان : فليقل القاضي حتى يؤنس به ، فتبسم .

قلت : بل تقدمه الفراء وغيره ، والفراء [1] في الكوفيين مثل سيبويه [2] في البصريين ، لكن اسماعيل كان اعتماده على نحو البصريين ، والمبرِّد كان خصيصاً به .

وبيان هذا القول : أن المفرد « ذا » فلو جعلوه كسائر الأسماء لقالوا في التثنية : « ذوان » ولم يقولوا : ذان كما قالوا عصوان ورجوان ونحوهما من الأسماء الثلاثية و« ها » حرف تنبيه ، وقد قالوا فيما حذفوا لامه : أبوان فردته التثنية إلى أصله ، وقالوا في غير هذا ويدان وأما ذا فلم يقولوا ذوان ، بل قالوا كما فعلوا في ذي وذات التي بمعنى صاحب فقالوا : هو ذو علم ، وهما ذوا علم كما قال ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [3] وفي اسم الإشارة قالوا ، ذان ، وتان ، كما

= القران ، والعمدة في تصريف الأفعال توفي عام ٤٧١ هـ [راجع فوات الوفيات ١ : ٢٩٧ ومفتاح السعادة ١ : ١٤٣ وبغية الوعاة ٣١٠ وآداب اللغة ٣ : ٤٤ وطبقات الشافعية ٣ : ٢٤٢] .

(١) سبق الترجمة له .

(٢) سبق الترجمة له .

(٣) سورة الرحمن آية رقم ٤٨ .

قال ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ ﴾ [1] فإن « ذا » بمعنى صاحب هو اسم معرب ، فتغير إعرابه في الرفع والنصب والجر ، فقيل : ذو وذا وذي وأما المستعمل في الإشارة والأسماء الموصولة والمضمرات هي مبنية ، لكن أسماء الإشارة لم تفرق لا في واحده ولا في جمعه بين حال الرفع والنصب والخفض ، فكذلك في تثنيته .

بل قالوا : قام هذا ، وأكرمت هذا ، ومررت بهذا وكذلك هؤلاء في الجمع ، فكذلك المثنى ، قال هذان ، وأكرمت هذان ، ومررت بهذان ، فهذا هو القياس فيه أن يلحق مثناه بمفرده وبمجموعه لا يلحق بمثنى غيره الذي هو أيضاً معتبر بمفرده ومجموعه فالأسماء المعربة ألحق مثناها بمفردها ومجموعها تقول : رجل ورجلان ، ورجال فهو معرب في الأحوال الثلاثة : يظهر الإعراب في مثناه ، كما ظهر في مفرده ومجموعه .

فتبين أن الذين قالوا : إن مقتضى العربية أن يقال : « إن هذين » ليس معهم بذلك نقل عن اللغة المعروفة في القرآن التي نزل بها القرآن بل هي أن يكون المثنى من أسماء الإشارة مبنياً في الأحوال الثلاثة على لفظ واحد كمفرد أسماء الإشارة ومجموعها وحينئذ فإن قيل : إن الألف هي ألف المفرد زيد عليها النون أو قيل : هي علم للتثنية وتلك حذفت ، أو قيل بل هذه الألف تجمع هذا ، وهذا معنى جواب ابن كيسان وقول الفراء مثله في المعنى ، وكذلك قول الجرجاني وكذلك قول من قال : إن الألف فيه تشبه ألف يفعلان ثم يقال : قد يكون الموصول كذلك كقوله ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُم ﴾ [2] فإن ثبت أن لغة قريش أنهم يقولون رأيت اللذين فعلا ، ومررت باللذين فعلا ، وإلا فقد يقال : هو بالألف في الأحوال الثلاثة ؛ لأنه اسم مبني ، والألف فيه بدل الياء في الذين ، وما ذكره الفراء وابن كيسان وغيرهما يدل على هذا ،

(١) سورة القصص آية رقم ٣٢ وتكملة الآية ﴿ الى فرعون وملئه ﴾

(٢) سورة النساء آية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً ﴾

فإن الفراء شبه هذا بالذين ، وتشبيه اللذان به أولى ، وابن كيسان علل بأن المبهم مبني لا يظهر فيه الإعراب فجعل مثناه كمفرده ومجموعه ، وهذا العلم يأتي في الموصول .

يؤيد ذلك أن المضمرات من هذا الجنس ، والمرفوع والمنصوب لها ضمير متصل ومنفصل، بخلاف المجرور فإنه ليس له إلا متصل ؛ لأن المجرور لا يكون إلا بحرف أو مضاف لا يقدم على عامله فلا ينفصل عنه فالضمير المتصل في الواحد الكاف من أكرمتك ومررت بك ، وفي الجمع أكرمتكم ومررت بكم ، وفي التثنية زيدت الألف في النصب والجر فيقال أكرمتكما ومررت بكما ، كما نقول في الرفع ففي الواحد والجمع فعلت وفعلتم ، وفي التثنية فعلتما بالألف وحدها زيدت علماً على التثنية في حال الرفع والتصب والجر كما زيدت في المنفصل في قوله « إياكما وأنتما » .

فهذا كله مما يبين أن لفظ المثنى في الأسماء المبنية في الأحوال الثلاثة نوع واحد : لم يفرقوا بين مرفوعه وبين منصوبه ومجروره كما فعلوا ذلك في الأسماء المعربة وأن ذلك في المثنى أبلغ منه في لفظ الواحد والجمع إذ كانوا في الضمائر يفرقون بين ضمير المنصوب والمجرور وبين ضمير المرفوع في الواحد والمثنى ، ولا يفرقون في المثنى وفي لفظ الإشارة والموصول ، ولا يفرقون بين الواحد والجمع وبين المرفوع وغيره ، ففي المثنى بطريق الأولى ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

فصل

ذكر شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية هذه المسألة في موضع آخر وذكر فيها هذا الاعتراض

وقد يعترض على ما كتبناه أولاً بأنه جاء أيضاً في غير الرفع بالياء كسائر الأسماء قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا رَبَّنَا أَرِنَا اللّذين أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِ وَالإِنْسِ ﴾ [1]

ولم يقل اللذان أضلانا .

كما قيل في الذين إنه بالياء في الأحوال الثلاثة وقال تعالى في قصة موسى ﴿ إِنِّي أُرِيْدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [2] ولم يقل هاتان و « هاتان » تبع لابنتي وقد يسمى عطف بيان وهو يشبه الصفة كقوله ﴿ وَإِلىٰ ثَمُوْدَ أَخَاهُمْ صَالِحَاً ﴾ [3]

لكن الصفة تكون مشتقة أو في معنى المشتق وعطف البيان يكون بغير ذلك كأسماء الأعلام وأسماء الإشارة ، وهذه الآية نظير قوله ﴿ إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَان ﴾ [4] وأما قوله ﴿ أَرِنَا اللّذين أَضَلَّانَا ﴾ [5] فقد يفرق بين اسم

---

(١) سورة فصلت آية رقم ٢٩ .

(٢) سورة القصص آية رقم ٢٧ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ .

(٤) سورة طه آية رقم ٦٣ .

(٥) سورة فصلت آية رقم ٢٩ .

الإشارة والموصول بأن اسم الإشارة على حرفين بخلاف الموصول فإن الاسم هو « اللذا » عدة حروف ، وبعده يزاد على الجمع فتكسر الذال وتفتح النون ، وعلم التثنية فتفتح الذال وتكسر النون والألف فقلت في النصب والجر ؛ لأن الاسم الصحيح إذا جمع جمع التصحيح كسر آخره في النصب وفي الجر ، وفتحت نونه ، وإذا ثني فتح آخره ، وكسرت نونه في الأحوال الثلاثة .

وهذا يبين أن الأصل في التثنية هي الألف وعلى هذا فيكون في إعرابه لغتان جاء بهما القرآن تارة يجعل كاللذان ، وتارة يجعل كاللذين ، ولكن في قوله ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ [1] .

كان هذا أحسن من قوله « هاتان » لما فيه من اتباع لفظ المثنى بالياء فيهما ، ولو قيل : هاتان لأشبه ، كما لو قيل « إن ابنتي هاتان فإذا جعل بالياء علم تابع مبين عطف بيان لتمام معنى الاسم ، لاخبر تتم به الجملة . وأما قوله ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ [2]

فجاء اسما مبتدأ : اسم إن ، وكان مجيئه بالألف أحسن في اللفظ من قولنا « إن هذين لساحران لأن الألف أخف من الياء ، ولأن الخبر بالألف فإذا كان كل من الاسم والخبر بالألف كان أتم مناسبة وهذا معنى صحيح ، وليس في القرآن ما يشبه هذا من كل وجه وهو الياء .

فتبين أن هذا المسموع والمتواتر ليس في القياس الصحيح ما يناقضه ، لكن بينهما فروق دقيقة والذين استشكلوا هذا إنما استشكلوه من جهة القياس ، لا من جهة السماع ، ومع ظهور الفرق يعرف ضعف القياس .

وقد يجيب من يعتبر كون الألف في هذا هو المعروف في اللغة بأن يفرق بين قوله ﴿ إِنْ هذان ﴾ وقوله ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ إن هذا تثنية مؤنث ،

---

(١) سورة القصص آية رقم ٢٧ .

(٢) سورة طه رقم ٦٣ .

وذاك تثنية مذكر ، والمذكر الفرد منه « ذا » بالألف ، فزيدت فوق نون للتثنية وأما المؤنث فمفرده« ذي » أو « ذه » أو ته وقوله ﴿ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ (١) تثنية تي بالياء ، فكان جعلها بالياء في النصب والجر أشبه بالمفرد بخلاف تثنية المذكر ، وهو « ذا ، فإنه بالألف ، فإقراره بالألف أنسب وهذا فرق بين تثنية المؤنث وتثنية المذكر . والفرق بينه وبين اللذين قد تقدم .

وحينئذ فهذه القراءة هي الموافقة للسماع والقياس ولم يشتهر ما يعارضها من اللغة التي نزل بها القرآن ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ إحدى ابنتي هاتين ﴾ هو كقول النبي ﷺ « من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا ، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الآدميون » (٢). ومثله في الموصول قول ابن عباس لعمر :أخبرني عن المرأتين اللتين قال الله فيهما : ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ ﴾(٣) الآية آخره والحمد لله وحده .

---

(١) سورة القصص آية رقم ٢٧ .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في المساجد ٧٨ ، والنسائي في المساجد ١٧ ـ وابن ماجه في الإقامة ٥٨ ، والأطعمة ٥٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٥ ، ٢٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة التحريم آية رقم ٤ روى الامام أحمد في مسنده حيث قال : ثنا عبد الرزاق أنا معمر عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن أبي ثور عن ابن عباس . قال لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ـ ﷺ اللتين قال الله تعالى : ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ﴾ حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالأداوة فتبرز ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ فقلت يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ـ ﷺ ـ اللتان قال الله تعالى ﴿ إن تتوبا إلى الله ﴾ فقال عمر : واعجبا لك يا بن عباس ، قال الزهري كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه قال : هي عائشة وحفصة قال ثم أخذ يسوق الحديث : قال : كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم : قال وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي . قال فغضبت يوماً على امرأتي فإذا هي تراجعني فأنكرت أن تراجعني فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ـ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم الى الليل . قال فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت أتراجعين رسول الله ـ ﷺ . . ؟ قالت : نعم . قلت : وتهجره =

سورة الأنبياء

فصل

وقال رحمه الله :

سورة الأنبياء : سورة الذكر ، وسورة الأنبياء الذين عليهم نزل الذكر ، افتتحها بقوله ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾[1] الآية .

وقوله : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وقوله ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا الَيْكُمْ كِتَاباً فِيْه ذِكرُكُمْ ﴾ [3] .

= إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت نعم. قلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت : لا تراجعي رسول الله - ﷺ ، ولا تسأليه شيئاً وسليني من مالي ما بدا لك ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم - أي أجمل - وأحب إلى رسول الله - ﷺ - منك - يريد عائشة - قال وكان لي جار من الأنصار ، وكنا نتناوب النزول الى رسول الله - ﷺ - ينزل يوماً وأنزل يوماً فيأتيني بخبر الوحي وغيره ، وآتيه بمثل ذلك قال : وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم ناداني فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم . فقلت وما ذاك أجاءت غسان . . ؟ قال لا بل أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله - ﷺ نساءه فقلت قد خابت حفصة وخسرت قد كنت أظن هذا كائناً الخ . وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري به وأخرجه الشيخان من حديث يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس .

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٢ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٤٣ والأنبياء آية رقم ٧ .

(٣) سورة الأنبياء آية رقم ١٠ .

وقوله ﴿ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾[1] .
وقوله ﴿ وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينْ ﴾[2] .
وقوله ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ ﴾[3] .
وقوله ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُوْرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾[4] .

وقوله ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾[5] يعني - والله أعلم - انصر أهل الحق . أو انصر الحق ، وقيل : افصل الحق بيننا وبين قومنا ، وكان الأنبياء يقولون ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالحَقِّ ﴾[6] . وأمر محمداً أن يقول ﴿ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾[7] .

وروى مالك عن زيد بن أسلم قال : كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالاً قال : ﴿ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾[8] .

---

(1) سورة الأنبياء آية رقم ٢٤ وتكملة الآية ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾ يعني أن كل الأنبياء جاؤوا بكلمة التوحيد . كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾

(2) سورة الأنبياء آية رقم ٤٨ والآية ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين ﴾ .

(3) سورة الأنبياء آية رقم ٥٠ .

(4) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٥ .

(5) سورة الأنبياء آية رقم ١١٢ وتكملة الآية ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ .

(6) سورة الأعراف آية رقم ٨٩ .

(7) سورة الأنبياء آية رقم ١١٢ .

(8) سورة الأنبياء آية رقم ١١٢ ﴿ واحكم بالحق ﴾ أي أفصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ وأمر رسول الله - ﷺ أن يقول ذلك . وعن مالك عن زيد بن أسلم - كان رسول الله - ﷺ - إذا شهد غزوة قال ﴿ رب احكم بالحق ﴾

سورة الحج

فصل

وقال الشيخ رحمه الله :

سورة الحج فيها مكي ومدني ، وليلي ونهاري ، وسفري وحضري ، وشتائي وصيفي ، وتضمنت منازل المسير إلى الله ، بحيث لا يكون منزلة ولا قاطع يقطع عنها ، ويوجد فيها ذكر القلوب الأربعة ، الأعمى والمريض والقاسي والمخبت الحي المطمئن إلى الله .

وفيها من التوحيد والحكم والمواعظ على اختصارها ما هو بين لمن تدبره ، وفيها ذكر الواجبات والمستحبات كلها توحيداً وصلاة وزكاة وحجاً وصياماً ، قد تضمن ذلك كله قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا ارْكَعُوْا وَاسْجدُوا وَاعْبُدُوْا رَبَّكُمْ وافْعَلُوْا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ** ﴾ (١) فيدخل في قوله ﴿ **وافعلوا الخير** ﴾ كل واجب ومستحب فخصص في هذه الآية وعمم ثم قال : ﴿ **وَجَاهِدُوْا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾ (٢) فهذه الآية وما بعدها لم تترك خيراً إلا جمعته ولا شراً إلا نفته .

---

(١) سورة الحج آية رقم ٧٧ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٧٨ تكملة الآية ﴿ **هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير** ﴾ . روى النسائي عند تفسير هذه الآية أنبأنا هشام بن عمار ، حدثنا محمد بن شعيب أنبأنا معاوية بن سلام أن أخاه زيد بن سلام أخبره عن أبي سلام أنه أخبره قال أخبرني الحارث

قال شيخ الإسلام : قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ (١) في أثناء آيات المعاد وعقبها بآية المعاد ثم اتبعه بقوله :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ﴾ (٢) فيه بيان حال المتكلمين وحال المتعبدين المجادلين بلا علم ، والعابدين بلا علم ، بل مع الشك لأن هذه السورة سورة الملة الابراهيمية الذي جادل بعلم وعبد الله بعلم ، ولهذا ضمنت ذكر الحج ، وذكر الملل الست .

فقوله يجادل في الله بلا علم ذم لكل من جادل في الله بغير علم وهو دليل على أنه جائز بالعلم ، كما فعل ابراهيم بقومه ، وفي الأولى ذم المجادل بغير علم ، وفي الثانية بغير علم ولا هدى ولا كتاب مغير .

وهذا والله أعلم من باب عطف الخاص على العام أو الانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، ليبين أن الذي يجادل بالكتاب أعلاهم ، ثم بالهدى فالعلم اسم

= الأشعري عن رسول الله - ﷺ - قال : « من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم » قال رجل : يا رسول الله وإن صام وإن صلى قام : نعم . وإن صام وصلى . فادعوا بدعوة الله التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله » .

(١) سورة الحج آية رقم ٣ - ٤ .

(٢) سورة الحج آية رقم ٨ - ١١ .

تكملة الآية ﴿ فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ .

قال البخاري : حدثنا ابراهيم بن الحارث ، حدثنا يحيى بن أبي بكير ، حدثنا اسرائيل عن أبي الحصين ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء » .

جامع ، ثم منه ما يعلم بـالدليـل القياس فهـو أدنى أقسامـه فيخص باسم العلم ويفرد ما عداه باسمه الخاص ، فإما معلوم بـالدليـل القياسي وهـو علم النظر ، وإما ما علم بالهداية الكشفية كما للمتحدثين وللمتفرسين ولسائر المؤمنين .

وهو الهدى . وإما ما نـزل من عند الله من الكتب وهـو أعلاهـا فأعـلاها العلم المـأثـور عن الكتب[1]. ثم كشـوف الأوليـاء [2] . ثم قيـاس المتكلمـين وغيرهم من العلماء [3] .

وقال : في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فَـإنْ أَصَابَـهُ خَيرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَة انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَة ذَلِـكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِينْ يَدْعُوْ مُنْ دُوْنِ الله مَا لاَ يَضُرُّه وَمَـا لاَ يَنْفَعُـهُ ذَلِكَ هُـوَ الضَّلالُ الْبَعِيْدُ . يَدْعُوْ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفعِهِ لَبِئْسَ المَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيْرُ ﴾ [4]

فـإن آخر هـذه الآية قـد أشكل عـلى كثير من النـاس كما قـال طائفـة من المفسـرين كالثعلبي والبغـوي واللفظ للبغوي قـال : هـذه الآيـة من مشكـلات القرآن وفيها أسئلة أولها :

---

(١) وأعلاها : الكتاب المحفوظ الذي قال الله تعالى فيه ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

(٢) الأولياء في نظر القرآن هم المؤمنون المتقون : كما قـال تعالى ﴿ **ألا إن أوليـاء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ وفيهم يقول الرسـول ـ ﷺ ـ إن يكـن **في امـتي محدثون فعمر منهم** .

(٣) وهم علماء الكلام الذين يعبدون مرة ويخطئون مرات .

(٤) سورة الحج آية رقم ١١ ـ ١٣ وفي الفتنة أقوال للمفسرين . فبعضهم اعتبر الفتنة : البلاء أي وإن أصابته أوجاع المدينة وولدت امرأته جارية ، وتـأخرت عنـه الصدقـة أتاه الشيـطان فقال والله ما أصبت منذ كنت على دينك هذا إلا شـراً وذلك الفتنـة ـ وهكذا ذكـر قتادة ، والضحـاك ، وابن جريج وغير واحد من السلف في تفسـير هذه الآيـة . وقال عبـد الرحمن بن زيـد بن أسلم : هو المنافق إن صلحت له دنياه . أقام عـلى العبادة وإن فسـدت عليه دنيـاه وتغيرت انقلب فـلا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه فإن أصابته فتنة أو شدة أو اختيار أو ضيق تـرك دينه ورجـع الى الكفر » .

قالوا : قد قال الله تعالى في الآية الأولى ﴿ يَدْعُوْ مِنْ دُوْنِ الله مَا لَا يُضُرُّه ﴾ أي : لا يضره ترك عبادته .

وقوله ﴿ لمن ضره ﴾ أي ضر عبادته قلت : هذا جواب .

وذكر صاحب الكشاف [(١)] جواباً غير هذا فقال : فإن قلت : الضر والنفع منتفيان عن الأصنام مثبتان لها في الآيتين ، وهذا تناقض .

قلت : إذا حصل المعنى ذهب هذا الوهم : وذلك أن الله سفه الكافر بأنه يعبد جماداً لا يملك ضراً ولا نفعاً ، وهو يعتقد فيه لجهله وضلاله . أنه يستشفع به ، حين يستشفع به ثم قام يوم القيامة هذا الكافر بدعاء وصراخ حين رأى استضراره بالأصنام ودخوله النار بعبادتها ، ولا يرى أثر الشفاعة التي ادعاها له ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيْرُ ﴾ [(٢)] أو كرر يدعو كأنه قال : ﴿ يَدْعُوْ مِنْ دُوْنِ الله مَا لَا يَضُرُّه وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ﴾ .

ثم قال : ﴿ لَمَنْ ضَرُّه ﴾ بكونه معبوداً ﴿ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ بكونه شفيعاً . ﴿ لَبِئْسَ الْمَوْلَى ﴾ .

قلت : فقد جعل ضره بكونه معبوداً ، وذكر تضرره بذلك ، وفي الآخرة .

وقد قال السدي [(٣)] ما يتضمن الجوابين في تفسيره المعروف قال : ﴿ ما لا

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، جار الله أبو القاسم من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب ، ولد في زمخشر عام ٤٦٧ هـ وسافر إلى مكة فجاور بها زمناً فلقب بجار الله ، وتنقل في البلدان ثم عاد الى الجرجانية فتوفي بها عام ٥٣٨ هـ من أشهر كتبه « الكشاف » في تفسير القرآن ، وأساس البلاغة ، والمفصل ، ورؤوس المسائل والمتقى من شرح شعر المتنبي للواحدي ، ونكت الاعراب في غريب الأعراب ، وغير ذلك كثير . [راجع وفيات الأعيان ٣ : ٨١ وإرشاد الأريب ٧ : ١٤٧ ولسان الميزان ٦ : ٤ ومفتاح السعادة ١ : ٤٣١ والفهرس التمهيدي ٢٥٩ - ٣٠٣]

(٢) سورة الحج آية رقم ١٣ .

(٣) سبق الترجمة له .

يضره ﴾ قال : لا يضره إن عصاه . ﴿ وما لا ينفعه ﴾ قال : لا ينفعه الصنم إن أطاعه . ﴿ يَدْعُوْ لَمَنْ ضَرُّهُ ﴾ قال : ضره في الآخرة من أجل عبادته إياه في الدنيا .

قلت : وهذا الذي ذكر من الجواب كلام صحيح ، لكن لم يبين فيه وجه نفي التناقض .

فنقول : قوله « ما لا يضره وما لا ينفعه » هو نفي لكون المدعو المعبود من دون الله يملك نفعاً أو ضراً وهذا يتناول كل ما سوى الله من الملائكة والبشر والجن والكواكب والأوثان كلها [1] ، فإنما سوى الله لا يملك لا لنفسه ولا لغيره ضراً ولا نفعاً ، كما قال تعالى في سياق نهيه عن عبادة المسيح .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوْا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيْحُ ابنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ المَسِيْحُ يَا بَنِي اسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [2] .

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِيْنَ قَالُوْا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَة وَمَا مِنْ إِلٰهٍ إِلا إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوْا عَمَّا يَقُوْلُوْنَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ ، أَفَلَا يَتُوْبُوْنَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ * مَا الْمَسِيْحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلا رَسُوْلٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُوْنَ قُلْ أَتَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَاللهُ هُوَ السَّمِيْعُ العَلِيْمُ ﴾ [3] وقد قال لخاتم الرسل : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا

---

(١) وهذه هي الأشياء التي كانت تعبد من دون الله ـ قال تعالى ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .
وقال عن الأصنام : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ﴾

(٢) سورة المائدة آية رقم ٧٢ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧٣ ـ ٧٦ .

رَشدا ﴾ (١) .

وقال على العموم : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾

وقال ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (٢) وقال ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ، قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُوْنَ ﴾ (٣) وقال صاحب يس :

﴿ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِيْنٍ . إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُوْنِ ﴾ (٤).

وقوله ﴿ يَدْعُوْ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ (٥) وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ﴾ نفي علم كما في قوله : ﴿ وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ﴾ (٦) فهو لا يقدر أن يضر أحداً سواء عبده أو لم يعبده ولا ينفع أحداً سواء عبده أو لم يعبده ، وقول من قال : لا ينفع إن عبد ولا يضر إن لم يعبد بيان لانتفاء الرغبة والرهبة من جهته بخلاف الرب الذي يكرم عابديه ، ويرحمهم ، ويهين من لم يعبده ويعاقبه .

والتحقيق أنه لا ينفع ولا يضر مطلقاً فإن الله سبحانه وسعت رحمته كل شيء وهو ينعم على كثير من خلقه وإن لم يعبدوه .

---

(١) سورة الجن آية رقم ٢١ .
(٢) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .
(٣) سورة الزمر آية رقم ٣٨ .
(٤) سورة يس آية رقم ٢٢ ـ ٢٥ .
(٥) سورة الحج آية رقم ١٢ .
(٦) سورة طه آية رقم ٨٩ .

فنفعـه للعبـاد لا يختص بعـابديـه ، وإن كـان في هـذا تفصيل ليس هـذا موضعه ، وما دونه لا ينفع لا من عبده ولا من لم يعبده ، وهو سبحـانه الضـار النافع ، قادر على أن يضر من يشاء ، وإن كان ما ينزلـه من الضر بعـابديـه هو رحمة في حقهم ، كما قال أيوب ﴿ مَسَّنِي الْضُّـر وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ ﴾ (٢) .

وقال أيضاً لرسوله محمد ﷺ : ﴿ قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَراً إلاَّ مَـا شَـاءَ الله ﴾ (٣) وقـال تعـالى ﴿ وَالصَّـابِـرِيْنَ فِي البَـأْسَـاءِ والضَّـــراءِ وَحِيْنَ الْبَأْسِ ﴾ (٤) .

وهـو سبحـانـه يحدث مـا يحـدثـه من الضـرر بمن لا يـوصف بمعصيـة من الأطفـال والمجانـين والبهائم ، لمـا في ذلك من الحكمـة والنعمة والـرحمة كـما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

فإن المقصود هنا أن نفي الضر والنفع عمن سواه عام لا يجب أن يخص هذا بمن عبده ، وهذا بمن لم يعبده ، وإن كـان هذا التخصيص حقـاً باعتبـار صحيح ، وجواب من أجاب بأن معناه لا يضر ترك عبادته وضره بعبـادته أقـرب من نفعه مبني على هذا التخصيص.

وإذا كان كذلك فنقول : المنفي قدرة من سواه على الضر والنفع .

---

(١) سورة الأنبياء آية رقم ٨٣ .

(٢) سورة يونس آية رقم ١٠٧ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٨٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٧٧ وأول الآية ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغـرب ، ولكن البر من آمن بالله واليـوم الآخر والمـلائكة والكتـاب والنبيين وآتى المال على حبـه ذوي القـربى واليتامى والمسـاكين وابن السبيل والسـائلين وفي الرقـاب وأقام الصلاة وآتى الـزكـاة والمـوفون بعهـدهم إذا عاهـدوا والصابـرين في البأسـاء والضراء وحين البـأس أولئك الـذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

وأما قوله ﴿ ضره أقرب من نفعه ﴾ فنقول أولاً : المنفي هو فعلهم بقوله ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ﴾ والمثبت اسم مضاف إليه فإنه لم يقل : يضر أعظم مما ينفع ، بل قال : ﴿ لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ﴾ والشيء يضاف إلى الشيء بأدنى ملابسة فلا يجب أن يكون الضر والنفع المضافين من باب إضافة المصدر إلى الفاعل ، بل قد يضاف المصدر من جهة كونه اسماً كما تضاف سائر الأسماء وقد يضاف إلى محله وزمانه ومكانه ، وسبب حدوثه وإن لم يكن فاعلاً كقوله ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾[1] ولا ريب أن بين المعبود من دون الله وبين ضرر عابديه تعلق يقتضي الإضافة ، كأنه قيل : لمن شره أقرب من خيره ، وخسارته أقرب من ربحه فتدبر هذا .

ولو جعل هو فاعل الضر بهذا ؛ لأنه سبب فيه لا لأنه هو الذي فعل الضرر ، وهذا كقول الخليل عن الأصنام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾[2] .

فنسب الإضلال إليهن ، والإضلال هو ضرر لمن أضللته .

وكذلك قوله ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[3] وهذا كما يقال : أهلك الناس الدرهم والدينار وأهلك النساء الأحمران الذهب والحرير . وكما يقال

---

(١) سورة سبأ آية رقم ٣٣ وتكملة الآية ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم ٣٦ .

قال عبدالله بن وهب : حدثنا عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدثه عن عبد الرحمن بن جرير عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ـ ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ الآية وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : اللهم أمتي ، اللهم أمتي ، اللهم أمتي ، وبكى فقال الله اذهب يا جبريل إلى محمد وربك أعلم ـ وسله ما يبكيك . . ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ ما قال فقال الله : اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك » .

(٣) سورة هود آية رقم ١٠١ .

للمحبوب المعشوق الذي تضر محبته وعشقه إنه عذب هذا وأهلكه وأفسده وقتله وعثره وإن كان ذاك المحبوب قد لا يكون شاعراً بحال هذا البتة ، وكذلك يقال في المحسود : إنه يعذب حاسدية وإن كان لا شعور له بهم . وفي الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبي ﷺ أنه قال «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم»[1] ، فجعل الدنيا المبسوطة هي المهلكة لهم ، وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها ، وإن كانت مفعولاً بها لا اختيار لها ، فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذي لم يأمر بعبادة نفسه إما لكونه جماداً ، وإما لكونه عبداً مطيعاً لله من الملائكة والأنبياء والصالحين من الإنس والجن ، فما يدعى من دون الله هو لا ينفع ولا يضر ، لكن هو السبب في دعاء الداعي له وعبادته إياه ، وعبادة ذاك ودعاؤه هو الذي ضره ، فهذا الضر المضاف إليه غير الضر المنفى عنه ، فضرر العابد له بعبادته يحصل في الدنيا والآخرة .

وإن كان عذاب الآخرة أشد ، فالمشركون الذين عبدوا غير الله حصل لهم بسبب شركهم بهؤلاء من عذاب الله في الدنيا ما جعله الله عبرة لأولي الأبصار .

---

(١) الحديث رواه البخاري في الجهاد (كتاب الجزية والموادعة) باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة ٣١٥٨ ـ حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، قال حدثني عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة أنه أخبره أن عمرو بن عوف الأنصاري ـ وهو حليف لبني عامر بن لؤي ، وكان شهدبدراً أخبره أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء الحضرمي فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافقت صلاة الصبح مع النبي ـ ﷺ ـ فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ ـ حين رآهم وقال : أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء قالوا : أجل يا رسول الله . قال أبشروا وأملوا ما يسركم وذكره . ورواه مسلم في الزهد ٦ والترمذي في القيامة ٢٨ ، وابن ماجه في الفتن ١٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ :١٣٧ (حلبي) .

قال الله تعالى ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَـائِمٌ وَحَصِيْدٌ . وَمَـا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُـوْا أَنْفُسَهُمْ فَمَـا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَـدْعُـونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوْهُم غَيْرَ تَتْبِيْبٍ ﴾ [1] .

فبين أنهم لم تنفعهم بل ما زادتهم إلا شراً . وقد قيـل في هذا كمـا قيل في الضـر ، قيل : مـا زادتهم عبادتهـا ، وقيل : إنهـا في القيامـة تكون عـونـاً عليهم فتزيدهم شراً ، وهذا كقوله :

﴿ وَاتَّخذُوْا مِنْ دُوْنِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُـوْنُوْا لَهُمْ عِـزّاً كَلَّا سَيَكْفُـرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُوْنُوْنَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ [2] .

والتتبيب عبر عنه الأكثرون بأنه التخير ، كقـوله تعـالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [3] . وقيل : التتبير والإهلاك .

وقيل : ما زادوهم إلا شراً .

وقوله ﴿ فَمَـا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُم الَّتِي يَدعُـون مِنْ دُوْن اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّك وَمَا زَادُوْهُـمْ غَيْرَ تَتْبِيْبٍ ﴾ [4] .

فعل ماض يدل على أن هذا كان في الدنيا ، وقد يقال : فالشـر كله من جهتهم فلم قيل : فما زادوهم ؟ فيقـال : بل عـذبوا على كفـرهم بالله ولـو لم يعبـدوهم فلما عبـدوهم مع ذلـك ازدادوا بذلـك كفراً وعـذاباً فمـا زادوهم إلا خسارة وشراً ، ما زادوهم ربحاً وخيراً .

---

(١) سورة هود الآيات ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٨١ ـ ٨٢ .

(٣) سورة المسد آية رقم ١ .

(٤) سورة هود آية رقم ١٠١ قال مجاهد وقتـادة وغيرهمـا أي غير تخسيـر وذلك أن سبب هـلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .

سورة المؤمنون

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى

في قوله ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّم وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُوْنَ ﴾ (١) .

طال الفصل بين أن واسمها وخبرها ، فأعاد ﴿ أن ﴾ لتقع على الخبر لتأكيده بها ، ونظير هذا قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَعلَمُوْا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ الله وَرَسُوْلَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (٢) .

لما طال الكلام أعاد ﴿ أن ﴾ . .

هذا قول الزجاج وطائفة .

وأحسن من هذا أن يقال : كل واحدة من هاتين الجملتين جملة شرطية مركبة من جملتين جزئيتين فأكدت الجملة الشرطية « بأن » على حد تأكيدها في قول الشاعر

إنَّ من يدخل الكنيسة يوماً   يلق فيها جآذراً وظباءً

ثم أكدت الجملة الجزائية بأن إذ هي المقصودة على حد تأكيدها في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِينَ ﴾ (٣) ونظير الجمع بين تأكيد الجملة الكبرى المركبة من الشرط والجزاء وتأكيد جملة الجزاء قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ الله لاَ يُضِيعُ

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٦٣ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٧٠ .

أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١) ﴾ فلا يقال في هذا إن أعيدت لطول الكلام ، ونظيره قوله تعالى ﴿ أَنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّه مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيْهَا وَلاَ يَحْيَىٰ ﴾ (٢) .

ونظيره ﴿ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ ﴾ (٣) .

فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين ألا ترى تأكيد قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيْمٌ ﴾ بـ ﴿ أن ﴾ غير تأكيد « من عمل سوءاً بجهالة فأنه غفور رَحِيْمٌ » له بـ ﴿ أنَّ ﴾ وهذا ظاهر لا خفاء به وهو كثير في القرآن وكلام العرب . وأما قوله تعالى ﴿ وَمَا كَان قَوْلَهُم إلاَّ أَنْ قَالُوْا رَبَّنَا اغْفِر لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ (٤) .

فهذا ليس من التكرار في شيء ، فإن قولهم خبر « كان » قدم على اسمها ، و﴿ أَنْ قَالُوْا ﴾ في تأويل المصدر ، فهما اسم كان وخبرها . والمعنى : وما كان لهم قول إلا قول ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ (٥) .

ونظير هذا قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَنْ قَالُوْا ﴾ (٦) .

والجواب قول ، وتقول : ما لفلان قول إلا قول لا حول ولا قوة إلا بالله » فلا تكرار أصلاً وأما قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّل عَلَيْهِم مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِيْنَ ﴾ (٧) .

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٩٠ .
(٢) سورة طه آية رقم ٧٤ .
(٣) سورة الأنعام آية رقم ٥٤ .
(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .
(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .
(٦) سورة الأعراف آية رقم ٨٢ .
(٧) سورة الروم آية رقم ٤٩ .

فهي من أشكل ما أورد ، ومما أعضل على الناس فهمها .

فقال كثير من أهل الأعراب والتفسير : إنه على التكرير المحض والتأكيد .

قال الزمخشري ﴿ من قبله ﴾ من باب التوكيد كقوله تعالى ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُما فِي النَّارِ خَالِدِيْنَ فِيْهَا ﴾ (١) .

ومعنى التوكيد فيه : الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول وبعد ، فاستحكم بأسهم ، وتمادى إبلاسهم ، فكان الاستبشار بذلك على قدر اهتمامهم بذلك .

هذا كلامه ، وقد اشتمل على دعوتين باطلتين : إحداهما : قوله : إنه من باب التكرير . والثانية تمثيله ذلك بقوله تعالى ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِيْنَ فِيْهَا ﴾ (٢) فإن ﴿ في ﴾ الأولى على حد قولك : زيد في الدار ، أي حاصل ، أو كائن .

وأما الثانية : فمعمولة للخلود وهو معنى آخر غير معنى مجرد الكون ، فلما اختلف العاملان ذكر الحرفين ، فلو اقتصر على أحدهما كان من باب

---

(١) سورة الحشر آية رقم ١٧ وتكملة الآية ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ ويقال : إن جريجاً الراهب العابد اتهمته امرأة بغي بنفسها وادعت أن حملها منه ، ورفعت أمرها إلى ولي الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : مالكم مالكم . . ؟ قالوا : يا عدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال يا غلام من أبوك . . ؟ قال أبي الراعي وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا نعيد صومعتك من ذهب قال : لا بل أعيدوها من طين كما كانت وقوله تعالى ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ أي فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين .

(٢) سورة الحشر آية رقم ١٧ .

الحذف لدلالة الآخر عليه ، ومثل هذا لا يقال له تكرار .

ونظير هذا أن تقول : زيد في الدار نائم فيها أو ساكن فيها ونحوه ، مما هو جملتان مقيدتان بمعنيين .

وأما قوله ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ [1] فليس من التكرار بل تحته معنى دقيق .

والمعنى فيه : وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم الودق من قبل هذا النزول لمبلسين ، فهنا قبليتان ، قبلية لنزوله مطلقاً ، وقبلية لذلك النزول المعين أن لا يكون متقدماً على ذلك الوقت ، فيئسوا قبل نزوله يأسين ، يأساً لعدمه مرئياً ، ويأساً لتأخره عن وقته ، فقبل الأولى ظرف لليأس ، وقبل الثاني ظرف المجيء والإنزال .

ففي الآية ظرفان معمولان وفعلان مختلفان عاملان فيهما ، وهما الإنزال والإبلاس ، فأحد الظرفين متعلق بالإبلاس ، والثاني متعلق بالنزول وتمثيل هذا : أن تقول ـ إذا كنت معتاداً للعطاء من شخص فتأخر عن ذلك الوقت ثم أتاك به : قد كنت آيسا .

---

(١) سورة الروم آية رقم ٤٩ .

سورة النور

قال الشيخ الرباني ، والصديق الثاني إمام الأئمة ، ومفتي الأمة ، وبحر العلوم وبدر النجوم ، وسند الحفاظ ، وفارس المعاني والألفاظ ، وفريد العصر ، وأوحد الدهر وشيخ الإسلام ، وإمام الأئمة الأعلام وعلامة الزمان، وترجمان القرآن وعلم الزهاد ، وأوحد العباد وقامع المبتدعين ، وآخر المجتهدين البحر الزاخر ، والصارم الباتر ، أبو العباس تقي الدين أحمد بن شهاب الدين أبي المحاسن ، عبد الحليم بن شيخ الاسلام مجد الدين أبي البركات ، عبد السلام بن محمد عبدالله بن أبي القاسم الخضر بن محمد الخضر علي بن عبدالله .بن تيمية الحراني .

قدس الله روحه ، ونور ضريحه ورحمه، ورضي عنه وأرضاه :

فصْل
في معان مستنبطة من سورة النور

قال تعالى ﴿ سُوْرَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيْهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُوْنَ ﴾ (١) .

ففرضها بالبينات والتقدير لحدود الله التي من يتعد حلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه ، ومن قرب من حرامها فقد اعتدى وتعدى الحدود ، وبين فيها فريضة الشهادة على الزنا ، وأنها أربع شهادات وكذلك فريضة شهادة المتلاعنين كل منهما يشهد أربع شهادات بالله ، ونهى فيها عن تعدي حدوده في الفروج والأعراض والعورات وطاعة ذي السلطان سواء كان في منزله أو في ولايته ولا يخرج ولا يدخل إلا بإذنه ، إذ الحقوق نوعان : نوع لله فلا يتعدى حدوده ، ونوع للعباد فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك ، وليس لأحد أن يفعل

---

(١) سورة النور آية رقم ١ ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبيدالله بن عبدالله بن عتبة ابن مسعود عن أبي هريرة ، وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله - ﷺ - فقال أحدهما : يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفاً - يعني أجيراً - على هذا فزنا بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وإن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله - ﷺ - والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى : الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام . واغد يا أنيس - لرجل من أسلم - إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فرجمها » .

شيئاً في حق غيره إلا بإذن الله ، وإن لم يأذن المالك فإذن الله هو الأصل ، وإذن المالك حيث أذن الله وجعل له الإذن فيه . ولهذا ضمنها الاستئذان في المساكن والمطاعم والاستئذان في الأمور الجامعة كالصلاة والجهاد ونحوهما ، ووسطها بذكر النور الذي هو مادة كل خير ، وصلاح كل شيء ، وهو ينشأ عن امتثال أمر الله ، واجتناب نهيه ، وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء ، فإن حفظ الحدود بتقوى الله يجعل الله لصاحبه نوراً كما قال تعالى ﴿ اتَّقُوا الله وَآمِنُوْا بِرَسُوْلِه يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِه وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوْراً تَمْشُوْنَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (١) فضد النور الظلمة ، ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين فيها بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال ، فقال :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوْا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيْعَةٍ ﴾ إلى قوله ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاها وَمَنْ لَمْ يَجْعلِ الله لَهُ نُوْراً فَمَا لَهُ مِنْ نُوْرٍ ﴾ (٢) .

وكذلك الظلم ظلمات يوم القيامة ، وظلم العبد نفسه من الظلم ، فإن للسيئة ظلمة في القلب وسواداً في الوجه ، ووهناً في البدن ، ونقصاً في الرزق ، وبغضاً في قلوب الخلق كما روي ذلك عن ابن عباس .

يوضح ذلك أن الله ضرب مثل إيمان المؤمنين بالنور، ومثل أعمال الكفار

---

(١) سورة الحديد آية رقم ٢٨ قال سعيد بن جبير لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى عليه هذه الآية في حق هذه الأمة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين (أي ضعفين) من رحمته وزادهم ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني هدى .
وفي رواية النسائي عن ابن عباس أنه حمل هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية التي في القصص ، وكما في حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - ﷺ - ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » [أخرجاه في الصحيحين] .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٩ - ٤٠ .

بالظلمة .

و« الإيمان » اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه و« الكفر » اسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه ، وإن كان لا يكفر العبد إذا كان معه أصل الإيمان ، وبعض فروع الكفر من المعاصي ، كما لا يكون مؤمناً إذا كان معه أصل الكفر وبعض فروع الإيمان ولغض البصر اختصاص بالنور ـ كما سنذكر إن شاء الله تعالى ـ وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إن العبد إذا أذنب نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه فذلك « الرَّان » الذي ذكر الله ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوْبِهِمْ مَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ** ﴾ رواه الترمذي وصححه [1] . وفي الصحيح أنه قال « إنه ليغان [2] على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » [3] والغين حجاب رقيق أرق من الغيم ، فأخبر أنه يستغفر الله استغفاراً يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء كما أن النكتة السوداء إذا أزيلت لا تصير ريناً وقال حذيفة : إن الإيمان يبدو في القلب لمظة بيضاء ، فكلما ازداد العبد إيماناً

---

(١) الحديث عند الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٣١ ، والامام الترمذي في التفسير سورة ٨٣ عن طريق محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة ـ عن النبي ـ ﷺ ، وقال الترمذي حسن صحيح ولفظ النسائي : إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكت في قلبه نكتة سوداء فإن هو نزع واستغفر وتاب وصقل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه فهو الران الذي قال الله تعالى ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ وعند أحمد : حدثنا صفوان بن علية أخبرنا ابن عجلان عن القعقاع بن حكيم عن أبي صالح عن أبي هريرة وذكره .

(٢) الرين يعتري قلوب الكافرين ، والغيم للأبرار والغين للمقربين .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ١٢ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٤١ ـ (٢٧٠٢) حدثنا يحيى بن يحيى وقتيبة بن سعيد وأبو الربيع العتكي جميعاً عن حماد قال : يحيى أخبرنا حماد بن زيد عن ثابت عن أبي بردة عن الأغر المزني وكانت له صحبة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : وذكره . ورواه أبو داود في الوتر ٢٦ .

ازداد قلبه بياضاً فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرأيتموه أبيض مشرقاً وإن النفاق يبدو منه لمظة سوداء فكلما ازداد العبد نفاقاً ازداد قلبه سواداً ، فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه أسود مربداً .

وقال ﷺ « إن النور إذا دخل القلب انشرح وانفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة يا رسول الله ؟ قال : نعم ، التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله » . وفي خطبة الإمام أحمد التي كتبها في الرد على الجهمية والزنادقة قال :

الحمدلله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويبصرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من ضال تائه حيران قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله ، وفي الله وفي كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ، نعوذ بالله من شبه المضلين .
قلت : وقد قرن الله سبحانه في كتابه في غير موضع بين أهل الهدى والضلال ، وبين أهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا ، كقوله تعالى ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيْرُ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّوْرُ وَلاَ الظِّلُ وَلاَ الحَرُوْرُ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ** ﴾ (١) وقال ﴿ **مَثَلُ الفَرِيْقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصمِّ**

---

(١) سورة فاطر الآيات ١٩ ـ ٢١ هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين وهم الأحياء وللكافرين وهم الأموات كقوله تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله =

والبصير والسميع ﴾ (1) الآية . وقال في المنافقين ﴿ مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِي استوقَدَ نَاراً ﴾ (2) الآيات .

وقال ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِيْنَ آمَنُوْا ﴾ (3) الآية وقال ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (4) والآيات في ذلك كثيرة . وهذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده يظهر في الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ نُوْرُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ (5) الآية . فذكر النور هنا عقيب أمره بالتوبة ، كما ذكره في سورة النور عقيب أمره بغض البصر ، وأمره بالتوبة في قوله ﴿ وَتُوْبُوْا إِلَى اللهِ جَمِيْعاً أَيُّها المُؤْمِنُوْنَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾ (6) .

وذكر ذلك بعد أمره بحقوق الأهلين والأزواج وما يتعلق بالنساء .

وقال في سورة الحديد ﴿ يَوْمَ تَرَى المُؤْمِنِيْنَ والمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيْهِم وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ (7) الآيات إلى قوله في المنافقين . ﴿ مَأْوَاكُم النَّارُ

= في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ . وقال عز وجل غير ذلك في كثير من الآيات .

(1) سورة هود آية رقم ٢٤ .

(2) سورة البقرة آية رقم ١٧ وتكملة الآيات ﴿ فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾

(3) سورة البقرة آية رقم ٢٥٧ وتكملة الآية ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(4) سورة ابراهيم آية رقم ١ .

(5) سورة التحريم آية رقم ٨ وتكملة الآية ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ .

(6) سورة النور آية رقم ٣١ .

(7) سورة الحديد آية رقم ١٢ وتكملة الآية ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيْرُ ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذي كان المؤمنون يمشون به ويطلبون الاقتباس من نورهم فيحجبون عن ذلك بحجاب يضرب بينهم وبين المؤمنين ، كما أن المنافقين لما فقدوا النور في الدنيا كان ﴿ مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُوْرِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ لَا يُبْصِرُوْنَ ﴾ (٢) فقوله تعالى ﴿ الزَّانِيَةُ والزَّانِي ﴾ (٣) الآية فأمر بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين وذلك بشهادته على نفسه ، أو بشهادة المؤمنين عليه لأنَ المَعْصِيَةَ إذا كَانَتْ ظَاهرة كانت عقوبتها ظاهرة ، كما جاء في الأثر « مَنْ أذنب سراً فليتب سراً ، ومن أذنب علانية فليتب علانية » .

وليس من الستر الذي يحبه الله تعالى ، كما في الحديث من ستر مسلماً ستره الله (٤) ـ بل ذلك إذا ستر كان ذلك إقراراً لمنكر ظاهر .

---

(١) سورة الحديد آية رقم ١٥ وأول الآية ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٧ .

(٣) سورة النور آية رقم ٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب المظالم ٣ لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه ، ٢٤٤٢ ـ حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب أن سالماً أخبره أن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما أخبره أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ـ ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » ورواه الإمام مسلم في البر ٥٨ ، ٧٢ والذكر ٣٨ ، وأبو داود في الأدب ٣٨ ، ٦٠ والترمذي في الحدود ٣ والبر ١٩ والقرآن ١٠ وابن ماجه في المقدمة ١٧ ٠ والحدود ٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٩١ ، ٢٥٢ ، ٢٩٦ ، ٣٨٩ ، ٤٠٤ ، ٥٠٠ ، ٥١٤ (حلبي) .

وفي الحديث « إن الخطيئة إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة ، فإذا أعلنت أعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن .

ولهذا لم يكن للمعلن بالبدع والفجور غيبة ، كما روي ذلك عن الحسن البصري وغيره ، لأنه لما أعلن ذلك استحق عقوبة المسلمين له ، وأعلن ذلك أن يذم عليه لينزجر ويكف الناس عنه وعن مخالطته ، ولو لم يذم ويذكر بما فيه من الفجور والمعصية أو البدعة لاغتر به الناس ، وربما حمل بعضهم على أن يرتكب ما هو عليه ، ويزداد أيضاً هو جرأة وفجوراً ومعاصي ، فإذا ذكر بما فيه انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته ومخالطته .

قال الحسن البصري : أترغبون عن ذكر الفاجر ؟ أذكروه بما فيه كي يحذره الناس » وقد روي مرفوعاً .

و« الفجور » اسمع جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله .

ولهذا كان مستحقاً للهجرة إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجوراً أو تهتكاً أو مخالطة لمن هذا حاله بحيث لا يبالي بطعن الناس عليه فإن هجره نوع تعزير له فإذا أعلن السيئات أعلن هجره ، وإذا أسر أسر هجره إذ الهجرة هي الهجرة على السيئات ، وهجرة السيئات هجرة ما نهى الله عنه ، كما قال تعالى ﴿ **والرُّجْزَ فَاهْجُرْ** ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ **وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيْلاً** ﴾ (٢) . وقال ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهزأ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوْضُوْا فِي حَدِيْثٍ غَيْره إنَّكُمْ إذاً مِثْلُهُمْ** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المدثر آية رقم ٥ .

(٢) سورة المزمل آية رقم ١٠ .

(٣) سورة النساء آية ١٤٠ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم معهم في المكان [=

وقد روي عن عمر بن الخطاب أن ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر ، وذهب به أخوه إلى أمير مصر عمرو بن العاص ليجلده الحد ، جلده الحد سراً ، وكان الناس يجلدون علانية ، فبعث عمر بن الخطاب إلى عمرو ينكر عليه ذلك ، ولم يعتد عمر بذلك الجلد حتى أرسل إلى ابنه فأقدمه المدينة فجلده الحد علانية ولم ير الوجوب سقط بالحد الأول ، وعاش ابنه بعد ذلك مدة ثم مرض ومات ولم يمت من ذلك الجلد ولا ضربه بعد الموت ، كما يزعمه الكذابون .

= الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فلهذا قال تعالى ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ في المأثم كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » .

فصل
في عدم الرأفة في إقامة الحدود

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَأْخُذكمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ الله ﴾ [1] الآية نهى تعالى عما يأمر به الشيطان في العقوبات عموماً ، وفي أمر الفواحش خصوصاً ، فإن هذا الباب مبناه على المحبة والشهوة والرأفة التي يزينها الشيطان بانعطاف القلوب على أهل الفواحش والرأفة بهم ، حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الرأفة في الديانة وقلة الغيرة إذا رأى من يهوى بعض المتصلين به أو يعاشره عشرة منكرة ، أو رأى له محبة أو ميلاً وصبابة وعشقاً ، ولو كان ولده رأف به ، وظن أن هذا من رحمة الخلق ولين الجانب بهم ، ومكارم الأخلاق وإنما ذلك دياثة ومهانة وعدم دين وضعف إيمان وإعانة على الإثم والعدوان وترك للتناهي عن الفحشاء والمنكر .

---

(١) سورة النور آية رقم ٢ قال الإمام ابن كثير : إقامة الحدود إذا رفعت الى السلطان فتقام ولا تعطل وكذا روي عن سعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وقد جاء في الحديث « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب ، وفي الحديث الآخر : لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحاً .
وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن عبدالله الأودي ، حدثنا وكيع عن نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عبيدالله بن عبدالله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها . قال نافع أراه قال ظهرها . قال: قلت ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ﴾ قال : يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة إن الله لم يأمرني أن أقتلها ولا أن أجعل جلدها في رأسها وقد أوجعت حين ضربتها » .

وتـدخل النفس بـه في القيـادة التي هي أعـظم الـديـاثـة ، كمـا دخلت عجوز (١) السوء مع قومها من استحسان ما كانـوا يتعاطـونه من إتيـان الذكـران والمعاونة لهم على ذلك ، وكانت في الظاهر مسلمـة على دين زوجها لـوط ، ومن الباطن منافقة على دين قومها ، لا تقلى عملهم كما قلاه لوط ، فإنه أنكره ونهاهم عنه وأبغضه ، وكما فعل النسوة اللواتي بمصر مع يوسف ، فإنهن أعن امـرأة العزيـز على ما دعتـه إليه وذلـك بعد قـولهن ﴿ إِنَّـا لَنَـرَاهَـا فِي ضَـلَالٍ مُبِيْنٍ ﴾ (٢) ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب ، فإن الشهـوة توجب السكر ، كما قال تعالى عن قوم لوط ﴿ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُوْنَ ﴾ (٣) .

وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حـديث أبي هـريـرة عن النبي ﷺ قال : « العينان تزنيان وزناهما النظر »(٤) الحديث إلى آخره .

فكثـير من الناس يكـون مقصوده بعض هـذه الأنواع المـذكورة في هـذا الحـديث كـالنـظر والاستمتـاع والمخـاطبـة ، ومنهم من يـرتقي إلى اللمس والمباشرة ، ومنهم من يقبل وينظر وكل ذلك حـرام وقد نهـانا الله عـز وجل أن

---

(١) يقصد بها زوجة لوط عليه السلام قال تعالى : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣٠ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٧٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الاستئذان ١٢ بـاب زنا الجـوارح دون الفرج ٦٣٤٣ ـ حـدثنا سفيان عن ابن طاوس ، عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لم أر شيئـاً أشبه باللمم من قول أبي هريرة . .) وحدثني محمود أخبرنا عبد الـرزاق أخبرنـا معمر عن ابن طـاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ـ ﷺ ـ إن الله كتب على ابن آدم حـظه من الزنـا أدرك ذلك لا محـالـة ، فـزنـا العين النـظر ، وزنـا اللسـان المنطق ، والنفس تتمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه » . ورواه أيضـاً في القدر ٩ ورواه الامـام مسلم في القـدر ٢٠ ، ٢١ والامـام أحمـد بن حنبـل في المسنـد ٢ : ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٩ ، ٤١١ ، ٤٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ (حلبي) .

تأخذنا بالزناة رأفة بل نقيم عليهم الحد فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك ؟!

بل ينبغي شنآن الفاسقين وقليهم على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره وذلك أن المحب العاشق وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة ذلك المحبوب وكلامه فليس دواؤه في أن يعطي نفسه محبوبها وشهوتها من ذلك ، لأنه مريض ، والمريض إذا اشتهى ما يضره ، أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رأفة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعناه على ما يضره أو يهلكه وعلى ترك ما ينفعه ، فيزداد سقمه فيهلك ، وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض ، فليس الرأفة به والرحمة أن يمكن مما يهواه من المحرمات ، ولا يعان على ذلك ، ولا أن يمكن من ترك ما ينفعه من الطاعات التي تزيل مرضه قال تعالى ﴿ **إِنَّ الصلاةَ تَنْهَى عَنْ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ** ﴾ (١) أي فيها الشفاء وأكبر من ذلك .

بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهاً مثل : الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات ، وأن يحمى عما يقوي داءه ويزيد علته وإن اشتهاه ولا يظن الظان أنه إذا حصل له استمتاع بمحرم يسكن بلاؤه ، بل ذلك يوجب له انزعاجاً عظيماً ، وزيادة في البلاء والمرض في المآل ، فإنه وإن سكن بلاؤه وهذا ما به عقيب استمتاعه أعقبه ذلك مرضاً عظيماً عسيراً لا يتخلص منه ، بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء الذي ترامى به إلى الهلاك والعطب ، ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقي وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب ، وهي من رحمة الله بعباده ، ورأفته بهم ، الداخلة في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٧ .

=

فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه وإن كان لا يريد إلا الخير ، إذ هو في ذلك جاهل أحمق كما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم من ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير رأفة بهم ، فيكون ذلك سبب فسادهم ، وعداوتهم ، وهلاكهم .

ومن الناس من تأخذه الرأفة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وذوقه ما ذاقوه من قوة الشهوة وبرودة القلب والدياثة ، فيترك ما أمر الله به من العقوبة ، وهو من ذلك من أظلم الناس وأذيتهم في حق نفسه ونظرائه ، وهو بمنزلة جماعة من المرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم فوجد كبيرهم مرارته، فترك شربه ، ونهى عن سقيه للباقين ومنهم من تأخذه الرأفة لكون أحد الزانيين محبوباً له ، إما أن يكون محباً لصورته وجماله بعشق أو غيره ، أو لقرابة بينهما ، أو لمودة أو لإحسانه إليه ، أو لما يرجو منه من الدنيا أو غير ذلك ، أو لما في العذاب من الألم الذي يوجب رقة القلب ويتأول : إنما يرحم الله من عباده الرحماء (١) . ويقول الأحمق : الراحمون يرحمهم

= قال الامام مسلم في صحيحه : حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن ابن أبي حازم عن أبي هريرة ، قال قيل يا رسول الله أدع على المشركين . قال : إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة » . انفرد بإخراجه مسلم ـ وفي الحديث الآخر « إنما أنا رحمة مهداة » رواه عبدالله بن أبي عوانة وغيره عن وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً . قال ابراهيم الحربي وقد رواه غيره عن وكيع فلم يذكر أبا هريرة ، وكذا قال البخاري ، وقد سئل عن هذا الحديث . فقال كان عند حفص بن غياث مرسلاً . قال الحافظ ابن عساكر ، وقد رواه مالك بن سعيد بن الخمس عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً .

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٢٥ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ **إن رحمة الله قريب من المحسنين** ﴾ ٧٤٤٨ ـ حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عاصم عن أبي عثمان عن أسامة قال : كان ابن لبعض بنات النبي ـ ﷺ يقض فأرسلت إليه أن يأتيها فأرسل : إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل إلى أجل مسمى فلتصبر ولتحتسب فأرسلت إليه فأقسمت عليه فقام رسول الله ﷺ ـ وقمت معه ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وعبادة بن الصامت فلما دخلنا ناولوا رسول =

الرحمن [١] ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[٢] وغير ذلك ، وليس كما قال : بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه ، بل قد ورد في الحديث « لا يدخل الجنة ديوث » .

فمن لم يكن مبغضاً للفواحش ، كارهاً لها ولأهلها ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها لم يكن مريداً للعقوبة عليها ، فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه قال تعالى ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ اللهِ ﴾ الآية [٣]. فإن دين الله هو طاعته وطاعة رسوله المبني على محبته ومحبة رسوله ، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . فإن الرأفة والرحمة يحبهما الله ، ما لم تكن مضيعة لدين الله .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء [٤] ، وقال : لا يرحم الله من لا يرحم الناس [٥] وقال : من لا يرحم لا يرحم [٦] » .

= الله - ﷺ الصبي ونفسه تقلقل في صدره حسبته قال : كأنها شنّة فبكى رسول الله - ﷺ - فقال سعد بن عبادة أتبكي . فقال : إنما يرحم الله من عباده الرحماء . ورواه الإمام مسلم في الجنائز ٩ ، ١١ وأبو داود في الجنائز ٢٤ ، والأدب ٥٨ ، والنسائي في الجنائز ٢٢ وابن ماجه في الجنائز ٥٣ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، (حلبي) .

(١) الحديث رواه أبو داود في الأدب ٥٨ والترمذي في البر ١٦ .

(٢) الحديث رواه الترمذي في البر ١٦ .

(٣) سورة النور آية رقم ٢ .

(٤) سبق تخريج هذا الحديث .

(٥) سبق تخريج هذا الحديث .

(٦) الحديث عند الامام البخاري في كتاب الأدب ١٨ باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته . ٥٩٩٧ - حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري ، حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة - رضي الله عنه قال : قبّل رسول الله - ﷺ - الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً . فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً فنظر إليه رسول الله - ﷺ - ثم قال : من لا يرحم لا يرحم » . ورواه الإمام مسلم في الفضائل ٦٥ وأبو داود في الأدب =

وفي السنن : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء [1] .

فهذه الرحمة حسنة مأمور بها أمر ايجاب أو استحباب بخلاف الرأفة في دين الله فإنها منهي عنها . والشيطان يريد من الإنسان الاسراف في أموره كلها ، فإنه إن رآه مائلاً إلى الرحمة زين له الرحمة حتى لا يبغض ما أبغضه الله ، ولا يغار لما يغار الله منه ، وإن رآه مائلاً إلى الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الإحسان والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله، ويتعدى في الشدة فيزيد الذم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والإحسان وهو مذموم مذنب في ذلك .

ويسرف فيما أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى الحدود ، وهو من إسرافه في أمره فالأول مذنب ، والثاني مسرف « والله لا يُحِبُّ المُسْرِفِيْنَ » [2] فليقولا جميعاً ﴿ رَبَّنَا اغْفِر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا . وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [3] وقوله تعالى ﴿ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [4] . فالمؤمن بالله واليوم الآخر يفعل ما يحبه الله

= ١٤٥ والترمذي في البر ١٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ :٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٩ ، ٥١٤ (حلبي) .

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) الآية رقم ١٤١ في سورة الأنعام وهي ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا اكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ وليس فيها لفظ الجلالة .
والثانية في سورة الأعراف آية رقم ٣١ ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ . بدون لفظ الجلالة أيضاً .

(٣) سورة آل عمران آية رقم ١٤٧ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٥٩ والآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير =

ورسوله ، وينهي عما يبغضه الله ورسوله ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فإنه يتبع هواه فتارة تغلب عليه الرأفة هوى ، وتارة تغلب عليه الشدة هوى ، فيتبع ما يهواه في الجانبين بغير هدى من الله .

﴿ وَمَنْ أَضَلّ مِمنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ الله ﴾ (١) .

فإن الزنا من الكبائر ، وأما النظر والمباشرة فاللمم منها مغفور باجتناب الكبائر ، فإن أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة ، وقد يكون الإصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش فإن دوام النظر بالشهوة ، وما يتصل به من العشق والمعاشرة والمباشرة قد يكون أعظم بكثير من فساد زنا لا إصرار عليه .

ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل : أن لا يأتي كبيرة ، ولا يصر على صغيرة ، وفي الحديث المرفوع « لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار بل قد ينتهي النظر والمباشرة بالرجل إلى الشرك كما قال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ الله أَنْدَاداً يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ الله ﴾ (٢) ولهذا لا يكون عشق الصور إلا من ضعف محبة الله وضعف الإيمان ، والله تعالى ، إنما ذكره في القرآن عن امرأة العزيز المشركة ، وعن قوم لوط المشركين ، والعاشق المتيم يصير عبداً لمعشوقه ، منقاداً له ، أسير القلب له وقد جمع النبي ﷺ ذكر الحدود إن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فيما رواه أبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ـ من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع، ومن قال : من مسلم ما ليس فيه . . ؟ حبس في ردغة الخبال

= وأحسن تأويلاً ﴾ .

(١) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٥ .

حتى يخرج مما قال »[1].

فالشافع في تعطيل الحدود مضاد لله من أمره، لأن الله أمر بالعقوبة على تعدي الحدود، فلا يجوز أن تأخذ المؤمن رأفة بأهل البدع والفجور والمعاصي والظلمة.

وجماع ذلك كله فيما وصف الله به المؤمنين حيث قال ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِيْنَ ﴾[2].

وقال ﴿ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ﴾.

فإن هذه الكبائر كلها من شعب الكفر، ولم يكن المسلم كافراً بمجرد ارتكاب كبيرة، ولكنه يزول عنه اسم الإيمان الواجب، كما في الصحاح عنه ﷺ « لا يزْني الزاني حِيْنَ يَزْني وهو مؤمن »[3].

الحديث إلى آخره، ففيهم من نقص الإيمان ما يوجب زوال الرأفة والرحمة بهم، واستحقوا بتلك الشعبة من الشدة بقدر ما فيها، ولا منافاة بين أن يكون الشخص الواحد يرحم ويحب من وجه ويعذب، ويعذب ويبغض من وجه آخر ويثاب من وجه، ويعاقب من وجه، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الشخص الواحد يجتمع فيه الأمران، خلافاً لما يزعمه الخوارج ونحوهم من المعتزلة، فإن عندهم أن من استحق العذاب من أهل القبلة لا يخرج من النار فأوجبوا خلود أهل التوحيد.

وقال: من استحق العذاب لا يستحق الثواب ولهذا جاء في السنة أن

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأقضية ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٧ (حلبي).

(٢) سورة المائدة آية رقم ٥٤ والآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾.

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الفتن باب ٣.

من أقيم عليه الحد والعقوبات ، ولم يأخذ المؤمنين به رأفة أن يرحم من وجه آخر فيحسن إليه ويدعي له .

وهذا الجانب أغلب في الشريعة ، كما أنه الغالب في صفة الرب سبحانه كما في الصحيحين : « إن الله كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش، إن رحمتي تغلب غضبي » (١) .

وفي رواية « سبقت غضبي » .

وقال ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنا الغَفُوْرُالرَّحِيْمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيْمُ (٢) ﴾ وقال ﴿ اعلموا أن الله شَدِيْدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ الله غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ ﴾(٣) .

فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنى وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه .

ومن هذا الباب ما أمر الله به من الغلظة على الكفار والمنافقين فقال تعالى ﴿ يَا أَيُها النَبِيُّ جَاهِد الكُفَّارَ والمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ (٤) ﴾ وقال ﴿ لَا تَتَّخِذُوْا عَدُّوي وَعَدوكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُوْنَ إِلَيْهِمْ بِالمَوَدَّةِ ﴾ (٥) الآيات إلى قوله في

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٥٥ باب قول الله تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ ٧٥٥٣ ـ قال خليفة بن خياط حدثنا معتمر سمعت أبي عن قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ـ ﷺ قال : لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده ـ غلبت او قال : سبقت رحمتي غضبي فهو عنده فوق العرش » . وفي بدء الخلق اورواه الإمام مسلم في التوبة ١٤ ـ ١٦ وابن ماجه في الزهد ٣٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٣١٣ ، ٣٥٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ ، ٤٣٣ ، ٤٦٦ (حلبي) .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٤٩ ـ ٥٠ . .

(٣)سورة المائدة آية رقم ٩٨ . .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٧٣ . .

(٥) سورة الممتحنة آية رقم ١ . .

قصة ابراهيم ﴿ حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ (١) وكذلك آخر المجادلة .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن الحسن عن حطان بن عبدالله عن عبادة ابن الصامت أن النبي ﷺ قال « خذوا عني » « قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً »(٢) البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم (٣) .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد أنه ﷺ اختصم إليه رجلان ، فقال أحدهما : يا رسول الله : اقض بيننا بكتاب الله ، وقال الآخر - وهو أفقه منه - يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله وائذن لي : أن ابني كان عسيفاً على هذا ، وأنه زنى بامرأته فافتديت منه بمائة شاة ووليدة وإني سألت أهل العلم فقالوا : على ابنك جلد مائة وتغريب عام ، فقال النبي ﷺ لأقضين بينكما بكتاب الله : أما المائة شاة والوليدة فرد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس على امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ، فاعترفت فرجمها » (٤) . فهذه المرأة أحد من رجمه النبي ﷺ ورجم أيضاً اليهوديين على باب مسجده . ورجم ماعز بن مالك ، ورجم الغامدية ورجم غير هؤلاء .

وهذا الحديث يوافق ما في الآية من بيان السبيل الذي جعله الله لهن ،

---

(١) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

(٢) سورة النساء آية رقم ١٥ ﴿ حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلاً ﴾ .

(٣) الحديث عند ابن ماجه في الحدود ٧ باب وراجع تخريجه فيما يأتي عند تفسير قوله تعالى ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ .

(٤) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الصلح ٥ باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ٢٦٩٥ - ٢٦٩٦ - حدثنا الزهري عن عبيدالله بن عبدالله عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني - رضي الله عنهما قالا جاء أعرابي فقال يا رسول الله وذكره . ورواه في الأحكام ٣٩ ، وشروط ٩ ، أيمان ٣ ، حدود ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ورواه الإمام مسلم في الحدود ٢٥ ، وأبو داود في الحدود ٢٥ ، والترمذي في الحدود ٨ وصاحب الموطأ في الحدود ٦ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١١٥ ، ١١٦ .

وهو جلد مائة وتغريب عام في البكر ، ومن الثيب الرجم .

لكن الذي في هذا الحديث هو الجلد والنفي للبكر من الرجال وأما الآية ففيها ذكر الإمساك في البيوت للنساء خاصة ومن فقهاء العراق من لا يوجب مع الحد تغريباً ، ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة ، كما أن أكثرهم لا يوجبون مع رجم جلد مائة ، ومنهم من يوجبهما جميعاً ، كما فعل علي بسراحة الهمدانية حيث جلدها ثم رجمها وقال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة نبيه » .

رواه البخاري ، وعن أحمد في ذلك روايتان .

وهو سبحانه ذكر في سورة النساء ما يختص بالنساء من العقوبة بالإمساك في البيوت إلى الممات ، أو إلى جعل السبيل ، ثم ذكر ما يعم الصنفين فقال : ﴿ **واللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا** ﴾ (1) فإن الأذى يتناول الصنفين ، وأما الإمساك فيختص بالنساء ، فالنساء يؤذين ويحبسن بخلاف الرجال فإنه لم يأمر فيهم بالحبس ، لأن المرأة يجب أن تصان وتحفظ بما لا يجب مثله في الرجل ، ولهذا خصت بالاحتجاب ، وترك إبداء الزينة ، وترك التبرج فيجب في حقها الاستتار باللباس والبيوت ما لا يجب في حق الرجل ، لأن ظهور

---

(1) سورة النساء اية رقم ١٦ وتكملة الآية ﴿ **فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً** ﴾ . وهذه الآية منسوخة بما جاء في سورة النور بالجلد أو الرجم . وكذا روي عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن وعطاء الخراساني ، وأبي صالح ، وقتادة ، وزيد بن أسلم والضحاك أنها منسوخة قال الامام أحمد ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن حطان بن عبدالله الرقاشي عن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ - إذا نزل عليه الوحي أثر عليه وكرب لذلك وتغير وجهه فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سري عنه قال « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر . الثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة » . وقد رواه مسلم - وأصحاب السنن من طرق عن قتادة عن الحسن عن حطان عن عبادة بن الصامت عن النبي - ﷺ - ولفظه : خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم . قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

النساء سبب الفتنة والرجال قوامون عليهن . وقوله ﴿ فَاسْتَشْهِدُوْا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ (١) دل على شيئين على أن نصاب الشهادة على الفاحشة أربعة ، وعلى أن الشهداء بها على نسائنا يجب أن يكونوا منا ، فلا تقبل شهادة الكافر على المسلمين وهذا لا نزاع فيه ، وإنما النزاع في قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض وفيه قولان عن أحمد :

أشهرهما عنده وعند أصحابه أنها لا تقبل كمذهب مالك والشافعي .

والثانية : أنها تقبل ، اختارها أبو الخطاب (٢) من أصحاب أحمد ، وهو قول أبي حنيفة ، وهو أشبه بالكتاب والسنة وقد قال النبي ﷺ : «لا تجوز شهادة أهل ملة على أهل ملة إلا أمتي فإن شهادتهم تجوز على من سواهم » (٣) فإنه لم ينف شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض ، بل مفهوم ذلك جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض ، ولكن فيه بيا أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم لقوله تعالى :

﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُوْنُوْا شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ ﴾ (٤) .

وفي آخر الحج قبلها .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٥ .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الشهادات ٣٩ باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة وغيرها ، وقال الشعبي : لا تجوز شهادة أهل الملل بعضهم على بعض لقوله عز وجل ﴿ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلي يوم القيامة ﴾ سورة المائدة آية رقم ١٤ ـ ومعنى الآية .
« فألفينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة »
ولذلك
طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تكفر اليعقوبية وكذلك الآخرون وكذلك النسطورية والآريونيسية كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ، ويوم القيامة يقدم الإشهاد .

(٤) سورة البقرة آية رقم ١٤٣ .

وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . فيؤتى بكم فتشهدون أنه بلغ [1] » وكذلك في الصحيحين من حديث أنس في شهادتهم على تلك الجنازتين وأنهم أثنوا على إحداهما خيراً ، وعلى الأخرى شراً ، فقال : أنتم شهداء الله في أرضه » [2] الحديث .

ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين محضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة بخلاف أهل البدع والأهواء ، كالخوارج والروافض فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التي جعلها الله لأهل السنة .

قال النبي ﷺ فيهم « يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » .

وقد استدل من جوز شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض بهذه الآية التي في المائدة وهي قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا شَهَادَةُ بِينِكُمْ إِذَا حَضَرَ

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ١٩ باب وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » ٧٣٤٩ ـ حدثنا أبو أسامة حدثنا الأعمش ، حدثنا أبو صالح ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ يجاء بنوح يوم القيامة وذكره . ورواه أيضاً في كتاب الأنبياء ٣ ، ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٣٤ ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٢ ، ٥٨ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الجنائز ٨٥ باب ثناء الناس على الميت ١٣٦٧ ـ حدثنا شعبة ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال : سمعت أنس بن مالك ـ رضي الله عنه يقول : وذكره . ورواه الإمام مسلم في الجنائز ٦٠ والترمذي في الجنائز ٦٣ والنسائي في الجنائز ٥٠ ، وابن ماجه في الجنائز ٢٠ ، والزهد ٢٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦١ ، ٤٩٩ ، ٥٢٨ ، ٣ : ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩٧ (حلبي) .

﴿ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِيْنَ الْوَصِيَةِ اثْنَان ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ (١) الآية ثم قال : من أخذ بظاهر هذه الآية من أهل الكوفة : دلت هذه الآية على قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين فيكون في ذلك تنبيه ودلالة على قبول شهادة بعضهم على بعض بطريق الأولى ، ثم نسخ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى والتنبيه .

وهذه الآية الدالة على نصوص الإمام أحمد وغيره من أئمة الحديث الموافقين للسلف في العمل بهذه الآية وما يوافقها من الحديث أوجه وأقوى ، فإن مذهبه قبول شهادة أهل الذمة على المسلمين في الوصية في السفر لأنه موضع ضرورة ، فإذا جازت شهادتهم لغيرهم فعلى بعضهم أجوز وأجوز .

ولهذا يجوز في الشهادة للضرورة ما لا يجوز في غيرها كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال ، حتى نص أحمد على قبول شهادتين في الحدود التي تكون في مجامعهن الخاصة ، مثل الحمامات ، والعرسات ، ونحو ذلك فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى أن تقبل شهادة بعضهم على بعض إذا حكمنا بينهم ، والله أمرنا أن نحكم بينهم ، والنبي ﷺ رجم الزانيين من اليهود (٢) من غير سماع إقرار منهما ، ولا شهادة لمسلم

---

(١) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ .

(٢) روى البخاري في كتاب المناقب ٢٦ باب قول الله تعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .

٣٦٣٥ بسنده عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله - ﷺ - فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله - ﷺ - ما تجدون في التوراة في شأن الرجم فقالوا : نفضحهم ويجلدون فقال عبدالله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها . فقال له عبدالله ابن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم . فقالوا : صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله - ﷺ - فرجما ، قال عبدالله : فرأيت الرجل يجنا على المرأة يقيها الحجارة .

عليهما ، ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم يجز ذلك . والله أعلم . ثم إن في تولي مال بعضهم بعضاً نزاع ، فهل يتولى الكافر العدل في دينه مال ولده الكافر ؟ .

على قولين في مذهب أحمد وغيره .

والصواب المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض ، وقد مضت سنة النبي ﷺ بذلك وسنة خلفائه . وقوله تعالى ﴿ فَآذُوْهُمَا ﴾ أمر بالأذى مطلقاً ، ولم يذكر كيفيته وصفته ولا قدره ، بل ذكر أنه يجب إيذاؤهما ولفظ « الأذى » يستعمل في الأقوال كثيراً كقوله : ﴿ لَنْ يَضُرُّوْكُمْ إلَّا أَذىً ﴾ (١) .

وقوله ﴿ إنَّ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ الله وَرَسُوْلَهُ ﴾ (٢) ﴿ وَالَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوْا ﴾ (٣) .

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ النَبِيَّ ﴾ (٤) .

وقول النبي ﷺ : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله »(٥) .

ونظائر ذلك كثيرة ذكرناها في « كتاب الصارم المسلول وهذا كما قال

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١١١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٥٨ .

(٤) سورة التوبة آية رقم ٦١ .

(٥) الحديث رواه البخاري في كتاب التوحيد ٣ ـ باب قول الله تعالى **﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾** .

٧٣٧٨ ـ حدثنا عبدان عن أبي حمزة عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى الأشعري قال : قال النبي ـ ﷺ ـ وذكره وفيه زيادة (يدعون له الولد ، ثم يعافيهم ويرزقهم) ورواه في كتاب الأدب ٧١ ورواه الإمام مسلم في المنافقين ٤٩ ـ ٥٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ (حلبي) .

ﷺ في شارب الخمر : « عاقبوه وآذوه » .

وقال ﴿ فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوْا عَنْهُمَا ﴾ (١) والإعراض هو الإمساك عن الإيذاء فالمذنب لا يزال يؤذى وينهى ويوعظ ويوبخ ويغلظ له في الكلام إلى أن يتوب ويطيع الله ، وأدنى ذلك هجره فلا يكلم بالكلام الطيب ، كما هجر النبي ﷺ والمؤمنون الثلاثة الذين خلفوا حتى ظهرت توبتهم وصلاحهم ، وهذه آية محكمة لا نسخ فيها ، فمن أتى الفاحشة من الرجال والنساء ، فإنه يجب إيذاؤه بالكلام الزاجر له عن المعصية إلى أن يتوب، وليس ذلك محدوداً بقدر ولا صفة إلا ما يكون زاجراً له ، داعياً إلى حصول المقصود ، وهو توبته وصلاحه .

وقد علقه تعالى على هذين الأمرين : التوبة والإصلاح فإذا لم يوجدا فلا يجوز أن يكون الأمر بالإعراض موجوداً فيؤذى ، والآية دلت على وجوب الإعراض عن الأذى في حق من تاب وأصلح ، فأما من تاب بترك فعل الفاحشة ولم يصلح فقد تنازع الفقهاء ، هل يشترط في قبول التوبة صلاح العمل ؟

على قولين في مذهب أحمد وغيره .

وهذه تشبه قوله تعالى ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُوْا المُشْرِكِيْنَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوْهُمْ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٥ وتكملة الآية ﴿ وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ .

إلى قوله ﴿ فإن تَابُوْا وَأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فَخَلُّوْا سَبِيْلَهُمْ ﴾ (١) .

فأمر بقتالهم ، ثم علق تخلية سبيلهم على التوبة والعمل الصالح ، وهو إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب الكف عنهم ، ثم إن صلوا وزكوا وإلا عوقبوا بعد ذلك على ترك الفعل لأن الشارع في التوبة شرع الكف عن أذاه ، ويكون الأمر فيه موقوفاً على التمام ، وكذلك التائب من الفاحشة يشرع الكف عن أذاه إلى أن يصلح فإن أصلح وجب الإعراض عن أذاه وإن لم يصلح لم يجب الكف عن أذاه ، بل يجوز أو يجب أذاه .

وهذه الآية مما يستدل بها على التعزير بالأذى ، والأذى وإن كان يستعمل كثيراً في الكلام في مرتكب الفاحشة فليس هو مختصاً به ، كما قال النبي ﷺ لمن بصق في القبلة : إنك قد آذيت الله ورسوله (٢) وكذلك قال في حق فاطمة ابنته « يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها » (٣) .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٥ .
قد جاء في الصحيحين عن ابن عمر ـ رضي الله عنه عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » الحديث . وقال أبو اسحاق عن أبي عبيدة عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه قال : أمرتم باقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ومن لم يزل فلا صلاة له » . وقال الامام أحمد ـ حدثنا علي بن اسحاق أنبأنا عبدالله بن المبارك أنبأنا حميد الطويل عن أنس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن لمحمد رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » . ورواه البخاري في صحيحه ، وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث عبدالله بن المبارك به .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الصلاة ٢٢ ، والنسائي في الجمعة ٢٠ وابن ماجه في الاقامة ٨٨ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٥٦ ، ١٨٨ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في فضائل الصحابة ٩٣ باب من فضائل فاطمة حدثنا أحمد بن عبدالله بن يونس ، وقتيبة بن سعيد كلاهما عن الليث بن سعد . قال ابن يونس : حدثنا ليث ، حدثنا عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة القرشي أن المسور بن مخرمة حدثه أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ على المنبر ـ وهو يقول : إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا

وكذلك قال لمن أكل الثوم والبصل « إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » (١) .

وقال لصاحب السهام « خذ بنصالها لئلا تؤذي أحداً من المسلمين » (٢) .

وقد قال تعالى ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوْا وَلَا مُسْتَئْنِسِيْنَ لِحَدِيْثٍ إِنَّ ذلكم كَانَ يُؤْذِي النبيّ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَابَا واصلحا ﴾ (٤) هل يكون من توبته اعترافه بالذنب فإذا ثبت الذنب بإقراره فجحد إقراره وكذب الشهود على إقراره أو ثبت بشهادة شهود هل يعد بذلك تائباً ؟ فيه نزاع .

فذكر الإمام أحمد أنه لا توبة لمن جحد ، وإنما التوبة لمن أقر وتاب .

= ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم ثم لا آذن لهم ثم لا آذن لهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم وذكره . ورواه الترمذي في المناقب ٦٠ وابن ماجه في النكاح ٥٦ » .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب المساجد ٧٢ باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو نحوها . حدثنا كثير بن هشام عن هشام الدستوائي عن أبي الزبير عن جابر قال : نهى رسول الله - ﷺ - عن أكل البصل ، والكراث فغلبتنا الحاجة فأكلنا منها فقال من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الأنس » . والنسائي في المساجد ١٦ وابن ماجه في الأطعمة ٥٩ .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الفتن ٧ باب قول النبي - ﷺ « من حمل علينا السلاح فليس منا » .

٧٠٧٤ - حدثنا حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن جابر أن رجلاً مر في المسجد بأسهم بدا نصولها فأمر أن يأخذ بنصولها لا يخدش مسلماً . ورواه مسلم في البر ١٢٠ - ١٢٣ ، ١٢٤ ، وأبو داود في الجهاد ٦٥ والنسائي في المساجد ٢٦ وابن ماجه في الأدب ٥١ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٠٨ ، ٤ : ٢٩١ ، ٤٠٠ ، ٤١٠ ، ٤١٣ ، ٤١٨ (حلبي) .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ .

(٤) سورة النساء آية رقم ١٦ .

واستدل بقصة علي بن أبي طالب أنه أتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة ، فاعترف منهم ناس فتابوا فقبل توبتهم ، وجحد منهم جماعة فقتلهم وقد قال النبي ﷺ لعائشة : إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه رواه البخاري(١) .

فمن أذنب سراً فليتب سراً ، وليس عليه أن يظهر ذنبه ، كما في الحديث « من ابتلي بشيء من هذه القاذورات فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله »(٢) .

وفي الصحيح : كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من المجاهرة أن يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله عليه فيكشف ستر الله عنه (٣) .

فإذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة ومع الجحود لا تظهر التوبة ، فإن الجاحد يزعم أنه غير مذنب .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب التفسير ٦ باب لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون » .
٤٧٥٠ حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب قال أخبرني عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة ـ رضي الله عنهما : زوج النبي ـ ﷺ ـ حين قال أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا : وذكره . ورواه الإمام مسلم في التوبة ٥٦ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ١٩٦ ، ٢٦٤ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه صاحب الموطأ في الحدود ١٢ .

(٣) الحديث رواه الإمام البخاري ٦٠ باب ستر المؤمن على نفسه ٦٠٦٩ حدثنا ابراهيم بن سعد عن ابن أخي ابن شهاب عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله قال: سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : وذكره . ورواه الإمام مسلم في الزهد ٥٢ باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه وذكره .

ولهذا كان السلف يستعملون ذلك فيمن أظهر بدعة أو فجوراً ، فإن هذا أظهر حال الضالين ، وهذا أظهر حال المغضوب عليهم ، ومن أذاه منعه ـ مع القدرة ـ من الإمامة والحكم والفتيا ، والرواية ، والشهادة ، وأما بدون القدرة فليفعل المقدور عليه .

فصل
في إيذاء الذين يأتون الفاحشة

وقوله ﴿ واللَّذَانِ يأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوْهُمَا ﴾ (١) فأمر بإيذائهما ولم يعلق ذلك على استشهاد أربعة كما علق ذلك في حق النساء وإمساكهن في البيوت ولم يأمر به هنا كما أمر به هناك ، وليس هذا من باب حمل المطلق على المقيد، لأن ذلك لا بد أن يكون الحكم واحداً مثل الإعتاق ، فإذا كان الحكم متفقاً في الجنس دون النوع كإطلاق الأيدي في التيمم وتقييدها في الوضوء إلى المرافق ، وإطلاق ستين مسكيناً في الإطعام وتقييد الاعتاق بالإيمان مع أن كلاهما عبادة مالية يراد بها نفع الخلق ، ومن ذلك نزاع بين العلماء .

ولم يحمل المسلمون من الصحابة والتابعين المطلق على المقيد في قوله ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتي في حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللاَّتي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ (٢) الآية .

وقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَنْكِحُوْا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (٣) .

قال الصحابة والتابعون وسائر أئمة الدين : الشرط في الربائب خاصة ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٦ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة النساء آية رقم ٢٢ .

وقالوا : أبهموا ما أبهم الله والمبهم هو المطلق ، والمشروط فيه هو المؤقت المقيد فأمهات النساء وحلائل الآباء والأبناء يحرمن بالعقد والربائب لا يحرمن إلا إذا دخل بأمهاتهن ، لكن تنازعوا ، هل الموت كالدخول ؟ .

على قولين في مذهب أحمد ، وذلك لأن الحكم مختلف والقيد ليس متساوياً في الأعيان ، فإن تحريم جنس ليس مثل تحريم جنس آخر يخالفه ، كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير لما كان أجناساً فليس تقييد الدم بكونه مسفوحاً يوجب تقييد الميتة والخنزير أن يكون مسفوحاً ، وهنا القيد كون الربيبة مدخولاً بأمها ، والدخول بالأم لا يوجد مثله في الحليلتين ، وأم المرأة ، إذ الدخول في الحليلة بها نفسها ، وفي أم المرأة بينتها .

وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على المقيد في نصب الشهادة ، بل لما ذكر الله في آية الدين : ﴿رَجُلَيْنِ فرجُل وامرأتان﴾ (1) وفي الرجعة ﴿ رجلين ﴾

أقروا كُلاً منهما على حاله ، لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع ، واختلاف السبب يؤثر في نصاب الشهادة وكما في إقامة الحد في الفاحشة وفي القذف بها اعتبر فيه أربعة شهداء فلا يقاس بذلك عقود الإيمان والابضاع وذكر في حد القذف ثلاثة أحكام :

جلد ثمانين ، وترك قبول شهادتهم أبداً ، وأنهم فاسقون ﴿ إِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوْا فَإِنَّ الله غَفُور رَحِيم ﴾ (2) وأن التوبة لا ترفع الجلد إذا طلبه المقذوف ، وترفع الفسق بلا تردد ، وهل ترفع المنع من قبول الشهادة ؟ .

---

(1) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ ﴿ ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ .

(2) سورة آل عمران آية رقم ٨٩ .

فأكثر العلماء قالوا ترفعه .

وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة بين الناس لم يرجم لما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه لما ذكر حديث الملاعنة وقول النبي ﷺ : إن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها ، وإن جاءت به يشبه الرجل الذي رماها به فقد صدق عليها ، فجاءت به على النعت المكروه . فقال النبي ﷺ « لولا الإيمان لكان لي ولها شأن » [1] فقيل لابن عباس : أهذه التي قال فيها رسول الله ﷺ لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمتها ؟

فقال : لا ، تلك امرأة كانت تعلن السوء في الإسلام فقد أخبر أنه لا يرجم أحداً إلا ببينة ولو ظهر عن الشخص السوء ودل هذا الحديث على أن الشبه له تأثير في ذلك ، وإن لم يكن بينة ، وكذلك ثبت عنه أنه لما مر عليه بتلك الجنازة فأثنوا عليها خيراً إلى آخره قال « أنتم شهداء الله في أرضه »[2] وفي المسند عنه أنه قال « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار ، قيل : يا رسول الله ، وبم ذلك ؟ قال : بالثناء الحسن ، والثناء السيء ، فقد جعل

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب اللعان ـ قالا أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن القاسم بن محمد عن ابن عباس أنه قال : ذكر التلاعن عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال عاصم بن عدي في ذلك قولاً ثم انصرف فأتاه رجل من قومه يشكو إليه أنه وجد مع أهله رجلاً فقال عاصم ما ابتليت بهذا إلا لقولي فذهب به إلى رسول الله ﷺ ـ فأخبره بالذي وجد عليه امرأته وكان ذلك الرجل مصفراً قليل اللحم . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ اللهم بين فوضعت شبيهاً بالرجل الذي ذكر زوجها أنه وجده عندها فلاعن رسول الله ـ ﷺ بينهما فقال رجل لابن عباس في المجلس أهي التي قال رسول الله ـ ﷺ ـ لو رجمت أحداً بغير بينة رجمت هذه . فقال ابن عباس لا تلك امرأة كانت تظهر في الإسلام السوء .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الجنائز ٨٥ باب ثناء الناس على الميت ١٣٦٧ ـ حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال سمعت أنس بن مالك ـ رضي الله عنه يقول : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال النبي ـ ﷺ ـ وجبت ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شراً فقال : وجبت . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما وجبت . .؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً فوجبت له النار وذكره .

الاستفاضة حجة وبينة في هذه الأحكام ، ولم يجعلها حجة في الرجم وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر عند أحمد ، وكذلك شهادة الصبيان في الجراح إذا أدوها قبل التفرق في إحدى الروايتين ، وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة والصبي في لحاف أو في بيت مرحاض ، أو رآهما مجردين ، أو محلولي السراويل ، ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك من وجود اللحاف قد خرج عن العادة إلى مكانهما ، أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره فرآه فأطفأه ، فإن اطفاءه دليل على استخفائه بما يفعل فإذا لم يكن ما يستخفي به إلا ما شهد به الشاهد كان ذلك من أعظم البيان على ما شهد به .

فهذا الباب باب عظيم النفع في الدين ، وهو مما جاءت به الشريعة التي أهملها كثير من القضاة والمتفقهة زاعمين أنه لا يعاقب أحد إلا بشهود عاينوا ، أو إقرار مسموع ، وهذا خلاف ما تواترت به السنة ، وسنة الخلفاء الراشدين ، وخلاف ما فطرت عليه القلوب التي تعرف المعروف وتنكر المنكر ويعلم العقلاء أن مثل هذا لا تأباه سياسة عادلة فضلاً عن الشريعة الكاملة .

ويدل عليه قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوْا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوْا أَنْ تُصِيبُوْا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِيْنَ** ﴾ (١) ففي الآية دلالات .

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ٦ .

ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ـ ﷺ ـ على صدقات بني المصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بني المصطلق ، وهو الحارث بن ضرار بن أبي ضرار ، وألد ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين ـ رضي الله عنها. قال الإمام أحمد ، حدثنا محمد بن سابق ، حدثنا عيسى بن دينار ، حدثني أنه سمع الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ـ ﷺ ـ فدعاني إلى الاسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت يا رسول الله ارجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي دفعت زكاته ، وترسل إلي يا رسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما =

أحدها : قوله ﴿ إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ فأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ ، بل من الأنباء ما ينهى فيه عن التبين . ومن الأنباء ما يتضمن العقوبة لبعض الناس لأنه علل الأمر بأنه إذا جاءنا فاسق بنبأ خشية أن نصيب قوماً بجهالة ، فلو كان كل من أصيب بنبأ كذلك لم يحصل الفرق بين العدل والفاسق بل هذه دلالة واضحة على أن الإصابة بنبأ العدل الواحد لا ينهي عنها مطلقاً ، وذلك يدل على قبول شهادة العدل الواحد في جنس العقوبات ، فإن سبب نزول الآية يدل على ذلك ، فإنها نزلت في اخبار واحد بأن قوماً قد حاربوا بالردة أو نقص العهد .

وفيه أيضاً أنه متى اقترن بخبر الفاسق دليل آخر يدل على صدقه ، فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت، فتجوز إصابة القوم وعقوبتهم بخبر الفاسق مع قرينة إذا تبين بهما الأمور ، فكيف خبر الواحد العدل مع دلالة أخرى ، ولهذا كان أصح القولين أن مثل هذا لوث في باب القسامة ، فإذا انضاف إيمان المقسمين صار ذلك بينة تبيح دم المقسم عليه . وقوله ﴿ **أَنْ تُصِيبُوْا قَوْماً بِجَهَالَةٍ** ﴾ فجعل المحذور هو الإصابة لقوم بلا علم ، فمتى أصيبوا بعلم زال المحذور ، وهذا هو المناط الذي دل عليه القرآن كما قال ﴿ **إلاَّ مَنْ شَهِدَ**

= جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد رسول الله ـ ﷺ أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله فدعا برواة قومه فقال لهم إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسوله ليقبض ما عندي من الزكاة وليس من رسول الله الخلف ، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ـ ﷺ وبعث رسول الله الوليد بن عقبة الى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق ـ أي خاف ـ فرجع حتى أتى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله : إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي فغضب رسول الله ـ ﷺ ـ وبعث البعث إلى الحارث فلما غشيهم قال لهم إلى من بعثتم . . ؟ قالوا : إليك . قال : ولم ؟ قالوا إن رسول الله ـ ﷺ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله قال : رضي الله عنه ـ لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأيته بتة ولا أتاني ـ فنزل قول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم** ﴾ .

بِالحَقِ وَهُمْ يَعْلَمُوْنَ ﴾ (1) وقال **﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾** (2) وأيضاً فإنه علل ذلك بخوف الندم ، والندم إنما يحصل على عقوبة البريء من الذنب كما في سنن أبي داود « ادرأوا الحدود بالشبهات ، فإن الإمام إن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة (3) فإذا دار الأمر بين أن يخطىء فيعاقب بريئاً أو يخطىء فيعفو عن مذنب كان هذا الخطأ خير الخطائين أما إذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب إلا مذنباً فإنه لا يندم ، ولا يكون فيه خطأ والله أعلم .

---

(1) سورة الزخرف آية رقم ٨٦ .

(2) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(3) الحديث رواه أبو داود في الصلاة ١١٤ ، ورواه الامام الترمذي

فصل
في التغريب

وقد ذكر الشافعي وأحمد أن التغريب جاء في السنة في موضعين أحدهما :

أن النبي ﷺ قال في الزاني إذا لم يحصن جلد مائة وتغريب عام [1] .

والثاني : نفي المخنثين فيما روته أم سلمة : أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها مخنث ، وهو يقول لعبدالله أخيها : إن فتح الله لك الطائف غداً أدلك على ابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان .

فقال النبي ﷺ « أخرجوهم من بيوتكم » [2] رواه الجماعة إلا الترمذي .

وفي رواية في الصحيح « لا يدخلن هؤلاء عليكم » وفي رواية « أرى

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الشهادات والصلح ورواه الامام مسلم في كتاب الحدود ، والترمذي في الحدود والنسائي في كتاب القضاء ، وابن ماجه في كتاب الحدود والدارمي في الحدود ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٤٧٦ (حلبي) .
في الحدود » .

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب اللباس ٦٢ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، ٥٨٨٧ ـ حدثنا زهير ، حدثنا هشام بن عروة أن عروة أخبره أن زينب بنت أم سلمة أخبرته أن أم سلمة أخبرتها أن النبي ـ ﷺ ـ وذكره . ورواه في الخصومات ٥ ، وأحكام ٥٢ وأبو داود في الأدب ٥٣ .

هذا يعرف « مثل هذا لا يدخلن عليكم بعد اليوم » (١) .

قال ابن جريج : المخنث هو هيت . وهكذا ذكره غيره .

وقد قيل : إنه هنب ، وزعم بعضهم أنه مانع وقيل : هوان .

وروى الجماعة إلا مسلماً أن النبي ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء(٢) .

وقال: « أخرجوهم من بيوتكم ، واخرجوا فلاناً وفلاناً : يعني المخنثين » (٣) .

وقد ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة ـ بهم وهيث ومانع ـ على عهد رسول الله ﷺ ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى ، إنما كان تخنيثهم وتأنيثهم ليناً في القول ، وخضاباً في الأيدي والأرجل ، كخضاب النساء ولعباً كلعبهن .

هل يقتل المخنث أم يغرب . . ؟

وفي سنن أبي داود عن أبي يسار القرشي عن أبي هاشم عن أبي هريرة « أن النبي ﷺ أتى بمخنث وقد خضب رجليه ويديه بالحناء فقال : ما بال هذا ؟

فقيل : يا رسول الله يتشبه بالنساء ، فأمر به فنفي إلى النقيع (٤) .

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب اللباس ٦٢ باب إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت » .
٥٨٨٦ ـ حدثنا معاذ بن فضالة ، حدثنا هشام عن يحيى عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : وذكره .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب النكاح ، وبمعناه رواه الامام مسلم في كتاب السلام ، ورواه صاحب الموطأ في كتاب النداء والوصية .

(٣) ورد الحديث في البخاري (كتاب اللباس . والحدود) ورواه الترمذي في كتاب الأدب ، ورواه الدارمي في كتاب الاستئذان ، ابن حنبل ١ / ٢٩٥ .

(٤) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب ٥٣ .

فقيل : يا رسول الله ألا نقتله ؟

فقال : إني نهيت عن قتل المصلين (١) .

قال أبو أسامة حماد بن أسامة : والنقيع ناحية عن المدينة، وليس بالبقيع . وقيل : إنه الذي حماه النبي ﷺ لا بل الصدقة ، ثم حماه عمر . وهو على عشرين فرسخاً من المدينة . وقيل عشرين ميلاً ونقيع الخضمات موضع آخر قرب المدينة ، وقيل : هو الذي حماه عمر ، والنقيع موضع يستنقع فيه الماء ، كما في الحديث « أول جمعة جمعت بالمدينة في نقيع الخضمات » (٢) .

فإذا كان النبي ﷺ قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه والاستمتاع به وبما يشاهدونه من محاسنه، وفعل الفاحشة الكبرى به شر من هؤلاء (٣) وهو أحق بالنفي من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم ، فإن المخنث فيه إفساد للرجال والنساء، لأنه إذا تشبه بالنساء فقد تعاشره النساء ، ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدهن ، ولأن الرجال إذا مالوا

---

(١) ورد الحديث في مسند أبي داود (كتاب الأدب) .

(٢) لم نعثر على هذا الحديث على كثرة البحث والتقصي ولعل الله يجمعنا ويوفقنا إليه .

(٣) أعني الذين يفعل بهم أفعال قوم لوط ـ ولقد انتشرت هذه الأفعال في أواخر هذا القرن الذي نعيش فيه بل إن بعض الدول التي تدعي التمدن والرقي ـ تريد أن تسن قانوناً يحمي هؤلاء الفسقة بحجة أن هذا عمل شخصي ومنعه يعتبر قيد على الحرية الشخصية . وقامت أبواق السوء بالدعاية له وهللت الصحافة المأجورة لهذا الاكتشاف العظيم . .؟؟ ألا وهو اتيان الأفعال التي سبقهم إليها قوم لوط فماذا كانت النتيجة قديماً ؟ جاء الأمر إلى لوط عليه السلام « فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد » .

هذا ما حدث قديماً أما حديثاً فتصل الأنباء تباعاً أن هؤلاء قد أصابهم الله بأمراض خطيرة يقف الطب أمامها عاجزاً لا يفعل شيئاً فلا يجد الفاجر منهم إلا أن يقتل نفسه لأنه لا يستطيع أن يتحمل أهوال المرض . فجهنم مأواهم وبئس المصير .

إليه فقد يعرضون عن النساء ، ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتخنث فقد تترجل هي ، وتتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين وقد تختار هي مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال .

وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به كما يفعل بالنساء ـ بمشاهدته ومباشرته وعشقه فإذا أخرج من بين الناس وسافر إلى بلد آخر ساكن فيه الناس ، ووجد هناك من يفعل به الفاحشة فهنا يكون نفيه بحبسه في مكان واحد ليس معه فيه غيره ، وإن خيف خروجه فإنه يقيد إذ هذا هو معنى نفيه وإخراجه من بين الناس .

ولهذا تنازع العلماء في نفي المحارب من الأرض هل هو طرده بحيث لا يأوي في بلد ، أو حبسه أو بحسب ما يراه الإمام من هذا وهذا ففي مذهب أحمد ثلاث روايات الثالثة أعدل وأحسن ، فإن نفيه بحيث لا يأوي في بلد لا يمكن ، لتفرق الرعية واختلاف هممهم ، بل قد يكون بطرده يقطع الطريق ، وحبسه قد لا يمكن ؛ لأنه يحتاج إلى مؤنة إلى طعام وشراب وحارس ، ولا ريب أن النفي أسهل إن أمكن .

وقد روي . . أن هيتاً لما اشتكى الجوع أمره النبي ﷺ أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما يقيته إلى الجمعة الأخرى .

ومعلوم أن قوله ﴿ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾ (١) لا يتضمن نفيه من جميع الأرض ، وإنما هو نفيه من بين الناس ، وهذا حاصل بطرده وحبسه وهذا الذي جاءت به الشريعة من النفي هو نوع من الهجرة أي هجرة ، وليس هذا كنفي الثلاثة الذين خلفوا (٢) ، ولا هجرة كهجرهم ، فإنه منع الناس من

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .

(٢) الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك والذين قال الله فيهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ . سورة التوبة آية رقم ١١٨ . =

مخالطتهم ومخاطبتهم حتى أزواجهم ، ولم يمنعهم من مشاهدة الناس وحضور مجامعهم في الصلاة وغيرها ، وهذا دون النفي المشروع مجموع من الأمرين ، وذلك أن الله خلق الآدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضاً على مصلحة دينهم ودنياهم فمن كان بمخالطته للناس لا يحصل منه عون على الدين ، بل يفسدهم ويضرهم في دينهم ودنياهم استحق الإخراج من بينهم ، وذلك أن مضرة بلا مصلحة ، فإن مخالطته لهم فيها فسادهم وفساد أولادهم ، فإن الصبي إذا رأى صبياً مثله يفعل شيئاً تشبه به ، وسار بسيرته مع الفساق فإن الاجتماع بالزناة واللوطيين فيه أعظم الفساد والضرر على النساء والصبيان والرجال ، فيجب أن يعاقب اللوطي والزاني بما فيه تفريقه وإبعاده وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها ، وكذلك هجران الدعاة إلى البدع وهجران الفساق ، وهجران من يخالط هؤلاء كلهم أو يعاونهم ، وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه ، فإنه يعاقب بهجرهم له لما لم يعاونهم على البر والتقوى ، فالزناة واللوطية ، وتارك الجهاد ، وأهل البدع وشربة الخمر هؤلاء كلهم ومخالطتهم مضرة على دين الاسلام وليس فيهم معاونة لا على بر ولا تقوى ، فمن لم يهجرهم كان تاركاً للمأمور فاعلاً للمحظور .

فهذا ترك المأمور من الاجتماع ، وذلك فعل المحظور منه ، فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه فإن العقوبة إنما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور كما قال الفقهاء : إنما يشرع التعزير في معصية ليس فيها حد ، فإن كان فيها كفارة فعلى قولين في مذهب أحمد وغيره .

قال : وما جاءت به الشريعة من المأمورات والعقوبات والكفارات وغير

= وقد ذكر الامام أحمد قصتهم كاملة في المسند : حدثنا يعقوب بن ابراهيم ، حدثنا ابن أخي الزهري ـ محمد بن عبدالله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهري ، أخبرني عبد الرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن عبيدالله بن كعب بن مالك ، وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك فقال كعب بن مالك وذكره .

ذلك فإنه يفعل منه بحسب الاستطاعة فإذا لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين فإنه يجاهد من يقدر على جهاده ، وكذلك إذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين . فإنه يعاقب من يقدر على عقوبته فإذا لم يكن النفي والحبس عن جميع الناس كان النفي والحبس على حسب القدرة مثل أن يحبس بدار لا يباشر إلا أهلها لا يخرج منها ، أو أن لا يباشر إلا شخصاً أو شخصين ، فهذا هو الممكن ، فيكون هو المأمور به ، وإن أمكن أن يجعل في مكان قد قل فيه القبيح ولا يعدم بالكلية كان ذلك هو المأمور به فإن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فالقليل من الخير خير من تركه ودفع بعض الشر خير من تركه كله ، وكذلك المرأة المتشبهة بالرجال تحبس شبيهاً بحالها إذا زنت سواء كانت بكراً أو ثيباً ، فإن جنس الحبس مما شرع في جنس الفاحشة ، ومما يدخل في هذا أن عمر ابن الخطاب نفى نصر بن حجاج (١) من المدينة ومن وطنه إلى البصرة لما سمع تشبيب النساء به وتشبهه بهن ، وكان أولاً قد أمر بأخذه شعره ليزيل جماله الذي كان يفتن به النساء ، فلما رآه بعد ذلك من أحسن الناس وجنتين غمه ذلك فنفاه إلى البصرة ، فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها ، لكن كان في النساء من يفتتن به فأمر بإزالة جماله الفاتن ، فإن انتقاله

---

(١) هو نصر بن حجاج بن علاط (بكسر العين وتخفيف اللام) السلمي ثم البهزي شاعر من أهل المدينة كان جميلاً قالت إحدى نساء المدينة

يا ليت شعري عن نفس أزاهقة ... مني ولم أقض ما فيها من الحاج
هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

وسمع البيتين أمير المؤمنين عمر . فقال : لا أرى رجلاً في المدينة تهتف به العواتق في خدورهن وطلبه . فجاء فأمر به فحلق شعر رأسه ثم نفاه إلى البصرة ولنصر أبيات في حلق جمته ، وأطال ابن أبي الحديد في خبره فذكر له قصة مع امرأة أخرى في البصرة نفاه بسببها أبو موسى الأشعري إلى فارس وأن دهقانة أعجبت به في فارس فكتب أميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي بخبره الى عمر . فجاءه : جزوا شعره وشمروا قميصه وألزموه المساجد ، ولما قتل عمر . عاد نصر إلى المدينة . [راجع رغبة الأمل ٥ : ١٣٩ ـ ١٤٠ وشرح النهج لابن أبي الحديد ٣ : ١٤٤ ، ١٤٦]

عن وطنه مما يضعف همته وبدنه ، ويعلم أنه معاقب ، وهذا من بـاب التفريق بين الـذين يخـاف عليهم الفـاحشـة والعشق قبـل وقـوعـه ، وليس من بـاب المعاقبة ، وقد كان عمر ينفي في الخمر إلى خيبر زيادة في عقوبة شاربها .

فصل
في تهيج الشهوات

ومن أقوى ما يهيج الفاحشة إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالأصوات المطربة ، فإن المغني إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش ، فعندها يهيج مرضه ويقوي بلاءه وأن كان القلب في عافية من ذلك جعل فيه مرضاً كما قال بعض السلف : الغناء رقية الزنا (١) .

ورقية الحية هي ما تستخرج بها الحية من جحرها .

ورقية العين والحمة هي ما تستخرج به العافية .

ورقية الزنا هو ما يدعو إلى الزنا .

---

(١) الغناء يطلق على رفع الصوت ، وعلى الترنم الذي تسميه العرب : النصب بفتح النون وسكون المهملة ، وعلى الحداء ، ولا يسمى فاعله مغنياً وإنما يسمى بذلك من ينشد بتمطيط وتكسير وتهييج وتشويق بما فيه تعريض بالفواحش أو تصريح . قال القرطبي : وهو الذي يحرك الساكن ويبعث الكامن ، وهذا النوع إذا كان في شعر فيه وصف محاسن النساء والخمر وغيرهما من الأمور المحرمة لا يختلف في تحريمه . قال : وأما ما ابتدعه الصوفية في ذلك فمن قبيل ما لا يختلف في تحريمه ، لكن النفوس الشهوانية غلبت على كثير ممن ينسب الى الخير ، حتى لقد ظهرت من كثير منهم فعلات المجانين والصبيان ، حتى رقصوا بحركات متطابقة وتقطيعات متلاحقة ، وانتهى التواقح بقوم منهم أن جعلوها من باب القرب وصالح الأعمال : وهذا من آثار الزندقة ، وقول أهل المخرقة ، والله المستعان .

ويخرج من الرجل هذا الأمر القبيح والفعل الخبيث كما أن الخمر أم الخبائث .

قال ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل .

وقال تعالى لإبليس ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (١) . واستفزازه إياهم بصوته يكون بالغناء ـ كما قال من قال من السلف ـ وبغيره من الأصوات كالنياحة وغير ذلك ، فإن هذه الأصوات كلها توجب انزعاج القلب والنفس الخبيثة إلى ذلك وتوجب حركتها السريعة ، واضطرابها حتى يبقى الشيطان يلعب بهؤلاء أعظم من لعب الصبيان بالكرة والنفس متحركة فإن سكنت فبإذن الله ، وإلا فهي لا تزال متحركة .

وشبهها بعضهم بكرة على مستوى أملس ، لا تزال تتحرك عليه ، وفي الحديث المرفوع . . القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً (٢) .

وفي الحديث الآخر : مثل القلب ، مثل ريشة بفلاة من الأرض تحركها الريح (٣) .

وفي صحيح البخاري عن سالم عن ابن عمر قال : كانت يمين رسول الله ﷺ : لا ومقلب القلوب (٤) وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أنه

---

(١) سورة الإسراء آية رقم ٦٤ .

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٦ : ٤ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٤١٩ (حلبي) .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الايمان والنذور ، ٣ باب كيف كانت يمين النبي ـ ﷺ ـ ٦٦٢٨ ـ حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان عن موسى بن عقبة عن سالم ـ عن ابن عمر قال : وذكره ورواه في التوحيد ١١ والترمذي في النذور ١٣ وابن ماجه في الكفارات أو صاحب الموطأ في النذور ١٥ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٢٧ (حلبي) .

سمع النبي ﷺ يقول :

اللهم مصرف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك (١) . وفي الترمذي : عن أبي سفيان قال : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قال : فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء (٢) .

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم - في كتاب القدر ١٧ - قال زهير ، حدثنا عبدالله بن يزيد المقرىء ، قال : حدثنا حيوة ، أخبرني أبو هانىء أنه سمع أبا عبد الرحمن أنه سمع عبدالله ابن عمرو بن العاص يقول إنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : إن قلوب بني آدم بين اصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله - ﷺ - وذكره .

(٢) الحديث عند الامام الترمذي في كتاب القدر ٧ والدعوات ٨٩ ، ١٢٤ ، وابن ماجه في الدعاء ٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ١٨٢ ، ٦،٤١٨ : ٩١ ، ٢٥١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ .

فصل
في تحريم الزواج من الزاني والزانية

وقوله تعالى ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً والزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُها إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٍ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ (١) .

لما أمر الله تعالى بعقوبة الزانين حرم مناكحتهما على المؤمنين هجراً لهما ، ولما معهما من الذنوب والسيئات . كما قال تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ (٢) وجعل مجالس ذلك فاعل المنكر مثله بقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ ﴾ (٣) وهو زوج له وقد قال تعالى ﴿ احْشُرُوْا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (٤) . أي عشراءهم وقرناءهم وأشباههم ونظراءهم ولهذا يقال : المستمع شريك المغتاب . ورفع إلى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر وكان فيهم جليس لهم صائم فقال « ابدءوا به في الجلد . ألم تسمع الله يقول ﴿ فَلَا تَقْعُدُوْا مَعَهُمْ ﴾ (٥) فإذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة حين فعلهم للمنكر يكون مجالسهم مثلاً لهم فكيف بالعشرة الدائمة .

(١) سورة النور آية رقم ٣ .

(٢) سورة المدثر آية رقم ٥ .

(٣) سورة النساء آية رقم ١٤٠ .

(٤) سورة الصافات آية رقم ٢٢ .

(٥) سورة النساء آية رقم ١٤٠ .

والـزوج يقال لـه العشير ، كمـا في الحديث من حـديث ابن عباس عن النبي ﷺ قـال : رأيت النار فـإذا أكثر أهلهـا النسـاء يكفـرن ، قيـل : يكفـرن بالله ؟ قال : يكفرن العشير ويكفرن الإحسان » [1] .

فأخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك .

أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجامعة أهلها وأما الزاني ففجوره يدعـوه إلى ذلك وإن لم يكن مشـركاً وفي الآيـة دليل على أن الـزاني ليس بمؤمن مطلق الإيمان وإن لم يكن كافراً مشـركاً كمـا في الصحيح : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » [2] وذلك أنه أخبر أنه لا ينكـح إلا زانية أو مشـركة . ثم قـال تعالى ﴿ وَحُـرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3] فعلم أن الإيمـان يمنـع من ذلك ويـزجر ، وأن فـاعله إما مشـرك وإمـا زان ، ليس من المؤمنين الذين يمنعهم إيمانهم من ذلك ، وذلك أن الزانية فيها إفساد فـراش الرجـل ، وفي مناكحتها معـاشرة الفـاجرة دائمـاً ومصاحبتهـا ، والله قد أمـر بهجر السـوء وأهله ما داموا عليه وهذا المعنى موجود في الـزاني ، فإن الـزاني إن لم يفسد

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الحيض ٦ باب ترك الحائض الصوم ـ ٣٠٤ قال أخبرنا محمد ابن جعفر قال أخبـرني زيد هـو ابن أسلم عن عياض بـن عبـدالله عن أبي سعيد الخـدري قال خرج رسول الله ـ ﷺ ـ في أضحى أو في فطر إلى المصلى ـ فمر على النسـاء فقال : يـا معشر النسـاء تصدقن . وذكـره . ورواه الإمام مسلم في إيمـان ١٣٢ ـ والعيـدين ٤ ، والنسـائي في العيدين ١٩ وابن ماجـه في الفتن ١٩ والدارمي في الـوضوء ١٠٤ والصـلاة ٢٢٤ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ :٣٠٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٣ : ٣١٨ (حلبي) .

(٢) الحـديث رواه الامام البخـاري في كتاب المـظالم ٣٠ باب النهي بغيـر إذن صـاحبـه ٢٤٧٥ ـ حدثني الليث ، حدثنا عقيل عن ابن شهاب عن أبي بكر بن عبـد الرحمن ، عن أبي هـريرة ـ رضي الله عنه قال : قال النبي ـ ﷺ ـ وذكره . وفيه زيادة (ولا يشرب الخمر حين يشربها وهـو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينهب نهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينهبها وهو مؤمن) ورواه الإمـام مسلم في الإيمان ١٠٠ ، ١٠٤ ! والتـرمذي في إيمـان ١١ ، والنسـائي في الأشربـة ٤٢ ، وابن ماجـه في الفتن ٣ ، والدارمي في الأشـربة ١١ وأحمـد بن حنبل في المسند ٢ : ١٢٩ (حلبي) .

(٣) سورة النور آية رقم ٣ .

فراش امرأته كان قرين سوء لها ، كما قال الشعبي [1] من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها .

وهذا مما يدخل به على المرأة ضرر في دينها ودنياها ، فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش ، ونكاح الزاني أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم على المرأة ، فتبقى المرأة الحرة العفيفة في أسر الفاجر الزاني يقصر من حقوقها ويتعدى عليها .

ولهذا اتفق الفقهاء على اعتبار الكفاءة في الدين وعلى ثبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة .

واختلفوا في صحة النكاح بدون ذلك ، وهما قولان مشهوران في مذهب أحمد وغيره ، فإن من نكح زانية مع أنها تزني فقد رضي بأن يشترك هو وغيره فيها ، ورضي لنفسه بالقيادة والدياثة ، ومن نكحت زان وهو يزني بغيرها فهو لا يصون ماءه حتى يضعه فيها ، بل يرميه فيها وفي غيرها من البغايا فهي بمنزلة الزانية المتخذة خدنا فإن مقصود النكاح حفظ الماء في المرأة وهذا الرجل لا يحفظ ماءه ، والله سبحانه شرط في الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين فقال ﴿ **وأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافحينَ** ﴾[2] .

وهذا المعنى مما لا ينبغي إغفاله فإن القرآن قد نصه وبينه بياناً مفروضاً

---

(١) هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري أبو عمرو : راوية من التابعين . يضرب المثل بحفظه . ولد عام ١٩ هـ بالكوفة ومات فجأة بها عام ١٠٣ هـ وهو من رجال الحديث الثقات استقضاه عمر بن عبد العزيز ، وكان فقيهاً شاعراً ، واختلفوا في اسم أبيه فقيل شراحيل ، وقيل عبدالله نسبته إلى شعب ، وهو بطن من همدان . [راجع تهذيب التهذيب ٥ : ٦٥ والوفيات ١ : ٢٤٤ وحلية الأولياء ٤ : ٣١٠ وتهذيب ابن عساكر ٧ : ١٣٨ وتاريخ بغداد ١٢ : ٢٢٧]

(٢) سورة النساء آية رقم ٢٤ .

كما قال تعالى ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ﴾ [1] فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم ، وفيه آثار عن السلف ، وإن كان الفقهاء قد تنازعوا فيه وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه .

---

(1) سورة النور آية رقم 1 .

فصل

في التوبة شرط للزواج

وقد ادعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿ وَالمُحْصَنَاتُ ﴾ [1] وزعموا أن البغي من المحصنات ، وتلك الآيات حجة عليهم فإن أقل ما في الإحصان العفة ، وإذا اشترط فيه الحرية فذاك تكميل للعفة والإحصان ، ومن حرم نكاح الأمة لئلا يرق ولده كيف يبيح البغي التي تلحق به من ليس بولده ، وأين فساد فراشه من رق ولده ؟!

« إلا زانية أو مشركة » والزانية لا يطأها إلا زان أو مشرك وهذا أبلغ في الحجة عليهم فمن وطىء زانية أو مشركة بنكاح فهو زان وكذلك من وطئها زان ، فإن ذم الزاني بفعله الذي هو الزنا حتى لو استكرهها أو استدخلت ذكره وهو نائم كانت العقوبة للزاني دون قرينه .

وهذه المسألة مبسوطة في كتب الفقه . والمقصود قوله ﴿ الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ [2] فإن هذا يدل على أن الزاني لا يتزوج إلا زانية

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٤ وهي ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيماتراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣ .

أو مشركة ، وأن ذلك حرام على المؤمنين .

وليس هذا لمجرد كونه فاجراً بل لخصوص زناها بدليل أنه جعل المرأة زانية إذا تزوجت زانياً ، كما جعل الزوج زانياً إذا تزوج زانية ، هذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنا ، وإذا كانا مشركين فينبغي أن يعلم ذلك .

ومضمونه أن الرجل الزاني لا يجوز نكاحه حتى يتوب وذلك بأن يوافق اشتراطه الإحصان ، والمرأة إذا كانت زانية لا تحصن فرجها من غير زوجها ، بل يأتيها هو وغيره كان الزوج زانياً هو وغيره يشتركون في وطئها . كما تشترك الزناة في وطء المرأة الواحدة ، ولهذا يجب عليه نفي الولد الذي ليس منه .

فمن نكح زانية فهو زان أي تزوجها ، ومن نكحت زانياً فهي زانية أي تزوجته ، فإن كثيراً من الزناة قصروا أنفسهم على الزواني فتكون المرأة خدناً وخليلاً له لا يأتي غيرها ، فإن الرجل إذا كان زانياً لا يعف امرأته وإذا لم يعفها تشوقت هي إلى غيره فزنت به ، كما هو الغالب على نساء الزواني ، أو من يلوط بالصبيان فإن نساءه يزنين ليقضين إربهن ووطرهن ويراغمن أزواجهن بذلك حيث لم يعفوا أنفسهم عن غير أزواجهن ، ولهذا يقال : عفوا تعف نساؤكم وأبناؤكم، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم فإن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان (1) ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها ، فإن الرجل إذا رضي أن ينكح زانية رضي بأن تزني امرأته ، والله تعالى قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة ، فالمرء يحب لنفسه ما يحب للآخر .

فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانياً فقد رضيت عمله . وكذلك إن رضي الرجل أن ينكح زانية فقد رضي عملها ومن رضي الزنا كان بمنزلة الزاني ،

---

(1) يقال في المثل : كما تدين تدان . وقد ورد هذا في حديث مرفوع [أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن النبي - ﷺ - بهذا - وهو مرسل رجاله ثقات . ورواه عبد الرزاق بهذا الإسناد أيضاً عن أبي قلابة عن أبي الدرداء موقوفاً ، وأبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء ، وله شواهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه] .

فإن أصل الفعل هو الإرادة ، ولهذا جاء في الأثر : من غاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها أو فعلها : وفي الحديث . . المرء على دين خليله » [1] .

وأعظم الخلة خلة الزوجين .

وأيضاً : فإن الله قد جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف ، فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته أعظم من غيرته على نفسه أن يزني ، فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغياً وهو ديوث كيف يكره أن يكون هو زانٍ ؟ !

ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعف عن الزنا ؛ فإن الزاني له شهوة في نفسه ، والديوث ليس له شهوة في زنا غيره ، فإذا لم يكن معه إيمان يكره به زنا غيره بزوجته كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنا ؟ !

فمن استحل أن يترك امرأته تزني استحل أعظم الزنا ومن أعان على ذلك فهو كالزاني ، ومن أقر على ذلك مع إمكان تغييره فقد رضيه ، ومن تزوج غير تائبة فقد رضي أن تزني إذ لا يمكنه منعها من ذلك فإن كيد النساء عظيم .

ولهذا جاز للرجل إذا أتت امرأته بفاحشة مبينة أن يعضلها[2] لتفتدي

---

(١) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب الزهد ٤٥ وأبو داود في كتاب الأدب ١٦ والإمام أحمد ابن حنبل في المسند ٢ :٣٠٣ ، ٣٣٤ (حلبي) .

(٢) العضل : هو أن يطلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضي عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك . وفي ذلك نزل قول الله تعالى ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ .

وقد روي أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار المزني وأخته فقال البخاري عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبيدالله بن سعيد ، حدثنا أبو عامر العقدي ، حدثنا عباد بن راشد ، حدثنا الحسن ، قال : حدثني معقل بن يسار قال : كانت لي أخت تخطب لي فزوجتها فطلقها =

نفسها منه ، وهو نص أحمد وغيره ؛ لأنها بزناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لإفساد نكاحه ، فإنه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب ، ولا يسقط المهر بمجرد زناها ، كما دل عليه قول النبي ﷺ للملاعن لما قال : مالي ، قال : لا مال لك عندها إن كنت صادقاً عليها فهو بما استحللت من فرجها ، وإن كنت كاذباً عليها فهو أبعد لك ، لأنها إذا زنت قد تتوب ، ولكن زناها يبيح له إعضالها حتى تفتدي منه نفسها إن اختارت فراقه أو تتوب .

وفي الغالب أن الرجل لا يزني بغير امرأته إلا إذا أعجبه ذلك الغير ، فلا يزال يزني بما يعجبه فتبقى امرأته بمنزلة المعلقة التي لا هي أيم ولا ذات زوج فيدعوها ذلك إلى الزنا ، ويكون الباعث لها على ذلك مقابلة زوجها على وجه القصاص مكايدة له ومغايظة فإنه ما لم يحفظ غيبها لم تحفظ غيبه ، ولها في بضعه حق كما له في بضعها حق . فإذا كان من العادين لخروجه عما أباح الله له لم يكن قد أحصن نفسه وأيضاً : فإن داعية الزاني تشتغل بما يختاره من البغايا فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة ولا غيرته كافية في إحصانه المرأة، فتكون عنده كالزانية المتخذة خدناً ، وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها .

وعلى هذا فالمرأة المساحقة زانية كما جاء في الحديث « زنا النساء سحاقهن » (١) .

والرجل الذي يعمل عمل قوم لوط بمملوك أو غيره هو زان والمرأة

= زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل فنزلت. وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير ، وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يسار به ، وصححه الترمذي أيضاً .

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق - باب المتعة التي لم يفرض لها ، عن ابن عمر رضي الله عنهما حديث ٢١٦٣ ، ورواه الإمام مسلم في كتاب اللعان ، وأبو داود كتاب النكاح . ورواه الإمام الترمذي (النكاح) ، والنسائي (اللعان) ورواه الدارمي في كتاب النكاح ، ورواه الامام مالك في الموطأ في كتاب اللعان ، ورواه الامام أحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٥١١ (حلبي) .

الناكحة له زانية ، فلا تنكحه إلا زانية أو مشركة ولهذا يكثر في نساء اللوطية من تزني بغير زوجها وربما زنت بمن يتلوط هو به مراغمة له وقضاء لوطرها ، وكذلك المرأة المزوجة بمخنث ينكح كما تنكح هي متزوجة بزان ، بل هو أسوأ الشخصين حالاً ، فإنه مع الزنا صار مخنثاً ملعوناً على نفسه للتخنيث غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط فإن النبي ﷺ لعن من يعمل عمل قوم لوط ، وثبت عنه في الصحيح أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال « أخرجوهم من بيوتكم » (١) وكيف يجوز للمرأة أن تتزوج بمخنث قد انتقلت شهوته إلى دبره ؟ فهو يؤتى كما تؤتى المرأة ، وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزاني بغير امرأته عنها ، فإذا لم تكن له غيرة على نفسه ضعفت غيرته على امرأته وغيرها ، ولهذا يوجد من كان مخنثاً ليس له كبير غيره على ولده ومملوكه ومن يكفله .

والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطي كانت على دينه فتكون زانية وأبلغ ، فإن تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه ، فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها .

ولفظ هذه الآية وهو قوله تعالى ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ﴾ (٢) الآية . يتناول هذا كله إما بطريق عموم اللفظ ، أو بطريق التنبيه ، وفحوى الخطاب الذي هو أقوى من مدلول اللفظ ، وأدنى ذلك أن يكون بطريق القياس كما قد بيناه في حد اللوطي ونحوه ، والله أعلم .

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة النور آية رقم ٣ .

فصل
نفي الخبائث عن نساء الأنبياء

وقوله تعالى ﴿ الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيْثِيْنَ وَالخَبِيْثُوْنَ لِلْخَبِيْثَاتِ وَالْطَيِّبَاتُ لِلطَيِّبِيْنَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطيِّبَاتِ ﴾ (١) فأخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين ، فلا تكون خبيثة لطيب فإن ذلك خلاف الحصر ، فلا تنكح الزانية الخبيثة إلا زانياً خبيثاً .

وأخبر أن الطيبين للطيبات فلا يكون الطيب لامرأة خبيثة، فإن ذلك خلاف الحصر ، إذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين فلا تبقى خبيثة لطيب ولا طيب لخبيثة .

وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين فلا تبقى طيبة لخبيث، فجاء الحصر من الجانبين موافقاً لقوله . ﴿ الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المُؤْمِنِيْنَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النور آية رقم ٢٦ .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما نزلت في عائشة وأهل الإفك ، وهكذا روي عن مجاهد ، وعطاء وسعيد بن جبير ، والشعبي ، والحسن بن أبي الحسن البصري ، وحبيب بن أبي ثابت والضحاك ، واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى ﴿ **أولئك مبرءون مما يقولون** ﴾ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣ .

ولهذا قال من قال من السلف : ما بغت امرأة بني قط ، فإن هذه السورة نزل صدرها بسبب أهل الإفك وما قالوه في عائشة ، ولهذا لما قيل فيها ما قيل ، وصارت شبهة استشار النبي ﷺ من استشاره في طلاقها قبل أن تنزل براءتها ، إذ لا يصح له أن تكون امرأته غير طيبة .

وقد روي « أنه لا يدخل الجنة ديوث » (١) والديوث الذي يقر السوء في أهله . ولهذا كانت الغيرة على الزنا مما يحبها الله وأمر بها حتى قال النبي ﷺ « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني »(٢)، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولهذا أذن الله للقاذف إذا كان زوجها أن يلاعن فيشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين وجعل ذلك يدفع عنه حد القذف ، كما لو أقام على ذلك أربعة شهود ، لأنه محتاج إلى قذفها لأجل ما أمر الله به من الغيرة ، ولأنها ظلمته بإفساد فراشه وإن كانت قد حبلت من الزنا فعليه اللعان لينفي عنه النسب الباطل لئلا يلحق به ما ليس منه .

---

(١) ورد الحديث في النسائي في كتاب الزكاة (باب المنان إذا أعطى)

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ٢ : ٣٢٦ (حلبي) ورواه الإمام البخاري في (كتاب النكاح ـ باب الغيرة ـ وفي كتاب الحدود) ورواه الإمام مسلم في كتاب اللعان ورواه الامام الدارمي (كتاب النكاح) .

فصل

التفريق بين المتلاعنين

وقد مضت سنة النبي ﷺ بالتفريق بين المتلاعنين سواء حصلت الفرقة بتلاعنهما أو احتاجت إلى تفريق الحاكم ، أو حصلت عند انقضاء لعان الزوج لأن أحدهما ملعون أو خبيث فاقترانهما بعد ذلك يقتضي مقارنة الخبيث الملعون للطيب .

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين « حديث المرأة التي لعنت ناقة لها فأمر النبي ﷺ فأخذ ما عليها وأرسلت ، وقال : لا تصحبنا ناقة ملعونة » .

وفي الصحيحين عنه أنه لما اجتاز بديار ثمود قال « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونواباكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لئلا يصيبكم ما أصابهم » (١) .

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الصلاة ٥٣ باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب .

٤٣٣ ـ حدثنا إسماعيل بن عبدالله قال : حدثني مالك عن عبدالله بن دينار عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ قال : وذكره .

ورواه الإمام مسلم في كتاب الزهد ٣٨ باب **﴿ لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ﴾** . أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يونس عن ابن شهاب وهو يذكر الحجر مساكن ثمود قال سالم بن عبدالله إن عبدالله بن عمر قال مررنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ على الحجر فقال لنا رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره . =

فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المانع من العذاب .

وهكذا السنة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي : لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالطهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل ، وأقل ذلك أن يكون منكراً لظلمهم ، ماقتاً لهم ، شانئاً ما هم فيه بحسب الإمكان ، كما في الحديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»(١) . وقال تعالى ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً لِلَّذِيْنَ آمَنُوْا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ﴾ (٢) . الآية .

وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار . وذلك أن مقارنة الفجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين : أحدهما أن يكون مكرهاً عليه .

والثاني : أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة ، او ان يكون في تركها مفسدة راجحة في دينه فيدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما ، وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة ، وفي الحقيقة فالمكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما وهو الأمر الذي أكره عليه قال تعالى ﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ ﴾(٣) وقال تعالى ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوْا فَتَيَاتِكُمْ على البغَاءِ ﴾(٤) ثم قال ﴿ وَمَنْ يُكْرِههُنَّ فإنَّ الله مِنْ بَعْدِ إكْرَاهِهِن غَفُوْرٌ رَحِيْمٌ ﴾(٥) .

= ورواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٩ ، ٦٦ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٧ (حلبي) .

(١) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب الايمان ٢٠ باب كون النهي عن المنكر من الايمان ، وأن الايمان يزيد وينقص ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ٧٨ - (٤٩) بسنده عن طارق بن زياد عن أبي سعيد وذكره ، ورواه أبو داود في الصلاة ٢٣٢ وابن ماجه في الإقامة ١٥٥ والفتن ٢٠ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢ ، ٥ ، ٣ : ٢٠ ، ٤٩ ، ٥٣ (حلبي) .

(٢) سورة التحريم آية رقم ١١ .

(٣) سورة النحل آية رقم ١٠٦ .

(٤) سورة النور آية رقم ٣٣ .

(٥) سورة النور آية رقم ٣٣ .

وقال تعالى : ﴿ إنّ الَّذِيْنَ تَوَفَّاهُمْ الملائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوْا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوْا كُنَّا مُسْتَضْعَفِيْنَ في الأَرْضِ قَالُوْا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوْا فِيْهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيْراً إلاَّ المُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ حِيْلَةً وَلاَ يَهْتَدُوْنَ سَبِيْلاً فَأُوْلَئِكَ عَسَى الله أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُم وَكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً ﴾(١) .

وقال ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ الله والمُسْتَضْعَفِيْنَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ ﴾ (٢) الآية فقد دلت هذه الآية على النهي عن مناكحة الزاني والمناكحة نوع خاص من المعاشرة والمزاوجة والمقارنة والمصاحبة ، ولهذا سمي كل منهما زوجاً وصاحباً وقريناً وعشيراً للآخر .

والمناكحة في أصل اللغة المجامعة والمضامة فقلوبهما تجتمع إذا عقد العقد بينهما ، ويصير بينهما من التعاطف والتراحم ما لم يكن قبل ذلك حتى تثبت بذلك حرمة المصاهرة في غير الربيبة لمجرد ذلك والتوارث وعدة الوفاة وغير ذلك . وأوسط ذلك اجتماعهما خاليين في مكان واحد وهو المعاشرة المقررة للصداق ، كما قضى به الخلفاء وآخر ذلك اجتماع المباضعة ، وهذا وإن اجتمع بدون عقد نكاح فهو اجتماع ضعيف ، بل اجتماع القلوب أعظم من مجرد اجتماع البدنين بالسفاح ودل قوله ﴿ الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾(٣) على ذلك من جهة المعنى ،

---

(١) سورة النساء اية رقم ٩٧ ـ ٩٩ .

قال أبو داود حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثني يحيى بن حسان ، أخبرنا سليمان بن موسى أبو داود ، حدثنا جعفر بن سعد بن سمرة بن جندب حدثني حبيب بن سليمان عن أبيه سليمان بن سمرة عن سمرة بن جندب أما بعد . قال رسول الله ـ ﷺ ـ من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله ، وقال السدي ، لما أسر العباس وعقيل ، ونوفل قال رسول الله ـ ﷺ ـ للعباس : إفد نفسك وابن أخيك . فقال : يا رسول الله ألم نصل إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك . قال يا عباس : إنكم خاصمتم فخصمتم ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

(٢) سورة النساء آية رقم ٧٥ .

(٣) سورة النور آية رقم ٢٦ .

ومن جهة اللفظ ، ودل أيضاً على النهي عن مقارنة الفجار ومزاوجتهم ، كما دل على هذا غير ذلك من النصوص :

مثل قوله ﴿ احْشُرُوْا الَّذِيْنَ ظَلَمُوْا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [1] أي : وأشباههم ونظراءهم . والزوج أعم من النكاح المعروف . قال تعالى ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُوْرَ أَوْ يُزَوِجَهُمْ ذُكْرَاناً وإنَاثاً ﴾ [2] .

وقال ﴿ وَإِذَا النُّفُوْسُ زُوِّجَتْ ﴾ [3] وقال ﴿ مِنْ كُل زَوْجٍ بَهِيْجٍ ﴾ [4] . و﴿ كريم ﴾ [5] .

وقال ﴿ وَمِنْ كُلِّ شيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنَ ﴾ [6] وقال ﴿ جَعَلَ فِيْهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْن ﴾ [7] وقال ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ [8] وقال ﴿ قُلْنَا احْمِل فِيْهَا مِنْ كُلٍ زَوْجَيْنَ اثْنَيْنِ ﴾ [9] .

وقال ﴿ إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ﴾ [10] وإن كان في الآية نص على الزوجة التي هي الصاحبة ، وفي الولد منها .

فمعنى ذلك في كل مشابه ومقارن ومشارك وفي كل فرع وتابع .

فالحمدلله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن

---

(١) سورة الصافات آية رقم ٢٢ .
(٢) سورة الشورى آية رقم ٤٩ ـ ٥٠ .
(٣) سورة التكوير آية رقم ٧ .
(٤) سورة الحج آية رقم ٥ وسورة ق آية رقم ٧ .
(٥) سورة الشعراء آية رقم ٧ وسورة لقمان آية رقم ١٠ .
(٦) سورة الذاريات آية رقم ٤٩ .
(٧) سورة الرعد آية رقم ٣ .
(٨) سورة النبأ آية رقم ٨ .
(٩) سورة هود آية رقم ٤٠ .
(١٠) سورة التغابن آية رقم ١٤ .

له ولي من الذل .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُوْنَ لِلْعَالَمِيْنَ نَذِيْراً * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيْراً ﴾ (١) .

فالمصاحبة والمصاهرة والمؤاخاة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله تعالى على مراد الله ، ويدل على ذلك الحديث الذي في السنن « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » (٢) .

وفيها « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل (٣) » ومن الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ثم إن زنت فليبعها ولو بضفير » (٤) والضفير الحبل ، وشك الراوي هل أمر ببيعها في الثالثة أو الرابعة ، وهذا أمر من النبي ﷺ ببيع الأمة بعد إقامة الحد عليها مرتين أو ثلاثا، ولو بأدنى مال .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ١ ، ٢ .

(٢) الحديث رواه الدارمي في الأطعمة ٢٣ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٨ ، ٦٥ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الأدب ١٦ ، والامام الترمذي في الزهد ٤٥ ، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب العتق ١٧ باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله عبدي وأمتي ، ٢٥٥٥ ، ٢٥٥٦ - حدثنا مالك بن اسماعيل ، حدثنا سفيان عن الزهري ، حدثني عبيدالله سمعت أبا هريرة - رضي الله عنه وزيد بن خالد ، عن النبي - ﷺ - قال : وذكره . وفي الحدود ٣٥ ، والبيوع ١٦ ورواه الإمام مسلم في الحدود ٣٢ ، وأبو داود في الحدود ٣٢ ، والترمذي في الحدود ٨ وابن ماجه في الحدود ١٤ ، والدارمي في الحدود ١٨ ، وصاحب الموطأ في الحدود ١٤ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٩ ، ٣٧٦ ، ٤٢٢ ، ٤ : ١١٦ ، ١١٧ ، ٣٤٣ ، ٦ : ٦٥ (حلبي) .

قال الإمام أحمد : إن لم يبعها كان تاركاً لأمر النبي ﷺ .

والإماء اللاتي يفعلن هذا تكون عامتهن للخدمة لا للتمتع .

وإذا وجب إخراج الأمة الزانية عن ملكه ، فكيف بالزوجة الزانية ، والعبد والمملوك نظير الأمة . ويدل على ذلك كله ما رواه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه لعن من أحدث حدثاً ، أو آوى محدثاً » (١) .

فهذا يوجب لعنة كل من آوى محدثاً سواء كان إحداثه بالزنا أو السرقة ، أو غير ذلك ، وسواء كان الإيواء بملك يمين أو نكاح أو غير ذلك ، لأن أقل ما في ذلك تركه إنكار المنكر .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٦ باب إثم من آوى محدثاً رواه علي عن النبي - ﷺ ٧٣٠٦ - حدثنا عبد الواحد ، حدثنا عاصم ، قال : قلت لأنس : أحرم رسول الله - ﷺ - المدينة . قال : نعم ما بين كذا إلى كذا وذكره . ورواه الإمام مسلم في كتاب الحجج ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٨ (حلبي) .

فصل

الإختبار والامتحان للمصاحبة

والمؤمن محتاج إلى امتحان من يريد أن يصاحبه ويقارنه بنكاح وغيره .

قال تعالى ﴿ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ (١) الآية وكذلك المرأة التي زنا بها الرجل ، فإنه لا يتزوج بها إلا بعد التوبة في أصح القولين . كما دل عليه الكتاب والسنة والآثار ، لكن إذا أراد أن يمتحنها هل هي صحيحة التوبة أم لا ؟ .

فقال عبدالله بن عمر وهو المنصوص عن أحمد : أنه يراودها عن نفسها، فإن أجابته لم تصح توبتها وإن لم تجبه فقد تابت .

وقالت طائفة : هذا الإمتحان فيه طلب الفاحشة منها ، وقد تنقض التوبة ، وقد تأمره نفسه بتحقيق فعل الفاحشة ويزين لهما الشيطان ذلك ولا

---

(١) سورة الممتحنة آية رقم ١٠ وتكملة الآية ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وآسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾ .

ويقال في سبب نزول هذه الآية : أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هاجرت إلى المدينة فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان » .

سيما إن كان يحبها وتحبه ، وقد تقدم له معها فعل الفاحشة مرات وذاقته وذاقها ، فقد تنقض التوبة ولا تخالفه فيما أراده منها .

ومن قال بالأول قال : الأمر الذي يقصد به امتحانها لا يقصد به نفس الفعل ، فلا يكون أمراً بما نهى الله عنه ، ويمكنه أن لا يطلب الفاحشة بل يعرض بها وينوي شيئاً آخر ، والتعريض للحاجة جائز ، بل واجب في مواضع كثيرة . وأما نقضها توبتها فإذا جاز أن تنقض التوبة معه جاز أن تنقضها مع غيره .

والمقصود أن تكون ممتنعة ممن يراودها ، فإذا لم تكن ممتنعة منه لم تكن ممتنعة من غيره. وأما تزيين الشيطان له الفعل فهذا داخل في كل أمر يفعله الإنسان من الخير يجد فيه محبته ، فإذا أراد الإنسان أن يصاحب المؤمن ، أو أراد المؤمن أن يصاحب أحداً ، وقد ذكر عنه الفجور وقيل : إنه تاب منه ، أو كان ذلك مقولاً عنه سواء كان ذلك القول صدقاً أو كذباً : فإنه يمتحنه بما يظهر به بره أو فجوره وصدقه أو كذبه وكذلك إذا أراد أن يولي أحداً ولاية امتحنه كما أمر عمر بن عبد العزيز [1] غلامه أن يمتحن ابن أبي موسى لما أعجبه سمته ، فقال له : قد علمت مكاني عند أمير المؤمنين فكم تعطيني إذا أشرت عليه بولايتك ؟ فبذل له مالاً عظيماً ، فعلم عمر أنه ليس ممن يصلح للولاية ، وكذلك في المعاملات ، وكذلك الصبيان والمماليك الذين عرفوا أو قيل عنهم الفجور ، وأراد الرجل أن يشتريه بأنه يمتحنه فإن المخنث كالبغي وتوبته كتوبتها ، ومعرفة أحوال الناس تارة تكون بشهادات الناس وتارة تكون بالجرح والتعديل ، وتارة تكون بالاختبار والامتحان .

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

فصل
في التثبت قبل القذف ورمي المحصنات

وكما عظم الله الفاحشة عظم ذكرها بالباطل وهو القذف ، فقال بعد ذلك : ﴿ وَالَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوْا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوْهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةٍ ﴾ (١) .

ثم ذكر رمي الرجل امرأته ، وما أمر فيه من التلاعن ثم ذكر قصة أهل الإفك ، وبين ما في ذلك من الخير للمقذوف المكذوب عليه ، وما فيه من الإثم للقاذف ، وما يجب على المؤمنين إذا سمعوا ذلك أن يظنوا بإخوانهم من المؤمنين الخير ويقولون هذا إفك مبين، لأن دليله كذب ظاهر ثم أخبر أنه قول بلا حجة فقال﴿ لَوْلَا جَاءُوْا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوْا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمْ الْكَاذِبُوْنَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة النور آية رقم ٤ وتكملة الآية ﴿ **ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون** ﴾ .
هذه الآية أوجبت على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام (أحدها) أن يجلد ثمانين جلدة ، (الثاني) أن ترد شهادته أبداً (الثالث) أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس .

(٢) سورة النور آية رقم ١٣ والآية التي قبلها ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا : هذا إفك بين** ﴾ سورة النور آية رقم ١٢ .
وقيل إن هذه الآية نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب خالد بن =

ثم أخبر أنه لولا فضله عليهم ورحمته لَعَذَّبَهُمْ بما تكلموا به .

وقوله ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) فهذا بيان لسبب العذاب ، وهو تلقي الباطل بالألسنة والقول بالأفواه ، وهما نوعان محرمان القول بالباطل والقول بلا علم ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بهذا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهتَانٌ عَظِيْمٌ ﴾ (٢) .

فالأول تحضيض على الظن الحسن ، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف ، ففي الأول قوله : ﴿ اجْتَنِبُوْا كَثِيراً مِنَ الظَّن إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (٣) ويقول النبي ﷺ : إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث (٤) .

وكذا قوله ﴿ ظَنَّ الْمُؤْمِنُوْنَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرَاً ﴾ (٥) .

= زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ـ رضي الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب . . ؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله أفضل منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك ﴿ إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ﴾

(١) سورة النور آية رقم ١٥ .

(٢) سورة النور آية رقم ١٦ .

البهتان : بهته بهتاً أخذه بغتة قال الله تعالى ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم ﴾ وتقول أيضاً بهته بهتاً وبهتا وبهتاناً فهو بهات ، أي قال عليه ما لم يفعله فهو مبهوت.

والبهيتة : البهتان يقال : يا للبهيتة ، بكسر اللام ، وهو استغاثة، وبهت الرجل بالكسر إذا دهش وتحير ، وبهت بالضم مثله ، وأفصح منهما بهت كما قال تعالى : ﴿ فبهت الذي كفر ﴾ قاله الكسائي

(٣) سورة الحجرات آية رقم ١٢ .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الوصايا ٨ باب قول الله عز وجل ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ النساء ٢٢ .

وذكره . ورواه أيضاً في النكاح ٤٥ ، والفرائض ٢ وأدب ٥٧ ، ٥٨ ورواه الإمام مسلم في البر ٢٨ والترمذي في البر ٥٦ ، وصاحب الموطأ في حسن الخلق ١٥، وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٤٥ ، ٢٨٧ ، ٣١٢ ، ٣٤٢ ، ٤٦٥ (حلبي) .

(٥) سورة النور آية رقم ١٢ .

دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله بـه وقد ثبت في الصحيـح أن النبي ﷺ قال لعائشة : « ما أظن فلاناً وفلاناً يدريان من أمرنا هذا شيئاً » .

فهـذا يقتضي جواز بعض الـظن كما احتـج البخاري بـذلك ، لكن مـع العلم بما عليه المرء المسلم من الايمان الوازع له عن فعل الفاحشـة يجب أن يظن به الخير دون الشر .

وفي الآية نهي عن تلقي مثل هذا باللسان ونهي عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَـكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (١) والله تعـالى جعـل في فعـل الفـاحشـة والقـذف من العقـوبـة مـا لم يجعله في شيء من المعاصي لأنه جعل فيها الرجم ، وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعـل فاحشـة اللواط ، وجعـل العقـوبـة على القـذف بهـا ثمـانين جلدة ، والرمي بغيرها فيه الأجتهاد ، ويجوز عنـد بعض العلماء أن يبلغ الثمـانين عند كثيـر منهم ، كما قـال علي « لا أوتي بأحـد يفضلني على أبي بكـر وعمـر إلا جلدته حد المفتري ، وكما قال عبد الرحمن بن عوف: إذا شرب هذى ، وإذا هذى افترى ، وحد الشرب ثمانون وحد المفتري ثمانون . وقوله تعـالى ﴿ إِنَّ الَّـذين يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيْـعَ الفَاحِشَـةُ فِي الَّذين آمنـوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ فِي الـدُّنْيَـا وَالآخِرَة ﴾ (٢) الآية .

وهذا ذم لمن يحب ذلك ، وذلك يكون بالقلب فقط ، ويكون مـع ذلك باللسان والجوارح وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة (٣) ، أو يخبر بها محبة لوقوعها

(١) سورة الإسراء آية رقم ٣٦ .

(٢) سورة النور آية رقم ١٩ .

(٣) الفحشاء : الفاحشـة ، وكل شيء جـاوز حده فهـو فاحش ، وقـد فحش الأمر بـالضم فحشاً ، وتفاحش . ويسمى الزنا فاحشة وقول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني الـذي جـاوز الحد في البخـل ، وأفحش عليـه في المنـطق ، أي قـال : الفحش فهـو فحاش .

في المؤمنين : إما حسداً أو بغضاً ، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها ، وكلاهما محبة للفاحشة وبغضاً للذين آمنوا ، فكل من أحب فعلها ذكرها وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يرغب فيها . وكذلك ذكرها غيبة محرمة ، سواء كان بنظم أو نثر ، وكذلك التشبه بمن يفعلها منهي عنه مثل الأمر بها ، فإن الفعل يطلب بالأمر تارة ، وبالإخبار تارة ، فهذان الأمران للفجرة الزناة اللوطية مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين ، أولئك يعتبرون من الغيرة بهم وهؤلاء يعتبرون من الاغترار ، فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيهم قدوة وأسوة .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً** ﴾ (١) قيل : أراد الغناء : وقيل : أراد قصص الملوك من الكفار من الفرس .

---

(١) سورة لقمان آية رقم ٦ .
روى ابن جرير حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال أخبرنا ابن وهب ، أخبرني يزيد بن يونس عن أبي صخر عن ابن معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو يسأل عن هذه الآية . ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » . فقال عبدالله بن مسعود الغناء والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات . حدثنا عمرو بن علي ، حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا حميد الخراط عن عمار ، عن سعيد بن جبير عن أبي الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله تعالى ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث** ﴾ قال : الغناء وكذا قال ابن عباس، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ومكحول ، وعمرو بن شعيب . وقال الحسن البصري. الغناء والمزامير .

فصل

في معرفة المنكر وإنكاره ومعرفة المعروف وإتيانه

وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها عن معصيته من خبر أو أمر فهو من طاعته وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن طاعته فهو من معصيته ، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة مثل النهي عنها وعنهم ، والذم لها ولهم ، وذكر ما يبغضها وينفر عنها ، وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك ، وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم ، فهذا كله حسن يجب تارة ، ويستحب أخرى ، وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها من العشق على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه ، والبغض لما يبغضه وهذا كما أن الله قص علينا في القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين ، وقصص الفجار والكفار لنعتبر بالأمرين ، فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم ، ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم .

وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر الفاحشة وعلائقها على الوجه الذم ما فيه عبرة .

قال تعالى ﴿ **وَلُوْطَاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِيْنَ** ﴾ (١) إلى آخر القصة في مواضع من كتابه ، فهذا لوط

(١) سورة العنكبوت آية رقم ٢٨ .

خاطب أهل الفاحشة وهو رسول الله - بتقريعهم بها بقوله . ﴿ أَتَأْتُوْنَ الفَاحِشَةَ ﴾ وهذا استفهام إنكار ونهي ، إنكار ذم ونهي كالرجل يقول للرجل : أتفعل كذا وكذا ؟ أما تتقي الله ؟ ثم قال : ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُوْنَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُوْنِ النِّسَاءِ ﴾ (١) .

وهذا استفهام ثانٍ فيه من الذم والتوبيخ ما فيه وليس هذا من باب القذف واللمز . وكذلك قوله ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوْطٍ الْمُرْسَلِيْنَ ﴾ (٢) إلى آخر القصة ، فقد واجههم بذمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة ثم إن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية ، وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاهم طلبوا نفيه وإخراجه ، وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى ، حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنث فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا ، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب .

وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ إلى قوله ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيْعُ الْعَلِيْمُ ﴾ (٣) .

وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (٤) . وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهار النفوس عن معصية الله والتمسك بالتقوى وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ (٥) ومع هذا فمن الناس والنساء من يحب سماع هذه السورة لما فيها من ذكر العشق وما يتعلق به لمحبته لذلك

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨١ .
(٢) سورة الشعراء آية رقم ١٦٠ .
(٣) سورة يوسف الآيات رقم ٢٣ - ٣٤ .
(٤) سورة يوسف آية رقم ٥٠ .
(٥) سورة يوسف آية رقم ١١١ .

ورغبته في الفاحشة حتى إن من الناس من يقصد اسماعها للنساء وغيرهن لمحبتهم للسوء ، ويعطفون على ذلك ولا يختارون أن يسمعوا ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك ، حتى قال بعض السلف ، كما حصلته في سورة يوسف أنفقته في سورة النور ، قد قال تعالى ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ثم قال ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِيْنَ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (٢) وقال﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُوْرَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُوْلُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوْا فَزَادَتْهُمْ إِيْمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُوْنَ وَأَمَّا الَّذِيْنَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رَجْسَاً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوْا وَهُمْ كَافِرُوْنَ ﴾ (٣) . فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة ويبغض سماع ذلك إعراضاً عن دفع هذه المحبة وإزالتها فهو مذموم .

ومن هذا الباب ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب في معصية الله وصدعن سبيل الله . ومن هذا الباب سماع كلام أهل البدع والنظر في كتبهم لمن يضره ذلك ويدعوه إلى سبيلهم وإلى معصية الله ، فهذا الباب تجتمع فيه الشبهات والشهوات والله تعالى ذم هؤلاء في مثل قوله :

﴿ يُوْحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوْراً ﴾ (٤) وفي مثل قوله ﴿ والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ ﴾ (٥) ومثل قوله ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِيْنُ ﴾ (٦) الآية وما بعدها .

ومثل قوله ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيْلَ الله

(١) (٢) سورة الاسراء آية رقم ٨٢ .
(٣) سورة التوبة آية رقم ١٢٤ ـ١٢٥ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ١١٢ .
(٥) سورة الشعراء آية رقم ٢٢٤ .
(٦) سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ .

بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً ﴾ [١] وقوله ﴿ مُسْتَكْبِرِيْنَ بِهِ سَامراً تَهْجُرُوْنَ ﴾ [٢] ومثل قوله ﴿ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوْهُ سَبِيْلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيْلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيْلاً ﴾ [٣] .

ومثل قوله ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوْكَ عن سَبِيْلِ اللهِ ﴾ [٤] .

ومثل هذا كثير في القرآن ، فأهل المعاصي كثيرون في العالم بل هم أكثر كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيْلِ اللهِ ﴾ [٥] الآية . وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولاً وعملاً ما لا يعلمه إلا الله ، وأهلها يدعون الناس إليها ، ويقهرون من يعصيهم ، ويزينونها لمن يطيعهم، فهم أعداء الرسل وأندادهم فرسل الله يدعون الناس إلى طاعة الله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة ، ويجاهدون عليها ، وينهونهم عن معاصي الله ، ويحذرونهم منها بالرغبة والرهبة ، ويجاهدون من يفعلها ، وهؤلاء يدعون الناس إلى معصية الله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة قولاً وفعلاً ويجاهدون على ذلك .

قال تعالى ﴿ الْمُنَافِقُوْنَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوْفِ وَيَقْبِضُوْنَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوْا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ المنافِقِينَ هُمُ الفَاسِقُوْنَ ﴾ [٦] .

ثم قال ﴿ وَالْمُؤْمِنُوْنَ والمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُوْنَ

---

(١) سورة لقمان آية رقم ٦ .
(٢) سورة المؤمنون آية رقم ٦٧ .
(٣) سورة الأعراف آية رقم ١٤٦ .
(٤) سورة الأنعام آية رقم ١١٦ .
(٥) سورة الأنعام آية رقم ١١٦ .
(٦) سورة التوبة آية رقم ٦٧ .

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَونَ عن المُنْكَرِ وَيُقِيْمُوْنَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُـوْنَ الزَّكَـاةَ وَيُطِيْعُـوْنَ الله وَرَسُوْلَهُ . . أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ الَّذِيْنَ آمَنُوْا يُقَاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ الله والـذين كفروا يُقَـاتِلُوْنَ فِي سَبِيْلِ الطَّاغُوْت ﴾ (٢) .

ومثل هذا في القرآن كثير ، والله سبحانه قد أمرنا بالمعـروف والنهي عن المنكـر ، والأمر بـالشيء مسبوق بمعـرفته ، فمن لا يعلم المعـروف لا يمكنـه الأمر به ، والنهي عن المنكر مسبوق بمعـرفته . فمن لا يعلمـه لا يمكنه النهي عنـه . وقـد أوجب الله علينـا فعـل المعـروف وتـرك المنكـر فـإن حب الشيء وفعله ، وبغض ذلك وتركـه لا يكون إلا بعـد العلم بهما ، حتى يصـح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر .

فإن ذلك مسبوق بعلمه ، فمن لم يعلم الشيء لم يتصور منه حب له ولا بغض ، ولا فعـل ولا ترك . لكن فعـل الشيء والأمر بـه يقتضي أن يعلم علماً مفصلاً يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلاً .

ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر بـه من الواجبـات مثل صفـة الصلاة والصيام والحج والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إذا أمر بأوصـاف فلا بـد من العلم بثبوتهـا ، فكما أنـا لا نكون مـطيعين إذا علمنا عدم الطاعة فلا نكون مطيعين إلا إذا لم نعلم وجودها ، بـل الجهل بـوجودهـا

---

(١) سورة التوبة آية رقم ٧١ .
لمـا ذكـر الله تعـالى صفـات المنـافقين الـذميمـة عـطف بـذكـر صفـات المؤمنين المحمـودة ﴿ والمؤمنـون والمؤمنات بعضهم أوليـاء بعض ﴾ أي يتنـاصـرون ويتعـاضـدون كمـا جـاء في الصحيح : المؤمن للمؤمن كالبنيـان يشد بعضـه بعضاً » وشبـك بين أصابعـه . وفي الصحيح أيضاً (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تـداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر) . وقوله ﴿ يأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر ﴾ كقـوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ .
(٢) سورة النساء آية رقم ٧٦ .

كالعلم بعدمها ، وكون كل منهما معصية ، فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية بعضها بجنسه فإن لم نعلم المماثلة كان كما لو علمنا المفاضلة .

وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكتفي بمعرفته في بعض المواضع مجملاً .

فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وإنكاره ، وقد يحتاج إلى الحجج المبينة لذلك، وإلى الجواب عما يعارض به أصحابها من الحجج ، وإلى دفع أهوائهم وإرادتهم وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك ، وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى ﴿ **وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوْا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ (١) وأول ذلك أن نذكر الأقوال والأفعال على وجه الذم لها ، والنهي عنها وبيان ما فيها من الفساد ، فإن الإنكار بالقلب واللسان قبل الإنكار باليد وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار والفساق والعصاة من أقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولأهلها وبيان فسادها وضرها والتحذير منها ، كما أن فيما يذكره عن أهل العلم والإيمان ، ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح والحب وبيان صلاحه ومنفعته ، والترغيب فيه ، وذلك نحو قوله تعالى ﴿ **وَقَالُوْا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُوْنَ** ﴾ (٢) ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحمٰنِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي**

---

(١) سورة العصر الآيات رقم ١ ـ ٣ .
ذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبيدالله بن حصن . قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٢٦ .

لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِـذَ وَلَداً ، إن كُـلُّ مَنْ فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ إلاَّ آتى الـرَّحْمٰن عَبْدَاً لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدَّاً وَكُلُّهُمْ آتِيْهِ يَوْمَ القِيامَةِ فَرْداً ﴾ (١)

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُوْدُ عُزَيرٌ ابْنُ الله ﴾ (٢) الآيات .

وهذا كثير جداً فالذي يحب أقوالهم وأفعـالهم هو منهم ، إمـا كافـر وإما فـاجر بحسب قـوله وفعله ، وليس منهم من هـو بعكسه وليس عليـه عذاب في تركه ، لكنه لا يثاب على مجرد عدم ذلك ، وإنما يثاب على قصده لترك ذلك وإرادته ، وذلك مسبوق بالعلم بقبح ذلك وبغضه لله .

وهذا العلم والقصد والبغي هو من الإيمان الذي يثاب عليـه ، وهو أدنى الإيمان كما قـال النبي ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيـره بيده » (٣) إلى آخـره وتغيير القلب يكون بـالبغض لذلـك وكراهتـه وذلك لا يكـون إلا بعد العلم بـه وبقبحه ، ثم بعد ذلـك يكون الإنكـار باللسـان ، ثم يكون بـاليد ، والنبي ﷺ قـال : وذلك أضعـف الإيمـان » فيمن رأى المنكـر فـأمـا إذا رآه فلم يعلم أنـه

---

(١) سورة مريم الآيات من ٨٨ ـ ٩٥ .

قال ابن جرير : حدثني علي ، حدثنا عبدالله ، حدثني معاوية عن علي عن ابن عباس في قوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هـدا أن دعوا للرحمن ولـداً ﴾ قال إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخـلائق إلا الثقلين وكادت أن تـزول منـه لعظمـة الله وكما لا ينفـع مع الشـرك إحسان المشـرك كذلـك نـرجـو أن يغفـر الله ذنـوب الموحدين ، وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لقنوا موتاكم شهادة أن لا إلـه إلا الله فمن قالهـا عند مـوته وجبت له الجنة فقالوا يـا رسول الله فمن قـالها في صحتـه . . ؟ قال : تلك أوجب وأوجب ثم قال : والذي نفسي بيده، لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهـادة أن لا إله إلا الله في الكفـة الأخرى لـرجحت بهن » . هـكذا رواه ابن جرير ، ويشهد له حديث البطاقة والله أعلم.

(٢) سورة التوبة آية رقم ٣٠ .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتـاب الايمان ٧٨ ، وأبـو داود في الصلاة ٢٣٢ ، والمـلاحم ١٧ والنسائي في كتاب الإيمان ١٧ وابن ماجـه في الإقامـة ١٥٥ وكتاب الفتن ٢٠ وأحمـد بن حنبل في المسند ١ : ٢ ، ٣،٥ : ٢٠ ، ١٩ ، ٥٣ (حلبي) .

منكـر ، ولـم يكرهـه لـم يكن هذا الإيمـان موجـوداً في القلب في حال وجـوده ورؤ يتـه ، بحيث يجب بغضه وكـراهته ، والعلم بقبحـه يـوجب جهـاد الكفـار والمنافقين إذا وجدوا ، وإذا لم يكن المنكـر موجـوداً لم يجب ذلك ، ويثـاب من أنكره عند وجوده . ولا يثاب من لم يوجدِ عنـده حتى ينكره ، وكـذلك مـا يـدخل في ذلـك من الأقوال والأفعـال ، المنكرات قـد يعرض عنهـا كثيـر من الناس إعراضهم عن جهاد الكفار والمنافقين وعن الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ، فهؤلاء وإن كانوا من المهاجـرين الذين هجـروا السيئات فليسـوا من المجاهدين الذين يجاهدون في إزالتها ، حتى لا تكون فتنة ويكـون الدين كله لله . فتدبر هذا ، فإنه كثيراً ما يجتمع في كثيـر من الناس هـذان الأمران بغض الكفـر وأهله ، وبغض الفجور وأهله ، وبغض نهيهم وجهـادهم ، كمـا يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ، ولا يجاهد عليـه بالنفس والمـال ، وقد قال تعالى :

﴿ إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُونَ الَّـذِينَ آمَنُوا بِـاللهِ وَرَسُولِـهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَـابُـوا وَجَـاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُوْنَ ﴾ (١) .

وقـال تعـالى ﴿ قُـلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِـأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .
قال الإمام أحمد ، حدثنا يحيى بن غيلان ، حدثنا رشدين ، حدثنا عمرو بن الحـارث عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال : إن النبي ـ ﷺ ـ قال : المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأمـوالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذي يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والذي إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل » .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٢٤ .

وقوله ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمَاً يُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّون مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُوْلَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيْرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِم الإِيْمَانَ وَأَيَدَهُمْ بِرُوْحٍ مِنْه ﴾ (١) الآية .

وكثير من الناس بل أكثرهم كراهتهم للجهاد على المنكرات أعظم من كراهتهم للمنكرات ، لا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت فيها الشبهات والشهوات فربما مالوا إليها تارة وعنها أخرى ، فتكون نفس أحدهم لوامة بعد أن كانت أمارة ، ثم إذا ارتقى إلى الحال الأعلى في هجر السيئات وصارت نفسه مطمئنة تاركة للمنكرات والمكروهات لا تحب الجهاد ومصابرة العدو على ذلك ، واحتمال ما يؤذيه من الأقوال والأفعال ، فإن هذا شيء آخر دال في قوله ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أيديكُمْ وَأَقِيْمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيْقٌ مِنْهُم يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشيةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ (٢) الآيات إلى قوله ﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِ شَيْءٍ مُقِيْتاً ﴾ (٣) .

---

(١) سورة المجادلة آية رقم ٢٢ .

(٢) (٣) سورة النساء آية رقم ٧٧ ـ ٨٥ .

قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن عبد العزيز عن أبي زرعة ، وعلي ابن رمحة قالا : حدثنا علي بن الحسن عن الحسين بن واقد عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس أن عبد الرحمن بن عوف وأصحابه أتوا النبي ـ ﷺ ـ بمكة فقالوا : يا نبي الله كنا في عزة ، ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة قال : إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم ، فلما حوله الله الى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ﴾ الآية ، ورواه النسائي ، والحاكم وابن مردويه من حديث علي بن الحسن بن شقيق به .

فصل

المعين على الاثم داخل فيه والمعين على الخير داخل فيه

والشفاعة الإعانة ، إذ المعين قد صار شفعاً للمعان ، فكل من أعان على بر أو تقوى كان له نصيب منه ، ومن أعان على الإثم والعدوان كان له كفل منه ، وهذا حال الناس فيما يفعلونه بقلوبهم وألسنتهم وأيديهم من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم والعدوان ، ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين كما قال تعالى قبل ذلك ﴿ **يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوْا جَمِيْعاً** ﴾ إلى قوله ﴿ **إنَّ كيد الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً** ﴾ (١) ومن هنا يظهر الفرق في السمع والبصر من الإيمان وآثاره ، والكفر وآثاره ، والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر والفاجر ، فإن المؤمنين يسمعون أخبار أهل الإيمان فيشهدون رؤيتهم على وجه العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم ، كرؤية الصحابة النبي ﷺ وسمعهم لما بلغه عن الله ، والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل ، كما قال تعالى ﴿ **وإنْ يَكادُ الَّذينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِم لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ** ﴾ (٢) .

وقال ﴿**فإذَا أُنْزِلَتْ سورة مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا القِتَالُ رَأَيتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ**

(١) سورة النساء آية رقم ٧١ ـ ٧٦ .

(٢) سورة القلم آية رقم ٥١ .

مَرَضٌ يَنْظُرُوْنَ إِلَيْكَ نَظَرَ المَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ (١) .

وقال ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيْعُوْنَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ (٢) .

وقال ﴿ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ﴾ (٣)

وقال تعالى في حق المؤمنين ﴿ وَالَّذِيْنَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ (٤) وقال في حق الكفار ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِيْنَ ﴾ (٥) والآيات في هذا كثير جداً .

وكذلك النظر إلى زينة الحياة الدنيا فتنة فقال تعالى ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُم زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبك خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ (٦) .

وفي التوبة ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُم وَأَوْلَادُهُمْ ﴾ (٧) الآية وقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ (٨) الآية وقال ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٩) .

وقال ﴿ أَفَلا يَنْظُرُوْنَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (١٠) الآيات . وقال

---

(١) سورة محمد آية رقم ٢٠ .

(٢) سورة هود آية رقم ٢٠ .

(٣) سورة المائدة آية رقم ٧١ .

(٤) سورة الفرقان آية رقم ٧٣ .

(٥) سورة المدثر آية رقم ٤٩ .

(٦) سورة طه آية رقم ١٣١ .

(٧) سورة التوبة آية رقم ٨٥ .

(٨) سورة النور آية رقم ٣٠ .

(٩) سورة الكهف آية رقم ٢٨ .

(١٠) سورة الغاشية آية رقم ١٧ .

﴿ قُلِ انْظُرُوْا مَاذَا في السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) .

وقال ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) الآية . وكذلك قال الشيطان ﴿ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ (٣) وقال ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ ﴾ (٤) الآيات وقال ﴿ إِذْ يُرِيْكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيْلاً ﴾ (٥) الآية فالنظر إلى متاع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولأهلها منهي عنه ، والنظر إلى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه التفكر والاعتبار مأمور به مندوب إليه ، وأما رؤية ذلك عند الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لدفع شر أولئك وإزالته فمأمور به ، وكذلك رؤية الاعتبار شرعاً في الجملة فالعين الواحدة ينظر إليها نظراً مأموراً به إما للاعتبار ، وإما لبغض ذلك ، والنظر إليه لبغض الجهاد منهي عنه ، وكذلك الموالاة والمعاداة وقد تحصل للعبد فتنة بنظر منهي عنه ، وهو يظن أنه نظر عبرة ، وقد يؤمر بالجهاد فيظن أن ذلك نظر فتنة ، كالذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ (٦) الآية فأنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي ﷺ أن

---

(١) سورة يونس آية رقم ١٠١ .

(٢) سورة سبأ آية رقم ٩ .

(٣) سورة الأنفال آية رقم ٤٨ .

(٤) سورة الشعراء آية رقم ٦١ .

(٥) سورة الأنفال آية رقم ٤٣ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٤٩ .

قال محمد بن اسحاق عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبدالله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة وغيرهم . قالوا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم وهو في جهاده للجد بن قيس أخي بني سلمة ، هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر . . ؟ فقال يا رسول الله أو تأذن لي ولا تُفتني ، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن فاعرض عنه رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : قد أذنت لك . ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية .

وفي الصحيح أن رسول الله ـ ﷺ قال لهم : من سيدكم يا بني سلمة . . ؟

قالوا : الجد بن قيس على أنا نبخله . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ وأي داء أدوأ من البخل ؟؟ =

يتجهز لغزو الروم فقال : إني مغرم بالنساء وأخاف الفتنة بنساء الروم فائذن لي في القعود . قال تعالى : ﴿ **أَلا فِي الفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ** ﴾ (١) .

فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول ، وأما ما يكون من الفعل بالجوارح فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا داخل في هذا ، بل يكون عذابه أشد ، فإن الله قد توعد بالعذاب على مجرد محبة أن تشيع الفاحشة بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة . وهذه المحبة قد لا يقترن بها قول ولا فعل ، فكيف إذا اقترن بها قول أو فعل ؟

بل على الإنسان أن يبغض ما أبغضه الله من فعل الفاحشة والقذف بها وإشاعتها في الذين آمنوا ومن رضي عمل قوم حشر معهم كما حشرت امرأة لوط معهم ولم تكن تعمل فاحشة اللواط ، فإن ذلك لا يقع من المرأة ، لكنها لما رضيت فعلهم عمها العذاب معهم .

فمن هذا الباب قيل : من أعان على الفاحشة وإشاعتها مثل القواد الذي يقود النساء والصبيان إلى الفاحشة لأجل ما يحصل له من رياسة أو سحت يأكله ، وكذلك أهل الصناعات التي تنفق بذلك مثل المغنين ، وشربة الخمر وضمان الجهات السلطانية وغيرها ، فإنهم يحبون أن تشيع الفاحشة ليتمكنوا من دفع من ينكرها من المؤمنين بخلاف ما إذا كانت قليلة خفيفة خفية ، ولا خلاف بين المسلمين أن ما يدعو إلى معصية الله وينهى عن طاعته منهي عنه محرم بخلاف عكسه فإنه واجب ، كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ** ﴾ (٢) أي أن ما فيها من طاعة الله وذكره

= ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور » .

(١) سورة التوبة آية رقم ٤٩ .

(٢) سورة العنكبوت آية رقم ٤٥ .

قال ابن جرير ، وحدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن جويبر =

وامتثال أمره أكبر من ذلك .

وقال في الخمر والميسر ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ (١) .

أي يوقعهم ذلك في معصيته التي هي العداوة والبغضاء ، وهذا من أعظم المنكرات التي تنهي عنه الصلاة ، والخمر تدعو إلى الفحشاء والمنكر كما هو الواقع ، فإن شارب الخمر تدعوه نفسه إلى الجماع حلالاً كان أو حراماً فالله تعالى لم يذكر الجماع ، لأن الخمر لا تدعو إلى الحرام بعينه من الجماع فيأتي شارب الخمر ما يمكنه من الجماع سواء كان حلالاً أو حراماً والسكر يزيل العقل الذي كان يميز السكران به بين الحلال والحرام ، والعقل الصحيح ينهى عن مواقعة الحرام ، ولهذا يكثر شارب الخمر من مواقعة الفواحش ما لا يكثر من غيرها حتى ربما يقع على ابنته وابنه ومحارمه ، وقد يستغني بالحلال إذا أمكنه ، ويدعو شرب الخمر إلى أكل أموال الناس بالباطل

= عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : لا صلاة لمن لم يطع الصلاة ، وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا القاسم ، حدثنا الحسين ، حدثنا خالد بن عبدالله عن العلاء بن المسيب عمن ذكره ، عن ابن عباس في قوله: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) قال فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً » . فهذا موقوف .

(١) سورة المائدة آية رقم ٩١ .

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا إسرائيل عن أبي اسحاق عن أبي ميسرة عن عمر بن الخطاب ـ أنه قال لما نزل تحريم الخمر . قال اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في البقرة ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾ فدعي عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في سورة النساء﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ فكان منادي رسول الله ـ ﷺ ـ إذا قال حي على الصلاة نادى . لا يقرب الصلاة سكران . فدعي عمر فقرئت عليه . فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً : فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرئت عليه فلما بلغ قول الله تعالى ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ قال عمر : انتهينا . وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من طرق عن اسرائيل عن أبي اسحاق . عمرو بن عبدالله السبيعي .

من سرقة ومحاربة ، وغير ذلك لأنه يحتاج إلى الخمر وما يستتبعه من مأكول وغيره من فواحش وغناء .

وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال حتى يتكلم شاربه بما في باطنه ، وكثير من الناس إذا أرادوا استفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار يسقونهم الخمر ، وربما يشربون معهم ما لا يسكرون به وأيضاً فالخمر تصد الإنسان عن علمه وتدبيره ومصلحته في معاشه ومعاده وجميع أموره التي يدبرها برأيه وعقله ، فجميع الأمور التي تصد عنها الخمر من المصالح وتوقعها من المفاسد داخلة في قوله تعالى ﴿ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ (١) .

وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هي منتهى قصد الشيطان ، ولهذا قال النبي ﷺ ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين (٢) .

وقد ذكرناه في غير هذا الموضع أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب توقع العداوة والبغضاء ، وأن كل عداوة أو بغضاء فأصلها من معصية الله ، والشيطان يأمر بالمعصية ليوقع فيما هو أعظم منها ، ولا يرضى بغاية ما قدر على ذلك .

وأيضاً فالعداوة والبغضاء شر محض لا يحبها عاقل بخلاف المعاصي ، فإن فيها لذة كالخمر والفواحش ، فإن النفوس تريد ذلك والشيطان يدعو إليها النفوس حتى يوقعها من شر لا تهواه ولا تريده ، والله تعالى قد بين ما يريده

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٩١ .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الأدب ٥٠ والترمذي في القيامة ٥٦ وصاحب الموطأ في كتاب حسن الخلق ٧ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ١٦٥ ، ١٦٧ ، ٦ : ٤٤٥ .

الشيطان بالخمر والميسر ولم يذكر ما يريده الإنسان ، ثم قال في سورة النور : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ﴾ (١) .

وقال في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) فنهى عن اتباع خطواته ـ وهو اتباع أمره بالإقتداء والاتباع ، وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والقول على الله بلا علم ، وقال فيها : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ﴾ (٣) .

فالشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والله يعد المغفرة والفضل ، ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وقال عن نبيه ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٤) وقال عن أمته ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ﴾ (٥)

---

(١) سورة النور آية رقم ٢١ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٦٨ .
قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو زرعة ، حدثنا هناد بن السري ، حدثنا أبو الأحوص عن عطاء ابن السائب عن مرة الهمداني عن عبدالله بن رستة ، عن هارون الفروي عن أبي ضمرة عن ابن شهاب عن عبيدالله بن عبدالله عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً** ﴾ وهكذا رواية الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما جميعاً عن هناد بن السري ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى الموصلي عن هناد به وقال الترمذي : حسن غريب

(٤) سورة الأعراف آية رقم ١٥٧ هذه الآية تتناول صفة الرسول ﷺ ـ كما روى الإمام أحمد ، =

وذكـر مثل ذلـك في مواضـع كثيرة ، فتـارة يخص اسم المنكر بـالنهي ، وتارة يقرنه بالفحشاء ، وتارة يقرن معهما البغي ، وكذلك المعروف تارة يخصه بالأمر وتارة يقرن به غيره كما في قوله تعالى :

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾(١) .

وذلـك لأن الأسمـاء قـد يكـون عمـومهـا وخصـوصهـا بحسب الأفـراد والتركيب ، لفظ الفقير والمسكين فإن أحدهمـا إذا أمرر كـان عامـاً لما يـدلان

= حدثنا إسمـاعيل عن الحريري عن أبي صخـر العقيلي ، حدثني رجـل من الأعراب . قـال : جلبت حلوبة الى المدينة في حياة الرسول ـ ﷺ ـ فلما فرغت من بيعي قلت لألقين هذا الرجل فـلأسمعن منه . قـال : فتلقاني بين أبي بكـر وعمر يمشـون فتبعتهم حتى أتوا على رجـل من اليهود ناشر التوراة يقرأها يعزي بها نفسـه عن ابن له في المـوت كأجمـل الفتيان وأحسنهـا . فقـال رسـول الله ـ ﷺ ـ أنشـدك بـالـذي أنـزل التـوراة هـل تجـد في كتـابـك هـذا صفتي ومخرجي . . ؟ فقال بـرأسه هكـذا أي لا . فقال ابنـه : أي والذي أنـزل التوراة إنـا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنـك رسول الله ـ فقـال « أقيموا اليهـودي عن أخيكم » ثم تولى كفنـه والصلاة عليـه ـ » هذا حـديث جيد قـوي له شـاهـد في الصحيح عن أنس .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٠٤ .

(١) سورة النساء آيـة رقم ١١٤ روى ابن مردويـه ـ حدثنـا محمد بن زيـد بـن حنيش قال : دخلنا على سفيان الثوري نعوده ، فدخل علينا سعيد بـن حسان فقال له الثوري الحديث الـذي كنت حدثتنيه عن أم صالح ردده علي فقـال : حدثتني أم صـالح عن صفيـة بنت شيبة عن أم حبيبـة قـالت : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ كلام ابن آدم كله عليـه لا له إلا ذكـر الله عـز وجـل ، أو أمـر بمعـروف ، أو نهي عن منكر » . فقـال سفيان أو مـا سمعت الله في كتابـه يقول : لا خيـر في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) فهذا هو بعينه أو ما سمعت الله تعالى يقول : يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » فهو هذا بعينه .

أو مـا سمعت الله يقول ﴿ والعصـر إن الإنسان لفي خسـر ﴾ . فهو هـذا بعينه وقـد روى هذا الحديث الترمذي وابن ماجه من حديث محمـد بن يزيـد بن حنيش عن سعيد بن حسـان به ، ولم يذكر أقوال الثوري الى آخرها .

عليه عند الاقتران بخلاف اقترانهما فإنه يكون مُعنى كل منهما ليس هو معنى الآخر بل أخص من معناه عند الأفراد ، وأيضاً فقد يعطف على الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التخصيص ثم قد قيل : إن ذلك المخصص يكون مذكوراً بالمعنى العام والخاص .

فإذا عرف هذا فاسم ﴿ **المنكر** ﴾ يعم كل ما كرهه الله ونهى عنه ، وهو المبغض ، واسم ﴿ **المعروف** ﴾ يعم كل ما يحبه الله ويرضاه ويأمر به ، فحيث أفردا بالذكر فإنهما يعمان كل محبوب في الدين ومكروه وإذا قرن المنكر بالفحشاء فإن الفحشاء مبناها على المحبة والشهوة والمنكر . هو الذي تنكره القلوب ، فقد يظن أن ما في الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول في المنكر ، وإن كانت مما تنكرها القلوب فإنها تشتهيها النفوس ، و﴿ **المنكر** ﴾ قد يقال إنه يعم معنى الفحشاء ، وقد يقال : خصت لقوة المقتضى لما فيها من الشهوة ، وقد يقال : قصد بالمنكر ما ينكر مطلقاً ، والفحشاء لكونها تشتهي وتحب ، وكذلك البغي قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس ولهذا كان جنس عذاب صاحبه أعظم من جنس عذاب صاحب الفحشاء ، ومنشؤه من قسوة الغضب، كما أن الفحشاء منشؤها عن قوة الشهوة ولكل من النفوس لذة بحصول مطلوبها .

فالفواحش والبغي مقرونان بالمنكر ، وأما الإشراك والقول على الله بلا علم فإنه منكر محض ، ليس في النفوس ميل إليهما ، بل إنما يكونان عن عناد وظلم ، فهما منكر وظلم محض بالفطرة .

فهذه الخصال فساد في القوة العلمية والعملية فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان ، أو إلى من يتبع خطوات الشيطان ، فإن من أتى الفحشاء والمنكر سواء فإن كان الشيطان أمره فهو متبعه مطيعه عابد له وإن كان الآتي هو الآمر فالأمر بالفعل أبلغ من فعله ، فمن أمر بها

غيره رضيها لنفسه . ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد مزامير الشيطان والمغني هو مؤذنه الذي يدعو إلى طاعته ، فإن الغناء رقية الزنا ، وكذلك من اتباع خطوات الشيطان القول على الله بلا علم .

﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ .

وهذه حال أهل البدع والفجور ، وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمردان وإحضارهم في سماع الغناء ، ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك مما فتن به كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين .

ثم إنه سبحانه نهى المظلوم بالقذف أن يمنع ما ينبغي له فعله من الإحسان إلى ذوي قرابته والمساكين وأهل التوبة ، وأمره بالعفو والصفح ، فإنهم كما يحبون أن يغفر الله لهم فليعفوا وليصفحوا وليغفروا ولا ريب أن صلة الأرحام واجبة ، وايتاء المساكين واجب وإعانة المهاجرين واجب ، فلا يجوز ترك ما يجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه وإساءته في عرضه ، كما لا يمنع الرجل ميراثه وحقه من الصدقات والفيء بمجرد ذنب من الذنوب ، وقد يمنع من ذلك لبغض الذنوب .

وفي الآية دلالة على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوي الأرحام ـ الذين لا يرثون بفرض ولا تعصيب ـ فإنه قد ثبت في الصحيح عن عائشة في قصة الإفك أن أبا بكر الصديق حلف أن لا ينفق على مسطح بن أثاثة (١) ، وكان أحد الخائضين في الإفك من شأن عائشة وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر ، وقد جعله الله من ذوي القربى الذين نهى عن ترك إيتائهم والنهي يقتضي التحريم ، فإذا لم يجز الحلف على ترك الفعل كان الفعل واجباً ، لأن الحلف على ترك الجائز جائز .

---

(١) ترجم له فيما بعد في كلمة وافية . [وراجع الاصابة ت ٧٩٣٧ وأسد الغابة ٤ : ٣٥٤ ونسب قريش ٩٥] .

فصل
خصائص الشهود لاقامة الحد

قال الله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (١)

وقال فيها ﴿ وَالَّذِيْنَ يَرْمُوْنَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) وقال فيها ﴿ لَوْلَا جَاءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ (٣) .

فذكر عدد الشهداء وأطلق صفتهم ، ولم يقيدهم بكونهم منا ولا ممن نرضى ولا من ذوي العدل ، كما قيد صفة الشهداء في غير هذا الموضع ولهذا تنازع العلماء ، هل شهادة الأربعة التي يجب بها الحد على الزاني مثل شهادة أهل الفسوق والعصيان وغيرهم ، هل تدرأ الحد عن القاذف ؟ على قولين في مذهب أحمد .

أحدهما : أنها تدرأ الحد عن القاذف وإن لم توجب حد الزنا على المقذوف كشهادة الزوج على امرأته أربع شهادات بالله ، فإن ذلك يدرأ حد القذف ولا يجب الحد على امرأته لمجرد ذلك ، لأنها تدفع العذاب عنها

---

(١) سورة النور آية رقم ٤ .

(٢) سورة النور آية رقم ٦ .

(٣) سورة النور آية رقم ١٣ .

بشهادتها أربع شهادات ، ولو لم تشهد فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلاعن ، أو يخلى سبيلها ؟ فيه نزاع مشهور بين العلماء ، فلا يلزم من درء الحد عن القاذف وجوب حد الزنا على المقذوف فإن كلاهما حد ، والحدود تدرأ بالشبهات .

والأربع شهادات للقاذف شبهة قوية ، ولو اعترف المقذوف مرة أو مرتين أو ثلاثاً درىء الحد عن القاذف ولم يجب الحد عنها عند أكثر العلماء ، ولو كان المقذوف غير محصن ـ مثل أن يكون مشهوراً بالفاحشة ـ لم يحد قاذفه حد القذف ، ولم يحد هو حد الزنا لمجرد الاستفاضة ، وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد وقد اعتبر نصاب حد الزنا بأربعة شهداء .

وكذلك تعتبر صفاتهم ، فلا يقام حد الزنا على مسلم إلا بشهادة مسلمين ، لكن يقال : لم يقيدهم بأن يكونوا عدولاً مرضيين كما قيدهم في آية الدين بقوله ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ (١) .

وقال في آية الوصية ﴿ اثْنَانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (٢) .

وقال في آية الرجعة ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ ﴾ (٣) فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا وهؤلاء هم المتثلون ما أمرهم الله به بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ، أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ (٤) الآية .

وفي قوله ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ (٥) وقوله ﴿ وَلَا

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ .
(٢) سورة المائدة آية رقم ١٠٦ .
(٣) سورة الطلاق آية رقم ٢ .
(٤) سورة النساء آية رقم ١٣٥ .
(٥) سورة الأنعام آية رقم ١٥٢ .

تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ (١) .

وقوله ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ (٢)

وقوله ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ (٣)

فهم يقومون بالشهادة بالقسط لله فيحصل مقصود الذي استشهده .

« الوجه الثاني » إن كون شهادتهم مقبولة مسموعة لأنهم أهل العدل والرضى ، فدل على وجوب ذلك في القبول والأداء ، وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله .

﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٤) الآية . لكن هذا نص في أن الفاسق الواحد يجب التبين في خبره .

وأما الفاسقان فصاعداً فالدلالة عليه تحتاج إلى مقدمة أخرى ، وما ذكروه من عدد الشهود لا يعتبر في الحكم باتفاق العلماء في مواضع وعند جمهورهم قد يحكم بلا شهود في مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك ، ويحكم بشاهد ويمين كما مضت سنة رسول الله ﷺ فإنه قضى بشاهد ويمين .

رواه أبو داود وغيره من حديث أبي هريرة ، ورواه مسلم من حديث ابن عباس « أن رسول الله ﷺ قضى بشاهد ويمين » (٥) .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٨٣ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٢ .

(٣) سورة المعارج آية رقم ٣٣ .

(٤) سورة الحجرات آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ .

(٥) الحديث رواه أبو داود في الأقضية ٢١ ، والإمام الترمذي في أحكام ١٣ وابن ماجه في الأحكام ٣١ ، وصاحب الموطأ في الأقضية ٥ ، ٦ ، ٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٣٠٥ ، ٥ : ٢٨٥ (حلبي).

ورواه غيرهما ، ويدل على هذا أن الله لم يعتبر عند الأداء هـذا القيد ، لا من آية الزنا ولا من آية القذف ، بل قال :

﴿ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ ﴾ (١) .

وقال ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ (٢) وإنما أمر بالتثبت عند خبر الفاسق الواحـد ، ولم يأمـر به عنـد خبر الفـاسقين ، فإن خبر الاثنين يوجب من الاعتقاد ما لا يوجبه خبر الواحد .

ولهذا قال العلماء : إذا استراب الحـاكم من الشهود فـرقهم وسألهم عن مكـان الشهادة وزمـانها وصفتهـا وتحملها ، وغيـر ذلك ممـا يتبين بـه اتفـاقهم واختلافهم .

---

(١) سورة النساء آية رقم ١٥ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤ .

فصل
حكم شهادة القاذف التائب وغيره

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً ﴾ (١) فهذا نص في أن هؤلاء القذفة لا تقبل لهم شهادة أبداً واحداً كانوا أو عدداً ؛ بل لفظ الآية ينتظم العدد على سبيل الجمع والبدل ؛ لأن الآية نزلت في أهل الإفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقه والتفسير، وكان الذين قذفوا عائشة عدداً ولم يكونوا واحداً لما رأوها قد قدمت بصحبة صفوان بن المعطل السلمي (٢) بعد قفول العسكر وكانت قد ذهبت تطلب قلادة لها عدمت ، فرفع أصحاب الهودج هودجها معتقدين أنها فيه لخفتها، ولم تكن فيه ، فلما رجعت لم تجد أحداً من الجيش فمكثت مكانها ، وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش فلما رآها أعرض بوجهه عنها وأزاح راحلتها حتى ركبتها ، ثم ذهب بها إلى العسكر فكانت خلوته بها للضرورة ، كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا محرم للضرورة ، كسفر الهجرة مثل ما قدمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط (٣) مهاجرة ، وقصة عائشة .

---

(١) سورة النور آية رقم ٤ .

(٢) هو صفوان بن المعطل بن رخصة السلمي الذكواني ، أبو عمرو ، صحابي ، شهد الخندق ، والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بأرمينية ، وقيل في سميساط ، وهو الذي قال أهل الافك فيه وفي عائشة ما قالوا . روى عن النبي - ﷺ حديثين توفي عام ١٩ هـ [راجع ابن عساكر ٦ : ٤٣٨ واللباب ١ :٤٤٣] .

(٣) هي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية : صحابية ، هي أول من هاجر إلى المدينة بعد =

وقد دلت الآية على أن القاذفين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا متفرقين .

ودلت أيضاً على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما هو مذهب الجمهور ، فإنه كان من جماعتهم مسطح بن أثاثة[1] وحسان بن ثابت كما في الصحيح عن عائشة وكان منهم حمنة بنت جحش وغيرها ، ومعلوم أنه لم يرد النبي ﷺ ولا المسلمون بعده شهادة أحد منهم لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببراءتها ، ومن لم يتب حينئذ فإنه كافر مكذب بالقرآن ، وهؤلاء مازالوا مسلمين ، وقد نهى الله عن قطع صلتهم ، ولو ردت شهادتهم بعد التوبة لاستفاض ذلك كما استفاض رد عمر لشهادة أبي بكرة ، وقصة عائشة كانت أعظم من قصة المغيرة ، لكن من رد شهادة القاذف بعد التوبة قد يقول : أرد شهادة من حد في القذف وهؤلاء لم يحدوا ، والأولون يجيبون بأجوبة « أحدها » أنه قد روي في السنن أن النبي ﷺ لم يرد شهادة أولئك .

و« الثاني » أن هذا الشرط غير معتبر في ظاهر القرآن وهم لا يقولون به ، كما هو مقرر في موضعه .

و« الثالث » أن الذين اعتبروا الحد اعتبروه وقالوا قد يكون القاذف صادقاً وقد يكون كاذباً ، فإعراض المقذوف عن طلب حد القذف قد يكون لصدق

= هجرة النبي - ﷺ - أسلمت قديماً ولما علمت بهجرة الرسول - ﷺ - خرجت ماشية من مكة إلى المدينة تتبعه ، ولحقها أخوان لها لإعادتها فلم ترجع ، وكانت عذراء فتزوجها في المدينة زيد بن ثابت واستشهد في غزوة مؤتة (٨ هـ) فتزوجها الزبير بن العوام ثم تزوجت عبد الرحمن بن عوف ثم تزوجها عمرو بن العاص وهي أخت عثمان لأمة توفيت نحو ٣٣ هـ [راجع الإصابة . كتاب النساء رقم ٤٧٥ : ١ والاستيعاب بهامش الاصابة ٤ : ٤٤٨] .

(١) هو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف من قريش أبو عباد صحابي من الشجعان الأشراف كان اسمه عوفاً ولقب بمسطح فغلب عليه أمه بنت خالة أبي بكر ، وكان أبو بكر يمونه لقرابته منه فلما كان حديث أهل الأفك في أمر عائشة جلده النبي - ﷺ - مع من خاضوا فيه ، وحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه فنزلت الآية ﴿ **ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يأتوا أولي القربى** ﴾ فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه ، وأطعمه رسول الله - ﷺ - بخيبر خمسين وسقاً ، وهو ممن شهد معه بدراً وأحداً ، والمشاهد كلها [راجع الإصابة ت ٧٩٣٧ وأسد الغابة ٤ : ٣٥٤ ونسب قريش ٩٥] .

القاذف ، فإذا طلب الحد ولم يأت القاذف بأربعة شهداء ظهر كذبه ، ومعلوم أن الذين قذفوا عائشة ظهر كذبهم أعظم من ظهور كل أحد .

فإن الله هو الذي برأها بكلامه الذي أنزله من فوق سبع سموات يتلى ، فإذا كانت شهادتهم بعد توبتهم مقبولة فشهادة غيرهم ممن شهد على غيرها بالقذف أولى بالقبول .

وقصة عمر بن الخطاب التي حكم فيها بين المهاجرين والأنصار في شأن المغيرة [1] لما شهد عليه ثلاثة بالزنا وتوقف الرابع عن الشهادة فجلد أولئك الثلاثة ورد شهادتهم دليل على الفصلين جميعاً ، كما دلت قصة عائشة على قبول شهادتهم بعد التوبة والجلد لأن اثنين من الثلاثة تابا فقبل عمر والمسلمون شهادتهما والثالث وهو أبو بكرة مع كونه من أفضلهم لم يتب ، فلما لم يتب لم يقبل المسلمون شهادته ، وكان من صالحي المسلمين وقد قال عمر : تب أقبل شهادتك ، لكن إذا كان القرآن قد بين أن القذفة إن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم أبداً ، ثم قال بعد ذلك :

﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا ﴾[2] .

فمعلوم أن قوله ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾ وصف ذم لهم زائد على ما ذكره من رد شهادتهم .

---

(١) هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ، أبو عبدالله أحد دهاة العرب ، وقادتهم وولاتهم . صحابي يقال له مغيرة الرأي ، ولد في الطائف ٢٠ق. هـ. وبرحها في الجاهلية مع جماعة من بني مالك فدخل الاسكندرية وافداً على المقوقس ثم وعاد إلى الحجاز فلما ظهر الإسلام تردد في قبوله الى أن كانت سنة ٥ هـ فأسلم ـ وشهد الحديبية واليمامة وفتوح الشام وذهبت عينه باليرموك ، وشهد القادسية ، ونهاوند ، وولاه عمر بن الخطاب البصرة . ففتح عدة بلاد وعزله ثم ولاه الكوفة وأقره عثمان على الكوفة ثم عزله . ولما حدثت الفتنة بين علي ومعاوية اعتزلها المغيرة وحضر مع الحكمين . ثم ولاه معاوية الكوفة فلم يزل فيها الى أن مات عام ٥٠ هـ . [راجع الاصابة ت ٨١٨١ وأسد الغابة ٤ : ٤٠٦ والطبري ٦ : ١٣١ ورغبة الأمل ٤ :٢٠٢] .

(٢) سورة النور آية رقم ٤ ـ ٥ .

فصل
في عدالة الشهود

وأما تفسير « العدالة » المشروطة في هؤلاء الشهود فإنها الصلاح في الدين والمروءة، والصلاح في آداء الواجبات وترك الكبيرة والإصرار على الصغيرة و« الصلاح في المروءة » استعمال ما يجمله ويزينه ، واجتناب ما يدنسه ويشينه . فإذا وجد هذا في شخص كان عدلاً في شهادته ، وكان من الصالحين الأبرار ، وأما أنه لا يستشهد أحد في وصية أو رجعة في جميع الأمكنة والأزمنة حتى يكون بهذه الصفة ، فليس في كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك ، بل هذا صفة المؤمن الذي أكمل إيمانه بأداء الواجبات ، وإن كان المستحبات لم يكملها ، ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين . ثم إن القائلين بهذا قد يفسرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها ، بل قد يجب على الإنسان من حقوق الله وحقوق عباده ما لا يحصيه إلا الله تعالى مما يكون تركه أعظم إثماً من شرب الخمر والزنا ، ومع ذلك لم يجعلوه قادحاً في عدالته .

إما لعدم استشعار كثرة الواجبات ، وإما لالتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات ، وليس الأمر كذلك في الشريعة .

وبالجملة هذا معتبر في باب الثواب والعقاب والمدح والذم ، والموالاة والمعاداة ، وهذا أمر عظيم . وأما قول من يقول : الأصل في المسلمين العدالة فهو باطل ، بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلوماً جَهُوْلاً ﴾[1] ومجرد التكلم بالشهادتين لا

---

(١) سورة الأحزاب اية رقم ٧٢ .

يوجب انتقال الإنسان عن الظلم والجهل إلى العدل .

و« باب الشهادة » مداره على أن يكون الشهيد مرضياً ، أو يكون ذا عدل يتحرى القسط والعدل في أقواله وأفعاله والصدق في شهادته وخبره ، وكثيراً ما يوجد هذا مع الإخلال بكثير من تلك الصفات ، كما أن الصفات التي اعتبروها كثيراً ما توجد بدون هذا ، كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيراً ، لكن يقال : إن ذلك مظنة الصدق والعدل ، والمقصود من الشهادة ، ودليل عليها وعلامة لها ، فإن النبي ﷺ قال في الحديث المتفق على صحته « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة »(١) الحديث إلى آخره فالصدق مستلزم للبر ، كما أن الكذب مستلزم للفجور ، فإذا وجد الملزوم وهو تحري الصدق وجد اللازم وهو البر ، وإذا انتفى اللازم وهو البر انتفى الملزوم وهو الصدق . وإذا وجد الكذب وهو الملزوم وجد الفجور وهو اللازم ، وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى الملزوم وهو الكذب .

فلهذا استدل بعدم بر الرجل على كذبه ، وبعدم فجوره على صدقه .

فالعدل الذي ذكره الفقهاء من انتفى فجوره ، وهو إتيان الكبيرة والإصرار على الصغيرة ، وإذا انتفى ذلك فيه انتفى كذبه الذي يدعوه إلى هذا الفجور والفاسق هو من عدم بره ، وإذا عدم بره عدم صدقه ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعي إلى البر يستلزم البر ، والداعي إلى الفجور يستلزم الفجور ، فالخطأ كالنسيان ، والعمد كالكذب. والله أعلم .

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الأدب ٦٩ باب قول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ وما ينهى عن الكذب .
٦٠٩٤ ـ حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن منصور عن أبي وائل عن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ وذكره .

فصل
في لعن قذفة أمهات المؤمنين

وقال شيخ الإسلام رحمه الله ـ

في قوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِين يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١) ـ في طرده الكلام على ما يتعلق بهذه الآية وغيرها فقال ـ وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه :

« أحدها : أن هذه الآية في أزواج النبي ﷺ خاصة في قول كثير من

---

(١) سورة النور آية رقم ٢٣ .
في سبب نزول هذه الآية : قال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبدالله بن حراش ، عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات** ﴾ قال : نزلت في عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حبان ، وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال : حدثنا أحمد بن عبدة الضبي ، حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها . قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك ، قالت : فبينما رسول الله ـ ﷺ ـ جالس عندي إذ أوحى إليه . قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالساً يمسح على وجهه وقال : يا عائشة ابشري » قالت : فقلت بحمد الله لا بحمدك فقرأ : ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات** ﴾ ـ حتى بلغ ـ **أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ .

أهل العلم فروى هشيم عن العوام بن حوشب : ثنا شيخ من بني كاهل ، قال : فسر ابن عباس سورة النور ، فلما أتى على هذه الآية .

﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ إلى آخر الآية قال : هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ، وهي مبهمة ليس فيها توبة .

ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ، ثم قرأ : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ [1] إلى قوله ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لأولئك توبة .

قال : فهم رجل أن يقوم فيقبل رأسه من حسن ما فسره وقال أبو سعيد الأشج : حدثنا عبدالله بن خراش ، عن العوام عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : ﴿ إنَّ الذين يرمون المحصنات الغافلات ﴾ نزلت في عائشة خاصة ، واللعن من المنافقين عامة فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمهات المؤمنين لما في قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعيبه فإن قذف المرأة أذى لزوجها ، كما هو أذى لابنها لأنه نسبة له إلى الدياثة وإظهار لفساد فراشه فإن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيماً ، ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إذا زنت ، ودرأ الحد عنه باللعان ، ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال ، ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقذوف .

ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوصتين عنه إلى أن من قذف امرأة محصنة كالأمة والذمية ولها زوج أو ولد محصن حد لقذفها ، لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين .

والرواية الأخرى عنه وهي قول الأكثرين أنه لا حد عليه لأنه أذى لهما لا

---

(١) سورة النور آية رقم ٤ ، ٥ وتكملة الآية ﴿ فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

قـذف لهما ، والحـد التـام إنمـا يجب بـالقـذف ، وفي جـانـب النبي ﷺ أذى كقذفه ، ومن يقصد عيب النبي ﷺ بعيب أزواجه فهو منافق ، وهذا معنى قول ابن عباس : اللعنة في المنافقين عامة . وقد وافق ابن عباس جماعـة ، فروى الإمام أحمد والأشج عن خصيف قال : سـألت سعيد بن جبيـر فقلت : الزنـا أشد أو قذف المحصنة ؟ قال : لا ، بل الزنـا ، قال : قلت : فـإن الله تعالى يقـول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَـرْمُـونَ الْمُحْصَنَـاتِ الغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُـوا فِي الـدُّنْيَـا وَالآخِرَةِ ﴾ [1] فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة .

وروى أحمـد بـإسنـاده عن أبي الجـوزاء في هـذه الآيـة : ﴿ إن الـذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ .

فقال : هذه الآية لأمهات المؤمنين خاصة . وروى الأشـج بإسنـاده عن الضحاك في هذه الآية قال « هن نساء النبي ﷺ » .

وقال معمر عن الكلبي : إنمـا عنى بهذه الآيـة أزواج النبي ﷺ ، فأمـا من رمى امـرأة من المسلمين فهو فـاسق كما قـال الله تعالى . أو يتـوب ووجه هذا أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف فتكـون اللام في قوله ﴿ المحصنـات الغافـلات المؤمنات ﴾ لتعـريف المعهود ، والمعهـود هنا أزواج النبي ﷺ ، لأن الكلام في قصة الإفك ووقوع من وقـع في أم المؤمنين عائشة ، أو يقصر اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك .

ويؤيـد هـذا القـول : أن الله سبحـانـه رتب هـذا الـوعيـد على قـذف محصنـات غـافـلات مؤمنـات ، وقـال في أول السـورة ﴿ وَالَّـذِينَ يَـرْمُـونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [2] الآية .

فرتب الحد ورد الشهادة والفسق على مجرد قذف المحصنات فلا بد أن

---

(١) سورة النور آية رقم ٢٣ .

(٢) سورة النور آية رقم ٤ .

يكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات وذلك ـ والله أعلم ـ لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان ، لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة ، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في الغالب ظاهرة الإيمان .

ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) فتخصيصه متولى كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم .

وقال ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف ، وإنما يمس متولى كبره فقط .

وقال هنا ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ فعلم أن الذي رمى أمهات المؤمنين يعيب بذلك رسوله ﷺ ، وتولى كبر الإفك ، وهذه صفة المنافق ابن أبي ، والله أعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضاً موافقة لتلك الآية ،

---

(١) الذي تولى كبره إنما هو عبدالله بن أبي سلول ـ قبحه الله ولعنه ، وقيل : المراد به حسان بن ثابت . قال ابن جرير : حدثنا الحسن بن قزعة ، حدثنا سلمة بن علقمة ، حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت : ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ، ولا تمثلت إلا رجوت له الجنة ، قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب .

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء
لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء

فقيل يا أم المؤمنين أليس هذا لغواً ؟ قالت : لا إنما اللغو ما قيل عند النساء قيل أليس الله يقول : ﴿ والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ قالت : أليس قد ذهب بصره ، وكنع بالسيف ؟ تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمي حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله .

(٢) سورة النور آية رقم ١٤ .

لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ لعن صاحبه في الدنيا والآخرة ولهذا قال ابن عباس : ليس فيها توبة ؛ لأن مؤذي النبي ﷺ لا تقبل توبته ، أو يريد إذا تاب من القذف حتى يسلم اسلاماً جديداً وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به أذى النبي ﷺ ، أو بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة ، فإنه ما بغت امرأة نبي قط . ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي ﷺ ما أخرجاه في الصحيحين من حدث الإفك عن عائشة قالت : فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول قالت . فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني (١) من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً . ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد بن معاذ ـ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت (٢) .

---

(١) من يعذرني : من ينصرني . والعذير الناصر ، وقيل : المراد من ينتقم لي منه ؟ ويؤيده قول سعد : أنا أعذرك .

(٢) هذا جزء من حديث طويل رواه الامام البخاري في كتاب التفسير ٦ باب ﴿ **لولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾ .

٤٧٥٠ ـ حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب ، قال أخبرني عروة بن الزبير ، وسعيد بن المسيب ، وعلقمة بن وقاص ، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود من حديث عائشة ـ رضي الله عنهما ـ زوج النبي ﷺ ـ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا ، فبرأها =

وفي رواية أخرى صحيحة أن هذه الآية في أزواج رسول الله ﷺ خاصة .

ويقول آخرون : يعني أزواج المؤمنين عامة .

وقال أبو سلمة : قذف المحصنات من الموجبات ، ثم قرأ ﴿ إن الذين يرمون المحصنات ﴾ الآية .

وعن عمر بن قيس قال : قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة » رواهما الأشج وهذا قول كثير من الناس ووجهه ظاهر الخطاب ، فإنه عام فيجب اجراؤه على عمومه إذ لا موجب لخصوصه ، وليس هو مختصاً بنفس السبب بالاتفاق ، لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي ﷺ داخل في العموم ، وليس هو من السبب ولأنه لفظ جمع ، والسبب في واحدة هنا ؛ ولأن قصر عمومات القرآن على أسباب نزولها باطل ، فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك ، وقد علم أن شيئاً منها لم يقصر على سببه ، والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد ورد الشهادة والتفسيق وهنا ذكر العقوبة الواقعة من الله سبحانه ، وهي اللعنة في الدارين ، والعذاب العظيم ، وقد روي عن النبي ﷺ من غير

= الله مما قالوا وذكره ، ورواه أيضاً في كتاب الشهادات ١٥ ، وكتاب الإيمان ١٣ ، ١٨ ، وكتاب الإعتصام ٢٨ ، وكتاب التوحيد ٣٥ ، ٥٢ ، ورواه الامام مسلم في كتاب التوبة باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف . حدثنا حبان بن موسى ، أخبرنا عبدالله بن المبارك ، أخبرنا يونس بن يزيد الأيلي ، وحدثنا اسحاق بن ابراهيم الحنظلي ومحمد بن رافع ، وعبد ابن حميد . قال ابن رافع حدثنا ، وقال الآخران أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر والسياق حديث معمر من رواية عبد وابن رافع ، قال يونس ومعمر جميعاً عن الزهري أخبرني سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعلقمة بن وقاص وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة - زوج النبي - ﷺ - حين قال لها أهل الإفك ما قالوا . فبرأها الله مما قالوا ، وكلهم حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت اقتصاصاً وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني وبعض حديثهم يصدق بعضاً وذكره .

وجه وعن أصحابه : « إن قذف المحصنات من الكبائر » (١) .

وفي لفظ في الصحيح « قذف المحصنات الغافلات المؤمنات » ثم اختلف هؤلاء ، فقال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة إذ كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة ، وقالوا : إنما خرجت تفجر ، فعلى هذا يكون فيمن قذف المؤمنات قذفاً يصدهن به عن الإيمان ، ويقصد بذلك ذم المؤمنين لينفر الناس عن الإسلام كما فعل كعب بن الأشرف، وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر وهو بمنزلة من سب النبي ﷺ . وقوله : إنها نزلت زمن العهد ، يعني ـ والله أعلم ـ أنه عنى بها مثل أولئك المشركين المعاهدين ، وإلا فهذه الآية نزلت ليالي الإفك ، وكان الإفك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق ، والهدنة كانت بعد ذلك بسنين ، ومنهم من أجراها على ظاهرها وعمومها ، لأن سبب نزولها قذف عائشة ، وكان فيمن قذفها مؤمن ومنافق ، وسبب النزول لا بد أن يندرج في العموم ، ولأنه لا موجب لتخصيصها والجواب على هذا التقدير أنه سبحانه قال هنا : ﴿ **لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ (٢) على بناء الفعل للمفعول ولم يسم اللاعن .

وقال في الآية الأخرى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ (٣) وإذا لم يسم الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الوصايا ٢٣ باب قول الله تعالى ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾

٢٧٦٦ ـ حدثنا عبد العزيز بن عبدالله قال : حدثني سليمان بن بلال عن ثور بن زيد المدني عن أبي الغيث عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : وذكره ولفظه (وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) عدهن من السبع الموبقات .

ورواه أيضاً في الحدود ٤٤ والإمام مسلم في كتاب الإيمان ١٤٤ ، وأبو داود في الوصايا ١٠ ، والنسائي في الوصايا ١٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٢٣ .

(٣) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

والناس ، وجاز أن يلعنهم الله في وقت ، ويلعنهم بعض خلقه في وقت، وجاز أن الله يتولى لعنة بعضهم وهـو من كان قـذفه طعنـاً في الدين . ويتـولى خلقه لعنة الآخرين .

وإذا كـان اللاعن مخلوقـاً فلعنه قـد يكون بمعنى الـدعاء عليهم ، وقـد يكون بمعنى أنهم يبعدونهم عن رحمـة الله . ويؤيد هـذا أن الرجـل إذا قذف امرأته تلاعنا . وقال الزوج في الخامسة : لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين » فهـو يدعـو على نفسه إن كـان كاذبـاً في القذف أن يلعنـه الله ، كمـا أمـر الله ورسـوله أن يبـاهل من حـاجة في المسيـح بعدمـا جـاءه من العلم بـأن يبتهلوا فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين .

فهذا مما يلعن بـه القاذف ، وممـا يلعن به أن يجلد وأن تـرد شهادتـه ، ويفسق ، فإنه عقوبة له وإقصاء له عن مواطن الأمن والقبـول ، وهي من رحمة الله وهذا بخلاف من أخبر الله أنه لعنه في الدنيا والآخرة فإن لعنة الله له توجب زوال النصر عنه من كل وجه وبعده عن أسباب الرحمة في الدارين .

ومما يؤيد الفـرق أنه قـال ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً** ﴾ (١) .

ولم يجيء إعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار ، كقـوله ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ وَيَكْتُمُـونَ مَا آتَـاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً** ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ **وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً** ﴾ (٣) .

وقوله ﴿ **فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .
(٢) سورة النساء آية رقم ٣٧ .
(٣) سورة النساء آية رقم ١٠٢ .
(٤) سورة البقرة آية رقم ٩٠ .

﴿ إنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٢) .

﴿ وَإذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئَاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٣) .

﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِيْنَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٤)

وأما قوله تعالى ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (٥) . فهي - والله أعلم - فيمن جحد الفرائض واستخف بها ، على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له .

وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيداً للمؤمنين في قوله ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٦) .

في قوله ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٧) .

وقوله ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٧٨ .
(٢) سورة الحج آية رقم ٥٧ .
(٣) سورة الجاثية آية رقم ٩ .
(٤) سورة المجادلة آية رقم ٥ .
(٥) سورة النساء آية رقم ١٤ .
(٦) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .
(٧) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .
(٨) سورة النور آية رقم ١٤ .

وفي المحارب ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

وفي القاتل ﴿ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وقد قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُهِنِ الله فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ (٤) .

وذلك لأن الإهانة إذلال وتحقير وخزي ، وذلك قدر زائد على ألم العذاب ، فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان ، فلما قال في هذه الآية :

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (٥) علم أنه من جنس العذاب الذي توعد به الكفار والمنافقين ولما قال هناك ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ جاز أن يكون من جنس العذاب في قوله ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

ومما يبين الفرق أيضاً أنه سبحانه قال هناك . ﴿ وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾

والعذاب إنما أعد للكافرين ، فإن جهنم لهم خلقت ، لأنهم لا بد أن يدخلوها وما هم منها بمخرجين » وأهل الكبائر من المؤمنين يجوز أن يدخلوها

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة النساء آية رقم ٩٣ .

(٣) سورة النحل آية رقم ٩٤ .

(٤) سورة الحج آية رقم ١٨ عند تفسير هذه الآية : قال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن شيبان الرملي ، حدثنا القداح عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي قال قيل لعلي إن ها هنا رجلاً يتكلم في المشيئة فقال له علي : يا عبدالله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت . قال : بل كما شاء ، قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ، قال : بل إذا شاء قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت . قال بل إذا شاء ، قال فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء قال بل حيث يشاء . قال : والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك بالسيف » .

(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

إذا غفر الله لهم ، وإذا دخلوها فإنهم يخرجون منها ولو بعد حين ، قال سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ ﴾ (١) فأمر الله سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله ، وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين ، فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعلوا المعاصي ، مع أنها معدة للكافرين لا لهم .

ولذلك جاء في الحديث : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما أقوام لهم ذنوب فيصيبهم سفع من النار ثم يخرجهم الله منها » (٢) .

وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء وإن كان لا يدخلها الأبناء بعمل أبائهم ، ويدخلها قوم بالشفاعة ، وقوم بالرحمة ، وينشىء الله لما فضل منها خلقاً آخر من الدار الآخرة فيدخلهم إياها ، وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجبه ويستحقه ، ولمن هو أولى الناس به، ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبع أو لسبب آخر ، والله أعلم .

---

(١) سورة آل عمران آية رقم ١٣١ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٢٥ باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ .

٧٤٥٠ حدثنا حفص بن عمر ، حدثنا هشام عن قتادة ، عن أنس رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : وذكره ولفظه « ليصيبن أقواماً سفع من النار بذنوب أصابوها عقوبة ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته » يقال لهم (الجهنميون) ورواه أيضاً في كتاب الرقاق ٥١ باب صفة الجنة والنار بسنده عن أنس بن مالك بلفظ « يخرج قوم من النار بعدما مسهم منها سفع ، فيدخلون الجنة فيسميهم أهل الجنة الجهنميين » .

وقال شيخ الإسلام

فصل
في الاستئذان والدخول

قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ إلى قوله ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ (١) وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : إنما جعل الاستئذان من أجل النظر » (٢) .

والنظر المنهي عنه هو نظر العورات ، ونظر الشهوات وإن لم تكن من العورات .

والله سبحانه ذكر الاستئذان على نوعين، ذكر من هذه الآية أحدهما وفي الآيتين في آخر السورة . النوع الثاني وهو استئذان الصغار والمماليك كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُم الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا

---

(١) سورة النور آية رقم ٢٧ ـ ٣٠ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب الاستئذان ١١ باب الاستئذان من أجل البصر .
٦٢٤١ ـ حدثنا علي بن عبدالله ، حدثنا سفيان قال الزهري حفظته لما أنك ها هنا عن سهل بن سعد قال : اطلع رجل من حجر في حجر النبي ـ ﷺ ـ ومع النبي ـ ﷺ ـ مِدْرى يحك به رأسه فقال : لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك ، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر » .
ورواه الامام مسلم في الأدب ٤١ ، والترمذي في الاستئذان ١٧ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٣٠ ، ٣٣٥ .

الحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلاَةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ، وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ العِشَاءِ ثَلاَثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴾(١) .

فأمر باستئذان الصغار والمماليك حين الاستيقاظ من النوم ، وحين إرادة النوم ، وحين القائلة فإن في هذه الأوقات تبدو العورات ، كما قال تعالى ﴿ ثلاث عورات لكم ﴾ .

وفي ذلك مما يدل على أن المملوك المميز، والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما .

وأما دخول هؤلاء في غير هذه الأوقات بغير استئذان فهو مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٢) .

وفي ذلك دلالة على أن الطوافين يرخص فيهم ما لا يرخص في غير الطوافين عليكم والطوافات والطواف من يدخل بغير إذن كما تدخل الهرة وكما يدخل الصبي والمملوك ، وإذا كان هذا في الصبي المميز فغير المميز أولى .

ويرخص في طهارته ، كما قال ذلك طائفة من الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم من الصبيان والهرة وغيرهم : أنهم إن أصابتهم نجاسة أنها تطهر بمرور

---

(١) سورة النور آية رقم ٥٨ .

(٢) سورة النور آية رقم ٥٨ .

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير ، حدثني عبدالله بن لهيعة ، حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : قال ابن عباس ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ إلى آخر الآية ، والآية التي في سورة النساء ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾ الآية ، والآية التي في الحجرات ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

الريق عليها ، ولا تحتاج إلى غسل ، لأنهم من الطوافين ، كما أخبر بـه الرسـول من الهرة [1] مع علمـه أنها تأكـل الفأرة ، ولم تكن بـالمدينـة مياه تـردها السنـانير ليقال طهر فمها بورودها الماء ، فعلم أن طهارة هذه الأفواه لا تحتاج إلى غسل ، فالاستئذان في أول السورة قبل دخول البيت مطلقاً ، والتفريق في آخـرها لأجـل الحاجة لأن المملوك والصغير يحتاج إلى دخول البيت في كل ساعة فشق استئـذانه بخلاف المحتلم .

(١) ورد الخبر في ذلك عن كبشة بنت كعب بنت مالك ، وكانت تحت ابن أبي قتادة : ان أبا قتادة دخل عليها فسكبت له وضوءاً ، فجاءت هرة تشرب منه فـأصغى لها الإنـاء حتى شربت منـه ، قـالت كبشة فـرآني انظر فقـال : أتعجبين يا ابنـة أخي ؟ قلت : نعم . قال : إن رسـول الله ـ ﷺ ـ قـال : إنها ليست بنجس ، إنهـا من الطوافين عليكم والـطوافات رواه الخمسـة . وقـال الترمذي : حديث حسن صحيح .

فصل
في غض البصر وحفظ الفرج

وقال تعالى ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾[1] الآية إلى قوله : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2] .

فأمر الله سبحانه الرجال والنساء بالغض من البصر وحفظ الفروج ، كما أمرهم جميعاً بالتوبة، وأمر النساء خصوصاً بالاستتار وأن لا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ومن استثناه الله تعالى في الآية ، فما ظهر من الزينة هو الثياب الظاهرة، فهذا لا جناح عليها في ابدائها إذا لم يكن في ذلك محذور آخر . فإن هذه لا بد من إبدائها وهذا قول ابن مسعود وغيره ، وهو المشهور عن أحمد وقال ابن عباس : الوجه واليدين من الزينة الظاهرة وهي الرواية الثانية عن أحمد ، وهو قول طائفة من العلماء كالشافعي وغيره .

وأمر سبحانه النساء بإرخاء الجلابيب لئلا يعرفن ولا يؤذين وهذا دليل على القول الأول ، وقد ذكر عبيدة السلماني[3] وغيره أن نساء المؤمنين كن

---

(١) ، (٢) سورة النور آية رقم ٣٠ ـ ٣١ .

(٣) هو عبيدة بن عمرو ، ويقال ابن قيس بن عمرو السلماني أبو عمر . أسلم قبل وفاة الرسول ـ ﷺ بسنتين ولم يلقه ، قاله هشام عن محمد عنه وغيره ، وروي عن علي وابن مسعود وابن الزبير ، روى عنه عبدالله بن سلمة المرادي ، وابراهيم النخعي ، وأبو اسحاق السبيعي ومحمد =

يدنين عليهن الجلابيب من فوق رؤوسهن حتى لا يظهر إلا عيونهن لأجل رؤية الطريق وثبت في الصحيح أن المرأة المحرمة تنهى عن الانتقاب والقفازين وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن، وذلك يقتضي ستر وجوههن وأيديهن.

وقد نهى الله تعالى عما يوجب العلم بالزينة الخفية بالسمع أو غيره فقال ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ (١).

وقال ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (٢). فلما نزل ذلك عمد نساء المؤمنين إلى خمرهن فشققهن وأرخينها على أعناقهن.

والجيب هو شق في طول القميص، فإذا ضربت المرأة بالخمار على الجيب سترت عنقها، وأمرت بعد ذلك أن ترخي من جلبابها، والإرخاء إنما يكون إذا خرجت من البيت فأما إذا كانت في البيت فلا تؤمر بذلك وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ لما دخل بصفية قال أصحابه: إن أرخى عليها الحجاب فهي من

= ابن سيرين وغيرهم، قال الشعبي: كان شريح أعلمهم بالقضاء، وكان عبيدة يوازيه وقال أشعث عن محمد بن سيرين: أدركت الكوفة وبها أربعة ممن يعد في الفقه فمن بدأ بالحارث ثنى بعبيدة أو العكس، ارخه ابن حبان في الثقات مات سنة ٧٢ هـ. [راجع تهذيب التهذيب ٧ : ٨٤].

(١) سورة النور آية رقم ٣١.

(٢) سورة النور آية رقم ٣١.

ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة، ولا بغير شهوة أصلًا، واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذي من حديث الزهري عن نبهان مولى أم سلمة أنه حدثه أن أم سلمة حدثته أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة قالت: فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعدما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله - - (احتجبا منه) فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ..؟ فقال رسول الله - ﷺ - أو عمياوان أنتما ؟ أو ألستما تبصرانه؟ » ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة كما ثبت في الصحيح أن رسول الله - ﷺ - جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت ».

أمهات المؤمنين ، وإن لم يضرب عليها الحجاب فهي مما ملكت يمينه ، فضرب عليها الحجاب [1] ، وإنما ضرب الحجاب على النساء لئلا ترى وجوههن وأيديهن .

والحجاب مختص بالحرائر دون الإماء ، كما كانت سنة المؤمنين في زمن النبي ﷺ وخلفائه أن الحرة تحتجب، والأمة تبرز .

وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة مختمرة ضربها وقال : أتتشبهين بالحرائر ، أي لكاع ، فيظهر من الأمة رأسها ويداها ووجهها .

وقال تعالى ﴿ **وَالقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ، وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ** ﴾ [2] فرخص للعجوز التي لا تطمع في النكاح أن تضع ثيابها فلا تلقي عليها جلبابها ولا تحتجب ، وإن كانت مستثناة من الحرائر لزوال المفسدة الموجودة في غيرها كما استثنى التابعين غير أولي الأربة من الرجال في إظهار الزينة لهم ؛ لعدم الشهوة التي تتولد منها الفتنة ، وكذلك الأمة إذا كان يخاف بها الفتنة كان عليها أن ترخي من جلبابها ، وتحتجب ، ووجب غض البصر عنها ومنها .

---

(١) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب النكاح ١٣ باب اتخاذ السراري ومن اعتق جارية ثم تزوجها.

٥٠٨٥ - حدثنا اسماعيل بن جعفر عن حميد عن أنس - رضي الله عنه - قال : أقام النبي - ﷺ - بين خيبر والمدينة ثلاثاً يبني عليه بصفية بنت حيي . فدعوت المسلمين إلى وليمته . فما كان فيها خبز ولا لحم أمر بالانطاع فألقى فيها من التمر والأقط والسمن ، فكانت وليمته فقال المسلمون إحدى أمهات المؤمنين أو مما ملكت يمينه ؟ فقالوا إن حجبها فهي من أمهات المؤمنين وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه . فلما ارتحل وطى لها خلفه ومد الحجاب بينها وبين الناس) .

(٢) سورة النور آية رقم ٦٠ .

فصل
في غض البصر وترك الشبهات . .

وليس في الكتاب والسنة إباحة النظر إلى عامة الاماء ولا ترك احتجابهن وابداء زينتهن، ولكن القرآن لم يأمرهن بما أمر الحرائر ، والسنة فرقت بالفعل بينهن وبين الحرائر ولم تفرق بينهن وبين الحرائر بلفظ عام بل كانت عادة المؤمنين أن تحتجب منهم الحرائر دون الاماء واستثنى القرآن من النساء الحرائر القواعد ، فلم يجعل عليهن احتجاباً ، واستثنى بعض الرجال وهم غير أولي الإربة ، فلم يمنع من ابداء الزينة الخفية لهم لعدم الشهوة في هؤلاء وهؤلاء ، فإن يستثنى بعض الاماء أولى وأحرى ، وهن من كانت الشهوة والفتنة حاصلة بترك احتجابها وإبداء زينتها . وكما أن المحارم أبناء أزواجهن ونحوه ممن فيه شهوة وشغف لم يجز ابداء الزينة الخفية له ، فالخطاب خرج عاماً على العادة ، فما خرج عن العادة خرج به عن نظائره فإذا كان في ظهور الأمة والنظر إليها فتنة وجب المنع من ذلك كما لو كانت في غير ذلك ، وهكذا الرجل مع الرجال والمرأة مع النساء : لو كان في المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال لكان الأمر بالغض للناظر من بصره متوجهاً ، كما يتوجه إليه الأمر بحفظ فرجه فالإماء والصبيان إذا كن حساناً تختشي الفتنة بالنظر إليهم كان حكمهم كذلك ، كما ذكر ذلك العلماء .

قال المروزي[1] : قلت لأبي عبدالله ـ يعني أحمد بن حنبل الرجل ينظر إلى

(١) هو محمد بن نصر المروزي ، أبو عبدالله ، إمام في الفقه والحديث ، كان من أعلم الناس =

المملوك ، قال : إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه ، كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلاء وقال المروذي : قلت لأبي عبدالله : رجل تاب ، وقال لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية إلا أنه لا يدع النظر ؛ فقال : أي توبة هذه ؟ قال جرير : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال : اصرف بصرك (١) .

وقال ابن أبي الدنيا (٢) : حدثني أبي وسويد قالا : حدثني ابراهيم بن هراسة عن عثمان بن صالح ، عن الحسن بن ذكوان قال: لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صوراً كصور النساء ، وهم أشد فتنة من العذارى . وهذا الاستدلال والقياس والتنبيه بالأدنى على الأعلى ، وكان يقول: لا يبيت الرجل في بيت مع الغلام الأمرد .

وقال ابن أبي الدنيا بإسناده عن أبي سهل الصعلوكي قال : سيكون في هذه الأمة قوم يقال لهم : اللوطيون على ثلاثة أصناف :

= باختلاف الصحابة فمن بعدهم في الأحكام ولد ببغداد عام ٢٠٢ هـ ونشأ بنيسابور ، ورحل رحلة طويلة استوطن بعدها سمرقند ، وتوفي بها عام ٢٩٤ هـ له كتب كثيرة منها « القسامة » في الفقه ، قال أبو بكر الصيرفي : لو لم يكن له غيره لكان من أفقه الناس ، و« المسند » في الحديث وكتاب « ما خالف به أبو حنيفه علياً وابن مسعود ، واختصر المقريزي ثلاثة من كتبه طبعت في جزء واحد [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ٢٠١ وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٨٩ وتاريخ بغداد ٣ : ٣١٥] .

(١) الحديث رواه الترمذي في كتاب الأدب ٢٨ باب ما جاء في نظرة الفجاءة ٢٧٧٦ ـ حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا هشيم ، أخبرنا يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن جرير بن عبدالله قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) هو عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن أبي الدنيا القرشي الأموي مولاهم البغدادي ، أبو بكر : حافظ للحديث مكثر من التصنيف أدب الخليفة المعتضد العباسي في حداثته ثم أدب ابنه المكتفي له مصنفات اطلع الذهبي على ٢٠ كتاباً منها ثم ذكر أسماءها كلها فبلغت ١٦٤ كتاباً وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس إن شاء أضحك جليسه ، وإن شاء أبكاه توفي عام ٢٨١ هـ [راجع تذكرة ٢ : ٢٢٤ وتهذيب ٦ : ١٢ وفوات ١ : ٢٣٦ وفهرست ابن النديم ١ : ١٨٥] .

صنف ينظرون ، وصنف يصافحون ، وصنف يعملون ذلك العمل .

وقال ابراهيم النخعي (١) : كانوا يكرهون مجالسة الأغنياء وأبناء الملوك ، وقال : مجالستهم فتنة، إنما هم بمنزلة النساء .

ووقفت جارية لم ير أحسن وجهاً منها على بشر الحافي (٢) فسألته عن باب حرب، فأطرق رأسه ، فرد عليه الغلام السؤال فغمض عينيه ، فقيل له : يا أبا نصر : جاءتك جارية فسألتك فأجبتها ، وجاءك هذا الغلام فسألك فلم تكلمه ؟

فقال : نعم ، يروى عن سفيان (٣) الثوري أنه قال : مع الجارية شيطان ، ومع الغلام شيطانان ، فخشيت على نفسي شيطانيه وروى أبو الشيخ القزويني بإسناده عن بشر أنه قال : احذروا هؤلاء الأحداث .

وقال فتح الموصلي : صحبت ثلاثين شيخاً كانوا يعدون من الأبدال كلهم أوصاني عند مفارقتي له : اتق صحبة الأحداث اتق معاشرة الأحداث ، وكان سفيان الثوري لا يدع أمرد يجالسه ، وكان مالك بن أنس يمنع دخول المرد مجلسه

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران النخعي ، من مذحج من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية وحفظاً للحديث ، من أهل الكوفة مات مختفياًمن الحجاج ، قال فيه الصلاح الصفدي فقيه العراق ، كان إماماً مجتهداً له مذهب ولما بلغ الشعبي موته قال : والله ما ترك بعده مثله . [راجع طبقات ابن سعد ٦ : ١٨٨ ـ ١٩٩ وتهذيب التهذيب وحلية الأولياء ٤ : ٢١٩ وتاريخ الإسلام ٣ : ٣٣٥ وطبقات القراء ١ : ٢٩] .

(٢) هو بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي أبو نصر ، المعروف بالحافي من كبار الصالحين ، له في الزهد والورع أخبار ، وهو من ثقات رجال الحديث من أهل « مرو » سكن بغداد وتوفي بها . قال المأمون لم يبق في هذه الكورة أحد يستحي منه غير هذا الشيخ بشر بن الحارث . توفي عام ٢٢٧ هـ [راجع روضات الجنات ١ : ١٢٣ ووفيات الأعيان ١ : ٩٠ وتاريخ بغداد ٧ : ٦٧ ـ ٨٠ وابن عساكر ٣ : ٢٢٨ وصفة الصفوة ٢ : ١٨٣] .

(٣) سبق الترجمة له . وراجع : دول الاسلام ١ : ٨٤ وابن النديم ١ : ٢٢٥ وابن خلكان ١ : ٢١٠ وطبقات ابن سعد ٦ : ٢٥٧، والمعارف ٢١٧ وحلية الأولياء ٦ : ٣٥٦ ثم ٧ : ٣ وتهذيب التهذيب ٤ : ١١١ ـ ١١٥ .

للسماع ، فاحتال هشام فدخل في غمار الناس مستتراً بهم ، وهو أمرد فسمع منه ستة عشر حديثاً ، فأخبر بذلك مالك فضربه ستة عشر سوطاً ، فقال هشام : ليتني سمعت مائة حديث وضربني مائة سوط، وكان يقول : هذا علم إنما أخذناه عن ذوي اللحى والشيوخ فلا يحمله عنا إلا أمثالهم .

وقال يحيى بن معين [1] : ما طمع أمرد أن يصحبني ولا أحمد بن حنبل في طريق .

وقال أبو علي الروذبالي : قال لي أبو العباس أحمد بن المؤدب يا أبا علي من أين أخذ صوفية عصرنا هذا الأنس بالأحداث ، وقد تصحبهم السلامة في كثير من الأمور ، فقال : هيهات قد رأينا من هو أقوى منهم إيماناً إذا رأى الحدث قد أقبل نفر منه كفراره من الأسد وإنما ذاك على حسب الأوقات التي تغلب الأحوال على أهلها فيأخذها تصرف الطباع ، ما أكثر الخطأ ، ما أكثر الغلط .

قال الجنيد بن محمد [2] : جاء رجل إلى أحمد بن حنبل معه غلام أمرد حسن الوجه ، فقال له : من هذا الفتى ؟ فقال الرجل : ابني ، فقال : لا تجيء به معك مرة أخرى فلامه بعض أصحابه في ذلك ، فقال أحمد : على هذا رأينا أشياخنا ، وبه أخبرونا عن أسلافهم وجاء حسن بن الرازي إلى أحمد ومعه غلام

---

(١) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد المري بالولاء ، البغدادي أبو زكريا من أئمة الحديث ، ومؤرخي رجاله نعته الذهبي بسيد الحفاظ وقال العسقلاني : إمام الجرح والتعديل ، وقال أحمد ابن حنبل : أعلمنا بالرجال . ومن كلامه كتبت بيدي ألف ألف حديث . له التاريخ والعلل . والكنى والأسماء . كان والده على خراج الري وخلف له ثروة كبيرة فأنفقها في طلب الحديث . توفي بالمدينة حاجاً عام ٢٣٣ هـ . [راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٦ وتهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ٢ : ٢١٤ وطبقات الحنابلة ٢٦٨ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٧٧] .

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي توفي عام ٢٩٧ (سبق الترجمة له) [وراجع : وفيات الأعيان ١ : ١١٧ وحلية الأولياء ١٠ : ٢٥٥ وصفة الصفوة ٢ : ٢٣٥ وتاريخ بغداد ٧ : ٢٤١ وطبقات السبكي ٢ : ٢٨ ـ ٣٧ وطبقات الحنابلة ٨٩ والمناوي ١ : ٢١٢] .

حسن الوجه فتحدث معه ساعة ، فلما أراد أن ينصرف قال له أحمد : يا أبا علي لا تمشي مع هذا الغلام في طريق ، فقال : يا أبا عبدالله إنه ابن أختي قال : وإن كان لا يأثم الناس فيك .

وروى ابن الجوزي (١) بإسناده عن سعيد بن المسيب قال : إذا رأيتم الرجل يلمح بالنظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه .

وقد روى في ذلك أحاديث مسندة ضعيفة . وحديث مرسل أجود منها ، وهو ما رواه أبو محمد الخلال : ثنا عمر بن شاهين ، ثنا محمد بن أبي سعيد المقري ثنا أحمد بن حماد المصيصي : ثنا عباس بن مجوز ثنا أبو أسامة عن مجالد عن سعيد عن الشعبي قال : قدم وفد عيد القيس (٢) على رسول الله ﷺ وفيهم غلام أمرد ظاهر الوضاءة فأجلسه النبي ﷺ وراء ظهره ، وقال : كانت خطيئة داود في النظر » هذا حديث منكر (٣) .

---

(١) هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي توفي عام ٥٩٧ وسبق الترجمة له وراجع في ترجمته (وفيات الأعيان ١ :٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣ :٢٨ ومفتاح السعادة ١ :٢٠٧ وآداب اللغة ٣ : ٩١] .

(٢) روى ابن سعد في طبقاته قال : أخبرنا محمد بن عمر الأسلمي قال: حدثني قدامة بن موسى عن عبد العزيز بن رمانة عن عروة بن الزبير قال : وحدثني عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قالا : كتب رسول الله ـ ﷺ إلى أهل البحرين أن يقدم عليه عشرون رجلاً منهم ، فقدم عليه عشرون رجلاً رأسهم عبدالله بن عوف الأشج ، وفيهم الجارود منقذ بن حيان وهو ابن أخت الأشج ، وكان قدومهم عام الفتح : فقيل يا رسول الله هؤلاء وفد عبد القيس قال : مرحباً بهم نعم القوم عبد القيس . فهم عشرون رجلاً وليس فيهم غلمان فهذا حديث منكر كما قال الامام ابن تيمية . قال : فجاؤ وا في ثيابهم ورسول الله ـ ﷺ ، في المسجد فسلموا عليه ، وسألهم رسول الله ـ ﷺ ـ أيكم عبدالله الأشج ؟ قال : أنا يا رسول الله ـ وكان رجلاً دميماً فنظر إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : إنه لا يستسقي في مسول الرجال إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه وقلبه .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ فيك خصلتان يحبهما الله ، فقال عبدالله ، وما هما . . ؟ قال : الحلم والأناة، قال أشيء حدث أم جبلت عليه . . ؟ قال : بل جبلت عليه .

(٣) قال الشوكاني تعليقاً على الخبر : لا أصل له في اسناده مجاهيل ، أنظر الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ٢٠٦ .

وأما المسندة فمنها ما رواه ابن الجوزي باسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : من نظر إلى غلام أمرد بريبة حبسه الله في النار أربعين عاماً ، وروى الخطيب البغدادي بإسناده عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا تجالسوا أبناء الملوك ، فإن الأنفس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق إلى غير ذلك من الأحاديث الضعيفة (١) .

وكذلك المرأة مع المرأة ، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه وابن أخيه وابن أختها ومملوكها عند من يجعله محرماً ، متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجه الاحتجاب بل وجب .

وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة ، ولهذا قال تعالى ﴿ **ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ** ﴾ (٢) فقد تحصل الزكاة والطهارة بدون ذلك ، لكن هذا أزكى ، وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة لما يوجد في ذلك من شهوة القلب واللذة بالنظر كان ترك النظر والاحتجاب أولى بالوجوب ، ولا زكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة ، لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار ودون ذلك ومن المباشرة من الغير له وكشفه للغير ، ونظر الغير إليه ، فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه ولهذا قال ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال له : يا رسول الله : عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟ فقال : احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما

---

(١) ما كان أغنانا وأغنى الشيخ ابن تيمية عن ايراد هذه الأحاديث الضعيفة ، وفي الأحاديث الصحيحة غناء أي غناء ؟؟

(٢) سورة النور ٣٠ والآية ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ .

روى مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عن جده جرير بن عبدالله البجلي - رضي الله عنه قال : سألت النبي - ﷺ - عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري » . وكذا رواه الإمام أحمد عن هشيم عن يونس بن عبيد به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضاً وقال الترمذي : حسن صحيح .

ملكت يمينك. قال : فإذا كان القوم بعضهم في بعض ؟ قال : إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها ، قال : فإذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : فالله أحق أن يستحي منه الناس »(١) .

وقد نهى النبي ﷺ « أن تباشر المرأة المرأة في شعار واحد ، وأن يباشر الرجل الرجل في شعار واحد »(٢) .

ونهى عن المشي عراة .

ونهى عن أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، وأن تنظر المرأة إلى عورة المرأة (٣) .

وقال « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر »(٤) .

وفي رواية :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من اناث أمتي فلا تدخل الحمام إلا بمئزر »(٥) .

---

(١) الحديث رواه أبو داود في الحمام ٢ ، والإمام الترمذي في الأدب ٢٢، ٢٩، وابن ماجه في كتاب النكاح ٢٨ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ :٣ (حلبي) وهذا الحديث حسنه الترمذي ، وصححه الحاكم وأخرجه ابن أبي شيبة بالزيادة التي أوردها المصنف .

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد في المسند ١ : ٣٠٤ ، ٣١٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٧ ، ٤٣٤ . ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦٣
٢ : ٣٢٦ ، ٤٤٧ ، ٤٩٧ ، ٣ : ٣٤٨ ، ٣٥٦ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥ . ورواه أبو داود في كتاب الأدب ٣٨ .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في الأدب ٣٨ وابن ماجه في الطهارة ١٣٧ ، وأحمد بن حنبل ٣ :٦٣ والامام مسلم في الحيض ٧٤ .

(٤) الحديث رواه الامام النسائي في الغسل ٢ ، وابن ماجه في الأدب ٣٨ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٣ :٣٢١ ، ٣٣٩ (حلبي) .

(٥) الحديث أخرجه الترمذي في الاستئذان ، والحاكم في الأدب عن جابر وقال الترمذي : حسن =

وقال العلماء : يرخص للنساء في الحمام عند الحاجة كما يرخص للرجال مع غض البصر وحفظ الفرج.

وذلك مثل أن تكون مريضة أو نفساء ، أو عليها غسل لا يمكنها إلا في الحمام ، وأما إذا اعتادت الحمام وشق عليها تركه ، فهل يباح لها على قولين : في مذهب أحمد وغيره :

أحدهما : لا يباح ، والثاني : يباح وهو مذهب أبي حنيفة واختاره ابن الجوزي .

= غريب ، وقال الحاكم : على شرط مسلم ، وأقره الذهبي ، وفيه مقال يطول . الجامع الصغير بشرح الفيض ٢١١ / ٦ وفي النسائي كتاب الغسل ، وابن ماجه في الأدب ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ٢٢١ .

فصل

في غض البصر عن بيوت الآخرين

وكما يتناول غض البصر عن عورة الغير وما أشبهها من النظر إلى المحرمات فإنه يتناول الغض عن بيوت الناس ، فبيت الرجل يستر بدنه كما تستره ثيابه وقد ذكر سبحانه غض البصر وحفظ الفرج بعد آية الاستئذان ، وذلك أن البيوت سترة كالثياب التي على البدن ، كما جمع بين اللباسين في قوله تعالى ﴿ **وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيْلَ تَقِيْكُم الْحَرَّ وَسَرَابِيْلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ** ﴾ [١] .

فكل منهما وقاية من الأذى الذي يكون سموماً مؤذياً كالحر والشمس والبرد ، وما يكون من بني آدم من النظر بالعين واليد وغير ذلك .

وقد ذكر في أول سورة النحل أصول النعم ، وذكر هنا ما يدفع البرد فإنه من المهلكات ، وذكر في أثنائها تمام النعم ، وما يدفع الحر فإنه من المؤذيات ثم قال : ﴿ **كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ** ﴾ [٢] وفي

---

(١) سورة النحل آية رقم ٨١ .

(٢) سورة النحل آية رقم ٨١ قال عبدالله بن المبارك، وعباد بن العوام بن حنظلة السدوسي عن شهر ابن حوشب عن ابن عباس أنه كان يقرأها (تسلمون) بفتح اللام يعني من الجراح . رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن عباد وأخرجه ابن جرير من الوجهين بورود هذه القراءة . وقال عطاء الخراساني إنما نزل القرآن على قدر معرفة العرب .

الصحيحين عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا طلع في بيتك أحد ولم تأذن له فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح »[1] .

وهذا الخاص يفسر العام الذي في الصحيح عن عبدالله بن مغفل « أنه رأى رجلاً يحذف قال : لا تحذف فإن رسول الله ﷺ نهى عن الحذف وقال : إنه لا يصاد به صيد ، ولا ينكأ به عدو ولكنها تكسر السن وتفقأ العين »[2] .

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد « أن رجلاً اطلع في حجرة باب النبي ﷺ ، ومع النبي ﷺ مدرى يحك بها رأسه ، فقال : لو أعلم أنك تنظر إلي لطعنت به في عينك ، إنما جعل الاستئذان من أجل البصر »[3] .

وقد ظن طائفة من العلماء أن هذا من باب دفع الصائل ، لأن الناظر معتد بنظره فيدفع كما يدفع سائر البغاة ، ولو كان الأمر كما قالوا لدفع بالأسهل فالأسهل ، ولم يجز قلع عينه ابتداء إذا لم يذهب إلا بذلك ، والنصوص تخالف ذلك ، فإنه أباح أن تحذفه حتى تفقأ عينه قبل أمره بالانصراف وكذلك قوله « لو

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الديات ١٥ باب من أخذ حقه أو اقتص دون السلطان . ٦٨٨٨ حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد إن الأعرج حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول : إنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ورواه النسائي في القسامة ٤٨ والإمام أحمد ٢ : ٢٤٣ ، ٤٢٨ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الذبائح والصيد ٥ باب الحذف والبندقة ٥٤٧٩ ـ حدثنا وكيع ويزيد بن هارون ـ واللفظ ليزيد ـ عن كهمس بن الحسن عن عبدالله بن بريدة عن عبدالله ابن مغفل أنه رأى رجلاً يحذف فقال له لا تحذف فإن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن الحذف وذكره ، ورواه في الأدب ١٢٢ ورواه الامام مسلم في الصيد ٥٤ ـ ٥٦ وأبو داود في الأدب ١٦٦ ، وابن ماجه في الصيد ١١ والدارمي في المقدمة ٤٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٨٦ ، ٥ : ٥٤ ـ ٥٧ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه أبو داود في الأدب ١٢٧ ، والترمذي في الاستئذان ١٧ والنسائي في القسامة ٤٧ وأحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٧٨ ، ١٩١ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ، ٥ : ٣٣٥ (حلبي)

أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك » .

فجعل نفس النظر مبيحاً للطعن في العين ، ولم يذكر الأمر له بالانصراف .

وهذا يدل على أنه من باب المعاقبة له على ذلك حيث جنى هذه الجناية على حرمة صاحب البيت فله أن يفقأ عينه بالحصا والمدرى .

فصل

في أن النظر الى العورات حرام

والنظر إلى العورات حرام داخل في قوله تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ** ﴾ (١) . وفي قوله ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ** ﴾ (٢) فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المباشرة بالفرج أو الدبر ، وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك . وكما في قصة لوط ﴿ **أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ** ﴾ (٣) ﴿ **أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ** ﴾(٤) وقوله ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً** ﴾ (٥) فالفاحشة أيضاً تتناول كشف العورة وإن لم يكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنا** ﴾ (٦)

وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عراة ، وكانوا يقولون : لا نطوف بثياب عصينا الله فيها ، إلا الحمس فإنهم كانوا يطوفون في ثيابهم ، وغيرهم إن حصل له ثياب من الحمس طاف فيها ، وإلا طاف عرياناً . وإن طاف بثيابه حرمت عليه فألقاها ، فكانت تسمى لقاء ، وكذلك المرأة إذا لم يحصل لها ثياب

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٥١ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم ٨٠ .

(٤) سورة النمل آية رقم ٥٤ .

(٥) سورة الاسراء آية رقم ٣٢ .

(٦) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ .

جعلت يدها على فرجها ويدها الأخرى على دبرها وطافت وتقول

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وقد سمى الله ذلك فاحشة وقوله في سياق ذلك ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (١) يتناول كشف العورة أيضاً وإبداءها ، ويؤكد ذلك أن إبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشاً ، فكشف الأعضاء ، والفعل للبصر ، ككشف ذلك للسمع . وكل واحد من الكشفين يسمى وصفاً كما قال عليه السلام « لا تنعت المرأة المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها »(٢) .

ويقال : فلان يصف فلاناً . وثوب يصف البشرة ثم إن كل واحد من إظهار ذلك للسمع والبصر يباح للحاجة ، بل يستحب إذا لم يحصل المستحب أو الواجب إلا بذلك ، كقول النبي ﷺ لماعز « أنكتها »(٣) وكقوله « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » والمقصود أن الفاحشة تتناول الفعل القبيح وتتناول إظهار الفعل وأعضاءه ، وهذا كما أن ذلك يتناول ما

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٣٣ .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب النكاح ١١٨ باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها .
٥٢٤٠ ـ حدثنا محمد بن يوسف ، حدثنا سفيان عن منصور عن أبي وائل عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه قال : قال النبي ـ ﷺ ـ وذكره .
ورواه أبو داود في النكاح ٤٣ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الحدود ٢٨ باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ؟ .
٦٨٢٤ ـ حدثني عبدالله بن محمد الجعفي ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبي قال : سمعت يعلى بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال لما أتى ماعز بن مالك النبي ـ ﷺ ـ قال له : لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت . . ؟ قال : لا يا رسول الله . قال : أنكتها . . ؟ ـ لا يكني ـ قال : فعند ذلك أمر برجمه » .

فحش وإن كان بعقد نكاح كقوله تعالى ﴿ **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيْلاً** ﴾ (١) .

فأخبر أن هذا النكاح فاحشة .

وقد قيل : إن هذا من الفواحش الباطنة فظهر أن الفاحشة تتناول العقود الفاحشة كما تتناول المباشرة بالفاحشة ، فإن قوله : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح اباؤكم من النساء** ﴾ يتناول العقد والوطء ، وفي قوله ﴿ **ما ظهر منها وما بطن** ﴾ عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال ، وأمر تعالى بحفظ الفرج مطلقاً بقوله ﴿ **وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾ (٢) وبقوله ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** ﴾ (٣) الآيات .

وقال : ﴿ **وَالحَافِظِيْنَ فُرُوْجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ** ﴾ (٤) محفظ الفرج مثل قوله ﴿ **وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله** ﴾ (٥) وحفظها هو صرفها عما لا يحل .

وأما الأبصار فلا بد من فتحها والنظر بها ، وقد يفجأ الإنسان ما ينظر إليه بغير قصد ، فلا يمكن غضها مطلقاً ، ولهذا أمر الله تعالى عباده بالغض منها ، كما أمر لقمان ابنه بالغض من صوته . وأما قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِيْنَ يَغُضُّوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ الله** ﴾ (٦) الآية .

فإنه مدحهم على غض الصوت عند رسوله مطلقاً فهم مأمورون بذلك في مثل ذلك ينهون عن رفع الصوت عنده ﷺ ، وأما غض الصوت مطلقاً عند رسول الله ﷺ فهو غض خاص ممدوح ، ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقاً في

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٢ .
(٢) سورة النور آية رقم ٣٠ .
(٣) سورة المعارج آية رقم ٢٩ .
(٤) سورة الأحزاب آية رقم ٣٥ .
(٥) سورة التوبة آية رقم ١١٢ .
(٦) سورة الحجرات آية رقم ٣ .

كل حال ، ولم يؤمر العبد به بل يؤمر برفع الصوت في مواضع : إما أمر إيجاب أو استحباب ، فلهذا قال :

﴿ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾[1] فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه ، فبالسمع يدخل القلب ، وبالصوت يخرج منه ، كما جمع العضرين في قوله : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾[2] فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور ، هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه وهذا ترجمانه .

ثم قال تعالى ﴿ ذَلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾[3] وقال ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾[4]

وقال ﴿ إِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيْراً ﴾[5] .

وقال في آية الاستئذان ﴿ وَإِنْ قِيْلَ لَكُمُ ارْجِعُوْا فَارْجِعُوْا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾[6] .

وقال ﴿ فَاسْأَلُوْهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوْبِهِنَّ ﴾[7] .

وقال ﴿ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾[8] .

---

(١) سورة لقمان آية رقم ١٩ .
(٢) سورة البلد آية رقم ٨ ـ ٩ .
(٣) سورة البقرة آية رقم ٢٣٢ وجاءت الآية محرفة في المطبوعة حيث قال : ذلك .
(٤) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .
(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٣٣ .
(٦) سورة النور آية رقم ٢٨ .
(٧) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ .
(٨) سورة المجادلة آية رقم ١٢ .

وقال النبي ﷺ : اللهم طهر قلبي من خطاياي بالماء والثلج والبرد » (١) .

وقال في دعاء الجنازة» . واغسله بماء وثلج وبرد ، ونقه من خطاياه كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » (٢) .

فالطهارة ، والله أعلم - هي من الذنوب التي هي رجس ، والزكاة تتضمن معنى الطهارة التي هي عدم الذنوب ، ومعنى النماء بالأعمال الصالحة ، مثل المغفرة والرحمة ، ومثل النجاة من العذاب والفوز بالثواب ، ومثل عدم الشر وحصول الخير، فإن الطهارة تكون من الأرجاس والأنجاس ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (٣) وقال ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ (٤) وقال ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٥) .

وقال عن المنافقين ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ (٦) ﴾ وقال عن قوم لوط ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٧) .

وقال اللوطية عن لوط وأهله ﴿ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الدعوات ٤٦ باب التعوذ من فتنة الفقر ٦٣٧٧ - أخبرنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي - ﷺ - يقول : وذكره ورواه مسلم في الصلاة ٢٠٤ والمساجد ١٤٧ وابن ماجه في الاقامة ١ والدعاء ٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣١ ، ٤٩٤ ، ٤ : ٣٥٤ ، ٣٨١ ، ٦ ، ٥٧ ، ٢٠٧ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الامام مسلم في الجنائز ٨٥ ، ٨٦ والنسائي في الجنائز ٧٧ وابن ماجه في الجنائز ٢٣ وأحمد بن حنبل في المسند ٦ : ٢٣ ، ٢٨ (حلبي) .

(٣) سورة التوبة آية رقم ٢٨ .

(٤) سورة الحج آية رقم ٣٠ .

(٥) سورة المائدة آية رقم ٩٠ .

(٦) سورة التوبة آية رقم ٩٥ .

(٧) سورة الأنبياء آية رقم ٧٤ جاءت الآية محرفة في المطبوعة بزيادة (وأهله) .

(٨) سورة الأعراف آية رقم ٨٢ .

قال مجاهد : عن أدبار الرجال .

ويقال : « في دخول الغائط أعوذ بك من الخبث والخبائث »[1] .

ومن الرجس النجس الخبيث المخبث ، وهذه النجاسة تكون من الشرك والنفاق والفواحش والظلم ونحوها ، وهي لا تزول إلا بالتوبة عن ترك الفاحشة وغيرها ، فمن تاب منها فقد تطهر وإلا فهو متنجس وإن اغتسل بالماء من الجنابة ، فذاك الغسل يرفع حدث الجنابة ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه ، فإن تلك نجاسة لا يرفعها الإغتسال بالماء ، وإنما يرفعها الاغتسال بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات .

وهذا معنى ما رواه ابن أبي الدنيا وغيره : ثنا سويد بن سعيد ، ثنا مسلم ابن خالد ، عن اسماعيل بن كثير ، عن مجاهد قال « لو أن الذي يعمل - يعني عمل قوم لوط - اغتسل بكل قطرة في السماء ، وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً » ورواه ابن الجوزي .

وروى القاسم بن خلف [2] في « كتاب ذم اللواط » بإسناده عن الفضيل ابن عياض [3] أنه قال : لو أن لوطياً اغتسل بكل قطرة نزلت من السماء للقي

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الوضوء ٩ باب ما يقول عند الخلاء ١٤٢ حدثنا آدم قال : حدثنا شعبة عن عبد العزيز بن صهيب قال : سمعت أنساً يقول : كان النبي - ﷺ إذا دخل الخلاء وذكره .

تابعه ابن عرعرة عن شعبة . وقال غندر عن شعبة (إذا أتى الخلاء) وقال موسى عن حماد « إذا دخل » وقال سعيد بن زيد ، حدثنا عبد العزيز (إذا أراد أن يدخل)

(٢) هو قاسم بن خلف بن فتح بن عبدالله بن جبير أبو عبدالله الجبيري : قاض أندلسي من علماء المالكية أصله من طرطوسة ، ولد عام ٣١٢ وتفقه في قرطبة ورحل إلى المشرق فغاب ١٣ عاماً وعلت مكانته عند الحكم المستنصر فأسكنه معه في الزهراء وولي قضاء بلنسيه وطرطوسة زمناً ثم اتهم بموالاة عبد الله بن عبد الرحمن الناصر فحبس في « المطبق » فبقي عشر سنوات توفي في نهايتها عام ٣٧٨ هـ له كتاب في التوسط بين مالك وابن القاسم فيما خالف به ابن القاسم مالكاً .

(٣) سبق الترجمة له في كلمة وافية وراجع (طبقات الصوفية ٦ - ١٤ وتذكرة الحفاظ ١ : ٢٢٥ =

الله غير طاهر .

وقد روى أبو محمد الخلال عن العباس الهاشمي ذلك مرفوعاً(١) .

وحديث ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا(٢) ، ورفع مثل هذا الكلام منكر ، وإنما هو معروف من كلام السلف .

وكذلك روي عن أبي هريرة وابن عباس قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال في خطبته « من نكح امرأة في دبرها أو غلاماً أو رجلاً حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة يتأذى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ، ويحبط الله عمله ، ولا يقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، ويجعل في تابوت من نار ويسمر عليه بمسامير من حديد ، فتشك تلك المسامير في وجهه وجسده »(٣) قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب ، وذلك لأن تارك اللواط متطهر كما دل عليه القرآن ، ففاعله غير متطهر من ذلك فيكون متنجساً ، فإن ضد الطهارة النجاسة .

= وتهذيب ٨ : ٢٩٤ والجواهر المضية ١ : ٤٠٩ وصفة الصفوة ٢ : ١٣٤ وحلية الأولياء ٨ : ٨٤ وابن خلكان ١ : ٤١٥ .

(١) الخبر أورده ابن الجوزي في الموضوعات ، وأسنده الديلمي عن أنس مرفوعاً بلفظ (لو اغتسل اللوطي بماء البحر لم يجىء يوم القيامة إلا جنباً وأسنده أيضاً عن أبي هريرة بلفظ مختلف مع اتفاق في المعنى ، قال في المقاصد : وكل ما في معناه باطل ونقل ابن الجوزي ، تعليقاً على حديث أنس ـ قول الخطيب : الرجال المذكورون في إسناد هذا الحديث كلهم ثقاة غير أبي سهل ، وهو الذي ضعفه . [راجع كشف الخفا والألباس للعجلوني ٢١٩ / ٢ والموضوعات لابن الجوزي ١١٢ / ٣] .

(٢) الخبر رواه روح بن مسافر عن حماد عن ابراهيم عن علقمة عن ابن مسعود وأورده ابن حبان في ترجمة روح بن مسافر وقال : كان من يروي الموضوعات عن الاثبات لا تحل الرواية عنه كما أورده ابن الجوزي في الموضوعات وقال : هذا موضوع ثم نقل رأي ابن حبان . [راجع المجروحون لابن حبان ١٢٩٩ والموضوعات لابن الجوزي ١١٢ / ٣] .

(٣) الحديث عند الترمذي في كتاب الرضاع ١٢ باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن . ١١٦٦ بلفظ « ولا تأتوا النساء في أعجازهن » وعند ابن ماجه في كتاب النكاح ٢٩ باب =

فصل
في أنواع النجاسة

لكن النجاسة أنواع مختلفة ، تختلف أحكامها .

ومن ها هنا غلط بعض الناس من الفقهاء ، فإنهم لما رأوا ما دل عليه القرآن من طلب طهارة الجنب بقوله ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا ﴾ [١] قالوا : فيكون الجنب نجساً ، وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : «إن المؤمن لا ينجس» [٢] لما انخنس منه وهو جنب وكره أن يجالسه ، فهذه النجاسة التي نفاها النبي ﷺ هي نجاسة الطهارة بالماء التي

= النهي عن إتيان النساء في أدبارهن بسنده عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ قال (لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها » .

(١) سورة المائدة آية رقم ٦ وتكملة الآية ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** ﴾

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الغسل ٢٣ باب عرق الجنب وأن المسلم لا ينجس ٢٨٣ - حدثنا علي بن عبدالله ، حدثنا يحيى قال : حدثنا حميد ، قال : حدثنا بكر عن أبي رافع عن أبي هريرة أن النبي ﷺ - لقيه في بعض طريق المدينة وهو جنب فانخنست منه ، فذهب فاغتسل ثم جاء فقال : أين كنت يا أبا هريرة ؟ قال : كنت جنباً فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة . فقال : سبحان الله . وذكره .

ورواه في الجنائز ٨ والإمام مسلم في الحيض ١١٥ -١١٦ ، وأبو داود في الطهارة ٩١ والترمذي في الطهارة ٨٩ والنسائي في الطهارة ١٧١ وابن ماجه في الطهارة ٨٠ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٣٥ ، ٢٨٢ ، ٤٧١ ، ٥ : ٣٨٤ ، ٤٠٢ (حلبي) .

ظنها أبو هريرة ، والجنابة تمنع الملائكة أن تدخل بيتاً فيه جنب .

وقال أحمد: إذا وضع الجنب يده في ماء قليل أنجس الماء ، فظن بعض أصحابه أنه أراد النجاسة الحسية ، وإنما أراد الحكمية ، فإن الفرع لا يكون أقوى من الأصل ، ولا يكون الماء أعظم من البدن ، بل غايته أن يقوم به المانع الذي قام بالبدن ، والجنب ظاهره ممنوع من الصلاة فيكون الماء كذلك طاهراً لا يتوضأ به للصلاة . وأما الزكاة فهي متضمنة النماء والزيادة كالزرع وإن كانت الطهارة قد تدخل في معناها ، فإن الشيء إذا تنظف مما يفسره زكى ونما وصلح وزاد في نفسه كالزرع ينفي من الدِغل قال الله تعالى **﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾** (1) .

﴿ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ (2) وقال **﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾** (3) .

وقال **﴿ فَارْجِعوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾** (4) فإن الرجوع عمل صالح يزيد المؤمن زكاة وطهارة وقال **﴿ ذَٰلِكُم أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾** (5) فإن ذلك مجانبة لأسباب الريبة ، وذلك من نوع مجانبة الذنوب والبعد عنها ومباعدتها فأخبر أن ذلك أطهر لقلوب الطائفتين . وأما الآية التي نحن فيها وهي قوله **﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِم وَيَحْفَظُوْا فُرُوْجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾** (6) .

---

(١) سورة النور آية رقم ٢١ .
(٢) سورة الكهف آية رقم ٧٤ .
(٣) سورة الشمس آية رقم ٩ .
(٤) سورة النور آية رقم ٢٨ .
(٥) سورة الأحزاب آية رقم ٥٣ .
(٦) سورة النور آية رقم ٣٠ .

فالغض من البصر وحفظ الفرج يتضمن البعد عن نجاسة الذنوب ، ويتضمن الأعمال الصالحة التي يزكو بها الإنسان ، وهو أزكى ، والزكاة تتضمن الطهارة ، فإن فيها معنى ترك السيئات ومعنى فعل الحسنات ، ولهذا تفسر تارة بالطهارة وتارة بالزيادة والنماء ، ومعناها يتضمن الأمرين وإن كان قرن الطهارة معها في الذكر مثل قوله : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ (١) فالصدقة توجب الطهارة من الذنوب ، وتوجب الزكاة التي هي العمل الصالح ، كما أن الغض من البصر ، وحفظ الفرج هو أزكى لهم ؛ وهما يكونان باجتناب الذنوب وحفظ الجوارح ، ويكونان بالتوبة والصدقة التي هي الإحسان ، وهذان هما التقوى والإحسان ، و ﴿ **إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِيْنَ اتَّقوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُوْنَ** ﴾ (٢) .

وقد روى الترمذي وصححه « أن النبي ﷺ سئل ما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : الأجوفان : الفم والفرج ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : تقوى الله وحسن الخلق » (٣) فيدخل في تقوى الله حفظ الفرج وغض البصر ، ويدخل في حسن الخلق الإحسان إلى الخلق والامتناع من إيذائهم ، وذلك يحتاج إلى الصبر ، والإحسان إلى الخلق يكون عن الرحمة ، والله تعالى يقول : ﴿ **وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ (٤) .

وهو سبحانه ذكر الزكاة هنا كما قدمها من قوله ﴿ **وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ أَبَداً** ﴾ (٥) .

---

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٣ .

(٢) سورة النحل آية رقم ١٢٨ .

(٣) ورد الحديث في سنن ابن ماجه ٢ : ١٤٨٨ ، وفي البخاري (كتاب الرقاق) عن سهل بن سعد « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة ، وذكر المنذري في الترغيب والترهيب عدة روايات للحديث ٤ : ٦١ ـ ٦٤ وفي المسند ٥ : ٣٣٣ (حلبي) وذكر النبهاني في الفتح الكبير ٣ : ٢٤٦ أن الحديث رواه الامام ابن حبان ، والحاكم في المستدرك .

(٤) سورة البلد آية رقم ١٧ .

(٥) سورة النور آية رقم ٢١ .

فإن اجتناب الذنوب يوجب الزكاة التي هي زوال الشر وحصول الخير ، والمفلحون هم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات ، كما وصفهم في أول سورة البقرة فقال:

﴿ الٓمٓ ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِيْنَ ﴾ (١) الآيات وقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ (٢) .

فإذا كان قد أخبر أن هؤلاء مفلحون وأخبر أن المفلحين هم المتقون ﴿ الَّذِيْنَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيْمُوْنَ الصَّلاَةَ وَمِمَا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُوْنَ ﴾ (٣) وأخبر أن من زكى نفسه فهو مفلح دل ذلك على أن الزكاة تنتظم الأمور المذكورة في أول سورة البقرة .

وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِيْنَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ (٤) وقوله ﴿ فَلاَ تُزَكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (٥) فالتزكية من العباد لأنفسهم هي إخبارهم عن أنفسهم بكونها زاكية واعتقاد ذلك ، لا نفس جعلها زاكية ، وقال تعالى عن ابراهيم :

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيْهِم رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ ﴾ (٦) وقال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ (٧) الآية وقال : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِيِّينَ رَسُوْلاً مِنْهُمْ ﴾ (٨) الآية .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١ ـ ٢ .

(٢) سورة الشمس آية رقم ٩ .

(٣) سورة البقرة آية رقم ٣ .

(٤) سورة النساء آية رقم ٤٩ .

(٥) سورة النجم آية رقم ٣٢ .

(٦) سورة البقرة آية رقم ١٢٩ .

(٧) سورة آل عمران آية رقم ١٦٤ .

(٨) سورة الجمعة آية رقم ٢ .

فامتن سبحانه على العباد بإرساله في عدة مواضع فهذه أربعة أمور أرسله بها ، تلاوة آياته عليهم وتزكيتهم ، وتعليمهم الكتاب والحكمة .

وقد أفرد تعليمه الكتاب والحكم بالذكر مثل قوله : ﴿ **وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الكِتَابِ وَالحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ** ﴾ (١) وقوله ﴿ **وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالحِكْمَةِ** ﴾ (٢) وذلك أن التلاوة عليهم وتزكيتهم أمر عام لجميع المؤمنين ، فإن التلاوة هي تبليغ كلامه تعالى إليهم وهذا لا بد منه لكل مؤمن ، وتزكيتهم هو جعل أنفسهم زكية بالعمل الصالح الناشىء عن الآيات التي سمعوها ، وتليت عليهم، فالأول سمعهم ، والثاني : طاعتهم ، والمؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا ، الأول علمهم ، والثاني عملهم .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٣١ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٣٤ .

فصل

في حقيقة الإيمان

والإيمان قول وعمل، فإذا سمعوا آيات الله وعوها بقلوبهم وأحبوها وعملوا بها ، ولم يكونوا كمن قال فيهم ﴿ وَمَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (١) وإذا عملوا بها زكوا بذلك وكانوا من المفلحين المؤمنين .

والله قال ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُم وَالَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٢) .

وقال في ضدهم ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُوْدَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ (٣) فأخبر أنهم أعظم كفراً ونفاقاً وجهلاً ، وذلك ضد الإيمان والعلم ، فاستماع آيات الله والتزكي بها أمر واجب على كل أحد ، فإنه لا بد لكل عبد من سماع رسالة سيده التي أرسل بها رسوله إليه وهذا هو السماع الواجب الذي هو أصل الإيمان ولا بد من التزكي بفعل المأمور وترك المحظور فهذان لا بد منهما .

وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على كل

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٧١ .
(٢) سورة المجادلة آية رقم ١١ .
(٣) سورة التوبة آية رقم ٩٧ .

أحد بعينه أن يكون عالماً بالكتاب لفظه ومعناه ، عالماً بالحكمة جميعها ، بل المؤمنون كلهم مخاطبون بذلك ، وهو واجب عليهم ، كما هم مخاطبون بالجهاد ، بل وجوب ذلك أسبق وأوكد من وجوب الجهاد ، فإنه أصل الجهاد ، ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون .

ولهذا كان قيام الرسول والمؤمنين بذلك قبل قيامهم بالجهاد ، فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه ، وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه ومقصود الرسالة فعل الواجبات والمستحبات جميعاً ولا ريب أن استماع كتاب الله والإيمان به وتحريم حرامه ، وتحليل حلاله ، والعمل بمحكمه ، والإيمان بمتشابهه واجب على كل أحد ، وهذا هو التلاوة المذكورة في ﴿ **الَّذِيْنَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُوْنَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** ﴾ (١) .

فأخبر عن الذين يتلونه حق تلاوته أنهم يؤمنون به ، وبه قال سلف الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم .

وقوله ﴿ **حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ (٢) كقوله ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾ (٣) .

و﴿ **اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ (٤) .

وأما حفظ جميع القرآن وفهم جميع معانيه ومعرفة جميع السنة فلا يجب على كل أحد ، لكن يجب على العبد أن يحفظ من القرآن ويعلم معانيه

---

(١) سورة البقرة آية رقم ١٢١ .

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿ **يتلونه حق تلاوته** ﴾ هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير ، وقال سعيد عن قتادة : هم أصحاب رسول الله ـ ﷺ . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي، أخبرنا ابراهيم بن موسى ، وعبدالله بن عمران الأصبهاني قال : أخبرنا يحيى بن يمان ، حدثنا أسامة بن زيد عن أبيه عن عمر بن الخطاب ﴿ **يتلونه حق تلاوته** ﴾ قال : إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار » .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ .

(٣) سورة الحج آية رقم ٧٨ .

(٤) سورة آل عمران آية رقم ١٠٢ .

ويعرف من السنة ما يحتاج إليه ، وهل يجب عليه أن يسمع جميع القرآن ؟ فيه خلاف ولكن هذه المعرفة الحكمية التي تجب على كل عبد ليس هو علم الكتاب والحكمة التي علمها النبي ﷺ أصحابه وأمته ، بل ذلك لا يكون إلا بمعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله من الألفاظ والمعاني والأفعال والمقاصد ولا يجب هذا على كل أحد .

وقوله تعالى ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ (١) دليل على أن الزكاة هي التقوى والتقوى تنتظم الأمرين جميعاً ، بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات ، إذ الإنسان حارث همام ، ولا يدع إرادة السيئات وفعلها إلا بإرادة الحسنات وفعلها ، إذ النفس لا تخلو عن الإرادتين جميعاً ، بل الإنسان بالطبع مريد فعال وهذا دليل على أن هذا يكون سببه الزكاة والتقوى التي بها يستحق الإنسان الجنة كما في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال « من تكفل لي بحفظ ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة » (٢) .

ومن تزكى فقد أفلح فيدخل الجنة ، والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر ، فإذا حصل الخير وزوال الشر ـ من العلم والعمل ـ حصل له نور وهدى ومعرفة وغير ذلك ، والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية ، وغير

---

(١) سورة النجم آية رقم ٣٢ .
قال الامام مسلم في صحيحه : حدثنا عمر الناقد ، حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الليث عن يزيد ابن أبي حبيب عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتي برة فقالت لي زينب بنت أبي سلمة إن رسول الله ـ ﷺ ـ نهى عن هذا الاسم وسميت برة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا : بما نسميها . .؟ قال : سموها زينب . وقد ثبت أيضاً في الحديث الذي رواه الامام أحمد حيث قال : حدثنا عفان، حدثنا وهب ، حدثنا خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : مدح رجل رجلاً عند النبي ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ـ ﷺ « ويلك قطعت عنق صاحبك ـ مراراً ـ إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكى على الله أحداً أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » .

(٢) الحديث رواه أبو داود في كتاب الزكاة ٢٧ والامام الترمذي في الزهد ٦١ والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٢٧٥ ، ٢٧٦ (حلبي) .

ذلك . هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتى بالمأمورات ويحصل له ذلك أيضاً قـدرة وسلطاناً ، وهـذه صفات الكمـال : العلم ، والعمـل والقـدرة ، وحسن الإرادة ، وقد جاءت الآثار بذلك ، وأنه يحصـل لمن غض بصره نـور في قلبه ومحبة ، كما جرب ذلك العالمون العاملون

وفي مسند أحمد حدثنا عتاب عن عبدالله ـ وهو ابن المبارك ـ أنـا يحيى ابن أيوب ، عن عبيدالله بن زحر ، عن علي بن يزيـد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة عن النبي ﷺ « قال ما من مسلم ينـظر إلى محاسن امـرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها »(١) .

ورواه أبـو بكر بن الأنبـاري في أماليـه من حـديث ابن أبي مـريم ، عن يحيىٰ بن أيوب به ، ولفظه «من نظر إلى امرأة فغض بصره عنـد أول دفعة رزقـه الله عبادة يجد حلاوتها » .

وقد رواه أبو نعيم في الحلية : حدثنـا ابراهيم بـن محمـد بن الحسن ، حدثنا محمد بن يعقوب قال : حدثنا أبو اليمان ، حدثنـا أبو مهـدي سعيد بـن سنان ، عن أبي الزاهرية عن كثير بن مرة عن ابن عمر : قال : قال رسول الله ﷺ ، النـظرة الأولى خطأ ، والثـانية عمـد ، والثالثـة تدبـر ، نظر المؤمن إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تـركه خشيـة الله ورجاء مـا عنـده أثابـه الله تعالى بـذلك عبـادة تبلغه لـذتها رواه أبـو جعفر الخـرائطي في « كتاب اعتلال القلوب » ثنـا علي بن حرب ، ثنـا اسحاق بن عبـد الواحـد ثنا هشيم ، ثنا عبد الرحمن بن اسحاق ، عن محارب بـن دثار ، عن جبلة ، عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : النظر إلى المرأة سهم مسموم من سهـام إبليس ، من تـركـه خـوفـاً من الله أثـابـه الله ايمـانـاً يجـد حـلاوتـه في قلبه » (٢) .

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٥ : ٢٦٤ .

(٢) رواه الحاكم وصححه ، وأقره العراقي ، وضعفه المنذري عن حذيفة ، وأخرجه الطبراني عن ابن

وقد رواه أبو محمد الخلال من حديث عبد الرحمن بن اسحاق عن النعمان بن سعد ، عن علي ، وفيه ذكر السهم ورواه أبو نعيم : ثنا عبدالله بن محمد هو أبو الشيخ ثنا ابن عفير ، قال : ثنا شعيب بن سلمة ثنا عصمة بن محمد ، عن موسى يعني ابن عقبة عن القاسم بن محمد ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « ما من عبد يكف بصره عن محاسن امرأة ولو شاء أن ينظر إليها لنظر إلا أدخل الله قلبه عبادة يجد حلاوتها وروى ابن أبي الفوارس من طريق ابن الجوزي عن محمد بن المسيب ، ثنا عبدالله ، قال : حدثني الحسن عن مجاهد ، قال : غض البصر عن محارم الله يورث حب الله .

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد ، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير ، عن جده جرير بن عبدالله البجلي ، قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري »[1] ورواه الإمام أحمد عن هشيم بن يونس به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضاً .

وقال الترمذي : حسن صحيح .

وفي رواية قال « أطرق بصرك » أي انظر إلى الأرض ، والصرف أعم ، فإنه قد يكون إلى الأرض ، أو إلى جهة أخرى .

وقال أبو داود : حدثنا إسماعيل بن موسى الفزاري ، حدثنا شريك عن

= مسعود . قال : قال رسول الله ﷺ ـ عن ربه عز وجل : النظرة سهم مسموم من سهام ابليس من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه ، ومن شواهد ما عند البيهقي وغيره ، قال المنذري ورواتهم لا أعلم فيهم مجروحاً عن ابن مسعود : الاثم حزاز القلوب ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع . والله أعلم .

(١) الحديث أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي . قال الخطابي في تعليقه على الحديث بعد أن أورد الرواية الأخرى (اطرق بصرك) فقال : الإطراق أن يقبل ببصره إلى صدره ، والصرف أن يقبل به الى الشق الآخر أو الناحية الأخرى . راجع مسلم بشرح النووي ٨٦٧ / ٤ ومختصر السنن للمنذري ٣ : ٧٠ .

ربيعة الإيادي عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال : « قال رسول الله ﷺ لعلي : يا علي لا تتبع النظرة النظرة . فإن لك الأولى وليست لك الأخرى » [1] .

ورواه الترمذي من حديث شريك ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه .

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « إياكم والجلوس على الطرقات قالوا : يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نقعد فيها فقال رسول الله ﷺ : إن أبيت فاعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟

قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » [2] .

ورواه أبو القاسم البغوي [3] عن أبي أمامة قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : اكفلوا لي ستاً أكفل لكم الجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ،

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب النكاح ٤٣ والدارمي في كتاب الأدب ٢٨ ، والرقاق ٣ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧ (حلبي) .

(٢) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب المظالم ٢٢ باب أفنية الدور والجلوس فيها والجلوس على الصعدات .

٢٤٦٥ ـ حدثنا معاذ بن فضالة ، حدثنا أبو عمر حفص بن ميسرة عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ ـ قال : وذكره.

ورواه أيضاً في كتاب الاستئذان ٢ والإمام مسلم في اللباس ١١٤ وأبو داود في الأدب ١٢ وأحمد ابن حنبل في المسند ٣ : ٣٦ ، ٤٧ ، ٦١ (حلبي)

(٣) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ابن المرزبان ، أبو القاسم البغوي حافظ للحديث ، من العلماء ، أصله من بغشور (بين هراة ومرو الروذ ـ النسبة إليها بغوي مولد عام ٢١٣ هـ ووفاته عام ٣١٧ في بغداد ، كان محدث العراق في عصره ، له معجم الصحابة جزآن منه) العاشر والحادي عشر في مجلد كتب سنة ٦١٧ في الرباط (٣٤١ ك) والجعديات في الحديث ، وحكايات شعبة وعمرو بن مرة . [راجع معجم البلدان : بغشور ، واللباب ١ : ١٣٣] وميزان الاعتدال ٢ : ٧٢ ولسان الميزان ٣ :٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠ : ١١١ والرسالة المستطرفة ٥٨ وفي تذكرة الحفاظ ٢ :٢٤٧ وفاته سنة ٣١٠ هـ ومخطوطات الظاهرية ٢١٩ .

وإذا اؤتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم »

فالنظر داعية إلى فساد القلب .

قال بعض السلف : النظر سهم سم إلى القلب ، فلهذا أمر الله بحفظ الفروج ، كما أمر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك .

وفي الطبراني من طريق عبيدالله بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعاً ، « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ، ولتقيمن وجوهكم ، أو لتكسفن وجوهكم » .

وقال الطبراني : حدثنا أحمد بن زهير التستري قال : قرأنا على محمد ابن حفص بن عمر الضرير المقري حدثنا يحيى بن أبي كثير ، حدثنا هزيم بن سفيان عن عبد الرحمن بن اسحاق ، عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه ، عن ابن مسعود قال « قال رسول الله ﷺ : إن النظر سهم من سهام ابليس مسموم ، فمن تركه من مخافة الله أبدله الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه .

وفي حديث أبي هريرة الصحيح عن النبي ﷺ « زنا العينين النظر » (١) .

وذكر الحديث ، رواه البخاري تعليقاً ومسلم مسنداً وقد كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى المردان وكانوا يتهمون من فعل ذلك في دينه .

---

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الاستئذان ١٢ باب زنا الجوارح دون الفرج ٤٣ ٦٣- حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لم أر شيئاً أشبه باللحم من قول أبي هريرة ، وحدثني محمود أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللحم مما قال أبو هريرة عن النبي - ﷺ وذكره .

ورواه أيضاً في كتاب القدر ٩ والامام مسلم في القدر ٢٠ ، ٢١ وأبو داود في النكاح ٤٣ وأحمد ابن حنبل في المسند٢ : ٢٧٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ (حلبي) .

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب من الرجال بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً.

فصل
في فضائل غض البصر قربة لله تعالى

قال شيخ الإسلام : وأما النور والعلم والحكمة فقد دل عليه قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (1) .

فهي لكل محسن ، وفي هذه السورة ذكر آية النور بعد غض البصر وحفظ الفرج ، وأمره بالتوبة مما لا بد منه أن يدرك ابن آدم من ذلك .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي (2) : سمعت أبا الحسين الوراق يقول : من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدي بها ، ويهدي بها إلى طريق مرضاته ، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل ، فإذا كان النظر إلى محبوب فتركه لله عوضه الله ما هو أحب إليه منه ، وإذا كان النظر بنور العين مكروهاً ، أو إلى مكروه فتركه لله أعطاه الله نوراً في قلبه وبصراً

---

(1) سورة يوسف آية رقم ٢٢ .

(2) هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري أبو عبد الرحمن من علماء المتصوفة . قال الذهبي : شيخ الصوفية ، وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم ، قيل كان يضع الأحاديث للصوفية ، بلغت تصانيفه مئة أو أكثر منها « حقائق التفسير » ، وطبقات الصوفية ، ومناهج العارفين ، ورسالة الملامتية وغير ذلك كثير توفي عام ٤١٢ هـ [راجع طبقات الصوفية مقدمة كتبها نور الدين شريبة ١٦ ـ ٤٩ ومفتاح السعادة ١ : ٤٥١ وميزان الاعتدال ٣ : ٤٦ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٨] .

يبصر به الحق قال شاه الكرماني : من غض بصره عن المحارم وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وعود نفسه أكل الحلال ، وكف نفسه عن الشهوات ، لم تخطىء له فراسة وإذا صلح علم الرجل فعرف الحق وعمله واتبع الحق صار زكياً تقياً مستوجباً للجنة .

ويؤيد ذلك حديث أبي أمامة المشهور من رواية البغوي حدثنا طالوت ابن عباد ، حدثنا فضالة بن جبير سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اكفلوا لي بست أكفل لكم الجنة ، إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، غضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم » فقد كفل بالجنة لمن أتى بهذه الست خصال فالثلاثة الأولى : تبرئة من النفاق ، والثلاثة الأخرى : تبرئة من الفسوق ، والمخاطبون مسلمون فإذا لم يكن منافقاً كان مؤمناً ، وإذ لم يكن فاسقاً كان تقياً فيستحق الجنة .

ويوافق ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا : حدثنا أبو سعيد المدني ، حدثني عمر بن سهل المازني قال : حدثني عمر بن محمد بن صهبان ، حدثني صفوان بن سليم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » (١) .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ (٢) يتناول النظر إلى الأموال واللباس والصور وغير ذلك من متاع الدنيا ، أما اللباس والصور فهما اللذان لا ينظر الله إليهما ، كما

---

(١) الحديث رواه الدارمي في الجهاد باب في الذي يسهر في سبيل الله حارساً بسنده عن أبي ريحانة وذكره مع اختلاف في اللفظ ورواه الامام أحمد في المسند ٤ : ١٣٤ - ١٣٥ بسنده عن أبي ريحانة وذكره مع اختلاف في اللفظ عما هو مذكور هنا .

(٢) سورة طه آية رقم ١٣١ .

في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »(١) .

وقد قال تعالى ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً ﴾ (٢) وذلك أن الله يمتع بالصور كما يمتع بالأموال ، وكلاهما من زهرة الحياة الدنيا ، وكلاهما يفتن أهله وأصحابه وربما أفضى به إلى الهلاك دنيا وأخرى والهلكى رجلان، فمستطيع وعاجز ، فالعاجز مفتون بالنظر ومد العين اليه ، والمستطيع مفتون فيما أوتي منه ، غارق قد أحاط به ما لا يستطيع انقاذ نفسه منه .

وهذا المنظور قد يعجب المؤمن ، وإن كان المنظور منافقاً أو فاسقاً كما يعجبه المسموع منهم قال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ (٣) .

فهذا تحذير من الله تعالى من النظر إليهم واستماع قولهم ، فلا ينظر إليهم ولا يسمع قولهم فإن الله سبحانه قد أخبر أن رؤياهم تعجب الناظرين إليهم ، وإن قولهم يعجب السامعين .

ثم أخبر عن فساد قلوبهم وأعمالهم بقوله ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾(٤) .
فهذا مثل قلوبهم وأعمالهم .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ٩ باب القناعة ٤١٤٣ ثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان ثنا يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رفعه إلى النبي - ﷺ - وذكره ، ورواه الإمام مسلم في كتاب البر ٣٢ وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ (حلبي) .

(٢) سورة مريم آية رقم ٧٤ .

(٣) سورة المنافقون آية رقم ٤ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٤ .

وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾[1] الآية .

وقد قال تعالى في قصة قوم لوط : ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتوسِّمِيْنَ ﴾[2] .

والتوسم من السمة ، وهي العلامة ، فأخبر سبحانه أنه جعل عقوبات المعتدين آيات للمتوسمين .

وفي الترمذي عن النبي ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴿ إنَّ في ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوسِّمِيْنَ ﴾ [3] فدل ذلك على أن من اعتبر بما عاقب الله به غيره من أهل الفواحش كان من المتوسمين وأخبر تعالى عن اللوطية أنه طمس أبصارهم ، فكانت عقوبة أهل الفواحش طمس الأبصار ، كما قد عرف ذلك فيهم ، وشوهد منهم ، وكان ثواب المعتبرين بهم التاركين لأفعالهم إعطاء الأنوار ، وهذا مناسب لذكر آية النور عقيب غض الأبصار ، وأما القدرة والقوة التي يعطيها الله لمن اتقاه وخالف هواه فذلك حاصل معروف ، كما جاء « إن الذي يترك هواه يفرق الشيطان من ظله » .

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » [4] .

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٠٤ .

(٢) سورة الحجر آية رقم ٧٥ .

(٣) قال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا محمد بن كثير العبدي عن عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ـ ورواه الترمذي وابن جرير من حديث عمرو بن قيس عن عطية عن أبي سعيد مرفوعاً وقال الترمذي : لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٤) الحديث رواه البخاري في كتاب الأدب ٧٦ باب الحذر من الغضب لقول الله تعالى ﴿ والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ .

٦١١٤ ـ حدثنا عبدالله بن يوسف أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب (عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ قال : وذكره .

ورواه الامام مسلم في البر ١٠٦ ـ ١٠٨ ، وصاحب الموطأ في حسن الخلق ١٢ والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١ : ٣٨٢ ، ٢ : ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٥١٧ .

وفي رواية : « أنه مر بقوم يحذفون حجراً » فقال : ليس الشدة في هذا ، وإنما الشدة في أن يمتلىء أحدكم غيظاً ، ثم يكظمه لله » أو كما قال وهذا ذكره في الغضب ، لأنه معتاد لبني آدم كثيراً ، ويظهر للناس ، وسلطان الشهوة يكون في الغالب مستوراً عن أعين الناس ، وشيطانها خاف ، ويمكن في كثير من الأوقات الاعتياض بالحلال عن الحرام ، وإلا فالشهوة إذا اشتعلت واستولت قد تكون أقوى من الغضب .

وقد قال تعالى ﴿ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾[1] أي ضعيفاً عن النساء لا يصبر عنهن .

وفي قوله ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا ما لاَ طَاقَةَ لَنَا بِه ﴾[2]

ذكروا منه العشق ، والعشق يفضي بأهله إلى الأمراض والإهلاك ، وإن كان الغضب قد يبلغ ذلك أيضاً ، وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة ، كقوله في سورة هود ﴿ اسْتَغْفِروا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّة إلى قُوَّتِكُمْ ﴾[3] وقوله ﴿ ولله العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُم الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[5] .

وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله ، فما ظنك بالذي لم يحم حول السيئات ، ولم يعرها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها ؟

بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات فهل هذا وذاك سواء ،

---

(١) سورة النساء آية رقم ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية رقم ٢٨٦ .

(٣) سورة هود آية رقم ٥٢ .

(٤) سورة المنافقون آية رقم ٨ .

(٥) سورة آل عمران آية رقم ١٣٩ .

بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك ، وحاله أعظم وأعلى ونوره أتم وأقوى ، فإن السيئات تهواها النفوس ، ويزينها الشيطان ، فتجتمع فيها الشبهات والشهوات .

فإذا كان المؤمن قد حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه ، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان ، حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله ، وما يتبع ذلك ، وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى ، وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به ، حيث دفع بالعلم الجهل وبإرادة الحسنات إرادة السيئات ، وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط . والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضاً حتى يدفع جهله بالظلم ، وإرادته السيئات بارادة الحسنات ونحو ذلك.

والجهاد تمام الإيمان وسنام العمل ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالله وَرَسُوْلِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوْا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم فِي سَبيلِ الله ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُوْنَ ﴾ (١) .

وقال ﴿ كُنْتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) الآية .

وقال ﴿ أَجَعَلْتُم سِقَايَةَ الحَاجِّ ﴾ (٣) الآية .

فكذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين ، كما قال تعالى ﴿ وَالَّذِيْنَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٤) فهذا في العلم والنور .

وقال ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوْا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٥) إلى قوله ﴿ صِرَاطاً

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٥ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١١٠ .

(٣) سورة التوبة آية رقم ١٩ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٦٩ .

(٥) سورة النساء آية رقم ٦٦ .

مُسْتَقِيماً ﴾ فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضاً ، وهو من الجهاد والخروج من ديارهم هو الهجرة ، ثم أخبر أنهم إذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . ففي الآية أربعة أمور :

الخير المطلق ، والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة والأجر العظيم ، وهداية الصراط المستقيم .

وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (١)

وقال ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ (٢) إلى قوله : ﴿ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾ .

وقال ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ (٣) وأما أهل الفواحش الذين لا يغضون أبصارهم ولا يحفظون فروجهم ، فقد وصفهم الله بضد ذلك من السكرة والعمه ، والجهالة ، وعدم العقل ، وعدم الرشد والبغض ، وطمس الأبصار ، هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق ، والعدوان ، والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام ، فقال عن قوم لوط ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٤) فوصفهم بالجهل ، وقال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٥) وقال ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ (٦) وقال ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ (٧) وقال ﴿ بَلْ أَنْتُم قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ (٨) .

---

(١) سورة محمد آية رقم ٧ .
(٢) سورة الحج آية رقم ٤٠ .
(٣) سورة المائدة آية رقم ٥٤ .
(٤) سورة النمل آية رقم ٥٥ .
(٥) سورة الحجر آية رقم ٧٢ .
(٦) سورة هود آية رقم ٧٨ .
(٧) سورة القمر آية رقم ٣٧ .
(٨) سورة الأعراف آية رقم ٨١ .

وقال ﴿ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (1) وقال ﴿ إِنَّهُم كَانُوا قَوْمَ سَوءٍ فَاسِقِينْ ﴾ (2) وقال ﴿ أَئِنَكُم لَتَأْتُوْنَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُوْنَ السَّبِيلَ وَتَأْتُوْنَ فِي نَادِيْكُمُ الْمُنْكَرَ ﴾ إلى قوله : ﴿ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِيْنَ ﴾ (3) إلى قوله ﴿ بِمَا كَانُوْا يَفْسُقُوْنَ ﴾ (4) وقوله ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِيْنَ ﴾ (5) .

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٨٤ .

(٢) سورة الأنبياء آية رقم ٧٤ .

(٣) سورة العنكبوت الآيات من ٢٩ ـ ٣٠ .

(٤) سورة العنكبوت آية رقم ٣٤ .

(٥) سورة الذاريات آية رقم ٣٤ .

فصل

في دعوة المؤمنين الى التوبة

في قوله في آخر الآية ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيْعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُوْنَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ** ﴾ (١) .

فوائد جليلة : منها أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر وحفظ الفرج ، وترك إبداء الزينة ، وما يتبع ذلك ، فمستقل ومستكثر ، كما في الحديث : « ما من أحد من بني آدم إلا أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا » (٢) وذلك لا يكون إلا عن نظر ، وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »(٣) .

وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي ﷺ يقول الله تعالى : ﴿ **يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أبالي ، فاستغفروني**

---

(١) سورة النور آية رقم ٣١ .

(٢) قال الامام أحمد حدثنا عفان ، حدثنا حماد أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ قال : وذكره قال ابن كثير ـ وهذا ضعيف لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة والله أعلم .

(٣) الحديث رواه الامام الترمذي في كتاب القيامة ٤٩ ، وابن ماجه في كتاب الزهد ٣٠ والدارمي في كتاب الرقاق ١٨ ، والامام أحمد بن حنبل في المسند ٣ : ١٩٨

أغفر لكم ﴾[1] .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال « ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريـرة » إن النبي ﷺ قال « إن الله كتب على ابن آدم حـظه من الزنـا أدرك ذلـك لا محالـة ، فزنـا العينين النظر ، وزنـا اللسان النـطق »[2] الحديث إلى آخره . وفيه « والنفس تتمنى ذلـك وتشتهي ، والفرج يصـدق ذلك أو يكـذبه » أخرجه البخاري تعليقاً من حديث طاووس عن أبي هريرة .

ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيـه عن أبي هريـرة ، عن النبي ﷺ قـال : «كتب على ابن آدم نصيبه من الـزنا يـدرك ذلك لا محـالة العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكـلام ، واليدان زناهما البطش والرجلان زناهمـا الخطا ، والقلب يهـوى ويتمنى ويصدق ذلـك الفرج أو يكذبه »[3] .

وقـد روى الترمـذي حـديثـاً واستغربـه عن ابن عبـاس في قـولـه ﴿ إلاَّ اللَّمَمَ ﴾ قـال رسول الله ﷺ « إن تغفـر اللهم تغفـر جمـا ، وأي عبـد لـك لا ألمـا »[4] ومنها أن أهـل الفـواحش الـذين لم يغضـوا أبصـارهم ولم يحفـظوا

(١) الحـديث أخرجـه الامام أحمـد والترمـذي ، وابن ماجـه ، والحاكم من حـديث أنس ، وقـال الترمذي ، غريب لا نعرفـه إلا من حديث علي بن مسعـدة ، وقال الحـاكم : صحيح ، وقـال الـذهبي : بل فيـه لين ، وقال في مـوضع آخـر . لكن انتصر بن القـطان لتصحيح الحـاكم ، وأورده الدارمي في الرقاق .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث في هذا الجزء وراجـع البخاري كتـاب الاستئذان ومسلم في القـدر وأبو داود في النكاح وأحمد بن حنبل في المسند ٢ : ٢٧٦ (حلبي) .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب القدر باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره . حدثنا اسحاق بن ابراهيم وعبد بن حميد واللفظ لاسحاق ، قال أخبرنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس قال : مـا رأيت شيئاً أشبـه باللمم ممـا قال أبـو هريـرة أن النبي ـ ﷺ ـ قال : وذكره .

(٤) الحـديث رواه الامام الترمذي في كتاب التفسير سورة ٥٣ ورواية الترمذي عن أحمـد بن عثمان البصـري عن أبي عاصم النبيـل ثم قال : هـذا حديث صحيـح حسن غريب لا نعـرفـه إلا من =

فروجهم مأمورون بالتوبة ، وإنما أمروا بها لتقبل منهم ، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين كما قال تعالى ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ** ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوْا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُوْنَ** ﴾ (٢) .

وسواء كانت الفواحش مغلظة لشدتها وكثرتها كإتيان ذوات المحارم ، وعمل قوم لوط أو غير ذلك وسواء تاب الفاعل أو المفعول به ، فمن تاب تاب الله عليه ، بخلاف ما عليه طائفة من الناس فإنهم إذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئاً أيسوه من رحمة الله ، حتى يقول أحدهم من عمل من ذلك شيئاً لا يفلح أبداً ، ولا يرجون له قبول توبة ،

ويروى عن علي أنه قال : منا كذا وكذا ، والمعفو ليس منا .

ويقولون : إن هذا لا يعود صالحاً ولو تاب مع كونه مسلماً مقراً بتحريم ما فعل .

ويدخلون في ذلك من استكره على فعل شيء من هذه الفواحش » .

ويقولون : لو كان لهذا عند الله خير ما سلط عليه من فعل به مثل هذا واستكرهه ، كما يفعل بكثير من المماليك طوعاً وكرهاً ، وكذلك من في معناهم من صبيان الكتاتيب وغيرهم ، ونسوا قوله تعالى ﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ (٣) .

= حديث زكريا بن اسحاق ، وكذا قال البزار لا نعلمه يروى متصلاً إلا من هذا الوجه وساقه ابن أبي حاتم والبغوي .

(١) سورة التوبة آية رقم ١٠٤ .

(٢) سورة الشورى آية رقم ٢٥ .

(٣) سورة النور آية رقم ٣٣ .

وهؤلاء قد لا يعلمون صورة التوبة ، وقد يكون هذا حالاً وعملاً لأحدهم ، وقد يكون اعتقاداً ، فهذا من أعظم الضلال والغي ، فإن القنوط من رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى ، وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش فإن هذا أمن مكر الله بأهلها ، وذاك قنط أهلها من رحمة الله .

فصل

خصائص الداعية الى الله

والفقيه كل الفقيـه هو الـذي لا يؤيس الناس من رحمـة الله ولا يجرئهم على معاصي الله .

وهذا في أصل الذنوب الإرادية نظير ما عليه أهل الأهـواء والبدع ، فـإن أحـدهـم يـعـتـقـد تـلـك الـسـيـئـات حـسـنـات فيأمن مكر الله ، وكثير من الناس يعتقد أن توبة المبتدع لا تقبل ، وقـد قال تعـالى ﴿ إنَّ الله يَغْفِـرُ الذُّنـوبَ جَمِيْعاً إنَّـهُ هُوَ الْغَفُـوْرُ الرَّحِيْمُ ﴾ [(١)] وفي الصحيحين عن أبي مـوسى الأشعري قـال « كـان رسـول الله ﷺ يسمي لنـا نفسـه أسمـاء فقـال : أنـا محمـد، وأنـا أحمـد والمقفى والحـاشـر ونبي التـوبـة ، ونبي الرحمة »[(٢)] .

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣ .

(٢) الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب المناقب ١٧ باب ما جاء في أسماء رسول الله ـ ﷺ ـ ٣٥٣٢ ـ حدثنا ابراهيم بن المنذر ، قال : حدثني معن عن مالك عن ابن شهاب عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ـ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ـ وذكره .

ورواه أيضـاً في التفسيـر سـورة ٦١ ورواه الإمـام مسلـم في الفضـائـل ١٢٤، ١٢٥، والإمـام الترمذي في كتاب الأدب ٦٧ والدارمي في المقدمة ٨ والرقاق ٥٩ وصاحب الموطأ في أسماء النبي ١ ، والإمام أحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤٠٥ ، ٦ : ٢٥ .

وفي حديث آخر « أنا نبي الرحمة ، وأنا نبي الملحمة ، وذلك أنه بعث بالملحمة وهي : المقتلة لمن عصاه ، وبالتوبة لمن أطاعه ، وبالرحمة لمن صدقه واتبعه ، وهو رحمة للعالمين ، وكان من قبله من الأنبياء لا يؤمر بقتال وكان الواحد من أممهم إذا أصاب بعض الذنوب يحتاج مع التوبة إلى عقوبات شديدة ، كما قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ . فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ﴾(١) .

وقد روي عن أبي العالية وغيره أن أحدهم كان إذا أصاب ذنباً أصبحت الخطيئة والكفارة مكتوبة على بابه ، فأنزل الله في حق هذه الأمة ﴿ وَالَّذِيْنَ إِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوْا الله فَاسْتَغْفَرُوْا لِذُنُوْبِهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِيْنَ ﴾ (٢) .

فخص الفاحشة بالذكر مع قوله ﴿ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُم ﴾ والظلم يتناول الفاحشة وغيرها تحقيقاً لما ذكرناه من قبول التوبة من الفواحش مطلقاً ، من الذين يأتيانها من الرجال والنساء جميعاً .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » (٣) .

وفي الصحيح عنه أنه قال « من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٥٤ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٥ ـ ١٣٦ .

(٣) الحديث رواه الامام مسلم في كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة .

حدثنا محمد بن المثنى ـ حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة قال سمعت أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى عن النبي ـ ﷺ ـ قال إن الله عز وجل وذكره .

الله عليه »(1)

وفي السنن عنه أيضاً أنه قال « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » (2) .

وعنه ﷺ قال « قال الشيطان : وعزتك يا رب ، لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب تعالى « وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني ، لا أزال أغفر لهم ما استغفروني (3) وعن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله : يا بن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منكم ولا أبالي ، ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطيئة ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » (4) والذي يمنع توبة أحد هؤلاء إما بحاله ، وإما بقاله ولا يخلو من أحد أمرين أن يقول : إذا تاب أحدهم لم تقبل توبته ، وإما أن يقول أحدهم : لا يتوب الله علي أبداً .

أما الأول فباطل بكتاب الله وسنة نبيه وإجماع المسلمين ، وإن كان قد تكلم بعض العلماء في توبة القاتل ، وتوبة الداعي إلى البدع ، وفي ذلك

---

(1) الحديث رواه الإمام مسلم في الذكر ٤٣ ورواه الامام أحمد في المسند ٢ : ٢٧٥ ، ٣٩٥ ، ٤٢٧ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ (حلبي) .

(2) الحديث رواه أبو داود في الجهاد ٢ والدارمي في السير ٦٩ وأحمد بن حنبل في المسند ٤ : ٩٩ (حلبي) .

(3) الحديث رواه الإمام أحمد بن حنبل في المسند حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا يونس ، ثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : وذكره .

(4) الحديث عند الإمام الترمذي في كتاب الدعوات ٩٩ باب في فضل التوبة والاستغفار ، وما ذكر من رحمة الله لعباده ، ٣٥٤٠ حدثنا عبدالله بن اسحاق الجوهري البصري ، حدثنا أبو عاصم حدثنا كثير بن فائد ، حدثنا سعيد بن عبيد قال : سمعت بكر بن عبدالله المزني يقول : حدثنا أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ ـ وذكره .
قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

نزاع في مذهب أحمد ، وفي مذهب مالك أيضاً نزاع ذكره صاحب التمثيل والبيان في « الجامع » وغيره وتكلموا أيضاً في توبة الزنديق ، ونحو ذلك . فهم قد يتنازعون في كون التوبة في الظاهر تدفع العقوبة ، إما لعدم العلم بصحتها ، وإما لكونها لا تمنع ما وجب من الحد ، ولم يقل أحد من الفقهاء إن الزنديق ونحوه إذا تاب فيما بينه وبين الله توبة صحيحة لم يتقبلها الله منه .

وأما القاتل والمضل فذاك لأجل تعلق حق الغير به والتوبة من حقوق العباد لها حال آخر ، وليس هذا موضع الكلام فيها وفي تفصيلها ، وإنما الغرض أن الله يقبل التوبة من كل ذنب ، كما دل عليه الكتاب والسنة [1] . والفواحش خصوصاً ما علمت أحداً نازع في التوبة منها ، والزاني والمزنى به مشتركان في ذلك إن تابا تاب الله عليهما ، ويبين التوبة خصوصاً من عمل قوم لوط من الجانبين ما ذكره الله في قصة قوم لوط فإنهم كانوا يفعلون الفاحشة بعضهم ببعض ، ومع هذا فقد دعاهم جميعهم إلى تقوى الله والتوبة منها فلو كانت توبة المفعول به أو غيره لا تقبل لم يأمرهم بما لا يقبل ، قال تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِيْنَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُوْنَ ، إِنِّي لكم

---

(١) قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ . سورة الزمر آية رقم ٥٣ .
قال الامام أحمد حدثنا حسن ثنا ابن لهيعة ثنا أبو قبيل قال : سمعت أبا عبد الرحمن المزني يقول : سمعت ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ يقول « ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ إلى آخر الآية فقال رجل يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال : ألا ومن أشرك ثلاث مرات . تفرد به الإمام أحمد .
وقال الامام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد ـ رضي الله عنهما قالت سمعت رسول الله ﷺ يقرأ (إنه عمل غير صالح) وسمعته ﷺ يقول (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعاً ، ولا يبالي (إنه هو الغفور الرحيم) ورواه أبو داود ، والترمذي من حديث ثابت .

رَسُوْلٌ أَمِيْنٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيْعُونِ ﴾ [1] .

فأمرهم بتقوى الله المتضمنة لتوبتهم من هذه الفاحشة ، والخطاب وإن كان للفاعل فإنه إنما خص به ، لأنه صاحب الشهوة والطلب في العادة بخلاف المفعول به ، فإنه لم تخلق فيه شهوة لذلك في الأصل ، وإن كانت قد تعرض له لمرض طارىء أو أجر يأخذه من الفاعل ، أو لغرض آخر . والله سبحانه وتعالى أعلم .

---

(1) سورة الشعراء آية رقم ١٦٠ ـ ١٦٣ .

فصل

في « الذين يرمون المحصنات الغافلات » وأقوال العلماء فيها

قال شيخ الإسلام قدس الله روحه ، ونور ضريحه في قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (١) في طرده الكلام على ما يتعلق بهذه الآية وغيرها فقال : وأما الجواب المفصل فمن ثلاثة أوجه :

« أحدها » إن هذه الآية في أزواج النبي ﷺ خاصة في قول كثير من أهل العلم فروى هشيم عن العوام بن حوشب ، ثنا شيخ من بني كاهل قال : فسر ابن عباس سورة النور فلما أتى على هذه الآية ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات** ﴾ إلى آخر الآية قال : هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ، وهي مبهمة ليس فيها توبة (٢) ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ، ثم قرأ ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ** ﴾ إلى قوله ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا** ﴾ (٣) فجعل لهؤلاء توبة ، ولم يجعل لأولئك توبة ، قال : فهم رجل أن يقوم فيقبل

---

(١) سورة النور آية رقم ٢٣ .

(٢) الخبر أورده ابن جرير ، وهو فيما نقله ابن كثير عنه في تفسير الآية [راجع هذا التفسير ٣ / ٢٧٦] .

(٣) سورة النور آية رقم ٤ ـ ٥ .

رأسه من حسن ما فسر .

وقال أبو سعيد الأشج : حدثنا عبدالله بن خراش عن العوام ، عن سعيد ابن المسيب عن ابن عباس ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات** ﴾ نزلت في عائشة خاصة ، واللعنة في المنافقين عامة .

فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت فيمن يقذف عائشة وأمهات المؤمنين ؛ لما في قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعيبه فإن قذف المرأة أذى لزوجها ، كما هو أذى لابنها لأنه نسبة له إلى الدياثة وإظهار لفساد فراشه فإن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيماً .

ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إذا زنت ودرأ الحد عنه باللعان ، ولم يبح لغيره أن يقذف امرأة بحال .

ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقذف أهله أعظم مما يلحقه لو كان هو المقذوف .

ولهذا ذهب الإمام أحمد في إحدى الروايتين المنصوصتين عنه إلى أن من قذف امرأة غير محصنة كالأمة والذمية ، ولها زوج أو ولد محصن حد لقذفها ؛ لما ألحقه من العار بولدها وزوجها المحصنين .

والرواية الأخرى عنه ، وهي قول الأكثرين أنه لا حد عليه ؛ لأنه أذى لهما ، لا قذف لهما ، والحد التام إنما يجب بالقذف ، وفي جانب النبي ﷺ أذى كقذفه ، ومن يقصد عيب النبي ﷺ بعيب أزواجه فهو منافق وهذا معنى قول ابن عباس : اللعنة في المنافقين عامة . وقد وافق ابن عباس جماعة ، فروى الإمام أحمد والأشج عن خصيف قال : سألت سعيد بن جبير فقلت : الزنا أشد ، أو قذف المحصنة ؟ قال : لا ، بل الزنا .

قال : قلت : فإن الله تعالى يقول ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة** ﴾ .

فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة. وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة** ﴾ .

فقال : إنما كان هذا في عائشة خاصة .

وروى أحمد بإسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية ﴿ **إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة** ﴾ .

قال : هذه الآية لأمهات المؤمنين خاصة وروى الأشج بإسناده عن الضحاك في هذه الآية قال : هن نساء النبي ﷺ وقال معمر عن الكلبي : إنما عنى بهذه الآية أزواج النبي ﷺ ، فأما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق ، كما قال الله تعالى . « أو يتوب » .

ووجه هذا أن لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرد القذف فتكون اللام في قوله ﴿ **المحصنات الغافلات المؤمنات** ﴾ لتعريف المعهود ، والمعهود هنا أزواج النبي ﷺ ؛ لأن الكلام في قصة الإفك ، ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة ، أو يقصر اللفظ العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك .

ويؤيد هذا القول أن الله سبحانه رتب هذا الوعد على قذف محصنات غافلات مؤمنات وقال في أول السورة ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً** ﴾ (١) الآية . فرتب الحدود والشهادة ، والفسق على مجرد قذف المحصنات ، فلا بد أن يكون المحصنات الغافلات المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات ، وذلك والله أعلم لأن أزواج النبي ﷺ مشهود لهن بالإيمان لأنهن أمهات المؤمنين ، وهن أزواج نبيه في الدنيا والآخرة ، وعوام المسلمات إنما يعلم منهن في

---

(١) سورة النور آية رقم ٤ .

الغالب ظاهر الإيمان ، ولأن الله سبحانه قال في قصة عائشة ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

فتخصيصه متولي كبره دون غيره دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم .

وقال ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَته فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

فعلم أن العذاب العظيم لا يمس كل من قذف وإنما يمس متولي كبره فقط .

وقال هنا ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ فعلم أن الذي رمى أمهات المؤمنين يعيب بذلك رسوله ﷺ ، وتولى كبر الإفك ، وهذه صفة المنافق ابن أبي (٣) ، والله أعلم أنه على هذا القول تكون هذه الآية حجة أيضاً موافقة لتلك الآية ، لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ لعن صاحبه في الدنيا والآخرة .

ولهذا قال ابن عباس : ليس فيها توبة ؛ لأن مؤذ النبي ﷺ لا تقبل توبته أو يريد إذا تاب من القذف حتى يسلم إسلاماً جديداً .

وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للذم ، إذا قصد به أذى النبي ﷺ ، أو بعد العلم بأنهن أزواجه في الآخرة ، فإنه ما بغت امرأة نبي قط .

ومما يدل على أن قذفهن أذى للنبي ﷺ ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت « فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبدالله بن أبي بن سلول قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه عن أهل بيتي ، فوالله ما علمت

---

(١) سورة النور آية رقم ١١ .

(٢) سورة النور آية رقم ١٤ .

(٣) هو عبدالله بن أبي مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي المشهور بابن سلول توفي عام ٩ هـ =

على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي »[(١)] .

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته الحمية ، وقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتلنه ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير ، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت ، لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

وفي رواية أخرى صحيحة أن هذه الآية في أزواج رسول الله ﷺ خاصة .

ويقول آخرون : يعني أزواج المؤمنين عامة . وقال أبو سلمة : قذف المحصنات من الموجبات ثم قرأ ﴿ **إنَّ الذين يرمون المحصنات** ﴾ الآية وعن عمر بن قيس قال : «قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة » رواه الأشنج[(٢)] .

وهذا قول كثير من الناس ، ووجهه ظاهر الخطاب فإنه عام فيجب إجراؤه على عمومه إذ لا موجب لخصوصه وليس هو مختصاً بنفس السبب بالاتفاق ، لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي ﷺ داخل في العموم ، وليس هو من السبب ، ولأنه لفظ جمع ، والسبب في واحدة هنا ولأن قصر عمومات

= [وراجع في ترجمته: تاريخ الخميس ٢ : ١٤٠ وامتاع السماع ١ :٩٩ و١٠٥ و ١٢٠،١٦٥، ٤٤٩ ، ٤٥٠ وطبقات ابن سعد القسم الثاني من الجزء الثالث ٩٠] .

(١) سبق تخريج هذا الحديث في هذه السورة .

(٢) الخبر أخرجه البزار في مسنده كما أخرجه الطبراني والحاكم من حديث حذيفة بن اليمان قال =

القرآن على أسباب نزولها باطل فإن عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك ، وقد علم أن شيئاً منها لم يقصر على سببه .

والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد ورد الشهادة والتفسيق ، وهنا ذكر العقوبة الواقعة من الله سبحانه وهي اللعنة في الدارين والعذاب العظيم وقد ورد عن النبي ﷺ من غير وجه عن أصحابه أن قذف المحصنات من الكبائر .

وفي لفظ في الصحيح « قذف المحصنات الغافلات المؤمنات » (١) .

ثم اختلف هؤلاء فقال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أنها نزلت في مشركي أهل مكة إذ كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد ، فكانت المرأة إذا خرجت إلى رسول الله ﷺ إلى المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا : إنها خرجت تفجر فعلى هذا يكون فيمن قذف المؤمنات قذفاً يصدهن به عن الإيمان ، يقصد بذلك ذم المؤمنين لينفر الناس عن الإسلام ، كما فعل كعب ابن(٢) الأشرف وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر ، وهو بمنزلة النبي ﷺ .

وقوله : إنها نزلت زمن العهد ، يعني والله أعلم أنه عنى بها مثل أولئك المشركين المعاندين، وإلا فهذه الآية نزلت ليالي الإفك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق ، والهدنة كانت بعد ذلك بسنتين . ومنهم من أجراها على ظاهرها وعمومها لأن سبب نزولها قذف عائشة ، وكان فيمن قذفها مؤمن ومنافق ، وسبب النزول لا بد أن يندرج في العموم ، ولأنه لا موجب

= الهيثمي : فيه ليث بن سليم وهو ضعيف وهو يحسن حديثه ، وبقية رجاله رجال الصحيح . [راجع الجامع الصغير بشرح الفيض ٤٧٤ / ٢ ، وتفسير ابن كثير ٢٧٧ / ٣] .

(١) الحديث رواه الامام البخاري في كتاب الحدود ٤٤ باب رمي المحصنات ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة** ﴾ ، ٦٨٥٧ بسنده عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ وذكره .

(٢) هو كعب بن الأشرف الطائي من بني نبهان ، شاعر جاهلي توفي عام ٣ هـ [راجع الروض =

لتخصيصها ، والجواب على هذا التقدير أنه سبحانه قال هنا : ﴿ **لعنوا في الدنيا والآخرة** ﴾ على بناء الفعل للمفعول ولم يسم اللاعن . وقال في الآية الأخرى . ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ (١) وإذا لم يسم الفاعل جاز أن يلعنهم غير الله من الملائكة والناس وجاز أن يلعنهم الله في وقت ويلعنهم بعض خلقه في وقت ، وجاز أن الله يتولى لعنة بعضهم ، وهو من كان قذفه طعناً في الدين ، ويتولى خلقه لعنة الآخرين ، وإذا كان اللاعن مخلوقاً فلعنه قد يكون بمعنى الدعاء عليهم ، وقد يكون بمعنى أنهم يبعدونهم عن رحمة الله .

ويؤيد هذا أن الرجل إذا قذف امرأته تلاعنا . وقال الزوج في الخامسة لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، فهو يدعو على نفسه إن كان كاذباً في القذف أن يلعنه الله كما أمر الله ورسوله أن يباهل من حاجة في المسيح بعدما جاءه من العلم بأن يبتهلوا فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين ، فهذا مما يلعن به القاذف ، ومما يلعن به أن يجلد وأن ترد شهادته ويفسق فإنه عقوبة له ، واقصاء له عن مواطن الأمن والقبول ، وهي من رحمة الله ، وهذا بخلاف من أخبر الله أنه لعنه في الدنيا والآخرة ، فإن لعنة الله توجب زوال النصر عنه من كل وجه وبعده عن أسباب الرحمة في الدارين .

ومما يؤيد الفرق أنه قال : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُوْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً** ﴾ (٢) .

ولم يجيء اعداد العذاب المهين في القرآن إلا في حق الكفار كقوله ﴿ **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ**

= الأنف ٢ : ١٢٣ وامتاع الأسماع ١ :١٠٧، ١٠٩ وابن الأثير ٢ :٥٣ ، والطبري ٣ :٢ والمحبر ١١٧، ٢٨٢ و ٣٩٠] .

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٥٧ .

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (1) وقوله ﴿ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ (2) وقوله :

﴿ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (3) . وقوله : ﴿ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (4) وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (5) . ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (6) . ﴿ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (7) . ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (8) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (9) فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على أنه لم يذكر أن العذاب أعد له ، وأما العذاب العظيم فقد جاء وعيداً للمؤمنين في قوله ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(10) . وقوله : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(11) .

---

(1) سورة النساء آية رقم ٣٧ .

(2) سورة النساء آية رقم ١٠٢ .

(3) سورة البقرة آية رقم ٩٠ .

(4) سورة آل عمران آية رقم ١٧٨ .

(5) سورة الحج آية رقم ٥٧ .

(6) سورة الجاثية آية رقم ٩ .

(7) سورة المجادلة آية رقم ٥ .

(8) سورة المجادلة آية رقم ١٦ .

(9) سورة النساء آية رقم ١٤ .

(10) سورة الأنفال آية رقم ٦٨ .

(11) سورة النور آية رقم ١٤ .

وفي المحارب ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] .

وفي القاتل : ﴿ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ﴾ [2] وقوله ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [3] وقد قال سبحانه ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [4] وذلك لأن الاهانة اذلال وتحقير وخزي . وذلك قدر زائد على ألم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان . فلما قال في هذه الآية ﴿ وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ علم أنه من جنس العذاب الذي توعد به الكفار والمنافقين ، ولما قال هناك ﴿ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [5] جاز أن يكون من جنس العذاب في قوله ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

ومما يبين به الفرق أيضاً سبحانه قال هناك ﴿ وأعد لهم عذاباً مهيناً ﴾ والعذاب إنما أعد للكافرين ، فإن جهنم لهم خلقت لأنهم لا بد أن يدخلوها وما هم منها بمخرجين .

وأهل الكبائر من المؤمنين يجوز أن يدخلوها إذا غفر الله لهم ، وإذا دخلوها فإنهم يخرجون منها ولو بعد حين . قال سبحانه ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [6] .

فأمر سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله ، وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين . فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .
(٢) سورة النساء آية رقم ٩٣ .
(٣) سورة النحل آية رقم ٩٤ .
(٤) سورة الحج آية رقم ١٨ .
(٥) سورة المائدة آية رقم ٣٣ .
(٦) سورة آل عمران آية رقم ١٣١ .

وفعلوا المعاصي مع أنها معدة للكافرين لا لهم ، ولذلك جاء في الحديث : أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون . وأما أقوام لهم ذنوب فيصيبهم سفع من نار ثم يخرجهم الله منها »[1] وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء وإن كان يدخلها الأبناء بعمل آبائهم ويدخلها قوم بالشفاعة ، وقوم بالرحمة وينشىء الله لما فضل منها خلقاً آخر في الدار الآخرة فيدخلهم إياها وذلك لأن الشيء إنما يعد لمن يستوجبه ويستحقه ، ولمن أولى الناس به ، ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبع أو لسبب آخر ، والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام :

عن قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾[2] الآية .

والحديث عن النبي ﷺ في ذكر زنا الأعضاء كلها » وماذا على الرجل إذا مس يد الصبي الأمرد ، فهل هو من جنس النساء ينقض الوضوء أم لا ؟ .

وما على الرجل إذا جاءت إلى عنده المردان .

ومد يده الى هذا وهذا ويتلذذ بذلك . وما جاء في التحريم من النظر إلى وجه الأمرد الحسن ؟ وهل هذا الحديث المروي : أن النظر إلى الوجه المليح عبادة[3]« صحيح » أم لا ؟ وإذا قال أحد : أنا ما أنظر إلى المليح الأمرد لأجل

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٠ ـ ٣١ .

(٣) نقل ابن القيم عن شيخه ابن تيمية أنه سئل عن حديث النظر إلى الوجه الجميل عبادة ، فأجاب بأنه كذب باطل عن رسول الله ﷺ ـ لم يروه أحد باسناد صحيح ، بل هو من الموضوعات ومثله =

شيء ولكني إذا رأيته قلت : سبحان الله تبارك الله أحسن الخالقين ، فهل هذا القول صواب أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب : قدس الله روحه ، ونور ضريحه ورحمه ورضي عنه ، ونفع بعلومه وحشرنا في زمرته :

الحمد لله إذا مس الأمرد لشهوة ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره .

أحدهما : انه كمس النساء لشهوة ينقض الوضوء ، وهو المشهور في مذهب مالك ، وذكره القاضي أبو يعلى[1]من شرح المذهب ، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي و « الثاني » أنه لا ينقض ، وهو المشهور من مذهب الشافعي والقول الأول أظهر ، فإن الوطء في الدبر يفسدُ العبادات التي تفسد بالوطء في القبل ، كالصيام والإحرام والإعتكاف ، ويوجب الغسل كما يوجبه هذا ، فتكون مقدمات هذا في باب العبادات كمقدمات هذا ، فلو مس الأمرد لشهوة ، وهو محرم فعليه دم ، كما عليه لو مس أجنبية لشهوة ، وكذلك إذا مس الأمرد لشهوة وجب أن يكون كما لو مس الأمرد لشهوة وجب أن يكون كما لو مس المرأة لشهوة في نقض الوضوء والذي لا ينتقض الوضوء بمسه يقول : إنه لم يخلق محلاً لذلك ، فيقال :

لا ريب أنه لم يخلق لذلك ، وأن الفاحشة اللوطية من أعظم المحرمات ، لكن هذا القدر لم يعتبر في بعض الوطء فلو وطأ في الدبر تعلق به ما ذكر من الأحكام ، وإن كان الدبر لم يخلق محلاً للوطء ، مع أن نفرة الطباع من الوطء في الدبر أعظم من نفرتها عن الملامسة ، ونقض الوضوء باللمس يراعى فيه حقيقة الحكمة وهو أن يكون المس لشهوة عند الأكثرين ، كمالك وأحمد وغيرهما ، يراعى كما يراعى مثل ذلك في الإحرام

= النظر الى الخضرة يزيد في البصر ، والنظر الى المرأة الحسناء يزيد في البصر ، فإنه موضوع كما قاله الصنعاني [راجع كشف الخفاء : ٤٣٩].

(١) سبق الترجمة له في هذا الجزء.

والإعتكاف ، وغير ذلك .

وعلى هذا القول فحيث وجد اللمس لشهوة تعلق به الحكم حتى لو مس بنته وأخته وأمه لشهوة انتقض وضوءه فكذلك من الأمرد .

وأما الشافعي وأحمد من رواية فيعتبر المظنة وهو أن النساء مظنة الشهوة . فينتقض الوضوء سواء كان بشهوة أو بغير شهوة ، ولهذا لا ينتقض مس المحارم لكن لو مس ذوات محارمه لشهوة فقد وجدت حقيقة الحكمة ، وكذلك إذا مس الأمرد لشهوة ، والتلذذ بمس الأمرد ـ كمصافحته ونحو ذلك ـ حرام بإجماع المسلمين كما يحرم التلذذ بمس ذوات المحارم والأجنبية كما أن الجمهور على أن عقوبة اللوطي أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية ، فيجب قتل الفاعل والمفعول به سواء كان أحدهما محصناً أو لم يكن ، وسواء كان أحدهما مملوكاً للآخر أو لم يكن[1]» كما جاء ذلك في السنن عن النبي ﷺ ، وعمل به أصحابه من غير نزاع يعرف بينهم ، وقتله بالرجم كما قتل الله قوم لوط ، وبذلك جاءت الشريعة في قتل الزاني أنه بالرجم ، فرجم النبي ﷺ ماعز بن مالك ، والغامدية ، واليهوديين ، والمرأة التي أرسل إليها أنيسا ، وقال : اذهب إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها »[2]فرجمها والنظر الى وجه الأمرد بشهوة كالنظر إلى وجه ذوات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة ، سواء كانت الشهوة شهوة الوطء ، أو كانت شهوة التلذذ بالنظر ، كما يتلذذ بالنظر إلى وجه المرأة الأجنبية ، كان معلوماً لكل أحد أن هذا حرام فكذلك النظر

---

(١) الخبر في ذلك عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ، رواه الخمسة إلا النسائي ، كما أخرجه الحاكم والبيهقي ، وقال الحافظ رجاله موثقون إلا أن فيه اختلاف . الترمذي : إنما يعرف هذا الحديث عن ابن عباس عن النبي ﷺ ـ من هذا الوجه ، وفي الباب عن ابي هريرة عند ابن ماجه والحاكم أن النبي ـ ﷺ ـ قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أو لم يحصنا » وإسناده ضعيف . راجع المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧ : ١٢٢ .

(٢) راجع المنتقى بشرح نيل الأوطار ٧ : ٩١.

إلى وجه الأمرد باتفاق الأئمة . .

وهو قول القائل : إن النظر إلى وجه الأمرد عبادة ، كقوله « إن النظر إلى وجوه النساء الأجانب ، والنظر إلى محارم الرجل كبنت الرجل وأمه وأخته عبادة ، ومعلوم أن من جعل هذا النظر المحرم عبادة فهو بمنزلة من جعل الفواحش عبادة . قال الله تعالى . . . : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُر بِالفَحْشَاءِ أَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴾(١) .

ومعلوم أنه قد يكون في صور النساء الأجنبيات وذوات المحارم من الإعتبار والدلالة على الخالق من جنس ما في صور المردان ، فهل يقول مسلم إن للإنسان أن ينظر على هذا الوجه إلى صور النساء نساء العالمين ، وصور محارمه ، ويقول : إن ذلك عبادة ، بل من جعل مثل هذا النظر عبادة فإنه كافر مرتد ، يجب أن يستتاب فإن تاب ، وإلا قتل .

وهو بمنزلة من جعل إعانة طالب الفاحشة عبادة أو جعل تناول يسير الخمر عبادة ، أو جعل السكر من الحشيشة عبادة ، فمن جعل المعاونة بقيادة أو غيرها عبادة ، أو جعل شيئاً من المحرمات التي يعلم تحريمها في دين

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ .

كانت العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ويتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمس ثوباً طاف فيه ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمس ثوباً طاف عرياناً وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

واكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر شرعي فانكر الله تعالى عليهم ذلك فقال : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ .

الإسلام عبادة ، فإنه لمستتاب فإن تاب وإلا قتل .

وهو مضاه به للمشركين ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ، وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1]

وفاحشة أولئك إنما كانت طوافهم بالبيت عراة وكانوا يقولون : لا نطوف في الثياب التي عصينا الله فيها ، فهؤلاء إنما كانوا يطوفون عراة على وجه اجتناب ثياب المعصية ، وقد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن جعل جنس الفاحشة المتعلقة بالشهوة عبادة ؟ ! .

(١) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ وقد جاءت هذه الآية محرفة في المطبوعة حيث ذكرت ﴿والذين إذا﴾ .

فصــل
في تحريم النظر الى العورات

والله سبحانه قد أمر في كتابه بغض البصر ، وهو نـوعان : غض البصـر عن العورة ، وغضه عن محل الشهوة فالأول : كغض الرجـل بصره عن عـورة غيره ، كما قال النبي ﷺ . . «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل . ولا المرأة إلى عورة المرأة »(١) .

ويجب على الإنسان أن يستر عـورته ، كمـا قال لمعـاوية بن حيـدة . . « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك »(٢) .

قلت : فإذا كان أحدنا مع قومـه قال . . «إن استطعت أن لا تريهـا أحداً فلا يرينها » .

قلت : فإذا كان أحدنا خالياً ؟

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب الحيض باب تحريم النظر إلى العورات حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا زيد بن الحباب عن الضحاك بن عثمان قال أخبـرني زيد بن أسلم عن عبـد الرحمن بن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : وذكره .
وفيه زيادة (ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد) .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الحمام ، وفي كتاب الأدب ٢٢ ، والترمذي في كتاب الأدب ٢٢ ، ٣٩ وابن ماجه في النكاح ٢٨ واحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٤ (حلبي) .

قال : « فالله أحق أن يستحيى منه من الناس »[1] ويجوز كشفها بقدر الحاجة ، كما تكشف عند التخلي وكذلك إذا اغتسل الرجل وحده ـ بحيث يجد ما يستره ـ فله أن يغتسل عرياناً ، كما اغتسل موسى عرياناً وأيوب ، وكما في اغتسال النبي ﷺ يوم الفتح ، واغتساله في حديث ميمونة .

وأما النوع الثاني من النظر ـ كالنظر الى الزينة الباطنة من المرأة الأجنبية ـ فهذا أشد من الأول كما أن الخمر أشد من الميتة والدم ولحم الخنزير ، وعلى صاحبها الحد ، وتلك المحرمات إذا تناولها مستحلاً لها كان عليه التعزير ، لأن هذه المحرمات لا تشتهيها النفوس كما تشتهي الخمر ، وكذلك النظر إلى عورة الرجل لا يشتهى كما يشتهى النظر إلى النساء ونحوهن وكذلك النظر الى الأمرد بشهوة هو من هذا الباب وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك كما اتفقوا على تحريم النظر الى الأجنبية وذوات المحارم بشهوة والخالق سبحانه يسبح [له] عند رؤية مخلوقاته كلها، وليس خلق الأمرد بأعجب في قدرته من خلق ذي اللحية ولا خلق النساء بأعجب في قدرته من خلق الرجال فتخصيص الإنسان بالتسبيح بحال نظره إلى الأمرد دون غيره كتخصيصه بالتسبيح بالنظر إلى المرأة دون الرجل ، وما ذاك لأنه أدل على عظمة الخالق عنده ولكن لأن الجمال يغير قلبه وعقله ، وقد يذهله ما رآه ، فيكون تسبيحه لما حصل من نفسه من الهوى ، كما أن النسوة لما رأين يوسف **﴿ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾**[2].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[3] .

---

(١) الحديث رواه أبو داود في الحمام حديث ٩ والترمذي في الأدب ٢٢ ، ٣٩ وابن ماجه في النكاح ٢٨ وأحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٤ (حلبي) .

(٢) سورة يوسف آية رقم ٣١ .

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم في كتاب البر ٢٣ وابن ماجه في كتاب الزهد ٩ ، والإمام أحمد بن حنبل =

فإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال ، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال فكيف يفضل الشخص بما لم يفضله الله به ، وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[1] .

وقال في المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾[2] .

فإذا كان هؤلاء المنافقون الذين تعجب الناظر أجسامهم لما فيه من البهاء والرواء والزينة الظاهرة ، وليسوا ممن ينظر إليه لشهوة قد ذكر الله عنهم ما ذكر ، فكيف بمن ينظر إليه لشهوة .

وذلك أن الإنسان قد ينظر إليه لما فيه من الإيمان والتقوى وهنا الإعتبار بقلبه وعمله لا بصورته ، وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور فهذا حسن ، وقد ينظر إليه من جهة استحسان خلقه ، كما ينظر إلى الخيل والبهائم وكما ينظر إلى الأشجار والأنهار والأزهار ، فهذا أيضاً إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرئاسة والمال فهو مذموم بقوله : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾[3] .

= في المسند ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ (حلبي) .

(١) سورة طه آية رقم ١٣١ .

(٢) سورة المنافقون آية رقم ٤ قال الإمام أحمد: حدثني يزيد، حدثنا عبد الملك بن قدامة الجمحي عن إسحاق بن بكير أبي الفرات عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال : إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار وقال يزيد بن مرة : صخب بالنهار » .

(٣) سورة طه آية رقم ١٣١ .

وأما إن كان على وجه لا ينتقص الدين ، وإنما فيه راحة النفس فقط كالنظر إلى الأزهار ، فهذا من الباطل الذي لا يستعان به على الحق .

وكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حراماً بلا ريب ، سواء كانت شهوة تمتع بالنظر أو كان نظراً بشهوة الوطء ، وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأشجار والأزهار ، وما يجده عند نظره إلى النسوان والمردان .

فلهذا الفرقان افترق الحكم الشرعي فصار النظر الى المردان ثلاثة أقسام :

أحدها : ما تقترن به الشهوة فهو محرم بالإتفاق والثاني : ما يجزم أنه لا شهوة معه كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن ، وابنته الحسنة ، وأمه الحسنة فهذا لا يقترن به شهوة إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس ، ومتى اقترنت به الشهوة حرم ، وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان ، كما كان الصحابة وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة ، فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره وصبي أجنبي لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة لأنه لم يعتد ذلك ، وهو سليم القلب من قبل ذلك ، وقد كانت الإماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات مكشفات الرؤوس ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب ، فلو أراد الرجل أن يترك الإماء التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات كما كان أولئك الاماء

= قال ابن أبي حاتم ذكر عن وكيع بن الجراح ، حدثنا موسى بن عبيدة عن يزيد بن عبدالله بن قسيط عن أبي رافع - صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ، ولم يكن عند النبي ﷺ أمر يصلحه فأرسل إلى رجل من اليهود .

« يقول لك محمد رسول الله أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب قال : لا . إلا برهن - فأتيت النبي ﷺ - فأخبرته فقال : أما والله إني لأمين من في السماء ، وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه » . فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ سورة طه آية رقم ١٣١ .

يمشين كان هذا من باب الفساد .

وكذلك المردان الحسان لا يصلح أن يخرجوا من الأمكنة والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم إلا بقدر الحاجة ، فلا يمكن الأمرد الحسن من التبرج ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب ، ولا من رقصه بين الرجال ، ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس والنظر إليه كذلك .

وإنما وقع النزاع بين العلماء في القسم الثالث من النظر وهو النظر إليه بغير شهوة، لكن مع خوف ثورانها ففيه وجهان في مذهب أحمد ، أصحهما وهو المحكي عن نص الشافعي وغيره أنه لا يجوز و « الثاني » يجوز لأن الأصل عدم ثورانها ، فلا يحرم بالشك بل قد يكره ، والأول هو الراجح كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز ، وإن كانت الشهوة منتفية ، لكن لأنه يخاف ثورانها ، ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية ؛ لأنه مظنة الفتنة ، والأصل أن كلما كان سبباً للفتنة فإنه لا يجوز ، فإن الذريعة إلى الفساد سدها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة ولهذا كان النظر الذي قد يفضي إلى الفتنة محرماً إلا إذا كان لحاجة راجحة ، مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما ، فإنه يباح النظر للحاجة مع عدم الشهوة وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة فلا يجوز ومن كرر النظر إلى الأمرد ونحوه وأدامه ، وقال : إني لا أنظر لشهوة كذب في ذلك ، فإنه إذا لم يكن له داع يحتاج معه إلى النظر لم يكن النظر إلا لما يحصل في القلب من اللذة بذلك .

وأما نظر الفجأة فهو عفو إذا صرف بصره كما ثبت في الصحاح عن جرير قال : سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة قال « اصرف بصرك »[1] وفي السنن أنه قال لعلي (رضي الله عنه) : يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك

(١) الحديث رواه ابو داود في النكاح ٤٣ والدارمي في الإستئذان ١٥ .

الأولى وليست لك الثانية[1] .

وفي الحديث الذي في المسند وغيره « النظر سهم مسموم من سهام إبليس ، وفيه من نظر إلى محاسن امرأة ثم غض بصره عنها أورث الله قلبه حلاوة عبادة يجدها إلى يوم القيامة ، أو كما قال[2] .

ولهذا يقال : إن غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها ، كالمرأة ، والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر .

« أحدها » حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه ، والنفس تحب النظر إلى هذه الصور ، لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفا فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصور تخطف أحدهم وتصرعه كما يصرعه السبع .

ولهذا قال بعض التابعين : ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه من حدث جميل يجلس إليه .

وقال بعضهم : اتقوا النظر إلى أولاد الملوك فإن فتنتهم كفتنة العذارى .

وما زال أئمة العلم والدين كأئمة الهدى وشيوخ الطريق ـ يوصون بترك صحبة الأحداث حتى يروي عنه فتح الموصلي أنه قال : صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الأحداث .

وقال بعضهم : ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأنتان .

---

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب النكاح ٤٣ والترمذي في كتاب الأدب ٢٨ والدارمي في الرقاق ٣ واحمد بن حنبل في المسند ٥ : ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧(حلبي).

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

ثم النظر يولد المحبة فيكون علاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم صبابة لانصباب القلب إليه ، ثم غراماً للزومه للقلب ، كالغريم الملازم لغريمه ، ثم عشقا إلى أن يصير تتيماً ، والمتيم المعبد ، وتيم الله عبد الله ، فيبقى القلب عبداً لمن لا يصلح أن يكون أخاً ولا صادقاً .

وهذا إنما يتبلى به أهل الأعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك ، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ ﴾[1] .

فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء ، ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومراودتها له واستعانتها عليه بالسوء وعقوبتها له بالحبس على العفة عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقاً لقوله . . ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إلاَّ مَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِيْنَ ﴾[3] .

والغي هو اتباع الهوى .

وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى ومن أمر بعشق الصور من المتفلسفة ـ كابن سينا وذويه ، أو من الفرس ، كما يذكر عن بعضهم من جهال المتصوفة ـ فإنهم أهل ضلال ، فهم مع مشاركة اليهود في الغي ، والنصارى في الضلال زادوا على الأمتين في ذلك ، فإن هذا وإن ظن أن فيه منفعة للعاشق كتلطيف نفسه وتهذيب أخلاقه ، أو للمعشوق من السعي في

---

(١) سورة يوسف آية رقم ٢٤ .

(٢) سورة ص آية رقم ٨٢ ـ ٨٣ .

(٣) سورة الحجر آية رقم ٤٢ .

مصالحه ، وتعليمه وتأديبه ، وغير ذلك فمضرة ذلك أضعاف منفعته ، وأين إثم ذلك من نفعه ؟ !

وإنما هذا كما يقال : إن في الزنا منفعة لكل منهما بما يحصل له من اللذة والسرور ، ويحصل لها من الجعل وغير ذلك ، وكما يقال : إن من شرب الخمر منافع بدنية ونفسية ، وقال تعالى في الخمر والميسر : ﴿ قُلْ فِيْهِمَا إِثْمٌ كَبِيْرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾[1] وهذا قبل التحريم دع ما قاله عند التحريم وبعده ، فإن التعبد بهذه الصورة من جنس الفواحش وباطنه من باطن الفواحش ، وهو من باطن الإثم .

قال الله تعالى : ﴿ وَذَرُوْا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾[2]وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوْا فَاحِشَةً قَالُوْا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُوْلُوْنَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴾[4] .

وليس بين ائمة الدين نزاع في أن هذا ليس بمستحب كما أنه ليس بواجب ، فمن جعله ممدوحاً وأثنى عليه فقد خرج عن إجماع المسلمين واليهود والنصارى ، بل وعما عليه العقلاء من بني آدم من جميع الأمم ، وهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنَّ

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢١٩ .

(٢) سورة الأنعام آية رقم ١٢٠ .

(٣) سورة الأعراف آية رقم٣٣ .

(٤) سورة الأعراف آية رقم ٢٨ .

(٥) سورة القصص آية رقم ٥٠ .

الجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِيْنَ يَضِلُّون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيْدٌ بِمَا نَسُوْا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾[2]

وأما من نظر إلى المردان ظاناً أنه ينظر إلى مظاهر الجمال الإلهي وجعل هذا طريقاً له إلى الله ، كما يفعله طوائف من المدعين للمعرفة فقوله هذا أعظم كفراً من قول عباد الأصنام ، ومن كفر قوم لوط ، فهؤلاء من شر الزنادقة المرتدين ، الذين يجب قتلهم بإجماع كل أمة ، فإن عباد الأصنام قالوا . . ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ ﴾[3].

وهؤلاء يجعلون الله سبحانه موجوداً في نفس الأصنام وحالاً فيها ، فإنهم لا يريدون بظهوره وتجليه في المخلوقات أنها أدلة عليه ، وآيات له بل يريدون أنه سبحانه ظهر فيها وتجلى فيها .

ويشبهون ذلك بظهور الماء في الصوفة ، والزبد في اللبن ، والزيت في الزيتون ، والدهن في السمسم ، ونحو ذلك مما يقتضي حلول نفس ذاته في مخلوقاته ، أو اتحاده بها . فيقولون في جميع المخلوقات نظير ما قاله النصارى في المسيح خاصة ثم يجعلون المردان مظاهر الجمال فيقرون هذا

---

(١) سورة النازعات آية رقم ٤٠

(٢) سورة ص آية رقم ٢٦ .

(٣) سورة الزمر آية رقم ٣ قال قتادة والسدي ، ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد إلا ليقربونا الى الله زلفى أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى افراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شيء اخترعه من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضي به بل أبغضه ونهى عنه قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ .
وقال أيضاً : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ .

الشرك الأعظم طريقاً إلى استحلال الفواحش ، بل إلى استحلال كل محرم ، كما قيل لأفضل مشايخهم التلمساني[1]، إذا كان قولكم بأن الوجود واحد هو الحق ، فما الفرق بين أمي وأختي وبنتي ، حتى يكون هذا حلال وهذا حرام ؟ .

قال : الجميع عندنا سواء ، لكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ، فقلنا : حرام عليكم .

ومن هؤلاء الحلولية والإتحادية من يخص الحلول والإتحاد ببعض الأشخاص ، إما ببعض الأنبياء كالمسيح ، أو ببعض الصحابة كقول الغالية في علي ، أو ببعض الشيوخ كالحلاجية ونحوهم أو ببعض الملوك ، أو ببعض الصور ، كصور المردان .

ويقول أحدهم : إنما أنظر إلى صفات خالقي وأشهدها في هذه الصورة ، والكفر في هذا القول أبين من أن يخفى على من يؤمن بالله ورسوله ولو قال مثل هذا الكلام في نبي كريم لكان كافراً فكيف إذا قاله في صبي أمرد ؟ .

فقبح الله طائفة يكون معبودها من جنس موطوئها .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾[2].

---

(١) هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي التلمساني ، عفيف الدين شاعر كومي الأصل (من قبيلة كومة) تنقل في بلاد الروم ، وسكن دمشق فباشر فيها بعض الأعمال ، وكان يتصوف ويتكلم على اصطلاح القوم يتبع طريقة ابن العربي في أقواله وأفعاله ، واتهمه فريق برقة الدين والميل الى مذهب النصيرية ، وصنف كتباً كثيرة منها (شرح مواقف النفري) وشرح فصوص الحكم لابن عربي ، وشرح منازل السائرين للهروي توفي عام ٦٩٠ هـ . راجع النجوم الزاهرة ٨ : ٢٩ والبداية والنهاية ١٣ : ٣٢٦ وشذرات الذهب ٥ : ٤١٣ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٨٠

فإذا كان من اتخذ الملائكة والنبيين أرباباً مع اعتـرافهم بأنهم مخلوقـون لله كفاراً فكيف بمن اتخذ بعض المخلوقـات أربابـاً ؟ ! مع أن الله فيهـا ، أو متحد بها ، فوجوده وجودها ، ونحو ذلك من المقالات وأما الفـائدة الثـانية في غض البصر : فهو نور القلب والفراسـة ، قال تعـالى عن قوم لـوط ﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾[1] .

فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمى البصيرة ، وسكر القلب ، بـل جنونه كما قيل :

سكران: سكر هـوى، وسكر مـدامة ... فـمـتـى يـفـيـق مـن بـه سـكـران

وقيل أيضاً :

قـالـوا جننت بمن تهـوى فقلت لهم ... العشق أعـظم ممـا بـالمجـانـين

العشق لا يستفيق الـدهـر صـاحبـه ... وإنمـا يصـرع المجنـون في الحين

وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر ، فقال : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ** ﴾[2]وكان شجاع بن شاه الكرماني[3]لا تخطىء له فراسة ، وكان يقول : من عمر ظاهـره باتبـاع السنة ، وبـاطنه بـدوام المراقبـة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات وذكر خصلة سادسة أظنه : هـو أكل الحلال لم تخطىء له فراسة ، والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هـو من جنس عمله ، فيـطلق نـور بصيـرتـه ويفتـح عليـه بـاب العلم والمعـرفـة والكشوف ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب .

الفـائدة الثـالثة : قـوة القلب وثباتـه وشجاعتـه ، فيجعل الله لـه سلطان البصيرة مع سلطان الحجة ، فإن في الأثر : الذي يخالف هواه يفـرق الشيطان من ظله .

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٧٢ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) لم نعثر على ترجمة له على طول البحث والتقصي .

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه فإن الله جعل العزة لمن أطاعه ، والذلة لمن عصاه .

قال تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2] .

ولهذا كان في كلام الشيوخ الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ، ولا يجدونه إلا في طاعة الله ، وكان الحسن البصري[3] يقول . . وإن هملجت بهم البراذين ، وطقطقت بهم ذلل البغال ، فإن ذل المعصية في رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه ، ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه ففيه قسط ، من فعل من عاداه بمعاصيه .

ومن دعاء القنوت : « إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت » .

ثم الصوفية المشهورون عند الأمة ـ الذين لهم لسان صدق في الأمة ـ لم يكونوا يستحسنون مثل هذا ، بل ينهون عنه ولهم في الكلام في ذم صحبة الأحداث ومن الرد على أهل الحلول ، وبيان مباينة الخالق ما لا يتسع هذا الموضع لذكره .

وإنما استحسنه من تشبه بهم ممن هو عاص أو فاسق أو كافر ، فيتظاهر بدعوى الولاية لله ، وتحقيق الإيمان والعرفان ، وهو من شر أهل العداوة لله ، وأهل النفاق والبهتان .

---

(١) سورة المنافقون آية رقم ٨ .

(٢) سورة آل عمران آية رقم ١٣٩ .

(٣) سبق الترجمة له في هذا الجزء.

والله تعالى يجمع لأوليائه المتقين خير الدنيا والآخرة .

ويجعل لأعدائه الصفقة الخاسرة والله سبحانه أعلم ؟ .

فصل

اعتراض وجوابه

قال المعترض في أسماء [الله] الحسنى : النور ، الهادي يجب تأويله قطعاً إذ النور كيفية قائمة بالجسمية ، وهو ضد الظلمة ، وجل الحق سبحانه أن يكون له ضد ، ولو كان نوراً لم تجز اضافته الى نفسه وهو غير جائز ، وقوله : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) .

قال المفسرون يعني هادي أهل السموات والأرض هو ضعيف لأن ذكر الهادي بعده يكون تكراراً ، وقيل منور السموات بالكواكب ، وقيل بالأدلة والحجج الباهرة ، والنور جسم لطيف شفاف فلا يجوز على الله والتأويل مروي عن ابن عباس ، وأنس ، وسالم ، وهذا يبطل دعواه أن التأويل يبطل الظاهر ، ولم ينقل عن السلف ، ولو كان نوراً حقيقة كما يقول المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام .

وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ (٢) .

ومعلوم أنه ـ ﷺ ـ لم يكن السراج المعروف ، وإنما سمي سراجاً بالهدى الذي جاء به ووضوح أدلته بمنزله السراج المنير .

وروي عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية ، والحسن ، يعني

(١) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة الأحزاب آية رقم ٤٥ ـ ٤٦ .

منور السموات والأرض شمسها وقمرها ونجومها ، ومن كلام العارفين : النور هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده ، ونور أسرار المحبين بتأييده وقيل : هو الذي أحيا قلوب العارفين بنور معرفته ، ونفوس العابدين بنور عيادته .

والجواب : أن هذا الكلام وأمثاله ليس باعتراض علينا ، وإنما هو ابتداء نقص حرمته منهم لما يظن أنه يلزمنا أو يظن أنا نقوله على الوجه الذي حكاه ، وقد قال تعالى :

﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [١] .

وقال النبي - ﷺ : «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » [٢] وإذا كان في الكلام أخبار عن الغير بأنه يقول أقوالاً باطلة في العقل والشرع ، وفيه رد تلك الأقوال كان هذا كذباً وظلماً ، فنعوذ بالله من ذلك ثم مع كونه ظلماً لنا . يا ليته كان كلاماً صحيحاً مستقيماً ، فكنا نحلله من حقنا ، ويستفاد ما فيه من العلم ، ولكن فيه من تحريف كتاب الله والالحاد في آياته وأسمائه ، والكذب ، والظلم ، والعدوان الذي يتعلق بحقوق الله مما فيه ، لكن عفونا عن حقنا فحق الله إليه لا الى غيره . ونحن نذكر من القيام بحق الله ، ونصر كتابه ودينه ، ما يليق بهذا الموضع ، فإن هذا الكلام الذي ذكره فيه من التناقض والفساد ما لا أظن تمكنه من ضبطه من وجوه .

أحدها : أنه قال في أوله النور كيفية قائمة بالجسمية ثم قال في آخره جسم لطيف شفاف فذكر في أول الكلام أنه عرض وصفه ، وفي آخره جسم وهو جوهر قائم بنفسه .

الثاني : أنه ذكر عن المفسرين أنهم تأولوا ذلك بالهادي وضعف ذلك ،

---

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٢ .

(٢) الحديث رواه الامام أحمد ، والبخاري ، ومسلم، وأبو داود ، والترمذي راجع الجامع الصغير بشرح الفيض ١١٢ / ٣

ثم ذكر في آخره أن من كلام العارفين أن النور هو الـذي نور قلوب الصـادقين بتوحيده وأسرار المحبين بتأييده ، وأحيا قلوب العارفين بنور معرفته . وهذا هو معنى الهادي الذي ضعفه أولاً فيضعفه أولاً ويجعله من كـلام العارفين ، وهي كلمة لها صولة في القلوب ، وإنما هو من كلام بعض المشايخ الذين يتكلمون بنوع من الوعظ الذي ليس فيه تحقيق ، فـإن الشيخ أبـا عبد الـرحمن ذكر في تحقيق التفسيـر من الإشارات التي بعضهـا كلام حسن مستفـاد ، وبعضهـا من المنقـول الباطـل المردود فـإن اشارات المشـايخ الصـوفية التي يشيـرون بها ، تنقسم الى اشارة حالية ، وهي اشارتهم بالقلوب ، وذلك هو الذي امتازوا به ، وليس هذا موضعه ، وينقسم الى الاشارات المتعلقة بالأقوال مثل ما يأخـذونها من القرآن ، ونحوه فتلك الاشارات هي من باب الاعتبار ، والقياس ، والحاق ما ليس بمنصوص بالمنصوص ، مثل الاعتبار والقيـاس الذي يستعمله الفقهـاء في الأحكام ، لكن هذا يستعمل في الترغيب ، والتـرهيب ، وفضائـل الأعمال ودرجات الرجال ، ونحو ذلك . فإن كانت الاشارة اعتبـارية من جنس القيـاس الصحيح كانت حسنة مقبولة ، وإن كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمـه ، وإن كان تحريفـاً للكلام على غيـر تأويله ، كـانت من جنس كلام القـرامطة ، والبـاطنيـة ، والجهميـة ، فتـدبـر هـذا فـإني قـد أوضحت هــذا في قـاعــدة الاشارات .

الوجه الثالث : في تناقضه ، فإنـه قال : التـأويل منقـول عن ابن عباس وأنس ، وسالم ، ولـم يذكر إلا ثلاثة أقوال : أحدها أنـه هادي أهـل السموات والأرض ، وقـد ضعف ذلك فـإن كـان المنقـول هـو هـذا الضعيف فيـا خيبـة المسعى إذ لم ينقل عن السلف في جميع كـلامه الى هنـا شيئاً عن السلف إلا هـذا الذي ضعفـه وأوهـاه ، وإن كـان المنقـول عن هؤلاء الثـلاثـة أنـه منـور السموات بالكواكب كان متناقضاً من وجه آخر ، وهـو أنه قـد ذكر فيمـا بعد أن هـذا روي عن ابن عباس في روايـة أخـرى ، وأبي العـاليـة ، والحسن ، أنـه منورها بالشمس ، والقمر ، والنجوم ، وهذا يوجب أن يكون المنقـول عن ابن

عباس والاثنين أولاً غير المنقول عنه في رواية أخرى ، وعمن ليس معه في الأولى ، وإن كان نوره بالحجج الباهرة والأدلة كان متناقضاً فإن هذا هو معنى الهادي إذا نصبه للأدلة والحجج هي من هدايته . وهو قد ضعف هذا القول . فما أدري من أيهما العجب . . ؟ أمن حكايته القولين اللذين أحدهما داخل في معنى الآخر . . ؟ أم من تضعيفه لقول السائل الذي يوجب تضعيف الإثنين ، وهو لا يدري أنه قد ضعفهما جميعاً . . ؟

فيجب على الإنسان أن يعرف معنى الأقوال المنقولة ويعرف أن الذي يضعفه هو الذي عظمه .

الوجه الرابع : أنه قد تبين أنه لم ينقل عن ابن عباس ، وأنس ، وسالم ، إلا القول الذي ضعفه ، أو ما يدخل فيه ، فإنه إن كان قولهم : الهادي فقد صرح بضعفه ، وإن كان مقيم الأدلة ، فهو من معنى الهادي ، وإن كان المنور بالكواكب ، فقد جعله قولاً آخر ، وإن كان ما ذكره عن بعض العارفين ، فهو أيضاً داخل في الهادي ، وإذا كان قد اعترف بضعف ما حكاه عن ابن عباس ، وأنس ، وسالم لم يكن فيه حجة علينا .

فتبين أن ما ذكره عن السلف إما أن يكون مبطلاً في نقله ، أو مفترياً بتضعيفه ، وعلى التقديرين لا حجة علينا بذلك .

الوجه الخامس : أنه أساء الأدب على السلف إذ يذكر عنهم ما يضعفه وأظهر للناس أن السلف كانوا يتأولون ليحتج بذلك على التأويل في الجملة وهو قد اعترف بضعف هذا التأويل .

ومن احتج بحجة ، وقد ضعفها ، وهو لا يعلم أنه ضعفها فقد رمى نفسه بسهمه ، ومن رمى بسهم البغي صرع به ، والله لا يهدي القوم الظالمين .

الوجه السادس : قوله هذا يبطل دعواه أن التأويل دفع الظاهر ولم ينقل

عن السلف فإن هذا القول لم أقله ، وإن كنت قلته فهو لم ينقل إلا ما عرف أنه ضعيف ، والضعيف لا يبطل شيئاً ، فهذه الوجوه في بيان تناقضه وحكايته عنا ما لم نقله .

وأما بيان فساد الكلام فنقول : أما قوله يجب تأويله قطعاً فلا نسلم أنه يجب تأويله ، ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم ، وهذا مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم ، وهو قول أبي سعيد بن كلاب ذكره في الصفات .

ورد على الجهمية تأويل اسم النور ، وهو شيخ المتكلمين الصفاتية الأشعرية الشيخ الأول وحكاه عنه أبو بكر بن فورك في كتاب « مقالات ابن كلاب » والأشعري ، ولم يذكرا تأويله إلا عن الجهمية المذموميين باتفاق ، وهو أيضاً قول أبي الحسن الأشعري ذكره في الموجز .

وأما قوله : إن هذا ورد في الأسماء الحسنى ، فالحديث الذي ذكر فيه ذلك هو حديث الترمذي (١) روى الأسماء الحسنى في جامعة من حديث الوليد بن مسلم ، عن شعيب ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه . ورواها ابن ماجه في سننه من طريق مخلد بن زياد القطواني عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة .

وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي - ﷺ - وإنما كل منهما من كلام بعض السلف ، فالوليد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميين كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه ، ولهذا اختلف أعيانهما عنه فروي عنه في إحدى الروايات من الأسماء بدل ما ذكر في الرواية

---

(١) حديث الترمذي : « إن الله عز وجل تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » أخرجه في الدعوات وابن حبان ، والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان .

الأخرى لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة ، وهذا تارة ، واعتقدوا هم وغيرهم أن الأسماء الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة ليست شيئاً معيناً بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله دخل الجنة ، أو أنها وإن كانت معينة فالاسمان اللذان يتفقان معناهما يقوم أحدهما مقام صاحبه كالأحد والواحد ، فإن في رواية هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم عنه رواها عثمان ابن سعيد « الأحد » بل « الواحد » و« المعطي » بدل « المغني » وهما متقاربان ، وعند الوليد هذه الأسماء بعد أن روى الحديث عن خليد بن دعلج (1) عن قتادة عن ابن سيرين عن أبي هريرة ثم قال هشام :

« وحدثنا الوليد ، حدثنا سعيد بن عبد العزيز مثل ذلك ، وقال : كلها في القرآن « هو الله الذي لا إله إلا هو » مثل ما ساقها الترمذي ، لكن الترمذي رواها عن طريق صفوان بن صالح عن الوليد عن شعيب ، وقد رواها ابن أبي عاصم ، وبين ما ذكره هو والترمذي خلاف في بعض المواضع . وهذا كله مما يبين لك أنها من الموصول المدرج في الحديث عن النبي - ﷺ - في بعض الطرق ، وليست من كلامه ، ولهذا جمعها قوم آخرون على غير هذا الجمع واستخرجوها من القرآن ، منهم سفيان بن عيينه والامام أحمد ابن حنبل وغيرهم ، كما ذكرت ذلك فيما تكلمت به قديماً على هذا ، وهذا كله يقتضي أنها عندهم مما يقبل البدل فإن الذي عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين .

قالوا : ومنهم الخطابي قوله : إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها التقييد بالعدد عائد الى الأسماء الموصوفة بأنها هي هذه الأسماء فهذه الجملة وهي قوله « من أحصاها دخل الجنة » صفة للتسعة والتسعين ليست جملة

---

(1) قال ابن حيان عنه : كان كثير الخطأ فيما يروي عن قتاد وغيره ، وضعفه أحمد ويحيى وقال النسائي : ليس بثقة ، وقال أبو حاتم صالح ليس بالمتين ، وقال ابن عدي عامة حديثه تابعه عليه (راجع المجروجين لابن حيان ٢٨٥ / ١ الميزان ٦٦٣ / ١)

مبتدأة ، ولكن موضعها النصب ، ويجوز أن تكون مبتدأة والمعنى لا يختلف ، والتقدير أن لله أسماء بقدر هذا العدد من أحصاها دخل الجنة . كما يقول القائل : إن مائة غلام أعددتهم للعتق ، وألف درهم أعددتها للحج ، فالتقييد بالعدد هو في الموصوف بهذه الصفة لا في أصل استحقاقه لذلك العدد ، فإنه لم يقل أن أسماء الله تسعة وتسعين . قال : ويدل على ذلك قوله في الحديث الذي رواه أحمد في المسند : اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك » (1) .

فهذا يدل على أن لله أسماء فوق تسعة وتسعين يحصيها بعض المؤمنين وأيضاً فقوله : إن لله تسعة وتسعين » تقييد بهذا العدد بمنزلة قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ (2) .

فلما استقلوها قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (3) .

فأن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى .

وذلك أن هذا لو كان قد قيل منفرداً لم يفد النفي إلا بمفهوم العدد الذي هو دون مفهوم الصفة ، والنزاع فيه مشهور ، وإن كان المختار عندنا أن التخصيص بالذكر بعد قيام المقتضى للعموم يفيد الاختصاص بالحكم فإن العدول عن وجوب التعميم الى التخصيص إن لم يكن للاختصاص بالحكم ، وإلا كان تركاً للمقتضى بلا معارض ، وذلك ممتنع ، فقوله : « إن لله تسعة وتسعين » قد يكون للتحصيل بهذا العدد فوائد غير الحصر ومنها ذكر أن احصاءها يورث الجنة . فإنه لو ذكر هذه الجملة منفردة واتبعها بهذه منفردة

---

(1) الحديث رواه الامام أحمد من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه عن رسول الله ـ ﷺ أنه قال : وذكره ، وقد أخرجه ابن حيان في صحيحه بمثله .

(2) سورة المدثر آية رقم ٣٠ .

(3) سورة المدثر آية رقم ٣١ .

لكـان حسناً ، فكيف والأصـل في الكلام الاتصـال ، وعدم الانفصـال فتكون الجملة الشرطية صفة لا ابتدائية ، فهذا هو الراجح في العربيـة مع مـا ذكر من الدليل . ولهذا قال :

« إنه وتر يحب الوتر » [١] . ومحبته لذلك تدل على أنه متعلق بالاحصاء أي يجب أن يحصى من أسمـائه هـذا العـدد ، وإذا كـان أسمـاء الله أكثـر من تسعة وتسعين أمكن أن يكون إحصاء تسعة وتسعين اسمـاً يورث الجنـة مطلقـاً على سبيل البدل فهذا يوجه قول هؤلاء وإن كـان كثيراً .

وكثـير من الناس من يجعلهـا أسماء معينـة ، ثم من هؤلاء من يقول ليس إلا تسعـة وتسعين اسـماً فقط وهو قـول ابن حزم[٢] وطـائفـة ، والأكثـرون منهم يقولون ، وإن كانت أسماء الله أكثر لكن الموعود بالجنة لمن أحصاها هي معينة ، وبكل حال فتعيينها ليس من كلام النبي ـ ﷺ ـ باتفاق أهل المعرفة ، ولكن روي في ذلك عن السلف أنواع .

من ذلك ما ذكره الترمذي ، ومنها غير ذلك ، فإذا عرف هـذا فقولـه في أسمائه الحسنى ، النور ، الهادي » لو نازعه منازع في ثبـوت ذلك عن النبي ـ ﷺ ـ لم تكن له حجة .

ولكن جاء ذلك في أحاديث صحاح ، مثل قولـه في الحديث الـذي في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي ـ ﷺ ـ أنه كان يقول :

« اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » [٣] .

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه بسنده عن أبي هريرة وذكر أيضاً في الصحيحين .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

(٣) لفظ الحديث في البخاري (كان النبي ـ ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال : اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد لك ملك السمـوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض » .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : سألت رسول الله ـ ﷺ هل رأيت ربك . . ؟

فقال : نور أني أراه »

أو قال : رأيت نورا » (١)

فالذي في القرآن والحديث الصحيح اضافة النور بقوله : نور السماوات والأرض » أو « نور السموات والأرض ومن فيهن » .

وأما قوله إن النور كيفية قائمة . فنقول : النور المخلوق محسوس لا يحتاج الى بيان كيفية لكنه نوعان أعيان وأعراض ، فالأعيان هو نفس جرم النار حيث كانت نور السراج ، والمصباح الذي في الزجاجة وغيره وهي النور الذي ضرب الله به المثل ، ومثل القمر ، فإن الله سماه نوراً فقال : ﴿ **جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً** ﴾ (٢) .

ولا ريب أن النار جسم لطيف شفاف ، وأعراض مثل ما يقع من شعاع الشمس والقمر والنار على الأجسام الصقيلة وغيرها ، فإن المصباح إذا كان في البيت أضاء جوانب البيت فذلك النور والشعاع الواقع على الجدر والسقف والأرض هو عرض ، وهو كيفية قائمة بالجسم . وقد يقال ليس الصفة القائمة بالنار والقمر ونحوهما نوراً فيكون الاسم على الجوهر تارة، وعلى صفة أخرى ، ولهذا يقال لضوء النهار نور ، كما قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ** ﴾ (٣) .

ومن هذا تسمية الليل ظلمة والنهار نوراً فإنهما عرضان ، وقد قيل هما جوهران ، وليس هذا موضع بسط ذلك ، فتبين أن اسم النور يتناول هذين ،

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم .

(٢) سورة يونس آية رقم ٥ .

(٣) سورة الأنعام آية رقم ١ .

والمعترض ذكر أولاً حد العرض ، وذكر ثانياً حد الجسم فتناقض ، وكأنه أخذ ذلك من كلامي ولم يهتدوا لوجه الجمع وكذلك اسم الحق يقع على ذات الله تعالى ، وعلى صفاته القدسية القديمة كقول النبي - ﷺ -

« أنت الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ومحمد حق » .

وأما قول المعترض النور ضد الظلمة ، وجل الحق أن يكون له ضد ، فيقال له لم تفهم معنى الضد المنفي عن الله ، فإن الضد يراد به ما يمنع ثبوت الآخر كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد والبياض ، ويقول الناس الضدان لا يجتمعان ويمتنع اجتماع الضدين ، وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في الأعراض ، وأما الأعيان فلا تضاد فيها ، فيمتنع عند هذا أن يقال لله ضد أو ليس له ضد ، ومنهم من يقول : يتصور التضاد فيها ، والله تعالى ليس له ضد يمنع ثبوته، ووجوده بلا ريب بل هو القاهر، الغالب، الذي لا يغلب .

وقد يراد بالضد المعارض لأمره وحكمه ، وإن لم يكن مانعاً من وجود ذاته كما قال النبي - ﷺ :

« من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره » (١) رواه أبو داود . وتسمية المخالف لأمره وحكمه ضداً كتسميته عدواً ، وبهذا الاعتبار فالمعادون المضادون لله كثيرون فأما على التفسير الأول فلا ريب أنه ليس في نفس الأمر مضاداً لله ، لكن المضاد يقع في نفس الكافر فإن الباطل ضد الحق ، والكذب ضد الصدق ، فمن اعتقد في الله ما هو منزه عنه كان هذا ضداً للايمان الصحيح به .

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد ، والحاكم عن ابن عمر - رضي الله عنهما، وأخرجه ابن أبي شيبة من وجه صحيح عن ابن عمر أيضاً موقوفاً عليه ، وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة مرفوعاً

وأما قوله النور ضد الظلمة ، وجل الحق أن يكون له ضد فيقال له : والحي ضد الميت ، والعليم ضد الجاهل ، والسميع والبصير ، والذي يتكلم ضد الأصم الأعمى الأبكم .

وهكذا سائر ما سمي الله به من الأسماء لها أضداد ، وهو منزه عن أن يسمى بأضدادها فجل الله يكون ميتاً أو عاجزاً ، أو فقيراً ، ونحو ذلك .

وأما وجود مخلوق له موصوف بضد صفته مثل وجود الميت ، والجاهل والفقير ، والظالم فهذا كثير بل غالب أسمائه لها أضداد موجودة في الموجودين ولا يقال لأولئك أنهم أضداد الله ، ولكن يقال إنهم موصوفون بضد صفات الله ، فإن التضاد بين إنما يكون في المحل الواحد لا في محلين . فمن كان موصوفاً بالموت ضادته الحياة ، ومن كان موصوفاً بالحياة ضاده الموت ، والله سبحانه يمتنع أن يكون ظلمة أو موصوفاً بالظلمة كما يمتنع أن يكون ميتاً أو موصوفاً بالموت ، فهذا المعترض أخذ لفظ الضد بالاشتراك ، ولم يميز بين الضد الذي يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله . وبين أن يكون في مخلوقاته ما هو موصوف بضد صفاته ، وبين ما يضاده في أمره ونهيه ، فالضد الأول هو الممتنع وأما الآخران فوجودهما كثير ، لكن لا يقال إنه ضد الله ، فإن المتصف بضد صفاته لم يضاده ، والذين قالوا النور ضد الظلمة ، قالوا يمتنع اجتماعهما في عين واحدة ، ولم يقولوا إنه يمتنع أن يكون شيء موصوف بأنه نور وشيء آخر موصوف بأنه ظلمة فليتدبر العاقل هذا التعطيل والتخليط .

وأما قوله : لو كان نوراً لم يجز اضافته الى نفسه في قوله ﴿ **مثل نوره** ﴾ فالكلام عليه من طريقين .

أحدهما أن نقول النص في كتاب الله وسنة رسوله قد سمى الله نور السموات والأرض ، وقد أخبر النص أن الله نور ، وأخبر أيضاً أنه يحتجب بالنور فهذه ثلاثة أنوار في النص ، وقد تقدم ذكر الأول .

وأما الثاني : قوله ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (١) وفي قوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ (٢) وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ : «إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » (٣) . ومنه قوله ـ ﷺ ـ في دعاء الطائف : «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك » (٤) رواه الطبراني وغيره .

ومنه قول ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه . ومنه قوله ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي موسى عن النبي ـ ﷺ قال :

« قام فينا رسول الله ـ ﷺ بأربع كلمات فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » (٥) .

فهذا الحديث ذكر فيه حجابه فإن تردد الراوي في لفظ النار والنور لا

---

(١) سورة الزمر آية رقم ٦٩ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) الحديث رواه الامام أحمد في المسند ٢ : ١٧٦ ثنا معاوية بن عمرو ثنا ابراهيم بن محمد أبو اسحاق الفزاري ثنا الأوزاعي ، حدثني ربيعة بن يزيد عن عبد الله بن الديلي قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : إن الله عز وجل : وذكره . ورواه الترمذي في كتاب الايمان ١٨ .

(٤) راجع تفسير ابن كثير ٣ : ٣٩٠ وسيرة ابن هشام ، والجامع الصغير للامام السيوطي .

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في المقدمة ١٣ باب فيما أنكرت الجهمية ١٩٥ عن عمرو بن مرة ، عن أبي عبيدة ، عن أبي موسى . قال : قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ وفيه (بخمس كلمات) بدلاً من أربع وذكره ، ورواه الامام مسلم في إيمان ٢٩٣ ، ٢٩٤ وأحمد بن حنبل في امسند ٤ : ٤٠١ ، ٤٠٥ (حلبي) .

يمنع ذلك فإن مثل هذه النار الصافية التي كلم بها موسى يقال لها نار ونور كما سمى الله نار المصباح نوراً بخلاف النار المظلمة كنار جهنم فتلك لا تسمى نوراً .

فالأقسام ثلاثة : اشراق بلا احراق ، وهو النور المحصن كالقمر ، وإحراق بلا اشراق وهي النار المظلمة ، وما هو نار ونور كالشمس ، ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأمرين ، وإذا كان كذلك صح أن يكون نور السموات والأرض وأن يضاف إليه النور ، وليس المضاف هو عين المضاف إليه .

والطريق الثاني أن يقال هذا يرد عليكم لا يختص بمن يسميه بما سمى به نفسه وبينه فأنت إذا قلت هاد أو منور أو غير ذلك فالمسمى نوراً هو الرب نفسه ليس هو النور المضاف إليه ، فإذا قلت هو الهادي فنوره الهدى ، جعلت أحد النورين عيناً قائمة ، والآخر صفة ، فهكذا يقول من يسميه نوراً ، وإذا كان السؤال يرد على القولين والقائلين كان تخصيص أحدهما بأنه مضاف ظلماً ولدداً في المحاجة أو جهلاً وضلالاً عن الحق .

وأما ما ذكره من الأقوال فلا ريب أن الناس فيها من الأقوال أكثر مما ذكره ، والموجود بأيدي الأمة من الروايات الصادقة والكاذبة ، والآراء المصيبة والمخطئة لا يحصيه الا الله والكلام في تفسير أسماء الله وصفاته وكلامه فيه من الغث والسمين ما لا يحصيه إلا رب العالمين ، وإنما الشأن في الحق والعلم والدين .

وقد كتبت قديماً في بعض كتبي لبعض الأكابر أن العلم ما قام عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ فالشأن في أن نقول علماً وهو النقل والصدق والبحث المحقق فإن ما سوى ذلك وأن زخرف مثله بعض الناس خزف فروق وإلا فباطل مطلق مثلما ذكره في هذه الآية وغيرها .

وهذه الكتب التي يسميها كثير من الناس كتب التفسير فيها كثير من

التفسير منقولات عن السلف مكذوبة عليهم ، وقول على الله ورسوله بالرأي المجرد بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة أدبية .

فالمفسرون الذين ينقل عنهم لم يسمهم ، ومع هذا فقد ضعف قولهم بالباطل فإن القوم فسروا النور في الآية بأنه الهادي ، ولم يفسروا النور في الأسماء الحسنى ، والحديث عن النبي - ﷺ - فلا يصح تضعيف قولهم بما ضعفه ، ونحن ما ذكرنا ذلك لبيان تناقضه ، وأنه لا يحتج علينا بشيء يروج على ذي لب ، فإن التناقض أول مقامات الفساد ، وهذا التفسير قد قاله طائفة من المفسرين .

وأما كونه ثابتاً عن ابن عباس أو غيره ، فهذا مما لم يثبته ، ومعلوم أن في كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب شيء كثير من رواية الكلبي عن أبي صالح وغيره ، فلا بد من تصحيح النقل لتقوم الحجة فليراجع كتب التفسير التي يحرر فيها النقل مثل تفسير محمد بن جرير الطبري [1] الذي ينقل فيه كلام السلف بالاسناد ، وليعرض عن تفسير مقاتل بقي بن مخلد الأندلسي وعبد الرحمن بن ابراهيم دحيم الشامي ، وعبد بن حميد الكشي ، وغيرهم إن لم يصعد الى تفسير الامام اسحاق بن راهويه ، وتفسير الامام أحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة الذين هم أعلم أهل الأرض بالتفاسير الصحيحة عن النبي - ﷺ - وآثار الصحابة والتابعين كما هم أعلم الناس بحديث النبي ﷺ ، وآثار الصحابة والتابعين في الأصول والفروع ، وغير ذلك من العلوم ، فأما أن يثبت أصلاً يجعله قاعدة بمجرد رأي فهذا إنما ينفق على الجهال بالدلائل الأغشام في المسائل ، ومثل هذه المنقولات التي لا يميز صدقها من كذبها ، والمعقولات التي لا يميز صدقها من خطئها ضل من ضل من أهل المشرق في الأصول والفروع والفقه والتصوف .

وما أحسن ما جاء هذا في آية النور التي قال الله تعالى فيها :

---

(١) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ ﴾ (١)

نسأل الله تعالى يجعل لنا نوراً .

ثم نقول : هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله : ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) أي هادي أهل السموات والأرض لا يضرنا ولا يخالف ما قلناه ، فإنهم قالوه في تفسير الآية التي ذكر النور فيها مضافاً لم يذكروه في تفسير نور مطلق كما أدعيت أنت من ورود الحديث به ، فأين هذا من هذا . . ؟

ثم قول من قال من السلف « هادي أهل السموات والأرض » لا يمنع أن يكون في نفسه نوراً ، فإن من عادة السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر من الأسماء أو بعض أنواعه ، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات المسمى بل قد يكونان متلازمين ، ولا دخول لبقية الأنواع فيه ، وهذا قد قررناه غير مرة في القواعد المتقدمة ، ومن تدبره علم أن أكثر أقوال السلف في التفسير متفقة غير مختلفة .

مثال ذلك قول بعضهم في الصراط المستقيم إنه الاسلام ، وقول آخر إنه القرآن وقول آخر إنه السنة والجماعة ، وقول آخر إنه طريق العبودية ، فهذه كلها صفات له متلازمة لا مباينة وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن والرسول بأسمائه بل بمنزلة أسماء الله الحسنى .

ومثال الثاني قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ ﴾ (٣) فذكر منهم صنفاً من الأصناف والعبد يعم الجميع ، فالظالم لنفسه المخل ببعض الواجب ، والمقتصد القائم به ، والسابق

---

(١) سورة النور آية رقم ٤٠ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) سورة فاطر آية رقم ٣٢ .

المتقرب بالنوافل بعض الفرائض وكل من الناس يدخل في هذا بحسب طريقه ، والتفسير والترجمة ببيان النوع والجنس ليقرب الفهم على المخاطب كما قال الأعجمي : ما الخبز . . . ؟

فقيل له : هذا . وأشير الى الرغيف ، فالغرض من الجنس لا هذا الشخص فهكذا تفسير كثير من السلف ، وهو من جنس التعليم ، فقول من قال : نور السموات والأرض هادي أهل السموات والأرض كلام صحيح ، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هادياً لهم ، أما أنهم نفوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم ، وأما أنهم أرادوا ذلك فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال : «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه » وقد تقدم عن النبي - ﷺ - من ذكر وجهه ، وفي رواية النور ما فيه كفاية ، فهذا بيان معنى غير الهداية ، وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها ، فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو نوراً . . ؟

ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه اضافة خلق وملك واصطفاء كقوله ﴿ نَاقَةُ الله ﴾ [1] ونحو ذلك الوجوه .

أحدها : أن النور لم يضف قط إلى الله إذا كان صفة لأعيان قائمة فلا يقال في المصابيح إنها نور الله ، ولا في الشمس والقمر وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه » . وفي الدعاء المأثور عن النبي - ﷺ : أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة » [2] .

الثاني أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لها الأرض في الدنيا ، وليس من نور إلا هو خلق من خلق الله . وكذلك من قال : منور

---

(١) سورة الأعراف آية رقم ٧٣ وسورة هود آية رقم ٦٤ .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث .

السموات والأرض لا ينافي أنه نور ، وكلّ منور نـور ، فهما متـلازمان ، ثم إن الله تعـالى ضـرب مثـل نـوره الـذي في قلوب المؤمنين بـالنـور الـذي في المصباح ، وهو في نفسه نور وهو منور لغيـره ، فإذا كـان نوره في القلوب هـو نور وهو منور ، فهو في نفسـه أحق بذلـك ، وقد علم أن كـل ما هـو نور فهـو منور .

وأما قول من قال : معناه منور السموات بالكواكب فهذا إن أراد به قـائله أن ذلك من معنىً كونـه نور السمـوات والأرض وليس له معنى إلا هـذا ، فهو مبطل لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض ، والكواكب لا يحصل نورها في جميـع السموات والأرض ، وأيضـاً فـإنـه قـال : ﴿ مَثَـلُ نُـورِهِ كَمِشْكَـاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ ﴾ (١) . فضـرب المثـل لنـوره المـوجـود في قلوب المؤمنين . نــور الإيمـان ، والعلم المراد من الآيـة لم يضربهـا على النور الحسي الـذي يكون للكواكب ، وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى ، وأبي العالية والحسن بعـد المطالبـة بصحة النقـل ، والظن ضعفـه عن ابن عباس ، لأنهم جعلوا ذلك من معاني النـور أما أن يقـولوا قـوله : ﴿الله نُورُ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (٢) .

ليس معناه إلا التنوير بالشمس والقمر ، والنجوم فهذا باطل قطعاً .

وقد قال ﷺ ـ « أنت نور السموات والأرض ومن فيهن »(٣) .

---

(١) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٢) سورة النور آية رقم ٣٥ .

(٣) هذا جزء من حديث طويل رواه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة ٨٠ باب ما جاء في دعاء الرجل إذا قام من الليل .

١٣٥٥ ثنا سفيان بن عيينة ، عن سليمان الأحول ، عن طاوس عن ابن عباس ـ قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ وذكره ورواه البخاري في التهجد ١ ، والدعوات ٩ ، والتوحيد ٨ ، ٢٤ ، ٣٥ ورواه الامام مسلم في المسافرين ١٩٩ وأبو داود بالوتر ٢٥ ، والصلاة ١١٩ ، والترمذي في الـدعوات ٢٩ ، والنسائي عند قيام الليل٩ والدارمي في الصلاة ١٦٩ وصاحب الموطأ في القرآن ٣٤ وأحمد بن حنبل في المسند ١ : ٢٩٨ ، ٣٠٨ ، ٣٨٥ ، ٤ : ٣٦٩ (حلبي) .

ومعلوم أن العميان لاحظ لهم في ذلك ، ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لاحظ له في ذلك ، والموتى لا نصيب لهم من ذلك ، وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك ، فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر ، كيف وقد روي أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر .

وأما قوله قد قيل بالأدلة والحجج فهذا بعض معنى الهادي ، وقد تقدم الكلام على قوله . هذا يبطل قوله إن التأويل دفع للظاهر ، ولم ينقل عن السلف فإن هذا الكلام مكذوب على [قائله] وقد ثبت تناقض صاحبه . وأنه لم يذكر عن السلف إلا ما اعترف بضعفه .

وأما الذي أقوله الآن وأكتبه ، وإن كنت لم أكتبه فيما تقدم من أجوبتي ، وإنما أقوله في كثير من المجالس . أن جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها .

وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة ، وما رووه من الحديث ، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير فلم أجد الى ساعتي ، هذه عن أحد من الصحابة أنه أول شيئاً من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف ، بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته وبيان أن ذلك من صفات الله تعالى ما يخالف كلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله ، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيء كثير . وتمام هذا : أني لم أجدهم تنازعوا إلا في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾ (١) .

فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة .

---

(١) سورة القلم آية رقم ٤٢ .

وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين . ولا ريب أن ظاهر القرآن يدل على أن هذه من الصفات ، فإنه قال : ﴿ يوم يكشف عن ساق ﴾ ذكره في الاثبات لم يضفها الى الله ، ولم يقل عن ساقه ، فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر ، ومثل هذا ليس بتأويل ، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف ، ولكن كثيراً من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له ثم يريدون صرفه عنه ويجعلون هذا تأويلاً ، وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة .

وأما قوله لو كان نوراً حقيقة كما تقوله المشبهة لوجب أن يكون الضياء ليلاً ونهاراً على الدوام ، فنحن نقول بموجب ما ذكره من هذا القول ، فإن المشبهة يقولون: «أنه نور كالشمس، والله تعالى ليس كمثله شيء» . فإنه ليس كشيء من الأنوار كما أن ذاته ليست كشيء من الذوات لكن ما ذكره له حجة عليهم ، فإنه يمكن أن يكون نوراً يحجبه عن خلقه كما قال في الحديث : «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » [١] لكن هذا غلط في النقل ، وهو إضافة هذا القول الى المشبهة ، فإن هذا من أقوال الجهمية المعطلة أيضاً كالمريس [٢] ، فإنه كان يقول : إنه نور وهو كبير الجهمية وإن كان قصده بالمشبهة من أثبت أن الله نور حقيقة .

فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة ، وهذه لغة الجهمية المحضة يسمون كل من أثبت الصفات مشبهاً . فقد قدمنا أن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ذكرا أن نفي كونه نوراً في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة ، وأنهما اثبتا أنه نور وقررا ذلك هما وأكابر أصحابهما .

فكيف بأهل الحديث ، وأئمة السنة . .؟ وأول هؤلاء المؤمنون بالله

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) سبق الترجمة له في كلمة وافية .

وبأسمائه وصفاته ورسول الله ـ ﷺ ـ وقد أجاب النبي ـ ﷺ على هذا السؤال الذي عارض به المعترض فقال ـ ﷺ ـ «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » فأخبر أنه حجب عن المخلوقات بحجابه النور أن تدركها سبحات وجهه وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه فهذا الحجاب عن احراق السبحات يبين ما يراد في هذا المقام .

وأما ما ذكره ابن عباس في روايته الأخرى فمعناه بعض الأنوار الحسية وما ذكره من كلام العارفين فهو بعض معاني هدايته لعباده ، وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسرها بذكر بعض الأنواع يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين لا على سبيل الحصر والتحديد فقد تبين أن جميع ما ذكر من الأقوال يرجع الى معنيين من معاني كونه نور السموات والأرض ، وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور . [والله أعلم] .

فهرست الجزء الخامس
من
كتاب التفسير الكبير

الموضوع	الصفحة
سورة هود	٥
فصل	٢٤
فصل	٣٨
فصل	٤٥
فصل	٤٨
سورة يوسف	٥٣
فصل	٧٢
فصل	٧٧
فصل	٨٠
فصل	٨٣
فصل	١١٧
فصل	١٣٦
سورة الرعد	١٤٧
سورة الحجر	١٤٩
سورة النحل	١٦٧
سورة الإسراء	١٧٧
سورة الكهف	١٨١

الموضوع ــــــــــــــــــــــــــــــــــــ الصفحة

سورة مريم ١٨٣

سورة طه ١٩١

فصل في طريق العلم والعمل ١٩٣

فصل ٢٠٢

فصل ٢١٤

سورة الأنبياء ٢١٧

سورة الحج ٢١٩

سورة المؤمنون ٢٢٩

سورة النور ٢٣٣

فصل في معان مستنبطة من سورة النور ٢٣٤

فصل في عدم الرأفة في إقامة الحدود ٢٤٢

فصل في إيذاء الذين يأتون الفاحشة ٢٦٢

فصل في التعذيب ٢٦٨

فصل في تهييج الشهوات ٢٧٥

فصل في تحريم الزواج من الزاني والزانية ٢٧٨

فصل في التوبة شرط للزواج ٢٨٢

فصل نفي الخبائث عن نساء الأنبياء ٢٨٧

فصل التفريق بين المتلاعنين ٢٨٩

فصل الإختبار والإمتحان للمصاحبة ٢٩٥

فصل في التثبت قبل القذف ورمي المحصنات ٢٩٧

فصل في معرفة المنكر وإنكاره ومعرفة المعروف وإتيانه ٣٠١

فصل المعين على الإثم داخل فيه والمعين على الخير داخل فيه ٣١٠

فصل خصائص الشهود لإقامة الحد ٣٢٠

فصل حكم شهادة القاذف التائب وغيره ٣٢٤

الموضوع ــ الصفحة

فصل في عدالة الشهود ٣٢٧
فصل في لعن قذفة أمهات المؤمنين ٣٢٩
فصل في الإستئذان والدخول ٣٤٠
فصل في غض البصر وحفظ الفرج ٣٤٣
فصل في غض البصر وترك الشبهات ٣٤٦
فصل في غض البصر عن بيوت الآخرين ٣٥٤
فصل في أن النظر إلى العورات حرام ٣٥٧
فصل في أنواع النجاسة ٣٦٦
فصل في حقيقة الإيمان ٣٦٩
فصل في فضائل غض البصر قربة لله تعالى ٣٧٧
فصل في دعوة المؤمنين إلى التوبة ٣٨٥
فصل خصائص الداعية إلى الله ٣٨٩
فصل في « الذين يرمون المحصنات الغافلات » وأقوال العلماء فيها ٣٩٤
فصل في تحريم النظر إلى العورات ٤٠٨
فصل إعتراض وجوابه ٤٢١
الفهرست ٤٤١